وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة . بوزريعة .

قسم التاريخ

آثار سقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط

10 . 6 هـ / 12 . 16 م

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط

إعداد الطالبة :

مريم بوخاوش

إشراف :

أ . د . مبارك بوطارن

السنة الجامعية : **2014 . 2015**

شكر وتقدير

- بادئ ذي بدء أشكر الله العلي القدير، القوي المتين على توفيقه لي في إنجاز هذا البحث وأحمده حمدا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه مصداقا لقوله عز وجل : " واشكروا لي ولا تكفرون " [الآية 152 من سورة البقرة]

والشكر موصول لأستاذي الفاضل الدكتور امبارك بوطارن الذي منحني من جهده ووقته الكثير ، في الإشراف والتوجيه وقراءة الموضوع .

- كما أتقدم بالشكر والعرفان إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد وكانوا مرشدين وموجهين لي دائما .

إهداء

إلى والدي الكريمين حفظهما اللّٰه...

إلى كل باحث مخلص في التاريخ..

أهدي ثمرة جهدي ..

المقدمة

المقدمة :

عرف الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس مسيرة طويلة دامت ثمانية قرون بين النشأة والتطور والذبول في ظل حكم إسلامي ، حمى الجهة الشمالية لبلاد المغرب الإسلامي من التوغل الصليبي في المنطقة ، وعودة الاحتلال البيزنطي لها ، رغم أن حياة المسلمين فيها . السياسية خاصة . لم تكن تسير بخطى ثابتة ، بل صاحبها توتر دائم ، وتعثر سياسي كبير مرتبط بعوامل سياسية داخلية وخارجية ظلت تطارد وحدة البلاد ، وتعكر صفو استقرار أهلها، نتيجة لسلبية نظام حكامها الذين نقلوا إلى تلك البلاد خلافاتهم وأحقادهم ، وقتال بعضهم بعضا بسبب عصبياتهم من جهة ، وحبهم في التملك من جهة أخرى .

وعليه فقد مرت بلاد الأندلس بفترات حكم مختلفة بداية من حكم الولاة إلى إمارة قرطبة بمجيء عبد الرحمن الداخل بعد سقوط الأمويين سنة 132 هـ ، ثم خلافة قرطبة ، يليها عصر ملوك الطوائف ، ثم حكم المرابطين ثم الموحدين ثم الإمارات المتناثرة التي كانت أمارة للسقوط النهائي الذي أدى إلى انهيار أهم بلدان العالم الإسلامي .

لذلك كله استطاع الصليبيون نشر جهودهم في المنطقة ، والعمل على طرد المسلمين منها ، والقضاء على جهود الموحدين في استردادها ، ونظرا لضعف هذه الدولة ، ووصولها إلى مرحلة الانهيار فإن الوجود الإسلامي بدأ يتهدده الخطر في المنطقة ، وأضحى مقضيا عليه من كل الجوانب .

لقد كانت بلاد الأندلس عزا للإسلام والمسلمين ، وفخرا لرجال حققوا توسعا لا نظير له لرفعة الإسلام ، وهي كذلك حاجز وسد واق لبلاد المغرب الإسلامي من الصليبيين ، ومورد حضاري وثقافي ساهم في إثراء الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب ، وجسر للعلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين البلدين ، فلم تكن أحداث الأندلس بمنأى عن بلاد المغرب الإسلامي في مختلف المجالات ، بل في كثير من الأحيان ساهم حكام بلاد المغرب في محاولات كثيرة لرد بطش الصليبيين الذي يتهدد المسلمين في الأندلس ، لكن هذه الحياة لم تدم رغم اضطرابها طويلا ، ومحاولات الاسترداد وإن نجحت مرة فشلت مرات أخرى ، مما أدى في النهاية لسقوط ذلك الثغر الذي كان له أثر كبير على حياة المسلمين في الأندلس خاصة ، وفي بلاد المغرب الإسلامي عامة .

ويسجل التاريخ أن نهاية الأندلس كانت من المآسي التاريخية التي قل أن تجد لها نظيرا في التاريخ الإسلامي ، وأن الوضع الصعب الذي عاشته بلاد الأندلس من أصعب فترات التاريخ ، والتي مست آثارها بلاد المغرب الأوسط لاعتباره أهم ملجأ قريب لحماية اللاجئين الأندلسيين حسب العديد من المؤرخين والجغرافيين ، وذلك في مختلف المجالات السياسية ، والاجتماعية والثقافية .

لقد بدأ سقوط الأندلس في عهد ملوك الطوائف ، ولكن نجدة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم حالت دون سقوطها النهائي حيث زيد في عمر الوجود الإسلامي فيها قرونا أخرى ، ثم سقطت غرناطة . آخر قلاع المسلمين في الأندلس . سنة 897 هـ / 1492 م ، وكان

ذلك نذيرا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الديني والاجتماعي ، وتبدد تراثها الفكري والأدبي ، وكانت مأساة المسلمين هناك من أفظع مآسي التاريخ .

ولم تكن الدموع التي ذرفها الأمير أبو عبد الله محمد وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة لملكي إسبانيا النصرانية فرناندو وإيزابيلا هي الدموع الأخيرة في بلاد الأندلس ، إذ أعقبها الكثير والكثير من الدموع والدماء ، فرغم العهود والأيمان المغلظة التي قطعها فرناندو على نفسه ووقع عليها في وثيقة استلام غرناطة الشهيرة ، إلا أن الله عز وجل الذي هو أصدق قيلا قال في محكم التنزيل " لَا يَرقُبونَ فِي مُؤمِن إلا ولَا ذمة وأولئك هم المعتدون " (الآية 10 ، سورة التوبة) ، وقال : " وإن يَثقَفُوكُم يَكُونُوا لَكُم أَعدَاء ويَبسُطُوا إليكَم أيديَهم وألسنَتَهُم بالسوء وودوا لو تكفرون " (الآية 2 ، سورة الممتحنة) ، فأبت على فرناندو صليبيته أن يفي للمسلمين بشيء من العهود والمواثيق ، وكانت هذه الوثيقة ستارا للغدر والخيانة .

ونشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذي يدعمه العرش والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد الموريسكيين ، وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم ، فقد أحرق الكاردينال خمينس عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية ، وصدر أمر ملكي يوم 22 ربيع الأول 917 هـ 20 يونيو 1511 م يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثا أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم ، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية ، وانتهت بفرض التنصير الإجباري

على المسلمين ، فحمل التعلق بالأرض وخوف الفقر كثيرا من المسلمين على قبول التنصر ملاذا للنجاة ، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهدا للكفر، وفر كثيرون بدينهم ، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس.

هاجر كثير من مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب بما فيها المغرب الأوسط بعد سقوط مملكتهم ، فرارا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الإسبان لهم ، أما من بقي من المسلمين فقد أجبر على التنصر أو الرحيل ، وأفضت هذه الروح النصرانية المتعصبة إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل انتهى بتنفيذ حكم الإعدام ضد أمة ودين على أرض أسبانيا .

من هنا انطلقت في البحث عن جانب مهم من جوانب تاريخ المسلمين في الأندلس ، مركزة على بلاد المغرب الإسلامي وخاصة **المغرب الأوسط** ، وشغل اهتمامي كثيرا البحث عن مخلفات سقوط الأندلس وما أثرت به في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، وإبراز دور المغاربة في حفظ التراث الحضاري الأندلسي ، وحماية اللاجئين الأندلسيين ، لاسيما ونحن نسمع اليوم ملتقيات عديدة تبحث في حياة الموريسكيين ، وكذلك المسلمين الذين يعيشون اليوم في إسبانيا ، أو المسلمين الذين أجبروا على التنصر في فترة وجود محاكم التفتيش .

من جهة أخرى فإن هجرة المسلمين إلى بلاد المغرب كانت لها انعكاسات وآثار كثيرة إيجابية وسلبية ، أفادت وأضرت بدول المغرب العربي والجزائر على وجه الخصوص ، لكن فوائدها كانت أكبر ، لأن الجالية الأندلسية ساهمت مساهمة فعالة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية .

لقد استفاد المغاربة أيما استفادة من الخبرة العمرانية ، والتفوق الفكري والحضاري الذي كان يتميز به الأندلسيون ، فانتقل بذلك صرح الحضارة الأندلسية إلى بلاد المغرب الأوسط برحيل أهلها سواء قبل السقوط النهائي أو بعده ، مما ترتب عليه انصهار ثقافي وفكري ، تحول إلى امتزاج حضاري ، كما تعاون الأندلسيون مع إخوانهم المغاربة في السراء والضراء خاصة بعد الاحتلال الصليبي الإسباني للمدن الساحلية التي استقر فيها هؤلاء المهاجرين الأندلسيين .

وقد كانت هناك عدة أسباب دفعتني لاختيار هذا الموضوع ، أهمها قلة الدراسات حول التاريخ الأندلسي ، وربطه كجزء أساسي لا ينفصل عن التاريخ المغربي ، فكل ما يحدث في الأندلس هو انعكاس سلبي أو إيجابي على بلاد المغرب الإسلامي ، وبهذا فهذه الدراسة تحاول طرح هذا الموضوع ، وإدخاله في ساحة الاهتمام العلمي بالدرجة الأولى ، والتاريخي بالدرجة الثانية .

كما أن أهمية هذه الفترة بالذات ، وتأثيراتها المختلفة على حياة المغاربة ، تعد من الأسباب الدافعة لذلك ، فالأندلسيون المهاجرون رغم أنهم كانوا في البداية ثقلا كبيرا على الدول المغربية في نجدتهم واستقدامهم ، وفي ترتيب شؤون حياتهم وإيوائهم وإطعامهم ... إلا أننا نجدهم في المقابل بعد استقرارهم أصبحوا أداة فعالة في ترقية الحضارة المغربية لذلك فهذا الموضوع جدير بالاهتمام من أجل توضيح تلك المرحلة التاريخية ، وتأثيراتها على مجالات مختلفة في حياة المغرب .

وبهذا فإن هناك من الأسباب الحضارية ما يدفع بالتعريف بذلك الترابط الحضاري بين الحضارة المغربية من جهة ، والحضارة الأندلسية التي عرفت بتطورها ورفاهية حياة أهلها من جهة ثانية ، ومدى تحقيق ذلك التأثير والتأثر في تكوين حضارة مغربية ذات طابع أندلسي انعكس على المستوى التعليمي ، والثقافي والاجتماعي .

وبناء على هذا العرض المختصر شغل فكري جملة من التساؤلات كانت بمثابة الإشكالية التي بنيت عليها بحثي هذا أوجزها فيما يلي :

أكان هناك آثار سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية لسقوط بلاد الأندلس على المغرب الأوسط ؟

وتتفرع حول هذه الإشكالية أسئلة فرعية أهمها :

- ما هي أوضاع المغرب والأندلس قبيل السقوط النهائي لبلاد الأندلس ؟

- ما هي أسباب ذلك السقوط ؟ وما هي المراحل التي تم فيها سقوط بلاد الأندلس ؟
- ما هي الآثار السياسية والعسكرية التي خلفها سقوط بلاد الأندلس على المغرب الأوسط ؟
- كيف كان دور سكان المغرب الأوسط في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس ، ومساعدتهم ، وحفظهم للحضارة والثقافة الإسلامية الأندلسية ؟
- ما هي التغييرات الاجتماعية المترتبة عن ذلك السقوط ، وما أهم الطوائف الاجتماعية الأندلسية المهاجرة التي أثرت في الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط؟
- ما هي آثار هذا السقوط على الحياة الاقتصادية في المغرب الأوسط ؟
- كيف كان التأثير الثقافي ، وما هي أهم الميادين الفكرية التي ساهم في إثرائها العلماء والمفكرون الأندلسيون في المنطقة ؟

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح فترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي ، وتوضيح أهمية العلاقات الرابطة بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي ، واستثمارها في أصعب الظروف التي واجهت أهم قطر من أقطار العالم الإسلامي ، فبلاد المغرب . خاصة الجزائر . لم تبخل ماديا ومعنويا بمساعدة اللاجئين الأندلسيين ، وهي كذلك أهم أداة في حفظ الموروث الحضاري الأندلسي .

كما ستبين هذه الدراسة ذلك التلاحم بين المسلمين والأخوة العربية التي آتت أكلها في مواجهة ذلك الظرف العصيب ، كما توضح الأثر السياسي الذي خلفه سقوط الأندلس على بلاد المغرب الإسلامي سواء على مستوى الإدارة والحكم ، أو على مستوى الوظائف السياسية ، أو على المستوى العسكري في مساعدة الأندلسيين لإخوانهم الجزائريين في رد الخطر الصليبي والاجتياح النصراني خلال عدة قرون .

ومن أهداف الدراسة أيضا تبيين دور الجزائريين في الحفاظ على المهاجرين الأندلسيين حيث تعد الدراسات التاريخية التي تناولت الهجرة الأندلسية وعلاقتها بالجزائر قليلة ، وربما يعود ذلك إلى تحجيم دور الجزائر في التقليل من هذه الكارثة الإنسانية التي ارتكبتها الصليبية الاسبانية في حق المسلمين العزل ، لا لشيء إلا لأنهم رفضوا التنصير الجماعي لهم ، فحملت الجزائر على عاتقها مهمة إنقاذ مسلمي الأندلس الفارين من محاكم التفتيش التي نصبتها لهم إسبانيا الشيء الذي أجج روح الانتقام الاسباني بصفة خاصة والأوروبي بصفة عامة على الجزائر التي أقلقت الجميع ، لاسيما بعد الحماية العثمانية ، وظهور الأسطول الجزائري في حوض المتوسط ، وبروز الجزائر كقوة اقتصادية في المنطقة .

ومن أهداف الدراسة أيضا إبراز التغير الاجتماعي الذي طرأ على بلاد المغرب الأوسط ، نظرا لهجرة عناصر اجتماعية مختلفة الطباع والأعراق ، والعادات والتقاليد ، خاصة نتيجة البذخ الذي عاش فيه أهل الأندلس ، وأكثر من ذلك فقد هاجر مع المسلمين الأندلسيين بمختلف عصبياتهم اليهود أيضا ، فقد طردوا هم أيضا من الأندلس ، ونظرا لسماحة الإسلام

والمسلمين فقد لجؤوا هم أيضا إلى بلاد المغرب الأوسط ، وكانت لهم آثار سلبية في كثير من الأحيان .

أما على المستوى الثقافي ، فلا شك أن الثقافة الأندلسية قد انتقلت إلى بلاد المغرب الأوسط بانتقال أهلها إليها ، فهجرة العقول والأفكار والثقافات قد برزت في هذا المجال ، إذ وفد على المنطقة أكابر العلماء في الفقه والحديث والأصول وعلم القراءات ، والأدباء من الشعراء والخطباء والنحويين ، كما كان للترف أثر في سقوط الأندلس فقد لجأ العديد من الأندلسيين إلى حياة الزهد والورع نظرا للآثار السلبية التي ترتبت عنه ، وعليه انتقل التصوف الأندلسي برحيل العديد من المتصوفة الأندلسيين الذين كان لهم دور فكري وسياسي برفعهم لراية الجهاد والدعوة إليه .

أما على المستوى المعماري فتبين الدراسة العلاقة بين الفن المغربي والأندلسي بداية من عصر المرابطين ثم الموحدين ثم العصر الغرناطي ، ومن ثم تحاول هذه الدراسة تفصيل تلك الآثار جميعها ، وإبراز كل ما يمت بصلة للآثار الأندلسية على بلاد المغرب الإسلامي.

وعليه فإن لهذا الموضوع أهمية تاريخية ، فهو يطلعنا على أهم فترة من فترات التاريخ الأندلسي والجزائري على حد سواء ، والتغييرات السياسية التي طرأت على تلك البلاد ، كما لهذا الموضوع أهمية حضارية في إبراز الموروث الحضاري الأندلسي ودوره في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية على بلاد المغرب الأوسط .

ومن جهة أخرى فقد تعرضت بلاد المغرب لهجمات كثيرة أعقبت عملية طرد المسلمين من بلاد الأندلس ، مما عرض بلاد المغرب الأوسط فيما بعد إلى الاحتلال الاسباني وغيره ، وتحملها المغاربة بدافع الوازع الديني خاصة .

ولهذا الموضوع أهمية علمية وتعليمية في توضيح الأثر العلمي والتعليمي لمخلفات سقوط حضارة بلاد الأندلس .

كما أن لهذا الموضوع أهمية حضارية على مختلف الأصعدة ، فهي بذلك تبرز حضارة مغربية وأندلسية مترابطة ، مما كون تغييرا في الواقع المغاربي السياسي والاجتماعي والثقافي، أما في مجال الأدب فقد برز رثاء المدن الذي اعتبره العديد من الدارسين كوثيقة تاريخية هامة ، وفيما يخص النثر الأدبي فقد تطور فن الرسائل عن طريق رسائل الاستغاثة التي بعث بها أعيان الأندلس لملوك المغرب الأوسط .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التاريخي باعتباره أهم منهج تعتمد عليه الدراسات التاريخية في وصف الأحداث ، ولما كان موضوع سقوط الأندلس يحتاج إلى وصف معمق لتلك الآثار ، وما أعقبها من تغييرات سياسية واجتماعية وثقافية ، فإنه كان لزاما علينا وضع هذا المنهج في دراسة كل تلك التطورات التي حصلت في بلاد المغرب الإسلامي .

كذلك استعنت في هذه الدراسة بالمنهج التحليلي والوصفي في تحليل ووصف كل الوقائع الخاصة بهذا الموضوع ، وتعليلها والتعمق في دراستها للوصول إلى أهم النتائج والعبر المستخلصة من هذه الواقعة الأليمة ، وكذا دراسة كل الجهود المغاربية وتحليلها في الوصول إلى أهمية بلاد المغرب الإسلامي ، موقعا وسياسة في حفظ التراث الأندلسي من الضياع .

بالإضافة إلى الاستعانة بالمنهج الإحصائي في تعداد جموع العلماء والأدباء والمفكرين والمعماريين وغيرهم من أصحاب الكفاءات العلمية والمهنية .

ولدراسة هذا الموضوع قمت بتقسيمه إلى بالإضافة إلى فصل تمهيدي وأربعة فصول ، مع مقدمة وخاتمة .

أما المقدمة فبها بدأت موضوعي ، وشملت التعريف بالموضوع ، وإشكاليته وتبيان أهميته والهدف من دراسته .

وذكرت في الفصل التمهيدي لمحة تاريخية عن بلادي المغرب الأوسط والأندلس ، فعرفت أولا بالأندلس من ناحية التسمية والموقع الجغرافي والعصور التاريخية المتعاقبة عليها باختصار شديد ، ثم انتقلت إلى التعريف ببلاد المغرب الأوسط من ناحية التسمية كذلك ، وبينت الاختلافات بين جملة المؤرخين والجغرافيين حول تحديد حدوده الجغرافية ، لأنتقل بعد ذلك لتبيان ماضي العلاقات بين البلدين ، ومدى التقارب السياسي والثقافي بينهما .

أما الفصل الأول فخصصته للحديث عن سقوط الأندلس بكل ما يتضمنه من أسباب ومظاهر ، ومواقف الدول الإسلامية من ذلك السقوط ، كما ذكرت فيه واقع المسلمين بعد سقوط غرناطة ، سواء ما تعلق منه بالصراع السياسي والعسكري بين الصليبيين والمسلمين ، واستشهدت على ذلك ببعض الثورات الحاسمة في الأندلس ، كما شرحت الأثر السلبي لاستسلام غرناطة ، وما صاحبه من تعذيب وتنصير ونفي .

وقد عنونت الفصل الثاني بآثار سقوط الأندلس على الحياة السياسية والعسكرية لبلاد المغرب الأوسط ، ووضحت فيه عمق الأثر السياسي لسقوط الأندلس من خلال تحرك الهجمة الصليبية المضادة من الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط ، باحتلال اسبانيا أهم المدن الساحلية ، واستحواذها على موانئها البحرية التي تعد شريان الحياة الاقتصادي في المنطقة ، كما ذكرت فيه أثر المهاجرين الأندلسيين على الحياة السياسية في الجزائر ، من خلال مشاركتهم السياسية وتقلدهم للعديد من الوظائف الحكومية ، وخاصة في عهد الدولة الزيانية التي قربت إلى بلاطها شخصيات أندلسية متعددة توارثت أرقى المناصب كالوزارة والحجابة ، بالإضافة إلى دورهم في الأحداث السياسية التي مر بها المغرب الأوسط ، ودخول العثمانيين إلى الجزائر ، فكان لهؤلاء الأندلسيين المهاجرين دور في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر .

أما مشاركة الأندلسيين للأعمال العسكرية فاستشهدت على ذلك من خلال مشاركة الأندلسيين لإخوانهم المغاربة في الدفاع عن سواحل الجزائر ضد الغزو الاسباني ، فكانت

لهم مواقف بطولية خالدة ، نظرا لمرارة تجربتهم الطويلة مع الإسبان في الأندلس ، وخبرتهم العسكرية في الجانب البري والبحري .

وقد تضمن الفصل الثالث من هذا البحث الأثر الاجتماعي والاقتصادي لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط ، وتضمن محورين أساسيين ، تضمن المحور الأول منها الجانب الاجتماعي ، وقمت فيه بإبراز أشهر الطوائف الاجتماعية الوافدة على المنطقة ، ومنهم العرب المسلمون واليهود ، وبينت فيه مراكز استقرارهم ، وأهم العادات الاجتماعية التي دخلت إلى المنطقة بقدومهم ، أما المحور الثاني فقد خصصته للجانب الاقتصادي ، وأوضحت فيه تأثير سقوط الأندلس على ضعف الحياة الاقتصادية ، فبعد أن كانت بلاد المغرب الأوسط سيدة البحر المتوسط ، أصبحت عاجزة اقتصاديا ، بفعل كثرة الضرائب المفروضة عليها ، وطول الحصار على موانئها ، وأثر اليهود على الحياة الاقتصادية باستغلالهم للتجارة الصحراوية ، التي تعتبر طريقا هاما في المغرب الأوسط ، كما تضمن هذا الفصل أثر الأندلسيين في ممارسة بعض النشاطات الاقتصادية .

أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان أثر سقوط الأندلس على الحياة الثقافية والعمرانية ، وقمت بتقسيمه إلى مبحثين ، خصصت المبحث الأول منه لدراسة التأثيرات الثقافية وخاصة ما تعلق منها بالتعليم وانتشار التصوف ، وكثرة الرحلات العلمية بهجرة العديد من العلماء الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ، أما المبحث الثاني فخصصته للحديث عن أثر الأندلسيين في الحياة الفنية والعمرانية ، فأما تأثيرهم في الفن المعماري يتجلى ذلك من خلال المنشآت

المعمارية التي شاركوا في بنائها ، وإدخالهم للعديد من الخصائص الأندلسية في مجال البناء والتعمير ، وأما تأثيرهم على الفن فبإدخالهم الفنون الأندلسية والمتعلقة أساسا بجانب الغناء الذي لمحنا أنه قد تطور تطورا ملحوظا في الأندلس ، وانتقل إلى المغرب الأوسط برحلة الفنانين الأندلسيين إلى المنطقة .

وكانت الخاتمة حوصلة لما توصل إليه البحث من نتائج .

وقد واجهتني في إعداد هذه الرسالة صعوبة البحث في المصادر لقلة المعلومات الخاصة بالجالية الأندلسية ، فكنت ألتقط نتفا من المعلومات أحاول من خلالها الاستشهاد على صحة الأقوال ، هذا بالإضافة إلى التاريخ المحدد بنهاية القرن العاشر الهجري ، السادس عشر ميلادي الذي اعتبرت فيه الهجرة الأندلسية قليلة مقارنة مع الهجرة الأخيرة التي أعقبت عملية الطرد النهائي خاصة بعد سنة 1609 م ، إذ كثرت المعلومات حول نشاط هؤلاء الأندلسيين بعد هذا الزمن .

وقد استعنت في هذا الموضوع ببعض المصادر والمراجع التي أفادتني بمعلومات حررت من خلالها فصول هذا البحث وأهم هذه المصادر :

كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني ، المولود في بني غبرين ببجاية سنة 644 هـ / 1246 م والمتوفى في سنة 704 هـ / 1304 م قتلا بسبب اتهام خصوم القاضي من بطانة السلطان بزعامة

ظافر الكبير لأبي العباس الغبريني بأنه غير مخلص لدولة بجاية ، ونسبة بعض الجرائم إليه ، ويعتبر كتابه معجما قيما ، ترجم فيه للعديد من العلماء سواء كانوا مغاربة أو أندلسيين ، وقد ذكر في كتابه سبب تأليفه هذا الكتاب فقال : (لما كان طلب العلم الديني فرضا على الكفاية حينا ، ومتعينا في الحال ، ولم يكن بد في تحصيله من تلقيه عن الرجال ، وكان التلقي إما مباشرة أو سند ذي اتصال ، وكان المباشر تكفي معرفته والمسند عنه لا بد أن تعرف صفته فلذلك اهتم العلماء بذكر الرجال ، واستعملوا في تمييز أحوالهم الفكر والبال)[1].

والشيء الملاحظ حول منهج الغبريني في كتابه أنه ترجم لعلماء المائة السابعة ، وإن كان قد ذكر بعض علماء المائة السادسة ، وقد لمحت من خلال هذه التراجم أن سقوط المدن الأندلسية كان السبب المباشر لنزوح هؤلاء إلى حواضر المغرب وخاصة منها بجاية ، وعليه يعتبر هذا المصدر ذا أهمية كبيرة في هذا الموضوع ، اعتمدت عليه في استخراج مدى التأثير الثقافي للجالية الأندلسية المستوطنة ببجاية خاصة خلال العصر الحفصي بعد سقوط كبرى المدن الأندلسية كإشبيلية ومالقة وغيرهما ، وقد احتوى الكتاب على العديد من التراجم الخاصة بهؤلاء في علوم كثيرة ومتعددة كالفقه والحديث والأدب والفلسفة والتصوف والطب .. وغيرها ، بالإضافة إلى ورود العديد من المعلومات حول تأثير المتصوفة الأندلسيين في مجال التعليم وكذا في انتشار الزوايا بمدينة بجاية .

[1] ـ الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 19 .

ومن بين الكتب الهامة التي ساعدتني في إنجاز هذا البحث كتاب " بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد " لمؤلفه أبي زكريا يحي بن خلدون المولود بتونس سنة 734 هـ / 1333 . 1334 م وهو من أبناء الأسرة الخلدونية الأندلسية النازحة إلى تونس بعد سقوط مدينة إشبيلية خلال القرن الثامن للهجرة ، وكان له نشاط سياسي في دولة بني عبد الواد ، بالإضافة إلى نشاطه الفكري ، ولكنه توفي بسبب إصغاء الأمير أبي تاشفين إلى الإشاعات التي كان يصل إليه صداها سنة 780 هـ ، ويعتبر كتابه مصدرا مهما في الاطلاع على الأحوال السياسية والفكرية في دولة بني عبد الواد ، والظاهر أن سنة تأليفه غير واضحة في حين أنه ذكر في مقدمته أنه كتب هذا الكتاب امتثالا لأمر السلطان ، ويتضمن هذا الكتاب في قسمه الأول التعريف بقبيلة عبد الواد وأوليته ، ذاكرا فيه محل اعتمار بني عبد الواد ، أما الفصل الثاني وهو الأهم بالنسبة لموضوع بحثي ، فقد عدد فيه ابن خلدون العلماء والصالحين الذين استقروا بتلمسان ، وقد تضمن العديد من العلماء الأندلسيين الذين رحلوا من الأندلس ، واختاروا تلمسان مستقرا لهم ، مشتغلين إما بالتدريس في مدارس تلمسان ، أو في وظائف أخرى سياسية واقتصادية ، ثم يعود للحديث مرة أخرى عن مدينة تلمسان عبر العصور ، وملوك الدولة الزيانية إلى غاية السلطان أبي سعيد الثاني وأخيه أبي تاشفين .

ومن المصادر الهامة الأخرى التي ساعدتني في هذا الموضوع كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ، والذي يعتبر مصدرا هاما في تاريخ المغرب والأندلس ، ففي جزئه السادس يتحدث فيه ابن

خلدون عن الدولة الحفصية ، والصراعات السياسية في ذلك العصر ، مما أفادني في العديد من المعلومات القيمة حول بعض اللاجئين الأندلسيين إلى بجاية ، ووظائفهم السياسية ، وتدخلهم في بعض الصراعات القائمة في المنطقة كأسرة ابن غمر الأنصاري ، وأسرة ابن سيد الناس .. وغيرها .

ومنها أيضا كتاب " الوفيات " لابن قنفد القسنطيني الذي ذكر فيه أشهر العلماء والصلحاء من سنة 11 هـ إلى سنة 807 هـ ، وهو معجم زمني للصحابة ، ومؤلفه هو أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن حسن بن علي بن الخطيب ، واشتهر بابن قنفذ ، فأما نسبته الأولى فتعود لجده الذي تولى الخطابة مدة طويلة قد تصل إلى خمسين أو ستين سنة، أما نسبته الثانية فلا سبب لها ، ويعرف بالقسنطيني نسبة لمدينة قسنطينة ، وقد ولد سنة 740 هـ ، وتعلم على يدي شيوخه بقسنطينة ، وكانت له رحلات متعددة إلى المشرق والمغرب ، وقد وضع مؤلفه في سنة 807 هـ ، ومات بعد ذلك بعامين ، وسبب تأليفه لهذا المعجم ما قاله ابن قنفذ : " واعلم أن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال ، ومعرفة طبقات الفقهاء وأزمانهم من مهمات المطالب ، وكذلك ما ألف في عصر السائل " ، وعليه هذا الكتاب عبارة عن تاريخ صغير لوفيات الصحابة والعلماء والمحدثين والمفسرين والمؤلفين، رتبه ابن قنفذ على القرون ، وعلى تواريخ وفياتهم ، واستهله بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيه تراجم لبعض الأندلسيين الوافدين إلى المغرب الأوسط ، وإن كان في

الكثير من الأحيان يميل إلى الاختصار في ترجمته لهؤلاء ، إلا أننا لا يمكن إنكار أهميته في هذا البحث .

ومن بين كتب التراجم التي ترجمت لسيرة العلماء الأندلسيين المهاجرين من الأندلس نجد كتاب " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " لمؤلفه أحمد بابا التنبكتي ، وهو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد ، وينتهي نسبه إلى عمر الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التنبكتي ، ولد في تنبكتو عام 963 هـ / 1556م في أسرة من بني أقيت المسوفيين المعروفين بانتسابهم إلى العلم والقضاء باعتبارهم من أهل الفتيا والشورى والوجاهة ، نشأ في البيئة السودانية ، وأخذ تعليمه بها ، وقد شهد عصره اهتماما بالعلم ، وقد وضع كتابه هذا ليكون ذيلا على كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ، وبذلك كان مشاركا له في موضوعه ، وسبب تأليفه له قوله : " لما كان علم التاريخ، ومعرفة الأئمة من الأمور العلية ، ويعتني به كل ذي همة ذكية ، اعتنى به الأئمة قديما وحديثا ، وذكر جماعة من العلماء الذين سبقوه في موضوع كتابه حتى انتهى إلى ابن فرحون وكتابه ، ثم قال : فمازالت نفسي تحدثني من قديم الزمان ، وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه ببعض ما فاته ، أو جاء بعده من الأئمة الأعيان " ، وقد أشاد العديد من الكتاب بكتابه ، وأشاروا إلى أنه كان ثقة فيما يرويه عن معاصريه ، وتعود أهمية هذا الكتاب بالنسبة لهذا الموضوع احتواؤه على ترجمة العديد من العلماء الأندلسيين الذين كان لهم دور فكري وثقافي بعد هجرتهم من الأندلس ، فقد قال في هذا الصدد : " إن الكتاب

يعتبر أساسا سجلا للأعلام الأندلسيين والتونسيين والمغاربة والجزائريين والطرابلسيين " ، في حين انتقده آخرون ، واتهم بالنقل ، فالسملالي مثلا اتهمه بأنه يختصر كلام صاحب الجذوة، ولا ينسبه إليه في تراجم المتأخرين ، وقال : " إنه قد يزيد في بعض المواضع عما في الجذوة، وأشار آخر إلى أنه قد نقل من كتاب الفهرس .

ومن المصادر المعتمد عليها في إعداد هذا الموضوع كتاب " الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب " للإمام القاضي إبراهيم نور الدين المعروف بابن فرحون المالكي ، ويعتبر من المصادر الهامة التي تناولت الحديث عن بعض العلماء الأندلسيين الذين نشروا مذهب الإمام مالك ودرسوه بحواضر المغرب الأوسط ، وابن فرحون من مواليد المدينة المنورة والناشئين بها ، كانت له رحلات علمية عديدة اكتسب منها شهرة ومعرفة ولقاء بالعديد من العلماء خاصة في مصر والشام والقدس ، كان قاضيا بالمدينة له العديد من المؤلفات العلمية ، وهذا الكتاب عبارة عن معجم يترجم فيه صاحبه لأعيان مذهب مالك رحمه الله مرتبين على حسب حروف الأبجدية ، وفي ثنايا هذه التراجم نجد ترجمة لبعض العلماء الأندلسيين الذين كان لهم دور فقهي في المغرب الأوسط .

كما خصص بعض العلماء كتبا لدراسة تاريخ مدينة تلمسان باعتبارها عاصمة المغرب الأوسط في الفترة المحددة لموضوع هذا البحث ، ولا يخفى على أحد أهمية هذه الحاضرة المغربية في احتضان اللاجئين الأندلسيين إليها ، فكانت مركز استقرار لهم مارسوا فيها نشاطاتهم السياسية والفكرية بكل حرية ، بل كان لهم تأثير حتى على المدن المجاورة كذلك ،

كفاس وغيرها ، فكانت تلمسان ذات ثقل سياسي وفكري في ذلك الوقت ، وتعد مدرسة كبرى من مدارس المغرب الأوسط إلى جانب مدرسة بجاية ، ولعب الأندلسيون المستقرون بها دورا فكريا كبيرا ، ومن أهم الكتب التي درست الحياة الفكرية في مدينة تلمسان نجد كتاب " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " من تأليف العلامة محمد بن مريم التلمساني ، وهو الشيخ الإمام العلامة القدوة أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المديوني التلمساني ، احترف التعليم واشتغل بالتأليف ، وكانت له العديد من المؤلفات ، ولكنها في حكم المفقود ، ولم يعثر له سوى هذا الكتاب ، وقد ترجم فيه صاحبه لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا واستقروا بها ، وكان يقصد منه جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات ، وجمع من كان بحوزتها ، وقد رتبوا حسب حروف الهجاء ، وتراجمهم تختلف بين الطول والقصر ، وقد استفدت منه في التعريف ببعض الأعلام الأندلسيين المستقرين في هذه المدينة ، وأغلبهم ذكرتهم في الجزء المخصص بالتصوف ، وتأثير المتصوفة الأندلسيين على الحياة الفكرية في هذه المدينة ، حيث وجدت أن أغلبهم كان له أتباع كثر من الطلبة الذين يحضرون حلقات دروس هؤلاء الأعلام .

أما في ما يخص التاريخ العام السياسي والفكري للأندلس فقد كانت هناك مصادر عدة أخص بالذكر منها " تاريخ الدولة الزيانية " لمؤلفه ابن الأحمر ، وقد استعنت به في دراسة الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها تلمسان في عصر السقوط النهائي للأندلس .

كما أن كتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " لابن الخطيب من الكتب التي تناولت تاريخ الأندلس السياسي والفكري ، وهذا الكتاب ليس تاريخا لغرناطة بالمعنى المحدود ، بل هو موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية ، ويحتوي على تراجم كثيرة للعديد من الأعلام الذين عاشوا في غرناطة أو نزلوا بها ، أو وفدوا عليها من مختلف الأقطار ، ويولي صاحب الكتاب عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه سواء في الأندلس أو المغرب ، وقد بدأ في كتابة مؤلفه سنة 761 هـ .

ومنها أيضا كتاب نفح الطيب " للمقري ومؤلفه من مواليد مدينة تلمسان سنة 986 هـ ، وكانت نشأته وتحصيله العلمي فيها ، وكانت رحلته إلى المشرق وإعجابه بلسان الدين بن الخطيب عاملا قويا على تأليف هذا الكتاب فجاء في موضوعين : الأول تعلق بالأندلس ، والثاني خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شؤون ، وللمقري مصنفات أخرى لا تقل أهمية عن نفح الطيب ككتاب " أزهار الرياض في أخبار عياض " ألفه أثناء إقامته بفاس 1013 . 1027 هـ .

كما استعنت ببعض المصادر الجغرافية ، في تحديد بعض المواقع الجغرافية ، والتعريف بها، وهذه المواقع قد تخص الأندلس ، أو مدن المغرب الأوسط ، ومن أهم تلك المصادر نجد : " معجم البلدان " لياقوت الحموي (ت 626 هـ) ، ويحتوي كتابه على سبعة أجزاء رتب فيه المناطق على حسب ترتيب حروف المعجم ، وهو عبارة عن موسوعة كبيرة للعديد من المواقع الجغرافية .

ومنها أيضا كتاب " الروض المعطار " للحميري (ت 866 هـ) ، وهو كذلك عبارة عن موسوعة تشمل التعريف بالعديد من المواقع الجغرافية ، ويتميز تعريفه لها في أنه مزج بين المنهجين التاريخي والجغرافي .

كما يعد كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " لأبي عبد الله الشريف محمد بن محمد من المصادر الجغرافية الهامة التي شرحت العديد من المواقع الجغرافية ، وبين من خلالها خصائص العديد من مدن المغرب الأوسط ، بما تعلق بالجانب الاقتصادي ، والعلاقات التجارية بين العدوتين .

وكتاب " صورة الأرض " لابن حوقل وهو بدوره عبارة عن معجم جغرافي لمعظم المناطق والدول ، وقد وصفه صاحبه بقوله : " وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الأسفار ، واقتطعتني في البر دون ركوب البحار إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها ، وقطعت وتر الشمس على ظهرها ، ووصف رجالات أهل البلدان وأعيان ملوكها " .

ومن الكتب التي اعتمدت عليها أيضا كتاب " وصف إفريقيا " للحسن الوزان وكتاب " الأندلس في اقتباس الأنوار " لابن الخراط الإشبيلي وأبي محمد الرشاطي ، كما كان لبعض المؤلفات التي لا تحتوي على ذكر أصحابها ، وهي ذات قيمة جغرافية وتاريخية في آن واحد ومنها : كتاب الاستبصار وعجائب الأمصار ، وكتاب " ذكر بلاد الأندلس " وكتاب " نبذة العصر " ...

كما كان لكتابي " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " لمؤلفه أحمد بن سحنون ، وكتاب " دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران " ليوسف الزياني أهمية في هذا الموضوع خاصة ما تعلق بتاريخ هذه المدينة وجغرافيتها .

هذا ما اهتديت لجمعه وترتيبه في إعداد هذه الرسالة التي تناولت موضوعا هاما على المستويين العلمي والحضاري ، فهذه الفترة التاريخية جزء من تاريخ حضارتنا الإسلامية ، وهويتنا المغربية ، والله من وراء القصد .

الفصـــــل التمهيدي

لمحة تاريخية عن بلادي الأندلس والمغرب الأوسط خلال العصر الإسلامي

1 . التعريف ببلاد الأندلس

2 . التعريف ببلاد المغرب الأوسط

تمهيد : لمحة تاريخية عن بلادي الأندلس والمغرب الأوسط خلال العصر الإسلامي

ارتبط تاريخ بلاد الأندلس بالمغرب عموما وبلاد المغرب الأوسط على وجه الخصوص منذ زمن بعيد يعود إلى بداية الفتوحات الإسلامية لبلاد الأندلس سنة 92 هـ / 711 م ، فكان ذلك الحدث أهم عامل ربط بين البلدين رباطا وثيقا ، شمل مختلف الجوانب السياسية والثقافية والاقتصادية والدينية ، وكانت الأندلس رباط جهاد يستلهم المرابطين والمحبين للجهاد في سبيل الله طيلة الأدوار التاريخية التي مرّت بها ، وبهذا مكنت هذه العلاقة من التعاون في خدمة المصالح المشركة بين البلدين ، وفي ردّ كيد الأعداء الطامعين خاصة بعد تأسيس إمارة قرطبة وتأسيس الدولة الرستمية سنة 160 هـ كأولى الدويلات المنفصلة عن بلاد المشرق في المغرب الأوسط ، ومواجهة العدو المشترك المتمثل في الخلافة العباسية .

1 . التعريف ببلاد الأندلس :

1 . 1 . التسمية والموقع الجغرافي :

المراد بلفظ الأندلس إسبانيا الإسلامية بصفة عامة ، وقد أطلق هذا اللفظ في بادئ الأمر على شبه جزيرة إيبيريا* كلّها ، على اعتبار أنها كانت جميعها في يد المسلمين ، ثم أخذ

* كان العرب يسمون هذه البلاد بالجزيرة الأندلسية مع معرفتهم أيضا بأنها شبه جزيرة ، وأنها متصلة بالأرض الكبيرة من ناحية جبال البرتان أو البرانس ، أما كلمة أيبيرية فهي نسبة إلى أمة قديمة يقال لها " الأيبير" كانت أقدم أمة عمرت تلك

لفظ أندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الإسلامية في شبه الجزيرة حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة[1] ، ويعود أصل تسمية الأندلس عند ياقوت الحموي إلى : " أندلس بن طوبان بن يافث بن نوح ..." [2] ، أما المقري فقد ذكر أن : " أوّل من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون قوم يعرفون بالأندلس وبهم سمي المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة ، كانوا هم الذين عمروها وتناسلوا فيها ، وتداولوا ملكها على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض ، ثم أخذهم الله بذنوبهم فهلك أكثرهم ، وفر من قدر على الفرار منهم ، فأقفرت الأندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة "[3] .

البلاد ، ولم يعرف قبلها هناك أمة أخرى ، وجميع الذين قطنوا هذه الجزيرة إنما جاءوا بعد أمة الأيبير هذه ، أنظر: شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، دار مكتبة الحياة ، د . ط ، د . ت ، ج : 1 ، ص : 32 .

وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام ، ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث فجنوبها يحيط به البحر الشامي ، وجوفيها يحيط به البحر المظلم ، وشماليها يحيط به بحر الإنقليشين من الروم .

أنظر : محمد بن عبد الله الحميري ، صفة جزيرة الأندلس منتجتين كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تعليق : لافي بروفسال ، دار الجيل ، ط : 2 ، بيروت ، 1988م ، ص : 2 .

[1]. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت د . ط . د . ت ، ص : 17 .

[2] . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار الفكر ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ج : 1 ، ص : 362 .

وليست جزيرة الأندلس جزيرة يدور بها الماء من جميع جهاتها فهي تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة (فرنسا) وإنما سميت جزيرة على المجاز كما سميت جزيرة العرب في آسيا جزيرة وليست كذلك .

أنظر : عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، د . ط ، د . ت ، ص : 27 .

[3]. المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، د . ط ، بيروت ، 1968م، ج :1 ، ص: 133 .

وقد كان لكلمة أندلس دلالات مختلفة فهذه الكلمة قد " اشتقتها العرب من كلمة واندلوس وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوربا في القرن الخامس الميلادي ، واستقرت في السهل الجنوبي الاسباني وأعطته اسمها ، ثم جاء العرب وعربوا هذا الاسم إلى أندلس ، وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا سنة897 هـ . / 1492م ، أطلق الإسبان اسم أندالوسيا ANDALUCIA على الولايات الجنوبية الإسبانية وهي المنطقة التي تشمل حتى اليوم ولاية قرطبة وإشبيلية وغرناطة [1] .

كما سميت في القديم بـ "إيبريا" نسبة إلى نهر إيبرو ، أو إلى قبائل تحمل الاسم نفسه سكنت حول هذا النهر ، ثمّ عمّم اسمها على كل شبه الجزيرة من واقع انتشارها في أرجائها[2].

أما عن التحديد الطبيعي والجغرافي لهذه المنطقة ، فإنها واقعة في جنوب القارة الأوربية من الجهة الغربية ، وتحيط بها المياه من كل أطرافها باستثناء طرف واحد هو الشمال الشرقي حيث يحدها جبال البرانس ، ويحدها من الشرق البحر الأبيض المتوسط ، ومن الغرب والشمال الغربي المحيط الأطلسي والبحر المتوسط .

[1]. أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص : 17 .

[2]. محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، دار النفائس ، بيروت ، ط : 1 ، 2005م ، ص: 13 .

وكانت الأندلس ذات طبيعة جغرافية متباينة من جبال وسهول وغيرها ، "وقد استغل المسلمون طبيعة إسبانيا الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار خطوطا دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من المسيحيين " [1].

لقد كانت الأندلس وجهة المسلمين بعد استقرارهم في بلاد المغرب الإسلامي وفتحهم لجميع مناطقه من برقة شرقا إلى حدود المحيط الأطلسي غربا ، فكان لزاما عليهم . وهم الخبيرون بأمور السياسة والحرب . أن يؤمنوا تلك المناطق الشاسعة من عودة الخطر المسيحي إليها ، ولتحقيق ذلك يمموا وجهتهم شطر بلاد الأندلس لفتحها ، ونشر روح الإسلام بها وقد دامت الحياة في بلاد الأندلس زهاء ثمانية قرون من الفتح إلى السقوط ، تخللتها فترات مضطربة كان نتيجتها سقوط العديد من المدن الإسلامية في أيدي النصارى ، مما أثر ذلك في نفسية المسلم الأندلسي الذي خلف وراءه إرثا إسلاميا وحضاريا استفاد منه الغرب ، ولم يكن ماضي الأندلس خلال تلك الفترات بمعزل عن مسامع العالم الإسلامي عامة وبلاد المغرب على وجه الخصوص ، بل كانت الصلة موصولة في مجالات مختلفة ممّا زاد من عمرها لعدّة قرون .

1 . 2 . الأدوار التاريخية التي مرت بها الأندلس :

وقد مرت الأندلس في تاريخها العام بستة مراحل هي :

---

[1]. أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص: 19 .

أ ـ مرحلة الفتح الإسلامي و حكم الولاة :

بدأ التفكير في فتح الأندلس بعد بسط نفوذ الخلافة في بلاد المغرب ، ولتأمين حدوده توجهت الأنظار إلى أوروبا لنشر الإسلام ، " وأما الذي تولى فتح الأندلس ، وكان أمير الجيش السابق إليها فطارق بن زياد وقيل ابن عمرو ، وكان واليا على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الخضراء فدخلها وأمعن واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى بن نصير بغلبته على ما غلب عليه من الأندلس وفتحه ، وما حصل له من الغنائم ، فاستولى طارق على قرطبة دار المملكة ، وقتل لذريق* ملك الروم بالأندلس "[1] ، ويذكر ابن القوطية أن دخول طارق إلى الأندلس كان في رمضان سنة اثنتين وتسعين ، وبعد فتح الأندلس والقضاء على معظم مدنها ، استخلف موسى ابن نصير ابنه عبد العزيز ، وأسكنه إشبيلية* ، وخلف معه

---

* هناك اختلاف بين المؤرخين في طريقة نهاية لذريق ، ويذكر ابن القوطية أن اجتماع طارق ولذريق كان على وادي لكة من شذونة ، فهزم الله لذريق وثقل نفسه بالسلاح ، وترمى في وادي لكة فلم يوجد . أنظر : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، ط : 2 ، 1989 م ، ص : 33 .

[1] . الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني ، ط : 1 ، القاهرة ، بيروت ، 1989 م ، ج : 1 ، ص : 27 . 28 .

* من أعظم مدن الأندلس ، ولها كورة جليلة وهي مطلة على النهر الهابط إليها من قرطبة ، ويدخل إليه المد والجزر وهو واد عظيم ، وسميت بإشبان بن طيطس من نسل طوبال ، كان أحد الملاك الإشبانيين . أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق : إيميليو مولينا ، خاثينتو بوسك بيلا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، د . ط ، مدريد ، 1990 م ، ص : 102 .

حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، وأقام عبد العزيز يفتتح ما بقي عليه من مدائن الأندلس[1] .

وبهذه الجهود العظيمة التي قام بها الفاتحون الأولون لبلاد الأندلس تحقق التمكين للمسلمين فيها ، وتوسعت رقعة الإسلام في داخل القارة الأوروبية .

أمّا فيما يخص عصر الولاة فإنه قد حكم الأندلس أربعة وعشرون واليا قاموا بالأمر تباعا بالأندلس خلال تلك الفترة التي لا تبلغ نصف القرن ، وقد اتسمت هذه المرحلة بالاضطراب وعدم الاستقرار ، وكان أوّل وال على الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة 95هـ ، وآخرهم يوسف الفهري الذي حكم إلى آخر سنة 138هـ / 755م [2] ، كما تواصلت في هذا العصر الفتوحات الإسلامية وكان " الولاة يجاهدون العدو ، ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا فرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس "[3]، وقد شهدت هذه الفترة من حكم المسلمين أعظم الإنجازات الحضارية وانتشر الإسلام ، وعلت مبادئه وقيمه " على الرغم من عدم الاستقرار السياسي للحكام آنذاك جراء العصبية القبلية " [4] ، وقد كان هذا التذبذب نتيجة انتقال

---

[1] . ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص : 33 . 36 .

[2] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، دار الأندلس الجديدة ، ط:1 . 2011 م ، ص: 21 . 23 .

[3] . مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، ط : 2 ، 1989 م ، ص : 31 .

[4]. فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص: 27 . وأنظر حول العصبية القبلية وآثارها في نشوب بعض الثورات في الأندلس : عبد العزيز فيلالي ، المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، دار هومة ، د.ط ، الجزائر .2008 م ، ص: 127 وما بعدها.

الأحداث السياسية التي عاشها المغرب خلال عصر الولاة إلى بلاد الأندلس ذلك أنها كانت شديدة التأثر بمجريات الأحداث هناك ، "فقد كانت الاتصالات بين البلدين قوية ومتينة ولاسيما المبادلات التجارية ولهذا فإن بلاد الأندلس في هذه الفترة تعد إقليما تابعا لبلاد المغرب وجزءا لا يتجزّأ منه إداريا وسياسيا وبشريا وحضاريا ".[1]

ب . مرحلة إمارة قرطبة :

بعد قضاء بني العباس على الدولة الأموية في بلاد المشرق الإسلامي عام 132هـ / 749م استطاع أحد أمرائها عبد الرحمن الداخل * أن ينجو بنفسه من بطش العباسيين ، وسافر إلى الأندلس ليؤسس ملكا للأمويين هناك ، وقد " حكم الأندلس قرابة 35 سنة قضى أكثرها في الحروب وإخماد الثورات ورد المغيرين ، إلى أن وطد أركان الملك ، وقضى على المؤامرات الداخلية والخارجية "[2] .

---

[1]. عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص : 127 .

* هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الداخل إلى الأندلس ، ويقال له صقر قريش ، سماه أبو جعفر المنصور بذلك ، وكنيته أبو المطرف ، وقيل أبو زيد وقيل أبو سليمان ، هرب في أول دولة بني العباس إلى المغرب ، ثم لحق بالأندلس في غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهزم أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، واستسيقت له الخلافة وهو ابن ست وعشرين سنة . أنظر : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار المعارف ، ط : 2 ، القاهرة ، 1985 م ، ج : 1 ، ص : 36 .

[2]. أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط:1 ، بيروت ، 1980م ، ص: 62 .

ولم يكن عبد الرحمن الداخل مهتما بالجانب السياسي والعسكري فقط فذلك أمر دعت إليه الأوضاع المزرية التي عاشتها الأندلس ، والاضطرابات السياسية التي آلت إليها الأوضاع في آخر عصر الولاة ، ولكنه إلى جانب ذلك كله اهتم بالجانب الحضاري والعمراني ، فقد عمل على بعث الحضارة الأموية المشرقية بها حيث "بدأ العمران في قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل ، فهو الذي أنشأ الجزء الأول من مسجدها ، وكان مسجدا جامعا أقامه قبالة مسجد الإمارة ، وأنشأ قصرا ضخما واتخذه لنفسه وبنى قصورا صغيرة لنسائه ، وأنشأ قصور الإدارة إلى جهة نهر الوادي ، أما المسجد الجامع فقد أقيم مكان كنيسة قديمة ليحل الإسلام محل النصرانية المتشدّدة التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر "[1] .

وبعد دخول عبد الرحمن إلى بلاد الأندلس تغيرت فيها الأوضاع تغيرا شديدا وأضحت دولة إسلامية تضاهي الدولة العباسية في بغداد .

ج . مرحلة حكم ملوك الطوائف :

بعد ضعف الدولة الأموية في الأندلس ، والتي كانت منارة في العلم والأدب ، انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة ، وإمارات متفرقة ، كل إمارة منها يحكمها ملك ، لذلك عرف هذا العصر بعصر ملوك الطوائف ابتداء من سنة 400هـ / 1019م وأهم تلك الدويلات هي:

---

[1]. عبد القادر قلاتي ، الدولة الإسلامية في الأندلس ، دار الأصالة ، ط :1 ، الجزائر 2010م ، ص: 39 وما بعدها .

. **الدولة الحمودية** : 407 هـ / 1016 م – 450هـ / 1058 م وهي من المغرب تنسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي ، تنقلت بين قرطبة والجزيرة الخضراء [1] وقد تعاقب على الحكم فيها أحد عشر ملكا ، وأبرز شخصياتها علي بن حمود الذي استولى على الخلافة ، وهي أسرة شريفة من العائلة العلوية ، وبالتالي فهم أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك وعلى الرغم من أصولهم العربية فإن الحموديين قد أصبحوا برابرة كليا [2].

. **الدولة الزيرية** في غرناطة ، وهي دولة أمازيغية ذات أصول مغربية حكمت من 403 هـ / 1013 م إلى 483 هـ / 1090 م .[3]

. **الدولة الهودية** في سرقسطة * من سنة 410هـ / 1019م إلى سنة 478هـ / 1085م وهم من موالي بني عامر ، تأسست سنة 414هـ / 1023م [4] .

. **الدولة العبادية** ومؤسس هذه الدولة هو القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي ، وهو من قدمه أهل إشبيلية مع صاحبيه للنظر في تدبير شؤون مدينتهم لما ضاقوا بحكم

---

[1]. جوزيف كلاس ، أناشيد من الفردوس ، تقديم : أحمد برقاوي ، دار فلاس ، " : 1 ، دمشق ، 2004 م ، ص : 95 .

[2] . لويس سيكودي لوثينا ، الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء ، ترجمة : عدنان محمد آل طعمة ، دار سعد الدين ، ط : 1 ، دمشق ، 1992 م ، ص : 18 وما بعدها .

[3] . إسماعيل العربي ، دولة بني زيري ملوك غرناطة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 1982 م ، وفيه مزيد تفصيل عن هذه الدولة وتارخها في الأندلس .

* تقع في ثغر شرق الأندلس ، وهي المدينة البيضاء ، أعظم مدائن ثغر الأندلس على نهر يقال له أبرة ، سورها كله مبني بالرخام معقود في داخله بالرصاص ، ويحيط بها أربعة أنهار : نهر وربة ، نهر شلون ، نهر جلق ، نهر أبره . أنظر : أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، المصدر السابق ، ص : 80 .

[4]. المصدر نفسه ، ص : 42 .

العلويين ، وفي سنة 483هـ / 1091م عبر يوسف إلى الأندلس عازما على إسقاط ملوكها وتوحيدها فحاصروا إشبيلية ، ثم دخلوها بدفاع مستميت وقتال شديد أبدى فيه المعتمد من ضروب الشجاعة والفداء شيئا كثيرا ، ولكنه لم يستطع مقاومة جموع المرابطين الكثيفة ووقع في الأسر ، وأخذ هو وأهله وبعث بهم إلى مدينة أغمات* في المغرب ، وبذلك انتهت دولة بني عباد في إشبيلية [1].

ـ دولة بني الأفطس 413-488هـ / 1022-1095م .

وتقع إلى الشمال من مملكة إشبيلية ، تفصل بينهما جبال البشارات ، وهي رقعة كبيرة تمتد من غربي طليطلة* عند ثلث نهر آنة من المحيط الأطلسي ، أي أنها تشمل أراضي البرتغال كلها تقريبا وتتوسطها العاصمة بطليوس ، وقد حكم بنو الأفطس هذه المملكة ما يزيد على سبعين عاما ، وينتمون إلى إحدى قبائل مكناسة المغربية على الرغم من أنهم يرجعون نسبهم إلى بني تجيب .

---

* أغمات : من أرض المغرب قرب مراكش ، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل ، وليس بالمغرب فيما زعموا بلدا أجمع لأوصاف الخيرات ولا أكثر ناحية وأوفر حظا وخصبا منها . ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج : 1 ، ص : 225 .

[1]. عبد القادر قلاتي ، المرجع السابق ، ص : 95 .

* طليطلة بين الجوف والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة للفارس القاصد سبعة أيام ، كانت قاعدة ملوك القوطيين، وهي مدينة عظيمة أشد المدن حصانة وأثبتها منعة . أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، المصدر السابق ، ص : 151 .

كما قامت بالأندلس العديد من الإمارات الصغيرة التي لم ترق إلى مستوى دول الطوائف حكمت من طرف الأسر المتغلبة وهي :

أسرة مجاهد العامري ، أسرة بني برزال ، أسرة بني دمّر في مورور ، أسرة بني يعزن في رندة ، وأسرة بني خزرون في أرقش [1] .

ومن خلال هذه الإمارات يتضح انقسام وحدة المسلمين بالأندلس ، وتفرق كلمة حكامها ، وتفانيهم في الصراع بينهم من أجل السلطة وابتعادهم عن الجهاد ، فابتدأ الاجتياح الصليبي لمدنهم في هذا العصر ، ولولا العلاقة السياسية التي ربطت المغرب بالأندلس لانقطع خبر المسلمين في تلك البلاد ، ولكن قيض الله لها رجالا من بلاد المغرب واجهوا الخطر الداهم ، واستطاعوا أن يمدوا من عمرها .

د . عصر المرابطين* :

---

[1]. محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص : 457 – 458 .

* سموا بالمرابطين أو الملثمين لاتخاذهم لثاما داكن اللون ، كما عرفوا باللمتونيين نسبة إلى قبيلة لمتونة التي كانت تتولى الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فيما وراء الصحراء جنوبا . أنظر : محمد الأمين بلغيث ، دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم ، دار الوعي ، ط : 1 ، الجزائر : 2009 م ، ص : 12 .

الدولة المرابطية دولة مغربية النشأة ، ظهرت في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري في المغرب الأقصى ، وكانت في بداية أمرها حركة دينية تزعمها الفقيه أبو محمد عبد الله بن ياسين الجزولي الذي قام بنشر التعاليم الإسلامية بين اللمتونيين من قبائل صنهاجة ، يسانده في ذلك بعض زعماء لمتونة منهم يحي بن إبراهيم الذي دانت له معظم قبائل الصحراء فأطلق الجزولي على جماعته اسم (المرابطين) كما سمّوا أيضا (بالملثمين) وقد تقررت دولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين الذي تولى إمارة المسلمين سنة 500هـ / 1106 م واتخذ من مراكش عاصمة له .

ولقد كان جواز المرابطين لبلاد الأندلس نتيجة سياسية لضعف دويلات ملوك الطوائف ، وجبنهم في صد كيد أعدائهم الصليبية وانغماسهم في الملذات ، " فطلبوا النجدة والعون العسكري من الملثمين لدفع خطر النصارى ، وضد تقدمهم السريع ، لاسيما بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ / 1085 م ، حيث ازداد عبث الإسبان في سائر أنحاء الأندلس ، فقرر أمراء الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد أمير إشبيلية دعوة المرابطين من أجل رد خطر الإسبان فجاءت هذه الدعوة بعد ثلاثة أشهر من سقوط مدينة طليطلة "[1] .

وبعد هذه الدعوة ابتدأ التدخل المرابطي في بلاد الأندلس نصرة لإخوانهم المسلمين واستمرارا في مسيرة الجهاد ضد الصليبيين ، وقد مر الحكم المرابطي في بلاد الأندلس بثلاث مراحل :

[1]. عبد الواحد ذنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، دار المدار الإسلامي ، ط:1 ، ليبيا ، 2004 م ، ص: 310 .

1 . مرحلة الجهاد المشترك بين المرابطين و أمراء الطوائف من الممالك الإسبانية 479 – 483 هـ ، وأشهر معاركها معركة الزلاقة (479 هـ . / 1086 م) .

2 . المرحلة الثانية : الأندلس ولاية مرابطية بعد أن قرر يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف .

3 . القتال بين المرابطين والممالك الإسبانية 483–542هـ .[1]

وبهذا عرف الوجود المرابطي بالأندلس حكما صعبا نظرا للهجمات الصليبية المتكررة على بلاد الأندلس من جهة ، والنزاع بين ملوك الطوائف من جهة أخرى مما مكن لسقوط العديد من المدن الأندلسية في يد الإسبان .

هـ . مرحلة حكم الموحدين :

بعد سقوط دولة المرابطين في بلاد الأندلس انتقل الحكم السياسي فيها لزعامة الموحدين ، وقد تأسست هذه الدولة كسابقتها في بلاد المغرب الإسلامي وقامت على أساس الأمانة الدينية ونظرية المهدي المنتظر الذي دعا إليها المهدي بن تومرت ويعود تاريخ الوجود الموحدي في بلاد الأندلس إلى سنة 555 هـ " حيث دخل عبد المؤمن بن علي بجيشه ،

[1]. عبد الواحد ذنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، ص : 311 وما بعدها .

وقضى على دولة المرابطين ، واستمر أبناؤه من بعده على سيرته في جهادهم للفرنجة في الأندلس "[1] .

ورغم تلك المجهودات العسكرية التي قام بها أبناء هذه الدولة في صد خطر النصارى ، واسترداد بعض المدن الأندلسية إلا أنها منيت كسابقتها بالسقوط ولم يكتب لها البقاء فسقطت سنة 609 هـ / 1212 م في موقعة العقاب بقيادة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر وبين النصارى بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ليتلو هذا الانحطاط سقوط العديد من المدن منها : جزيرة ميورقة ، مدينة قرطبة ، و بلنسية* التي كان لها وقع أليم على الأندلسيين خاصة وعلى العالم عامة .

أما عن أسباب سقوط هذه الدولة فهي عديدة نذكر منها " ظلمهم الفظيع للمرابطين ، وسفكهم للدماء ، وكذا ثورة ابن غانية وهم من بقايا المرابطين حيث ناهضت هذه الثورة الأصول العقدية والفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين ، كما كان لثورة الأعراب على

[1] . أحمد حسن بحبح ، لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته وأثره ، دار المكتبة العلمية ، ط : 1 ، بيروت 1994 ، ص : 10 .

* بلنسية كورة بشرق الأندلس متصلة بكورة تدمير وهي بقعة جليلة ذات انفساح واتساع في الطول والعرض ، وفوائدها كثيرة ، ومنافعها جمة ، ومدينة بلنسية هي المعروفة بمدينة التراب لحسنها وجمالها ، وكثرة مواردها ورياحينها قيل لها مطيب الأندلس بينها وبين البحر ثلاثة أميال . أنظر : أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، المصدر السابق ، ص : 45 .

بلاد المغرب ، وثورات الأندلس ومنها ثورة محمد بن مردنيش وثورة ابن هود وغيرهما سببا في دمارها ، فكان مآل هذه الدولة كسابقتها إلى الزوال [1] .

و . مرحلة حكم بني الأحمر :

لم يبق من المدن الأندلسية بعد سقوط دولة الموحدين غير مدينة غرناطة * التي لجأ إليها الأندلسيون بعد سقوط العديد من المدن الأخرى ، فكانت بذلك المعقل الوحيد الذي لم شتات الأندلسيين الفارين من بطش أعدائهم النصارى " فبعد عام 1232 م انحصر سلطان العرب في إمارة غرناطة المشهورة الناشطة "[2].

وفي هذه الظروف " ظهر بنو الأحمر وأصلهم من "أرجونة " حصن من حصون قرطبة ولهم فيه سلف من أبناء الجند يعرفون ببني نصر وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وقد نجح محمد بن يوسف بن نصر ملك أرجونة سنة 635 هـ أن يضم إلى مملكته خمس مدن هي : بسطة ووادي آش* وشريش ومالقة وجيان ، وفي سنة 636 هـ استولى على

---

[1] علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، مكتبة حسين العصرية ، د . ط ، بيروت ، د.ت ، ص : 201 وما بعدها .

* غرناطة : هي أقدم مدن إلبيرة بينها وبين إلبيرة ستة أميال ، وتعرف بمدينة اليهود ويقال لها أيضا اغرناطة . أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، المصدر السابق ، ص : 174 .

[2] . ج : س . كولان ، الأندلس ، ترجمة : إبراهيم لحقر رشيد ، عبد الحميد يونس حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري ، بيروت والقاهرة ، ط : 1 ، 1980 ، ص: 28 .

* يقال لها مدينة الآشات من مدن كورة إلبيرة بين غرناطة وبجانة ، وهي غزيرة السقي كثيرة الثمرة موضع الحرير والكتان، وتنحدر إليها الأنهار من جبل شلير وهو من أعظم جبال الأندلس طولا وارتفاعا . أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، المصدر السابق ، ص : 195 .

مدينة غرناطة وجعلها حاضرة لدولته "[1] . وقد تعاقب على هذه الدولة عشرون ملكا من أحفاد محمد بن نصير [2] .

لقد كانت دولة غرناطة دولة إسلامية ، واعية إسلامها تماما ، ترحب باللاجئين القادمين من مختلف أنحاء إسبانيا ولا تتكلم غير العربية وعلى الرغم من وجود يهود فيها فقد خلت من المستعربين [3] .

وقد استطاعت هذه الدولة رغم صغر مساحتها ، وقلة نفوذها أن تحافظ على ما بقي من إرث إسلامي وحضاري للمسلمين في بلاد الأندلس " فوقفت في وجه التوسع الإفرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف ، وقد عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر أزهى عصورها ففيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة إلى اليوم "[4] ، لكن صمودها لم يدم طويلا ، فكان مصيرها أقسى من مصير الدويلات التي سبقتها ومصيبتها أعظم والنكبة أجل ، لأنه بسقوطها سقطت الأندلس نهائيا ، وتنصرت الجزيرة ثانية ، وعادت إلى سابق عهدها بعد ثمانية قرون من الوجود الإسلامي بها ، " ويروى أن أبا عبد الله قد خرج وأهله من قصر الحمراء حزينا إلى منفاه ، حتى إذا انعطف به الطريق وكادت الحمراء تتوارى عنه أرسل

---

[1] . أحمد حسن بحبح ، المرجع السابق ، ص : 11 .

[2] . أنظر تفصيل هذا في يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، دراسة حضارية ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 1 ، 1993 م .

[3] مونتغمري وات ، في تاريخ إسبانيا الإسلامية مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا ، ترجمة : محمد رضا المصري ، شركة المطبوعات للتوزيع ، ط : 2 ، بيروت ، 1998 ، ص : 158 .

[4] جوزيف كلاس ، أناشيد من الفردوس المفقود ، ص : 48 .

إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع فقالت له أمه عائشة : " ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال" [1] .

ومن خلال ذكرنا لمحطات تاريخ الأندلس تبين أن هذه الأرض لم تهدأ يوما ، ولم يقر فيها قرار المسلمين إلا والصليبيون يحاولون المرة بعد الأخرى استرجاع أرضهم ، وفي مقابل تلك الأحقاد الصليبية الدفينة كان الأمراء المسلمون يتهافتون وراء العروش يتنعمون في حياة الرفاهية والبذخ ، مما ترتب عنها سقوط مدن أندلسية ذات أهمية حضارية بذل العرب المسلمون في بنائها أقصى جهودهم .

2 . التعريف ببلاد المغرب الأوسط :

2 . 1 – التسمية والموقع الجغرافي :

لقد قام ابن عذاري المراكشي بتحديد مصطلح المغرب وتوضيح حدوده ، وما اتصل به فقال :" إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالاسكندرية التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب وحده مدينة سلا ، وينقسم أقساما : فقسم من الإسكندرية إلى إطرابلس وهو أكبرها ، وأقلها عمارة وقسم من إطرابلس وهي بلاد الجريد ويقال أيضا بلاد الزاب الأعلى ، ويلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل وحدها إلى مدينة تيهرت ، ويليها بلاد المغرب ، وهي بلاد طنجة ،

[1] . جوزيف كلاس ، أناشيد من الفردوس المفقود ، ص : 49 .

وحدها مدينة سلا ، وهي آخر المغرب "[1] ، وقد ربط حدود المغرب كذلك ببلاد الأندلس حيث جعلها قطعة جغرافية تابعة له حيث قال : " وبلاد الأندلس أيضا من المغرب وداخلة فيه لاتصالها به ، ويليها المجاز الأعظم الذي يسمى بحر الزقاق "[2] .

ولفظ المغرب اختلف في تحديده ما بين المؤرخين والجغرافيين ، فهو عند الاصطخري كل ما يلي مصر غربا ويقسمه إلى قسمين : شرقي ويشمل برقة وإفريقية* وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة ، وغربي وهو الأندلس [3] .

وعلى الرغم من صعوبة الفصل بين مصطلحي المغرب وإفريقية فقد " أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التي تلي مصر غربا حتى المحيط الأطلسي "[4].

ولم ينته لفظ إفريقية عند البيزنطيين عند حد معين وذلك تبعا للمناطق التي استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم فيها " فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حينا ، وكانت تتخلى عنها لتكون فيما تشمل مصر حينا آخر ، وكانت تمتد إلى الغرب تبعا لامتداد بيزنطة والمدى

---

[1] . ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة : ج . س . كولان ، إ ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، ط : 3 ، بيروت ، 1983م ، ص : 5 .

[2] . المصدر نفسه ، ص : 6 .

* وحد إفريقية مما يلي المشرق مدينة أنطابلس المذكورة ، وحدها مما يلي لبمغرب المدينة المعروفة بـ " قسطنطينة الهواء " ، ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينة المغرب قريبة من خمس وخمسين مرحلة ، فهذا حد إفريقية طولا ، وعرضا يختلف بحسب مزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها . أنظر هذا التحديد في : المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص : 251 .

[3] . محمد زيتون ، المسلمون في المغرب والأندلس ، د. ط ، 1990 ، ص : 5 .

[4] . محمد الحريري ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ، دار القلم ، ط : 3 ، الكويت ، 1987 م ، ص : 11 .

الذي تستطيع أن تنشر فيه سلطانها وتبسط ظلها ، وعلى الجملة كانت قرطاجنة* وما حولها وجه هذه الولاية الباسم وأبرز أجزائها "[1].

وعلى الرغم من صعوبة الفصل بين المدلولين " فقد انتهى لفظ إفريقية للدلالة على الإقليم الذي تتوسطه مدينة القيروان وحده من غرب طرابلس حتى بجاية ، وانتهى لفظ المغرب ليشمل عموما أقاليم البلاد وحدها من غرب مصر من المحيط الأطلسي وإفريقية جزء منه "[2].

وقد حدد صاحب الاستبصار المغرب الأوسط من " وادي مجمع وهو في نصف الطريق بين مدينة مليانة ومدينة تلمسان بلاد تازا من بلاد المغرب في الطول ، وفي العرض من البحر الذي على ساحل البلاد التي ذكرنا في البلاد الساحلية مثل مدينة وهران ومليلة وغيرها من البلاد الساحلية إلى مدينة تنزل وهي مدينة في أول الصحراء وهي على الطريق إلى سجلماسة "[3].

* قرطاجنة في الأندلس ، بناها صدر بعل القرطاجي سنة 230 ق . م ، وقرطاجة في تونس .

1 . شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، ط :5 ، بيروت 1980 ، ص : 150 .

2 . دنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، ص : 12

3 . مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية ، د . ط ، العراق ، د . ت ، ص : 176 .

ولئن كثر استعمال لفظ إفريقية زمن الفتح ، فإن اسم المغرب قد بدأ يشيع في العصور اللاحقة خاصة بعد فتح الأندلس ، وبعد توسع حدود المغرب بتلك الصفة أصبحت حدوده تقسم إلى ثلاثة أقسام* هي :

المغرب الأدنى : إفريقية وهو أول أقاليم المغرب ، وأقربها إلى مركز الخلافة في المشرق العربي ويمتد من طرابلس حتى بجاية غربا وقاعدته مدينة القيروان .

المغرب الأوسط : وسمي بالأوسط لتوسطه المغرب الأدنى والأقصى وحدوده من بجاية غربا حتى وادي ملوية وجبال تازة في المغرب وقاعدته مدينة تلمسان وهو يضم معظم بلاد الجريد الحالية .

المغرب الأقصى : وامتداد هذا الإقليم من وادي ملوية حتى مدينة آسفي على ساحل المحيط الأطلسي [1] ، وعليه أصبح وادي ملوية خط التقسيم الذي يفصل بين المغرب الأوسط والأقصى وعلى هذا فالحد الشمالي للمغرب الأوسط الذي صار دارا للرستميين يبدأ من

---

* إن هذه التقسيمات الجغرافية غير ثابتة ، وهي راجعة إلى الظروف السياسية والعسكرية التي كانت تمر بها المنطقة ، فتتوسع أحيانا ، وتضيق أحيانا أخرى ، وقد ذكر الدكتور محمد بن عميرة هذا الاختلاف في وجهة نظر بعض الدارسين . ينظر : محمد بن عميرة ، تحديد الإطار الجغرافي لبلاد المغرب في العصر الوسيط ، مجلة دراسات تراثية ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، العدد : 1 ، 2007 م ، ص : 13 وما بعدها .

[1] . عبد الواحد ذنون طه ، المرجع السابق ، ص : 13-14 .

بجاية شرقا إلى وادي ملوية ، وهذه الواجهة الشمالية للمغرب الأوسط تطل كلها على البحر المتوسط ، وتمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط [1] .

ولكن هذه الحدود لم تبق مستقرة على ما هي عليه ، نظرا للصراعات السياسية والعسكرية خاصة بعد قيام دولة الموحدين حيث عملت على إخضاع المغرب لطاعتها ، كما أنه ترتب عن سقوط دولة الموحدين انقسام للمغرب ، ولكن حدوده ظلت تعرف صراعات سياسية بين الحفصيين والزيانيين والمرينيين ، وقد حاولت الدولة الزيانية الحفاظ على مدنها طيلة مراحلها التاريخية ، وكانت الدولة الحفصية تسعى للاستحواذ على مدن الجزائر وقسنطينة وبجاية ، وإخضاعها لسلطتها المركزية ، كما عمل المرينيون في الغرب على إخضاع تلمسان للنفوذ المريني[2].

2 . 2 . العصور التاريخية في بلاد المغرب الأوسط :

لقد مر المغرب الأوسط بالعديد من المحطات التاريخية بداية من الفتح الإسلامي إلى غاية سقوط دولة الموحدين وظهور الدولة الزيانية .

[1] . محمد عيسى الحريري ، الدولة الرستمية ، ص : 13 .

[2] . ينظر الملحق رقم 8 في آخر البحث .

أ – مرحلة الفتح وعصر الولاة * :

دخل الإسلام إلى بلاد المغرب الأوسط في عهد أبي المهاجر دينار ، الذي بادر سنة 55هـ/675 م وزحف باتجاه إقليم تلمسان موطن قبيلة أوربة وحلفائها لمهاجمتهم في عقر دارهم فعسكر في مكان قريب من الإقليم سمي فيما بعد بعيون أبي المهاجر [1] ثم عقبة بن نافع* وانتصاراته في بلاد الزاب " وهي بلاد واسعة وعمائرها متصلة كثيرة الزرع والقرى تنتشر حول مدينتها الكبرى " أدنة " حوالي ثلاثمائة قرية، لقد عسكر عقبة وجيشه على واد قريب من أدنة وبات الجيش الليل في حراسة حتى سمي هذا الواد بوادي سهر ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة البيزنطيين وفرارهم إلى حصونهم ومقتل كبار فرسانهم ، ولم يشأ عقبة أن يحاصرهم فرحل عنهم إلى مدينة تيهرت * وعندما وصل إلى هذه المنطقة

---

* عصر الولاة : يطلق عصر الولاة في بلاد المغرب على الفترة الزمنية التي أعقبت استدعاء الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير من الأندلس والمغرب سنة 96 هـ/714م ، وينتهي بقيام أولى الدول المستقلة ، أنظر : عبد العزيز فيلالي ، المظاهر الكبرى ، ص : 21 .

[1] . ذنون طه ، تاريخ المغرب العربي ، ص : 85 .

* هو عقبة بن نافع الفهري القرشي ، ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مؤسس مدينة القيروان وتنسب له فيها العديد من الكرامات استشهد سنة 64 هـ ودفن بالزاب ، للمزيد حول هذه الشخصية أنظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، تحقيق : أبو الفداء عبد القاضي ، دار الكتب العلمية ، ط : 1 ، بيروت : 1987 م ، ج : 3 ، ص : 32 ، المالكي (أبو بكر عبد الله بن محمد) ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق : بشير البكوش ، مراجعة : محمد العروسي المطوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 2 ، بيروت ، 1994 م ، ص : 12 ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج : 1 ، ص : 20 .

* تيهرت : مدينة نزلها الإباضيون وأسسها عبد الرحمان بن رستم ولفظ تيهرت أضبط من تاهرت كما أن تيهرت أو تاهرت مدينتان قديمة وحديثة ، وتقع تيهرت العاصمة الرستمية على بعد 9 كيلومترات من تيهرت اليوم ، وهي المدينة العظمى ، جليلة المقدار ، عظيمة الأثر تسمى عراق المغرب ، لها أخلاط من الناس ، وهي من مدن المغرب الأوسط

وجد نفسه أمام تجمع كبير من البيزنطيين وأنصارهم من قبائل لواتة ، هوارة ، زواغة ، مطماطة ، زناتة واحتدم القتال بين الطرفين وانتهت بانهزام البيزنطيين وأنصارهم وتفرق جمعهم وقتل عدد كبير منهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم[1] ليكتمل الفتح الحقيقي في عهد حسان بن النعمان الغساني بقضائه على الكاهنة من بربر البتر في جبال الأوراس .

ويعود ظهور عصر الولاة بقدوم الوالي محمد بن يزيد القريشي 97 – 99 هـ / 715 – 717 م والذي " دامت ولايته سنتين وأشهر "[2].

وأهم مميزات عصر الفتح والولاة في بلاد المغرب انتشار الإسلام واللغة العربية التي " غزت الوسط البربري وتمركزت فيه فأخذ البربر يقرؤون القرآن ويتعلمون العربية باحتكاكهم

المشهورة ، وهي مدينة قديمة كبيرة عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة ، وهي في سفح جبل يسمى قرقل ، وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب يسمى منية ، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتس . ينظر : اليعقوبي ، البلدان ، ص : 70 و كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص : 178 . أنظر ، ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق : محمد ناصر ، إبراهيم بحاز ، د . ط ، د . ت ، ص : 27 .

[1] . نهلة شهاب أحمد ، عقبة بن نافع ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط : 1 ، 1998 ص : 91 .

[2] . أبو إسحاق بن القاسم الرقيق ، تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق : عبد الله الصلب الزيدان ، عز الدين عمر موسى ، دار المغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ص : 85 .

المستمر بالعرب وبالإنصات إلى الدروس الدينية ، وكانت طبنة* دار علم فنشطت وصارت قاعدة الجزائر الشرقية في الحركة العلمية والأدبية [1].

ولكن ما لبث أن صار المغرب قبلة لتوافد عناصر خارجية من بلاد المشرق بعد الاضطهاد الذي عانته زمن الأمويين وقتال الحجاج بن يوسف الثقفي لهم ، فبحثوا عن بلاد أوسع لنشر مذهبهم فلم يجدوا منطقة أنسب لذلك من بلاد المغرب لبعدها عن مقر الخلافة ، وقد كان المغرب الأوسط قد شهد هذه الحركة وعاشت فيه طائفة من طوائفها ألا وهي الحركة الإباضية التي قامت بالعديد من الثورات في بلاد المغرب . فقد " انتفضت مغيلة ويفرن بنواحي تلمسان وقدموا على أنفسهم أبا قرة اليفرني وقيل المغيلي وبايعوه بالخلافة سنة 148 هـ " [2] ، والتي تعتبر من الحركات الصفرية في بلاد المغرب الأوسط ، ثم خمدت لتتلوها حركات الخوارج الإباضية .

* طبنة : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة بلدة في طرف إفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير وسورها مبني بالطوب ، وبها قصور وأرباض ، وليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها ، أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج : 4 ، ص : 21 .

[1] . محمد طمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ش. و. ت ، د . ط ، الجزائر ، 1883 ، ص : 77 . 80 . 81.

[2] . مبارك الميلي : تاريخ الجزائرفي القديم والحديث ، تقديم : محمد الميلي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط :3 ، 1989 ص : 59 .

ب . المغرب الأوسط تحت حكم الرستميين :

كان قيام الدولة الرستمية في بلاد المغرب الأوسط إيذانا بالاستقلال الأول في المنطقة عن سياسة الخلفاء العباسيين في بغداد ، ويعتبر قيامها نتيجة حتمية لجهود إمامها عبد الرحمان بن رستم ، وهزيمة أبي الخطاب في القيروان .

يعود تأسيس هذه الدولة إذن إلى شخصية عبد الرحمان بن رستم الذي فر من القيروان بعد سماعه بهزيمة أبي الخطاب وقد ذكر ابن خلدون أنه توجه إلى قبائل لماية لقديم حلف بينها [1] ، ثم أخذت القبائل تتوافد عليه إلى أن بويع بالإمامة سنة 160 هـ بعد أن تشاوروا في الأمر بينهم .

وذكر ابن الصغير المالكي كيفية مبايعته فقال :" قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤذي إليه زكاتنا ويقسم فيئنا فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم : أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الائتلاف "[2] ، وبعد هذا الاجتماع بنيت تيهرت عاصمة للدولة وتوالى على الحكم العديد من الأئمة إلى أن سقطت على يد الفاطميين سنة 296 هـ وقد " انتشرت فلول

[1] . ابن خلدون ، العبر ، دار الكتب العلمية ، ط : 1 ، بيروت ، 1992 م ، ج : 6 ، ص : 247 .

[2] . ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، ص : 9 .

الرستميين في البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال الأوراس وإلى ورجلان وسدراتة وإلى جبال بني راشد وبعضهم انطلق إلى جبل نفوسة وجربة "[1].

وقد عمل الرستميون على بناء حضارة مغربية في المنطقة ، فنشطت الحركة العمرانية ، وانتشرت الحركة العلمية ، ونشط التعليم حتى كان الأمراء يقربون أهل العلم عمن سواهم ، وكانت مدينة تيهرت عاصمة العمران والثقافة في المغرب الأوسط في هذا العصر .

ج . العلويون والفاطميون في المغرب الأوسط :

استطاعت إحدى الأسر العلوية أن تفر من بلاد المشرق في موقعة فخ و تتجه إلى المغرب الأقصى لتأسس الدولة الإدريسية بقيادة إدريس الأكبر، " و كان المغرب الأوسط لزناتة و سيادتها لقبيلتين منها هما مغراوة و يفرن و موطنهما نواحي تلمسان إلى وهران إلى شلف شمالا وغريس من ناحية المعسكر جنوبا و رئاسة مغراوة كانت صدر الإسلام لصولات بن وزمار ثم ابنه حفص وكان من أعظم ملوك زناتة ، و لما أسس إدريس دولته بالمغرب الأقصى توجه نحو المغرب الأوسط كي يفتح لدولته طريقا إلى المشرق فزحف في رجب سنة 173 هـ في جموع مطغرة وغيرهم ونزل على تلمسان وصاحبها يومئذ محمد بن خزر

[1] . الحريري ، الدولة الرستمية ، ص : 186.

فأطاعه وسلم له المدينة فدخلها من غير حرب و أقام بها أشهرا ، بنى بها المسجد الأعظم "[1].

أما عن ظهور الشيعيين ببلاد المغرب الأوسط فيعود إلى ظهور داعيتهم أبي عبد الله الشيعي* في مدينة إيكجان " والتي تقع بين سطيف و ميلة على مسافة 37 كلم من الشمال الشرقي لسطيف و 41 كلم شمال غرب ميلة "[2].

وأول من نشر أفكار الشيعة في الجزائر " منيب بن سليمان المكناسي " نزل بأعمال تيهرت و نواحي " وانشريس " فنشرها هناك بين الناس ثم جاء بعده أبو سفيان و الحلواني فنشراها أيضا بين أهالي مرماجنة من بلد مجانة و سوق حماد بضواحي قسنطينة[3]. وقد ظل المغرب الأوسط تحت حكم الفاطميين إلى أن اتجهت أنظارهم إلى مصر. بتولي المعز لدين الله الفاطمي عام341هـ و استخلف بلكين بن زيري الصنهاجي في شهر رمضان 362هـ (973م)[4].

---

[1]. مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، ج : 2 ص : 101 .

* أبو عبد الله الشيعي : هو الحسين بن أحمد بن محمد أصله من صنعاء أو الكوفة ، يعرف بالمحتسب ، يقال أنه كان محتسبا بسوق الغزل بالبصرة ، ويعرف أيضا بالمعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية . ينظر : أبو عبد الله محمد الصنهاجي ، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق وتعليق : جلول أحمد البدوي ، م. و . ك ، د . ط ، الجزائر : 1984 م ، ص : 19 .

[2]. لخضر سيفر، التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي ، الأمل، د . ط ، 2006 ، ج : 2 ، ص : 142 .

[3]. صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر ، دار العلوم ، د . ط ، عنابة ، 2002 م ، ص : 64 .

[4]. نفسه ، ص : 64 .

د . المغرب الأوسط في العهد الحمادي :

عرف المغرب الأوسط في مبدأ القرن الخامس و في أواسط القرن السادس الهجريين قيام كيان سياسي و حضاري ، اصطبع بصبغة بربرية إسلامية ، و قد أدى انتقال العبيديين نحو المشرق إلى ظهور الدولة الزيرية التي كانت تحكم إفريقية (تونس) و امتداداتها الشرقية الجزائر و الصحراء و طرابلس.

ثم انقسمت الأسرة الزيرية على نفسها و استقل الفرع الحمادي منها بنواحي الغرب واتخذ من القلعة حاضرة لإمارة ظلت تداري الظروف شدانا للحياة و البقاء[1].

وقد كانت شخصية حماد قوية و حازمة في تحقيق ذلك الاستقلال السياسي و الديني أيضا فقام بعدة أعمال خالف فيها الواقع السياسي و تجسيد ذلك الاستقلال إذ " قتل الرافضة وأظهر السنة و رضي عن الشيخين و نبذ العبيدية و راجع العباسية "[2].

واستمر بناء الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الأوسط في مختلف جوانبها في هذه الدولة فتأسست مدينة بجاية ، وقد ترتب عن ذلك الاستقلال زحف بني هلال* . إذ " دخلت

---

[1] . عشراني سليمان ، الشخصية الجزائرية ، بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ج : 2 ، ص : 45 – 46 .

[2] . نفسه ، ج : 2 ، ص : 47 .

* بنو هلال وبنو سليم قبيلتان بدويتان تجولان في صحراء الحجاز ، فبنو هلال قرب الطائف وبنوسليم بنواحي المدينة . أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 27 .

العرب إفريقية وسبب ذلك أن المعز بن باديس كان يخطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسي وقطع خطبة المستنصر العلوي فأرسل يتهدده فأغلظ له المعز في الجواب .

وكان أهم حدث تاريخي في بلاد المغرب الأوسط هو تأسيس القلعة " التي نقل إليها خلق كثير من أهل المسيلة وأهل حمزة وأهل تلمسان وقصدها أهل القيروان والهلاليون وأناس من المشرق والأندلس وبلغت أوج عظمتها في عهد الناصر بن علناس وتقاطر عليها العديد من العلماء والأدباء .

هـ . المغرب الأوسط في عهد الدولة الموحدية : 515 – 668هـ / 1121 – 1269م .

لقد كانت الدولة الموحدية على أساس عقيدة التوحيد التي دعا إليها الداعية محمد بن تومرت الذي كان ينتسب إلى قبيلة " هرغة " إحدى بطون " قبيلة مصمودة ، وقد قام بمعارك عديدة ضد المرابطين ، لكنه تعرض لهزيمة ساحقة بمعركة البحيرة حيث جرح فيها جروحا بليغة لم يلبث إثرها أن توفي فبايع الموحدون تلميذه عبد المومن بن علي عام 524هـ (1130م) ، و استطاع أن يقتحم مراكش ويتجه إلى مكناس وفاس وتلمسان والجزائر وبجاية *التي اقتحمها عام 1153م [1] .

* ذكر ابن أبي زرع في كتابه الأنيس المطرب بروض القرطاس أن وصول محمد بن تومرت إلى بجاية كان في أول ربيع الأول سنة 510 هـ / 1161 م ، ويجعل ابن القطان وابن خلكان وصوله إليها في سنة 511 هـ أما ابن خلدون فيجعل

وقد عرف المغرب الأوسط حضارة راقية في عهد الدولة الموحدية في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والعمرانية ، وما قصر أشير والمنار ودار البحر وصومعة المسجد إلا دليلا عن تطور فن العمارة فيها .

وبتولي عبد المؤمن بن علي أمور الموحدين استولى على الجزائر و تونس وقضى على ثورات الأعراب ووضع حدا لهجومات النورماند على سواحل المغرب ثم جاء بعد ذلك المنصور ودحر ابن غانية فانقطع رجاؤه أن يبسط نفوذه في الجزائر . فلم تعرف الجزائر في حياتها أيام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه فنشطت الحركة الاقتصادية الداخلية وربط المغرب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية وقوى اتصال المغرب بالمشرق تجاريا برا وبحرا ، وقد نظمت التجارة الأوروبية مع إفريقية الشمالية [2].

ذلك سنة 512 هـ . أنظر : أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور ، د . ط ، الرباط ، 1971 م ، ص : 13 .

[1] . صالح فركوس ، المرجع السابق ، ص: 68–69 .

[2] . محمد الطمار ، المرجع السابق ، ص : 172 .

و . المغرب الأوسط في ظل الدولة الزيانية :

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدويلات التي قامت في بلاد المغرب الأوسط والتي كانت عاصمتها مدينة تلمسان* ، وقد عاش المغرب الأوسط خلالها العديد من الأحداث العصيبة التي شهدتها بلاد الأندلس في فتراتها الأخيرة .

ويعود ظهور الدولة الزيانية عندما " بدأ يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة حياته السياسية بالارتباط بالخلافة الموحدية بمراكش ، كما واجه الدولة الحفصية التي كان سلطانها أبو

---

* **تلمسان** : يتألف اسمها من كلمتين بربريتين هما : " تلم " ومعناها تجمع و " سان " ومعناها اثنان ومعناهما معا " تجمع اثنين " وهما البر والبحر ، بمعنى أنها تجمع بين طبيعة البر والبحر لوقوعها في مكان ملائم لذلك فهي تقع في سفح جبل طرارة ، وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها غير بعيد عنها حيث ميناء الغزوات الشهير ، ونواة هذه المدينة القديمة قرية " أقادير " التي اختطها بنو يفرن الزناتيون في عصور قديمة ، وكانت هي والمناطق المجاورة منطقة التوطن لقبيلة زناتة الكبيرة ذات الفروع المتعددة ، وسائر القبائل القوية بالمغرب العربي بعد صنهاجة وتليها كتامة ، وقد وصف أحد الشعراء تلمسان وهو محمد بن خميس قوله :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو   منى النفس لأدار السلام ولا الكرخ

وقد وصفت تلمسان بأنها مدينة جمعت بين الصحراء والريف ووضعت في موضع شريف كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه عبادها يدها وكهفها كفها وزينتها زيانها وعينها أعيانها هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها الممدود صحيح عتيد ، وماؤها بَرود صرير ... إلا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا مغلوبة للأمراء " .

أنظر : أبو زكريا يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق : عبد الحميد حاجيات ، نشر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، 2007 م ، ص : 85 ، يحي بوعزيز ، المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236 . 1554 م ، مجلة الأصالة ، ص : 3 وما بعدها ، محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص : 224 .

زكريا يطمح إلى توحيد المغرب تحت ظل دولته مما جعله يتقدم إلى تلمسان لإخضاع سلطان يغمراسن [1] .

و تنسب الدولة الزيانية إلى زيان بن ثابت بن محمد بن بني طاع الله لأن ملوكها من عقبه، وبنو طاع الله من بطون بني القاسم من عبد الواد[2] .

وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس أي – بني مرين – الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات ، وكان مصير بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب ، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس . إلا أنهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة[3] .

وقد مرت الدولة الزيانية بعدة أدوار تاريخية من الميلاد إلى السقوط و تتمثل هذه الأدوار في[4]:

الدور الأول : يتمثل في قيام هذه الدولة عام 1236م على يد الشاب الحازم ياغمراسن بن زيان بن ثابت* .

---

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج:1، الأحوال السياسية ، منشورات الحضارة ، د. ط ، د. ت ، ص : 9 .

[2] . مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر ، ج : 2 ، ص: 439 .

[3] . الحسن بن محمد الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد حجي ، محمد الأحضر ، دار الغرب الاسلامي ، ط:2 ، بيروت ، 1983 م ، ج : 2 ، ص: 8 .

[4]. يحي بوعزيز ، ماضي مدينة تلمسان و أبعادها الحضارية ، مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا ، جمع وتعليق : محمد بوزواوي ، القافلة للنشر والتوزيع ، د . ت ، ص: 17 وما بعدها .

الدور الثاني : الاستقلال عن الحفصيين والتعرض للعدوان المريني ، وقد برز في هذا الدور الأمير الزياني أبو حمو موسى بن عثمان .

الدور الثالث : وقد شهد غزو بني مرين لتلمسان ، وواجههم أبو سعيد الزياني ، ولكن المرينيين تمكنوا من احتلال تلمسان ومعظم جهات المغرب الأوسط .

الدور الرابع : وفي هذا الدور ظهور أبو حمو موسى الثاني وقد أطلق على دولته اسم الدولة الزيانية لكنها احتلت مرة أخرى عام 1393م السلطان أبو فارس عزوز .

الدور الخامس : بداية ضعف الدولة الزيانية وقد دخل الحفصيون واقتحموا تلمسان واحتلوها عام 1424م .

الدور السادس : كثرة تدخل الإسبان في شؤونها الداخلية بعد أن ضعفت وبروز قوة الأتراك كطرف رابع في الصراع وانتهى الأمر باختفاء هذه الدولة نهائيا عام 1554م [1].

---

* هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي ثابت بن أبي ثابت بن أبي تاشفين عبد الرحمن أبي حمو موسى بن يوسف بن الأحمر بن يحي بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن زيدان بن طاع الله علي بن برجي بان القاسم ، ومن القاسم هذا تنسل جمهور بن عبد الواد وهم بنو طاع الله وبنو دلول وبنو مظهر وبنو وعزان وبنو معطى وبنو حجي أما بقية بني عبد الواد وهم بنو ياتكتن وبنو وللو ومصحوبة وبنو تومرت وبنو ورسطف فليسوا من ولد القاسم ونسبهم في قيس بن عيلان بن مضر . أنظر : لمحمد بن عبد الله التنبكتي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق وتعليق : محمود بوعياد ، م . و . ك ، د . ط ، 1985 م ، ص : 109 .

[1] . يحي بوعزيز ، ماضي مدينة تلمسان ، ص : 19 . 20 . 21 .

3- ماضي العلاقات بين الأندلس والمغرب الأوسط :

لقد بدأت العلاقة بين المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي لها وعبور طارق بن زياد إليها ، ثم توطدت أكثر في العصور التي تلتها ، وكانت تتأثر أشد التأثير بالأحداث التي عصفت ببلاد المغرب في عصر الولاة .

وقد شهد العصر الرستمي في بلاد المغرب الأوسط هذه العلاقة وقام على تعزيزها نظرا لتوافق المصالح المشتركة بين الطرفين ، فالدولة الأموية بالأندلس كانت ترى في الدولة الرستمية الحاجز الأمني الذي يمنع وصول العباسيين إليها ، وقد شملت هذه العلاقة مختلف المجالات حتى أن بعض الأندلسيين قد رضخوا إلى إمارة تاهرت " ومنهم شخصيتين أندلسيتين كانتا في تاهرت عند وفاة عبد الرحمن بن رستم هما مسعود الأندلسي وعمران بن مروان الأندلسي وكانا من الشخصيات المرشحة للإمامة بعد عبد الرحمن وقد مال عامة المسلمين إلى أحدهما "[1] . فيذكر الدرجيني أن " الجمهور رجحوا مسعود أو مالت نفوسهم إلى توليته فتبادروا ليبايعوه "[2].

[1] . جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د . ط ، 1984 م ، ص: 128.

[2] . أحمد بن سعيد الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق : إبراهيم طلاي ، د . ط ، د . ت ، ج:1 ، ص : 46

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل لقد " عرفت الأندلس مذهب الخوارج ، وقد ظل مذهب الإباضية موجودا في الأندلس ، ويظهر أن جزيرة اليابسة التي هي من الأندلس كانت كلها إباضية إلى القرن السادس الهجري "[1].

ولما كانت الدولة الرستمية أميل إلى السلم مع جيرانها فقد كانت التجارة مزدهرة ، فاعتبرت تيهرت حلقة وصل بين التجار الأندلسيين والمغاربة وحتى بلاد المشرق ولهذا " كانت الصلات متينة بين الرستميين وأمويي الأندلس وكانت القوافل غادية رائحة بين الدولتين "[2] ، كما " فتح الرستميون أبواب مدينتهم تيهرت أمام التجار المغاربة والأندلسيين والمشارقة على حد سواء ، ووفروا لهم سبل الراحة والطمأنينة مما زاد في ثراء هذه المدينة ورخائها ، وازدهارها حتى بلغ نفوذها من تلمسان غربا إلى طرابلس شرقا "[3] .

أما مدينة تنس(262هـ – 875م) فقد قامت في منطقة تعرف بالخصب ، وكان إنتاجها يفيض عن الحاجة المحلية فكان مفروضا على المنطقة أن تلعب دورا تجاريا ، وبالفعل فقد كان يحمل منها الطعام إلى الأندلس ، وقد كانت تنس من مرافئ تاهرت وهذا مما زاد في أهميتها . كما كانت تنس " عدوة إلى الأندلس " ومحطة لاستقبال التجار الأندلسيين فكانوا يعقدون بمراكبهم إليها ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون إليها منها إلى ما سواها فقد اتخذها

---

[1] . جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، ص:169

[2] . محمد طمار ، المرجع السابق ، ص : 95 .

[3] . عبد العزيز فيلالي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، دار الفجر ، ط : 2 ، القاهرة ، 1999 م ، ص : 103 .

التجار الأندلسيون سوقا وسكنا ونزلوها وخيموا بها من أهل الأندلس وغيرهم من أهل البيرة أهل تدمير [1].

هذا بالإضافة إلى هجرة بعض الأندلسيين الفارين والمنفيين الذين رحلوا إلى بلاد المغرب الأوسط " حيث أمر بنو ذكوان بالخروج عن الأندلس حملوا إلى المرية ومن هناك خرجوا إلى وهران كما يمكن أن يكون بعض أصحاب وقعة الربض* قد نزلوا بلاد المغرب الأوسط ، فإن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة الشافعي البغدادي صار بتيهرت عند بنت له والشاعر بن هانئ الأندلسي الذي خرج على غير اختيار من الأندلس فنزل على أمراء المسيلة من بني حمدون "[2].

---

[1]. جودت يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، (9 . 10 م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، د . ت ، ص : 358 . 359 .

* **الربض** : هو إحدى ضواحي قرطبة ، يقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير ، ويمتد من ضفة النهر حتى بلدة شقندة المجاورة ، ولما كان هذا الحي قريبا من مسجد قرطبة ومن قصر الإمارة ومن السوق الرئيسي فقد سكنت فيه عناصر مختلفة ، وقد جرت أحداث سياسية دامية في هذه المدينة في عهد الخلافة الأموية جعلت العديد من الأندلسيين يهاجرون المنطقة إلى المغرب الأوسط ، ففي سنة 202 هـ أوقع الحكم بأهل الربض من قرطبة وذلك يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر رمضان من السنة المذكورة ، وسبب ذلك أن الحكم لما قتل فقهاء قرطبة وأشراف طليطلة عثا وتجبر واشتد سلطانه ، وكان له رجل نصراني يسمى القومس كان يخدمه وجعل له في نفقته ألف دينار من كورة ألبيرة ، فأبغض الناس الحكم واجتمع الخاصة والعامة فثاروا بالربض ، وحملوا السلاح ، وزحفوا إلى قصر الحكم بقتالهم فقاتلوهم قتالا شديدا ، فقتل من أهل قرطبة مقتلة عظيمة ، وأجلى منهم خلقا لا تحصى إلى بلاد العدوة . أنظر : مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق وترجمة : لويس مولينا ، د . ط ، مدريد ، 1983 م ، ص : 122 . 123 و محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص :187 وما بعدها.

[2] . جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط ، ص : 441

ولم يكن المغرب الأوسط ملاذا للفارين من العقوبات فحسب بل كان أيضا منارة يقصدها طلبة العلم من أجل التحصيل العلمي لما وجدوه فيها من علماء يأخذون عنهم ، ومنهم " أبو العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقري من أهل الأندلس حدث في مدينة تنس ، كما أن سعيد بن حسان بن علاء القرطبي سمع بتنس من أبي عمرو عثمان بن محمد بن السمرقندي وأبي حفص بن الحداد [1].

ولقد كان المغرب الأوسط قبلة للمهاجرين الأندلسيين في فترة الأزمات السياسية التي كانت تعرفها بلاد الأندلس خاصة زمن ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ، ولم يجد الأندلسيون بدا سوى الهجرة إلى مواطن آمنة هروبا من تلك الفتن ، وكانت المدن الساحلية للبحر الأبيض المتوسط هي المقر الذي استقروا فيه خلال تلك الفترات التاريخية .

" ولعل بعض الأندلسيين قد استقروا بمدينة تلمسان في العهدين المرابطي والموحدي في ظل الوحدة السياسية ، التي جمعت العدوتين المغربية والأندلسية ما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين (الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين) فقد جاءت وفود عديدة في هذه الفترة تطلب الأمان والسكينة في مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط "[2] .

أما عن عناصر السكان فقد وجد العديد من السكان الأندلسيين الذين استقروا في دولة بني حماد في بلاد المغرب الأوسط نظرا للاستقرار الذي تميزت به من جهة ، وتطورها

[1] . . جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط ، ص :442 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، موفم للنشر ، د . ط ، الجزائر ، 2007 م ، ج : 1 ، ص : 174 .

الثقافي والفكري من جهة أخرى ، فقد وجد " أندلسيون بالجزائر ومرسى الدجاج وتسيب وبونة وقرويون بتنس وفرنج بقلعة بني حماد وبجاية ويهود وعبيد في صفوف الجيش الحمادي "[1].

كما كانت المنطقة موطنا لجمع الجيوش المشاركة في الحملات العسكرية في الأندلس ، " فعبد المؤمن لما فرغ من أمر المهدية ، وأراد العودة إلى المغرب الأقصى جمع أمراء العرب الذين كانوا بإفريقية ، وطلب منهم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة ، يجاهدون في سبيل الله بالأندلس حيث استفحل أمر المشركين ، واستولوا على كثير من البلاد "[2] .

وفي المقابل عرفت مدينة بجاية مثلا روافد الهجرة الأندلسية إلى أرضها لسنوات طويلة ، حيث " كانت تقابل مدينة طرطوشة من الأندلس يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب ، كما هاجر الأندلسيون إليها إثر قيام البربر فيها بعدة فتن قضت على الزهراء فهاجر كثير منهم إلى المغرب الأوسط " [3].

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص: 161 .

[2] . محمد الطمار ، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 2010 م ، ص : 140 .

[3] . نفسه ، ص : 157 . 207 .

هذا وقد كان للإسبان يد في في بعض المنشآت الحمادية فقد " كان قصر الكوكب يشغل مكان برج موسى الذي أسسه الاسباني بيدرو نا فارو في القرن السادس "[1].

ومن هنا نستنتج الدور الكبير الذي لعبته المنطقة في تحقيق أواصر العلاقة السياسية بين البلدين ، والتي غذت بدورها المظاهر الأخرى اجتماعيا واقتصاديا ، ثقافيا وعمرانيا ، وغدت مدن المغرب الأوسط بعد ذلك موطنا للهجرات الأندلسية بمختلف طبقاتها الاجتماعية عربا كانوا أم بربرا . وسنفصل في فصول لاحقة استمرار هذه العلاقة في بلاد المغرب الأوسط ، والتي شملت مختلف المجالات ، وسيتبين مدى الروابط الوثيقة التي ربطت بين العدوتين ، وأهميتها في تعزيز الهجرة الأندلسية إلى المنطقة .

[1]. رشيد بورويبة ، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 1977 م ، ص : 246 .

<u>الفصل الأول</u>

سقوط الأندلس

المبحث الأول : سقوط غرناطة ونهاية الوجود العربي بالأندلس

المبحث الثاني : أوضاع المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة

المبحث الثالث : مواقف الدول الإسلامية من سقوط غرناطة

الفصل الأول . سقوط الأندلس

لقد مرت الأندلس في تاريخها الإسلامي منذ الفتح ودخول العرب إلى المنطقة بعدة مراحل – كما بينا – ، وقد استطاع المسلمون الفاتحون أن يؤسسوا بها حضارة راقية بكل أبعادها الاقتصادية والثقافية ، فتطورت تطورا لا مثيل له أدهش العرب والغرب على حدّ سواء ، وكانت بذلك الحصن الذي حمى الجهة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط الذي ظل يعيش لفترة طويلة تحت الحكم البيزنطي ، ويلقى معاناة دائمة من الغارات التي كان يشنها الروم على المنطقة .

وقد عرف الوجود العربي الإسلامي في الأندلس خلال ثمانية قرون فترات ليست بالسهلة، بل كانت شديدة على المسلمين نظرا لما عرفته المنطقة من كثرة الثورات بها ، وحقد الصليبيين الذين ما فتئوا يعاودون الهجوم عليها لاسترداد مدنهم التي أخذت منهم ، فلم تكن خطى المسلمين بها ثابتة ، بل أصابها توتر شديد وتعثر سياسي كبير نتيجة عوامل داخلية متمثلة في سلبية نظام حكامها الذين نقلوا إليها عصبياتهم الجاهلية وخلافاتهم السياسية والمذهبية ، أو عوامل خارجية كالزحف الصليبي على بعض المدن الأندلسية الهامة ، وظل الوضع السياسي على هذه الحال بين الذبول والنهوض ، ورغم محاولات أبنائها في تصحيح الأخطاء والقيام بمجهودات لاسترداد المدن الزائلة ، فإنها بقيت عاجزة عن ردّ الخطر الأكبر الذي هددها مع نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي والذي صادف سقوط

الأندلس ونهاية الوجود العربي بالمنطقة بسقوط آخر معقل إسلامي ألا وهو غرناطة ، ولم يكن للأندلسيين ملجأ بعدها إلا الفرار إلى المغرب بحثا عن مكان آمن لاستمرار العيش فيه.

المبحث الأول : سقوط غرناطة ونهاية الوجود العربي بالأندلس :

1 . أسباب سقوط الأندلس :

1−1 . الأسباب الداخلية :

لم يكن سقوط الأندلس حدثا مفاجئا ، بل قد سبقته مراحل جعلت من هذه المنطقة ثورة للصراع العسكري لفترات ضاربة في الزمن منذ العصور الأولى ، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى زوال المسلمين بالأندلس ما يلي :

ضعف سلطان الموحدين في المغرب فضعف في الأندلس وخاصة في المعركة التي جرت بين جيش الموحدين وجموع النصارى سنة 609هـ / 1212م في موقعه العقاب فكسرت شوكة المسلمين وعاد شبح الخراب يلوح في الأفق [1].

وعلى الرغم من صمود غرناطة في وجه الصليبيين لمدة طويلة فإنها لم تستطع أن تصمد أكثر أمام حقد الملكين الكاثوليكيين فرديناد وإيزابيلا وذلك بسبب الضغط الخارجي خاصة عند " حرق المزارع وقطع الطرق وانعدام التجارة والأمن ، واستنزاف قطاعات الدولة وذلك بفرض الأتاوات عليها من قبل النصارى بين الحين والآخر ، وكذا قتل أعداد هائلة من

[1] . محمد رضا بشير القهوجي ، حاضر العالم الإسلامي ، دار الكلم الطيب ، ط:1 بيروت 2000 م ، ص: 81 .

المسلمين أثناء المعارك المستمرة بين الطرفين ممّا أدّى إلى قلة القوى البشرية ، وقلة المساعدات العربية من بني مرين وغيرهم نظرا للصراعات الداخلية والهجومات الخارجية التي قام بها الحفصيون ضد بني مرين "[1].

كما أن ابن خلدون في حديثه عن أسباب سقوط الدول قد جعل الترف أهم عامل في انهيار الأمم حيث قال : " ليس من سنة الله أن يهلك المدن والحواضر ، وأهلها صالحون مصلحون ، إنما يهلكها بفسادها وعلى قمة هذا الفساد و الترف بما يمثله من خلل في ميزان توزيع الثروة وهو – أي الترف – لا يتوقف على الطبقة الحاكمة ، بل يشمل الأمة ، كما يشمل تلك الطفيليات التي تلتصق بالحاكم بحامله ، وتنافق له لتستفيد من سلطته وهيبته "[2]، وتتجلى ظاهرة الترف في " كثرة الحاجات والإنفاق ، فتضرب المكوس على أثمان المبيعات في الأسواق لإدرار الجباية ، فتثقل المغارم على الرعايا وتكسد الأسواق ، وذلك لأن الجباية مقدار معلوم لا تزيد ولا تنقص "[3] . وقد جعل ابن خلدون فصلا كاملا بعنوان : في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم ، وقد قال في هذا : " أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه و إذا اتخذوا الدعة والراحة مألفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإيلافها ، فتَرْبى أجيالهم الحادثة

[1] . علي حسين الشطشاط ، نهاية الوجود العربي في الأندلس ، دار قباء ، د.ط ، القاهرة ، 2001 ، ص : 62 – 63 .

[2] . نعمان بن عبد الرزاق السامرائي ، في التفسير الإسلامي للتاريخ ، الجزائر ، دار الشهاب ، د . ط ، د . ت ، ص : 135 .

[3] . محمد عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، د . ط ، الاسكندرية ، 1996 ، ص : 334 .

في غضاضة العيش و مهاد الترف والدعة ، وينقلب خلق التوحش ، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس ، وتعود الافتراس ، وركوب البيداء وهداية القفر فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة فتضعف حمايتهم ويذهب بأسهم وتتخضد شوكتهم ، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس من ثياب الهرم "[1] .

وبهذا صار الترف عاملا من عوامل انهيار الدول وزوال ملكها ، وكانت الأندلس مناط الزوال لتفشي هذا الداء ، فلما كان المسلمون ذووا بأس شديد وتميزهم بالخشونة والصلابة زمن المرابطين كان لهم النصر والغلبة ، ولما تخلوا عن هذه العادة ومالوا إلى الدعة والترف ساءت أحوالهم وضاعت أملاكهم ، " فالانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد "[2] عامل من عوامل سقوط الدول ، وهذا " المؤرخ كوندي يقول : (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات) ، فالأندلسيون في أواخر أيامهم ألقوا أنفسهم في أحضان النعيم ، وناموا في ظل ظليل من الفن والحياة العابثة والمجون وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر ، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم ، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة

---

[1] . ابن خلدون (عبد الرحمن) ، الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون ، تهذيب : ضياء الدين بن رجب شهاب الدين ، دار الفتح ، الشارقة ، ط : 1 ، 1995 ، ص: 233 – 234.

[2] . علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، ص: 267 .

الخشنة الجافية وغدا التهتك والانحراف في المجون واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ "[1].

وخلال العصر الغرناطي استمر منهاج التكاثر المادي والتنافس المعماري ، ففي عهد محمد الخامس من بني الأحمر وصلت عمارة الأندلس غايتها ، إذ كان هو نفسه ميالا للدعة ، فارتقى بغرناطة من الناحية المادية والمعمارية حتى غدت أكثر الممالك رقيا وازدهارا، ولم يعمد إلى استغلال الفرصة لتقوية بلاده و إعادة مجدها بالتعاون مع بني مرين فضلا عن الاهتمام بالسلام وبدعوته وصناعة الرجال الأكفاء [2] ، ولما كان ملوك غرناطة ميالين إلى الترف والعمل على الإكثار من الأموال وتوظيفها في غير محلها ، ولما كانت هذه حالهم فقد زامن هذا الانحلال والترف الذي أصاب ملوك غرناطة أن سلط الله عليهم عدوهم فبدأت عوامل الوحدة والقوة تتجمع في إسبانيا النصرانية "[3]

و عليه فإن الترف من أهم مسببات سقوط الأندلس ، لما يجلبه من أضرار اجتماعية وإخلال خلقي بعيد عن المرامي والأهداف النبيلة التي يدعو إليها الإسلام ، " فسقطت الأندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ،

---

[1]. علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص: 267 .

[2]. عبد الحليم عويس ، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1994م ، ص: 28.

[3]. المرجع نفسه ، ص : 29 .

ولهو يقطع به أيامه ، واسترسلوا إلى اللذات ، وركنوا إلى الراحات ، وأغفلوا الأجناد واحتجبوا عن الناس ولم يعودوا ينظرون في الملك [1].

لم يقتصر الترف على طائفة معينة دون أخرى في بلاد الأندلس ، بل كانت هذه الظاهرة تنخر المجتمع الأندلسي بكل طوائفه وطبقاته الاجتماعية حكاما ومحكومين ، وإن كان تأثير الترف على الأخلاق وفسادها عظيما ، فإن انغماس الحكام في هذه الرذيلة شيء أعظم لأنهم يمثلون الطبقة الهامة في تسيير شؤون الرعية فبفساد الراعي تفسد أخلاق رعيته والمتبين أن سقوط الأندلس في النهاية كان لانتشار هذا السبب بكثرة في المدن الأندلسية وعلى مر العصور التاريخية ، حتى في عصر الدويلات التي عرف عنها العدل والخشونة وقد توارث الحكام هذه الأخلاق الفاسدة جيلا بعد جيل فكان مآل الأندلس السقوط في النهاية.

ومن مظاهر سوء الحياة السياسية بمدينة غرناطة ، وابتعاد حكامها عن سلوك الأمراء ذوي الآراء السديدة والأخلاق الحميدة ، والصلابة والبأس وحب الجهاد ، وما يحكى عن الأمير أبي الحسن " من التقهقر والانتكاس والانتقاص ، ذلك أنه اشتغل باللذات والانهماك في الشهوات ، واللهو بالنساء المطربات ، وركن إلى الراحة والحفلات ، وضيع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان ، وثقل المغارم وكثر الضرائب في البلدان ومكس الأسواق ونهب الأموال وشح بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك وكان للأمير أبي

---

[1]. علي مظهر ، غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، ط : 1 ، مصر ، 1923 م ، ص : 145 .

الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك فبقيت الحال كذلك مدة والأمير منشغل باللذات ، منهمك في الشهوات ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الأموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها ، ويجعل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان ويقطع عنهم المعروف والإحسان ، حتى باع الجند شبابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها "[1].

وهكذا صارت الأوضاع الداخلية مساعدة على سقوط الأندلس ، وممهدة الطريق أمام الإسبان الذين كانوا يعدون العدة لهذا اليوم ، واستغلوا تلك الصراعات الداخلية وضعف حكام الأندلس في استرداد موطنهم وبعث الروح الصليبية فيه من جديد ، و الظاهر أن ملوك غرناطة لم يستفيدوا من الدروس السابقة التي مرّ بها التاريخ الأندلسي . لاسيما في عصر ملوك الطوائف وما بعدهم . إذ عرفت الحضارة الأندلسية قمة في الترف وغلقت على نفسها باب الجهاد ، وصرف الأموال في الأعمال العسكرية والحربية ، بل عمدت إلى بناء القصور والمنازل وبذل السبل من أجل راحة المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، و " كان المأمول أن يدرس ملوك غرناطة ما أصاب المسلمين في الأندلس وأن يقفوا على العوامل التي أدت بالأندلس إلى هذا المصير ويتجنبوها ، لكن شيئا ملموسا من ذلك لم يقع ... وكان التكاثر المادي وما يتبعه من ترف ولهو واستنزاف للطاقة وإبعاد الأمة عن عوامل النهضة الحقيقية ، واحدا من تلك العوامل التي عملت عملها في سقوط غرناطة وفي خروج المسلمين جميعا من

[1] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16و17 دار افريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، د. ط، 1991م ، ض: 54 .

إسبانيا أشنع خروج عرفه التاريخ ولم يكن لدى ملوك غرناطة الطموح الإسلامي الرفيع الذي يدفعهم كي يحافظوا على حدود مملكتهم في وسط هؤلاء الأعداء المحيطين بهم من كل جانب ، فقد جعلوا همهم أيضا أن يرتقوا بمدينتهم الرقي المادي المعروف وأن يجعلوها المدينة المتفوقة مدنيا في المجالات المعمارية والصحية والترفيهية "[1] ،

ولم يكن حظ الأعمال العسكرية إلا القليل مقارنة بضخامة تعظيم أمر الرفاهية والبحث عن سبيل تحقيقها من جلب للمهندسين والمعماريين والفنانين الذين كلفوا الدولة ميزانية عظيمة ، إذ " يتحدث (كيب) عن قصر الحمراء وما حوله فيقول : ومن حسن الحظ بقي قصر الحمراء الملكي ليرينا الجلالة والتأنق والإبداع وهي الآن يجد فيها الإنسان معنى هذا اللفظ (أرض عبقر) حيث يخرج من دهليزها المظلم إلى عرضة الأسود فيرى سواري كأغصان البان ويتملى بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهية إذا نظرت إليها خلتها زرابي فارسية مرقشة أو رياض أزهار بهيجة قد اشتبكت فيها الصناعة العجيبة "[2].

أما غرناطة فقد سقطت لعوامل متعددة وهي أسباب تشمل مختلف العصور وليس العصر الغرناطي فحسب " فالمنازعات الداخلية والصراعات المختلفة حول الحكم في الأسرة المالكة أدّى إلى انشغال الحاكم ووزرائه وقواده بتلك الفتن التي لا نهاية لها ، وفي سبيل

---

[1] . عبد الحليم عويس ، المرجع السابق ، ص : 26 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 27 – 28 .

شهوة الملك يضحي بكل شيء ويضحي بقطع أجزاء من الوطن ويدفع جزية مالية مرهقة وكذا تسليم الحصون والقلاع التي كانت تذود عن الحمراء وتدافع عنها من أي جهة سلمت للأعداء ، وكان هذا شرطا أساسيا من شروط ملك قشتالة عند عقد معاهدة بينه وبين ملوك المسلمين وقد أدّى سقوط الحصون إلى ضعف حامية غرناطة ومن ثم زلزلة كيان المسلمين وازدياد قوة النصارى آنذاك "[1].

ونظرا لما يبعثه التنافس من فرقة بين الحكام ، فيبعدهم عن دائرة الأخوة والاتحاد من أجل تحقيق وحدة الجماعة ، وهو ما حذر منه تعالى بقولة : " **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** "[2] . وفي قوله تعالى : " **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** "[3] دلالة واضحة على وجوب الاجتماع [4].

ولما كانت طبيعة الحكم في ظل التنافس والتكالب على السلطة أمرا تفشى في عهد ملوك بني الأحمر فكان طبيعيا أن يزول حكمهم ، وتتشتت وحدتهم وتضعف عزيمتهم ، " فالصراع على وراثة الحكم كان يتكرر بين أعضاء الأسرة الحاكمة وخاصة ابتداء من العقد الأخير من القرن الرابع عشر ، وكان لكل منهم مؤيدوه من أصحاب النفوذ . ثم إن موقف الدولة الإسلامية الملتزمة كان يشجع على تزايد نفوذ الفقهاء وهؤلاء كانوا مع المرتزقة الأفارقة

---

1. فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، دار الأندلس الجديدة ، ط:1 ، مصر 2011م ، ص: 17-18

2. سورة : آل عمران ، الآية : 105 .

3. سورة : آل عمران ، الآية : 103 .

4. محمد موسى الشريف ، استجابات إسلامية لصرخات أندلسية ، الأندلس الجديدة ، د. ط، د. ت ، ص : 24

وبعض العناصر من أهل المدن كانوا يميلون إلى تأييد الحرب "[1] ، وبهذا كانت غرناطة تعيش فترة من الاضطراب السياسي والضعف العسكري في فترة حكم بني الأحمر وخاصة زمن الزحل –آخر ملوك غرناطة– الذي "قضى فترة من حكمه يحارب ابن أخيه أبا عبد الله ، وهكذا انقسم البيت الحاكم على نفسه وكان الأمراء يحاربون بعضهم بعضا ويستعينون في خصوماتهم بالعدو ، وقصرت فترة حكم السلاطين ، وكان أهل غرناطة يبقون على السلطان الذي يحارب ويعود محملا بالأسلاب و الغنائم ، أما السلطان الذي ينهزم يعزلوه "[2].

و من مظاهر الصراع السياسي الذي شهدته مملكة غرناطة " نشوب الحرب الأهلية بين أمراء البيت المالك ، ففي عام (868هـ / 1463م) ثار على الملك سعد بن محمد بن يوسف ابنه أبو الحسن علي الملقب بالغالب بالله (865–887هـ / 1461–1482م) بتحريض من بني سراج ، وقام أبو الحسن بخلع أبيه ونفاه إلى مالقة حيث توفي في العام التالي وهو لم يتخلص الحكم لنفسه إلا بعد صراع عنيف مع منافسيه وعلى رأسهم أخويه أبي الحجاج يوسف وأبي عبد الله محمد المعروف بالزحل "[3].

وليس غريبا في أن سقوط الدول يعود إلى إهمال أبنائها إرث آبائهم ، وتفضيلهم للمصلحة الشخصية على مصلحة الأمة أو الجماعة ، وقد تفشى هذا الداء في دولة بني

---

[1] . مونتغمري وات ، في تاريخ إسبانيا الإسلامية مع فصل في الأدب ، ص: 159 .

[2] . عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، دار الفكر العربي ، د. ط ، القاهرة ، 1999 ، ص : 301 .

[3]. محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص : 606–607 .

الأحمر فكان سببا من أسباب سقوطها ، إذ "قامت سياستهم على سياسة الحفاظ على الملك وتدعيمه في غرناطة ولو بإعلان الطاعة مع الأمراء الإسبان ، والتحالف معهم ضد أمراء الأندلس المسلمين أو المغرب المسلم أيضا ، وبرز هذا النمط خلال النصف الثاني من القرن 7هـ ، وخاصة خلال مرحلة تأسيس الدولة قبل أن يزداد الخطر الإسباني على غرناطة نفسها للاستنصار ببني مرين إلا أن خوف بني الأحمر من زيادة نفوذ بني مرين على حسابهم في الأندلس . خاصة في الثغور الأندلسية الجنوبية التي اتخذتها قوات بني مرين قواعد دائمة لها . دفعهم للتحالف في بعض الأحيان مع أمراء الإسبان ضد بني مرين والصدام معهم "[1] ، وبهذا نستنتج مدى تغلب روح الملك في نفسية أمراء بني الأحمر وصرف اهتمامهم عن تحقيق أمن الدولة والمحافظة عليها ، بل راحوا يتنافسون فيما بينهم ويتحاسدون فأعطوا الفرصة لعدوهم الذي طالما حاول تشجيع هذه الفرقة في نفوس الملوك العرب للانقضاض عليهم ، وكان من نتيجة ذلك أن يستسلم العديد منهم للإسبان .

ومن مظاهر الخذلان التي اتسم بها أمراء غرناطة استسلامهم لملوك الإسبان وجبنهم من أجل الحفاظ على مكانتهم ، فكان السقوط مآلهم ونسوا أن النصارى لا يرضون على المسلمين حتى يتبعوا ملتهم ، وفي ذلك استعانة القائدين المسلمين ابن هود وابن الأحمر بالأجنبي ضد أبناء ملتهما فطالما حذر القرآن الجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها بطانة وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها يقول الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا

[1] . نادية محمود مصطفى ، العصر المملوكي من نصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية 642-932هـ / 1258-1517م ، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط :1 ، القاهرة : 1996 م ، ص : 77-78 .

تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون " (الآية 118 من سورة آل عمران)[1] .

وبهذا جبن الحكام العرب وبقوا متمسكين بملكهم مقابل الذل وتسليم الأموال لهم التي بها تخدم الحضارة الإسلامية ، ومن مظاهر الخنوع والذل للإسبان ما قام به ابن الأحمر من اتفاق مع ملك قشتالة بعد سقوط العديد من المدن الأندلسية في أيدي الإسبان ، وذلك من أجل الحفاظ على مدينة غرناطة من وصول أيدي الصليبيين إليها وإن كان هذا العمل الذي أقدم عليه كانت له نتائج إيجابية في حفظ الحضارة الإسلامية بالمنطقة ، لكنه في المقابل مكن العدو من السيطرة عليه بطريقة غير مباشرة ، " وقد سار ابن الأحمر بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة وعرفه بنفسه وأعلن له طاعته فدهش فرناندو لجرأة ابن الأحمر وعانقة وعقد معه اتفاقا كان من بنوده :

أ – يحتفظ أمير غرناطة بما تحت يده من المدن والحصون .

ب – يؤدي أمير غرناطة لأمير قشتالة جزية سنوية مقدارها 50 ألف مثقال من الذهب .

ج – يتعهد ابن الأحمر بأن يسرع بقواته لعون ملك قشتالة كلما طلب منه ذلك سواء كان ذلك لمحاربة المسلمين أو النصارى .

---

[1] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 101 .

د – يتعهد ابن الأحمر بأن يحضر اجتماعات مجلس التاج (الكوزس) كبقية الأمراء التابعين للعرش .

هـ – يسلم ابن الأحمر قلعة جيان للملك فرناندو رهنا وتوثيقا للعهد .

و – يمنع ملك قشتالة عن الاعتداء على الأراضي التابعة لمملكة غرناطة .[1]

وهكذا صارت قشتالة أكبر قوة في إسبانيا تحضر للاستيلاء النهائي على الأندلس وتمكنت من أن تفرض سيطرتها على غرناطة سلميا ، تحضيرا لمواصلة الضغط على المعاقل الإسلامية ، وممارسة الضغوط النفسية على ملوكها ، وهكذا أصبحت غرناطة رغم المجهودات التي قامت بها في الحفاظ على كيانها تابعة شكليا للمملكه الإسبانية .

وفي مقابل الضعف السياسي الذي نجم عن الصراع على الحكم العسكري بسبب خنوع الحكام ، وبعدهم عن الجهاد ، ورضائهم بالقليل من دفع الأموال للمسيحيين مقابل حفاظهم على منزلتهم ، فقد أدى كل ذلك إلى كساد اقتصادي فقد شل اقتصاد غرناطة في تلك الآونة بسبب قطع وحرق المزارع وقطع الطرق وانعدام التجارة والأمن واستنزاف طاقات الدولة ، وذلك بفرض الأتاوات عليها من قبل النصارى بين الحين والآخر وقتل أعداد هائلة من المسلمين أثناء المعارك المستمرة بين الطرفين مما أدى إلى قلة القوى البشرية "[2] ، وبهذا أصبحت غرناطة عاجزة اقتصاديا .

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص: 80 .

[2] . علي حسن الشطشاط ، المرجع السابق ، ص: 63 .

_ " كانت سياسة غرناطة مع طول الأيام التي عاشتها دفاعية لا هجومية بدأت . وهي شبه تابع – على طريقة القرون الوسطى الأوربية لمملكة قشتالة وكانت تقدم لها ما يقدمه الإقطاعيون هناك للملوك الذين يسدونهم من المال المقرر والمعونة الحربية عند اللزوم "[1] .

وقد كان جبل طارق هو الملاذ الوحيد الذي تربط به غرناطة علاقاتها الخارجية مع بلاد المغرب والمشرق على حد سواء ، وكانت حريصة على أن يبقى مضيق جبل طارق سبيلها للتنفس الحر مفتوحا لها بعيدا عن السيطرة النصرانية وآمنا للتجارة والحروب على السواء "[2].

" حماسة رجال الكنيسة لفكرة مرت عليهم منذ زمن ورافقت فكرة الاسترداد للأراضي الإسبانية وهي فكرة التنصير "[3].

وقد تمكنت إسبانيا من فرض سيطرتها بواقع مدروس للأوضاع المزرية التي آل إليها مصير العرب في تلك الآونة من الوهن والضعف السياسي والعسكري ، فقد " تأكدت قشتالة من عدم نهضة المماليك في مصر أو الحفصيين في تونس أو العثمانيين في البلقان لإنجاد غرناطة لأن هذه الدول لا تملك القوى البرية للوصول إلى غرناطة "[4] .

---

[1] . شاكر مصطفى ، الأندلس في التاريخ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1990 ، ص : 133 .

[2] . المرجع نفسه ، ص: 134 .

[3] . المرجع نفسه ، ص : 148 .

[4] . شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص : 145 .

1 . 2 . الأسباب الخارجية :

في مقابل الضعف السياسي الذي شهدته الأندلس بعد سقوط العديد من المدن الأندلسية " فلم تأت سنة 659 هـ / 1261 م حتى وقعت جميع المدن العربية الأندلسية تقريبا تحت وطأة الاحتلال الإسباني ، فقد استولوا على لوشة وماردة وبطليوس سنة 622 هـ / 1225 م وعلى جزيرة ميورقة سنة 627 هـ / 1230 م وعلى قرطبة سنة 633 هـ / 1236 م وعلى مرسية وإشبيلية سنة 645 هـ / 1248 م وعلى طلبيرة سنة 659 هـ / 1261 م ولم يبق بيد العرب غير غرناطة "[1]، وفي مقابل هذا السقوط ظهرت قوة جديدة صليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين ، وعازمة على إعادة استرجاع مملكة الأندلس للإسبان وقد كانت إسبانيا تعد العدة للقضاء النهائي على المسلمين بالأندلس فقد بلغ عدد " دول إسبانيا النصرانية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي خمسا وهي : قشتالة وليون وأراغون نافار والبرتغال وكانت أقواها مملكة قشتالة التي نازل ملكها ألفوسو الثامن الموحدين في معركتين فاصلتين هما الأرك* سنة 591هـ / 1194 م والعقاب سنة 609هـ / 1212 م ثم ضمت مملكتي بخارة وليون إلى الدول الأخرى .. ثم تلتها سقوط قرطبة سنة 633هـ / 1235 م

---

[1] . علي أحمد ، الأندلسيون في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، د ، ط ، دمشق ، 2008 م ، ص : 40 . 41 .

* **الأرك** : كانت في يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة . أي 591 هـ . التقى المسلمون وعدوهم ، فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم ، وكانت الدائرة على الأذفنش . لعنه الله . وأصحابه ، ولم ينج إلا هو في نحو ثلاثين من وجوه قواده ، واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم . أنظر : المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص : 206 .

وإشبيلية سنة 646هـ / 1248 م وجيان سنة 463هـ / 1070 م وقد كانت قشتالة وأراغون تتعاونان في مهاجمة الأندلس "[1].

وأهم حدث وحد بين مدن إسبانيا الزواج الذي عقد بين ملك أراغون وملكة قشتالة " فبحلول عام 874هـ / 1469 م حدثت مفاجأة مذهلة في التاريخ الأندلسي الإسباني ساهمت في وحدة إسبانيا النصرانية بزواج فرديناند حاكم أراغون من ايزابيلا حاكمة قشتالة ، وقد ترتب عن هذا الزواج الملكي مولد إسبانيا الموحدة كدولة أوروبية عظمى قوية في البر والبحر، وذلك أمام قوة أراغون البحرية ونشاطها في البحر المتوسط وامتلاكها صقلية ونابولي قد امتزج بالقوة العسكرية لمملكة قشتالة "[2] .

وفي الوقت الذي كان المسلمون يعانون من اضطرابات داخلية وفوضى سياسية عارمة وأزمات اقتصادية حاولت إسبانيا أن تتخطى كل الصعوبات والعراقيل التي تمنعها من تحقيق أهدافها ، والوصول لإعادة الصليبية إلى الأندلس ، "فكانت إسبانيا تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز الجغرافية بفعل التفاوت الجهوي العميق ، واقتصادية ناجمة عن التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات في دالية ذات امتيازات كبيرة وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر ما تؤدي إلى الوحدة والمركزية ففي قشتالة مثلا كانت الأسرة المالكة دائما

---

[1] . علي حسن الشطشاط ، نهاية الوجود العربي بالأندلس ، ص : 60 – 61 .

[2] . عبد اللطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ط :1 ، 1993 ، الرياض ، ص : 25 .

ضعيفة الإمكانيات بسبب وجود عدد من الإقطاعيين النبلاء الذين كانوا يشوشون على السلطة ، ويضيقون الخناق على كل مشاريعها في تعزيز الوحدة "[1] ، وفي مقابل هذه الصعوبات الداخلية التي ظل يعاني منها الحكام الإسبان ، والتشتت في الآراء وعدم توحد الصف والتفكير في المصلحة الخاصة دون المصلحة العامة ، حاول الإسبان أن يرفعوا من هممهم ويجعلوا مصلحة توحيد إسبانيا فوق كل المصالح الشخصية ، وهكذا " تمكن العرش القشتالي في النهاية من التغلب على بعض هذه الصعاب بفضل تحمسه للمسيحية وإخراجه للعرب ، والاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم ، فكان هذا العمل إذن هو المحور الذي دارت حوله الوحدة القشتالية أولا والإسبانية ثانيا ، إذ جعل من قشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للمسيحية ظاهريا فقط فجلب العرش القشتالي لذلك الجنود والضباط ، أي أنه أصبحت لديه الإدارة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة "[2] .

وكانت الروح الدينية والتعطش لنشر المسيحية دافعا قويا على توحد الإسبانيين ، فكانت هذه الحرب صليبية حاقدة على تواجد المسلمين بها رغم التسامح الديني الذي قام به العرب تجاه المسيحيين منذ الزمن الأول للتواجد العربي الإسلامي في المنطقة ، وزاد من تدعيم هذه القوة الدينية والروح المندفعة للاستماتة في سبيل هذا الدين –الدين المسيحي– أن تعززت قوتهم العسكرية ، وتنظمت حياتهم السياسية فقد " تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام ، فالنبلاء أزيل لهم الاعتبار الخاص منذ الحرب الأهلية القشتالية ،

---

[1] . محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 51 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 51 .

ودخلوا في صف الملكين الكاثوليكيين ، والأوامر العسكرية أصبحت مرتبطة بالعرش كما خلقت ميليشيات قوية ومسلحة وكل إليها محاربة السلب والنهب وأعمال اللصوصية السائدة آنذاك"[1] ، وبهذا تمكنت إسبانيا من تصحيح أوضاعها الداخلية والتأهب لتحقيق أهدافها وحراسة مصالحها واسترداد ممتلكاتها .

ومن أهم ما قام به الصليبيون في مواجهة فلول المسلمين في الأندلس ، ونظرا لموقع غرناطة المهم الذي لا يبعد كثيرا على بلاد المغرب فقد حاول الصليبيون القضاء على أهم منطقة لوصول الإمدادات إليها ، وقد " تنبه الصليبيون لذلك فاحتلوا جبل طارق سنة 767هـ / 1462 م للحيلولة دون وصول الإمدادات إلى مسلمي الأندلس وأخذ الملك والملكة يقضمان مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى ولا تحرك في المسلمين أي شعور ، حتى حاصروا غرناطة "[2].

وبعد سقوط جبل طارق أضحت مالقة صلة الوصل الأخيرة مع المغرب لذلك كانت هدف فرديناند الخامس التالي ، فزحف إليها وحاصرها من البر والبحر لتحصن السكان بداخلها ، وراحوا يدافعون عنها واستولى على القرى والحصون المجاورة منها "[3].

ونظرا للمشاكل الداخلية التي كانت تمر بها الأندلس نتيجة الصراع السياسي على الحكم بين الأمراء وانشغالهم بمصالحهم الخاصة ، وابتعادهم عن الدور الأساسي الذي بقي

---

[1] . محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص: 52 .

[2] . محمد رضا بشير القهوجي ، حاضر العالم الإسلامي ، ص : 81 .

[3] . محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص : 609 .

من أجله المسلمون سنين طويلة في الأندلس ، ألا وهو حراسة الثغور ، والمبادرة بمباغته الأعداء ، والحرص على رد كيدهم وخطرهم ، وإبراز قوة المسلمين في المنطقة ، " فقد استغل الإسبان فرصة انشغال المسلمين بالحرب التي قامت بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله واستولوا على الأجزاء الغربية من مملكة غرناطة مثل رندة ولوشة ومالقة فيما بين سنتي 890 – 892هـ / 1485 – 1487 م ، ولجأ الملك فرناندو إلى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة لكي يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعا فحاصر المدينة سنة (896هـ / 1491 م) ، وأفسد مروجها ، وبنى أمامها مدينة أطلق عليها اسم شنتفى أي الإيمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية "[1].

ومن الأسباب الخارجية ما تتعلق ببلاد المغرب وهي موطن الإمدادات ، والمراكز العسكرية التي كان يخرج منها الجند لمساعدة المسلمين الأندلسيين ومواصلة دور الحماية لهم ، فكان المغرب لسنين طويلة الجدار الواقي للأندلسيين من الجهة الجنوبية والذي كان موطنا لرسائل الاستغاثة التي كان يرسلها الأمراء الأندلسيون إلى تلك المنطقة خاصة زمن ملوك الطوائف واستنجادهم بالمرابطين ثم العبور الثاني للموحدين للأندلس والذي حفظ المنطقة لمدة طويلة .

لكن بلاد المغرب في فترة تملك الإسبان على تلك المدن الآنفة ، وسقوط جبل طارق بأيديهم مكن لهم السيطرة على الجهة الجنوبية للأندلس ، وأصبحت غرناطة محاصرة من كل

[1] . عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ج : 2 ، د. ط ، 1993 ، ص : 367 – 368 .

جهة ، وكان " الضعف قد أدرك دولة بني مرين ومضت مسرعة في طريق التفكك والانحلال كما بلغت مملكة بني عبد الواد في تلمسان مراحل شيخوختها وتراجعت قوة الحفصيين في تونس فتوقفت نتيجة ذلك المساعدات القادمة من شمالي إفريقيا "[1].

وكان ضعف الدولة المرينية من أهم عوامل السقوط ، ومن مظاهر ضعفها أن بني مرين "عانوا محنة شديدة أولا أمام القوات النصرانية الموحدة ، وتحطم أسطولهم تحطما تاما ، ثم باضطراب أمرهم في المغرب نفسه الأمر الذي صرفهم عن إنجاد الأندلس ، فكان لذلك أبعد الأثر في تقرير المصير المحزن للحكم العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية "[2].

وعليه أضحت غرناطة بين فكي كماشة ، الضعف المغربي بتصارع الدويلات الثلاثة بنو حفص وبنو مرين وبنو زيان فيما بينهم في الجنوب ، وظهور قوى إسبانية شرسة في الشمال.

2- دولة بني الأحمر ونهاية الوجود الإسلامي بها :

بعد زوال الحكم من يد الموحدين في بلاد الأندلس وانهزامهم أمام الاسبان في معارك شتى ، بسبب كثرة الطامعين من الداخل والخارج لم يبق بحوزة المسلمين بعد سقوط العديد من المدن الأندلسية في أيدي النصارى سوى مملكة غرناطة التي أصبحت المعقل الوحيد الذي يحتمي به المسلمون هناك من ملاحقة الإسبان لهم ، فأصبح المسلمون ينتقلون إليها

---

[1]. محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص: 606 .

[2]. أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص: 81

بأعداد عظيمة حتى اختزل اسم الأندلس بحدوده الجغرافية الواسعة في دولة صغيرة يحكمها أمراء من بني الأحمر في مدينة غرناطة التي اتخذت عاصمة لهم " وذلك قبيل منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) وقد انحصرت حدود تلك المملكة في الجزء الجنوبي من الأندلس وراء نهر الوادي الكبير وامتدت حتى ساحل البحر المتوسط و جبل طارق وقد اتسعت حدودها الشرقية لتضم ولاية مرسية التي امتدت شرقا حتى البحر ، وقد امتدت حدودها الشمالية إلى ولايات إشبيلية وقرطبة وجيان ، كما امتدت الحدود الغربية إلى أرض الفرنتيرة وولاية قادش" [1].

وكان التقسيم الإداري لمملكة بني نصر آنذاك يشمل ثلاث ولايات كبرى هي :

1. **ولاية مرسية** : وتضم المساحة التي تشغلها مرسية على شاطئ البحر المتوسط ومن أهم مدنها مرسية وأندرش ودلاية وبورجة وبرشانة وبيرة .
2. **ولاية مالقة** : وهي تقع شرق غرناطة ومناضمة لساحل البحر ومن أهم مدنها مالقة ومربلة ورندة وأنتقيرة وأرشدونة وبلايش وتمارش .
3. **ولاية غرناطة** : وهي تقع في وسط المملكة وتمتد جنوبا حتى البحر وأهم مدنها غرناطة العاصمة ووادي آش والحامة تولوشة وأرجيه وأشكر وحصن اللوز وبسطة وشولبانية "[2].

---

[1] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 95 .

[2] . المرجع نفسه ، ص: 95 .

2 . 1 . التعريف ببني الأحمر :

لقد حكم الأندلس أسرة عربية من سلالة بني الأحمر حتى عرفت الأندلس فيما بعد "بدولة بني الأحمر " نسبة إليهم ، وقد قامت هذه الدولة في الوقت الذي " أخذت فيه القواعد العربية تتساقط الواحدة تلو الأخرى بيد الإسبان ، وأرسى دعائمها وأركانها محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج في المدينة المنورة ، فكان محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس دولة العرب والإسلام في غرناطة "[1] .

أما عن أصل تسمية هذه الدولة بدولة بني الأحمر فيعود إلى مؤسسها إذ كان " محمد بن يوسف المذكور يلقب بابن الأحمر* ، ومن هنا سميت دولتهم بدولة بني الأحمر ، وقد ولد محمد هذا سنة 595هـ / 1198م ، وتوفي سنة 671هـ / 1272م ، واتخذ لنفسه لقب الغالب ، وجعل غرناطة مقرا لحكومته ، وأدّى الطاعة والجزية لملك قشتالة فرناندو الثالث"[2].

وقد استطاعت غرناطة أن تصمد في وجه الإسبان لمدة تزيد عن قرنين من الزمن ، توالى على حكمها العديد من السلاطين من أبناء محمد الأمير الأول وأهل بيته .

---

[1] . عبد الحكيم دنون ، آفاق غرناطة ، دار المعرفة ، ط:1 ، دمشق 1988 ، ص: 93 .

* لقب محمد بن يوسف بابن الأحمر لشقرة فيه ، ينظر : عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، دراسات في تاريخ العرب والأندلس ، ص: 299 .

[2] . سلمى الخضراء الجيوسي ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مركز دراسات الوحدة العربية ، ط:2 ، بيروت 1998 ، ص :107 -108 .

أما محمد بن الأحمر الأول : 629-672هـ / 1232-1273 م فهو الغالب بالله أمير المسلمين الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي ، تسلم إمارة مدينة أرخونة في رمضان 629هـ / 1232م ، ثم دخلت مدينتا وادي آش وجيان في طاعته سنة 633هـ / 1233م ، كما فتحت قرطبة أبوابها له لكنه فشل في المحافظة على مدينتي قرطبة وإشبيلية .

وقد قام محمد بن الأحمر بعدة أعمال كتبت في صفحات الحضارة الإسلامية بالأندلس ، فكان يهتم بأمور دولته الداخلية كاهتمامه بالمحافظة على وجودها وذلك بصراعه الطويل مع الاسبان ، واستنجاده بالملوك المغاربة في ردّ خطرهم الاستردادي ، فقد كان " فرناندو ملك قشتالة يرى في ابن الأحمر عدوا يجب القضاء عليه ، وكان ابن الأحمر يرى في نفسه أنه زعيم الأندلس ، وأن موقفه يحتم عليه حماية ما تبقى منها والتصدي للنصارى "[1] ، ومن أهم أعماله الحضارية أنه " بنى قصر الحمراء الشهير في غرناطة واتخذه مركز حكمه ، وكان يباشر الأمور بنفسه ويدقق الأموال ويخصص للعامة يومين يعالج أمورهم ، وكان يعقد مجلسا شوريا من الزعماء والفقهاء والقضاة يسترشد بآرائهم في تصريف أمور المملكة "[2] ، ومن أعماله الخيرية التي تظهر اهتمامه بطوائف مجتمعه المقلقة " أنه أنشأ مأوى للعميان ودارا للعجزة ، وبنى مستشفى كبيرا ونشر المدارس وأعد المنازل للغرباء من دون تمييز بين

[1] . يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية ، دار الجيل ، بيروت ، ط:1 ، 1993 ، ص: 19 .

[2] . سعدون نصر الله ، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط:1 ، 1998 ، ص: 353 .

الأديان والقوميات وكان يتفقد رعيته متسترا بعيدا عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك "[1] ، أما عن الجانب الاقتصادي فقد أولى به عناية خاصة ، " فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية ، ولما بنى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة ، ومد إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائما حتى اليوم "[2] .

وبهذا اتسمت الفترة الأولى من الحكم الغرناطي بتطور حضاري نقل فيه محمد بن الأحمر الحضارة الإسلامية من جميع أطرافها إلى مدينة غرناطة التي شهدت منجزات إسلامية خالدة، ولم تدم الحياة لهذا القائد إذ توفي في جمادى الثانية 672هـ / كانون الثاني 1273م ."[3]

وبعد وفاة محمد الأول توارث الحكم على ملك غرناطة العديد من الملوك وهم على التوالي[4]:

. محمد بن محمد بن يوسف الفقيه 671-701هـ

. محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر

. نصر بن محمد الفقيه

. السلطان أبو الوليد إسماعيل 713-725هـ / 1314-1325م

---

[1] . يوسف شكري فرحات ، المرجع السابق ، ص: 25- 26 .

[2] . ، نفسه ، ص: 26 .

[3] . نفسه ، ص: 25 .

[4] . سعدون بن نصر الله ، المرجع السابق ، ص: 358 وما بعدها .

. السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف (أبو عبد الله) 725-733هـ / 1325-1333م

. السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل 733هـ - 1333م

. السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل 755هـ / 1354م

. إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل

. يوسف بن محمد الفقيه (يوسف الثاني ، أبو الحجاج) 793-797هـ/1391-1394م

. السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله 797-808هـ/1394-1405م

. السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله 811-820هـ/1408-1417م

. السلطان محمد بن يوسف الأمير 820-946هـ/1417-1442م

. يوسف بن الجلول

. محمد بن نصر (الأحنف)

. سعد بن محمد 863-868هـ/ 1458-1463م

. علي بن سعد (أبو الحسن) 868-878هـ/1463-1482م

. محمد بن علي بن سعد (أبو عبد الله) 887-897هـ/1483-1492م

وقد اتسم هذا العصر –العصر الغرناطي- بتطور حضاري مسّ جميع جوانب الحياة على الرغم من قصر مدّة حكمهم إلا أن الأمراء استطاعوا أن يحققوا نوعا من الرفاهية في

مملكتهم الصغيرة ، فعلى الصعيد السياسي استطاعت هذه الدولة أن تحقق وجودها في ظل وجود الاستعمار الإسباني الذي كان يتحين الفرصة للقضاء عليها ، وطرد من بقي من المسلمين فيها ، ودامت فترة حكم بني الأحمر مدة طويلة من الزمن دامت أكثر من قرنين من الزمن ، وهي وإن كانت في مواجهة مستمرة مع الإسبان إلا أنها استطاعت أن تكسب لصفها هدنة جعلتها تلتفت للأمور الأخرى كالبناء والاقتصاد والأدب ، وما مرّ بنا من أعمال خالدة لأولئك الملوك سوى شاهد على ذلك ، " وقد عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم ، وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبغ في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر كأبي عبد الله بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم "[1] ، وبهذا فقد كانت الأندلس رمزا من رموز الإرث العربي الإسلامي في إسبانيا ، وحضارة شهدت معالمها الإسلامية على اهتمام حكامها بالموروث الثقافي الإسلامي ونشره في مختلف الأنحاء ، فقد أقبل الغرب والعرب على حد سواء على الاغتراف من ذلك الموروث الحضاري ثقافيا وفكريا وعلميا ، وانتقل بفضل التسامح الديني الذي اتسم به الأندلسيون في هذا العصر الفكر العربي إلى أوربا جميعها عن طريق حرية التأليف وانتقال العلماء من مكان إلى آخر ، وهكذا صارت " غرناطة دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأنصار ومطمع الأنفس ، ولم تخل من أشراف أماثل وعلماء أكابر وشعراء أفاضل وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس وتسمى

---

[1]. جوزيف كلاس ، أناشيد من الفردوس المفقود ، ص : 48 . 49

بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها ويشقها نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ونزل بها أهل دمشق لما جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور "[1] .

وبهذا كانت غرناطة رافدا من روافد الحضارة الإسلامية التي انتقلت إلى أوربا بفضل التسامح الذي " ساعد على التطور الحضاري في البلاد الأندلسية ، والذي اتبعه المسلمون تجاه العناصر غير الإسلامية من نصارى ويهود ، فأقبل المستغربون الإسبان على تلقي العلوم وتعلم اللغة العربية ، كما تتلمذ بعض اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين فأصبح المستغربون رسلا جددا للحضارة الإسلامية نتيجة إتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معا ، فاستطاعوا نقل العلوم العربية الإسلامية إلى الاسبان والأوربيين ، وأصبح إقبال الغربيين على تعلم العلوم العربية من الأمور اللافتة للنظر "[2] .

2 . 2 . سقوط غرناطة :

أ . عوامل ثبات غرناطة في وجه الإسبان :

كان لجملة الأسباب الداخلية والخارجية الآنفة الذكر أثر في ضعف الدولة الإسلامية بالأندلس ، وهوانها في ردّ الخطر المحدق بها ، وعجلت مظاهر الصراع على الحكم بين أمرائها موتها الذي لطالما كان موتا بطيئا لسنوات طويلة بل لمدة قاربت الثمانية قرون من

[1] . عبد القادر قلاتي ، الدولة الإسلامية في الأندلس من الميلاد إلى السقوط ، ص : 155.

[2] . المرجع نفسه ، ص: 148–149 .

الزمن ، وقد كانت الأندلس تعيش في فترة اضطراب نظرا لوقوع العديد من المدن الأندلسية في أيدي الإسبان وفرار العديد من المسلمين إلى غرناطة ، فأصبحت هذه الأخيرة المعقل الآمن لهم من النفي أو التنصير القسري ، ومن أهم أسباب ثبات غرناطة في وجه الإسبان ما يلي :

. مناعة الموقع بجانب قربها من عدوة المغرب وعدم وجود خطر معاد أمام مسلمي غرناطة يقف حائلا دون الاستعانة بإخوانهم في المغرب وبقية الشمال الإفريقي .

. موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية لم يدعها تعيش طوال سنينها وحيدة بل كان الإخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين وكان على رأس هؤلاء بنو مرين .

. أدى سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي النصارى إلى هجر مدنهم واللجوء إلى مملكة غرناطة ليحتمون بها فتجمعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان ، حربيا كان أم مدنيا حيث كان منهم رجال الحرب والدفاع الأشد الذين صمموا على الوقوف والاستعداد للتضحية ومنهم نخبة كبيرة من العلماء والصناع ساهموا في ازدهار مملكة غرناطة وتقدمها .

. الدين الإسلامي ذلك المقدار الذي بقي من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حيا وحياة حقيقية ، وهو الذي جمع هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة والاستعداد للبذل ورفع الهمم [1].

ب . طريقة استسلام غرناطة :

رغم الأسباب السالفة الذكر التي ساعدت غرناطة على الصمود إلا أنها لم تصمد أكثر من قرنين من الزمن ، فلما أن ساعدت الأوضاع إسبانيا على النهوض بزمام أمورها وتوحيد نظامها انقلبت على عهود السلام التي أبرمتها مع ملوك العرب ، ولما اجتمعت الأسباب على غرناطة سارعت للزوال ، وقد " اقتربت نهاية غرناطة عندما اعتلى السلطان أبو الحسن ابن الأحمر عرش غرناطة ، وكان أبو الحسن شجاعا مقداما ، ولكن يخالط شجاعته مزاج حاد وطبيعة نارية تبلغ درجة التهور والطيش غير عابئ للعواقب ، وكان أبوه قد أدرك ضعف غرناطة أمام الإسبان فآثر السلامة ورضى أن يدفع لملك الاسبان ضريبة سنوية لإرضائه ، أما أبو الحسن هذا فعندما طولب بالضريبة أجاب الإسبان أن ليس عنده إلا السيف وأعقب كلامه بالفعل فهجم على حامية إسبانية قريبة واحتلها وطرد منها الإسبان[2] ، وكانت عواقب هذه الشجاعة وخيمة على الأندلسيين ، إذ ساءت الأوضاع بسبب الحروب

[1] . علي حسين الشطشاط ، نهاية الوجود العربي بالأندلس ، ص: 59-60-61 .

[2] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص: 110 .

وقلة الأموال وكثرة النفقات على الحروب ، ومن أهم الأعمال التي أودت بغرناطة إلى السقوط أنه " في عام 875هـ / 1517م زحف أبو الحسن إلى قلعة الصخرة الحصينة واستولى عليها وقتل من فيها ، وقد اعتبر بعض العقلاء أن هذا التصرف عملا لا مبرر له وتوجسوا شتى العواقب وفي ذلك يقول أحد الشيوخ ، ويل لنا فلسوف تسقط انتقاض الصخرة فوق رؤوسنا "[1] ، أما الأوضاع الداخلية لمدينة غرناطة فقد ساءت لحاجة الحروب إلى النفقات على السلاح و " من أجل تغطية النفقات المتكاثرة التي كانت تعيشها المملكة عمد أبو الحسن إلى فرض ضرائب جديدة مما أثار غضب العامة ، فعمت الفوضى العاصمة خصوصا في حي البيازين ، واغتنم الناس غياب السلطان ليعلنوا بيعتهم لأبي عبد الله "[2].

ومما زاد من سوء الأوضاع الصراع الداخلي على الحكم ومحاولة بعض الأفراد من أسرة أبي الحسن السيطرة على الملك الأمر الذي جعل المدينة تفقد هيبتها الخارجية ، وهي أهم نقطة ضعف في الحكم العربي الغرناطي الذي استفاد منه الإسبان إذ نازع الملك أبو الحسن أخواه يوسف أبو الحجاج وأبو عبد الله محمد المعروف بالزغل ، وكان للسلطان أبي الحسن زوجتان الأولى ابنة عمه واسمها عائشة ، والأخرى حسناء إسبانية ابنة أحد قادة إسبانيا المشهورين واسمها بعد إسلامها ثريا ، وقد أنجبت كل واحدة منهما اثنين من الأمراء ، فثارت مسألة ولاية العهد بين الجانبين تحت تأثير هاتين الزوجتين "[3]، وقد عجلت هذه المشاكل

[1]. يوسف شكري فرحات ، المرجع السابق ، ص: 47-48 .

[2]. نفسه ، ص : 48 .

[3]. عبد اللطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ص : 26 .

الداخلية بين الآباء والأبناء على دخول الإسبان غرناطة ، وجعل أمرائها ألعوبة بيدها تتصرف فيها كيف تشاء ، وقد وصلت الأمور بملوك غرناطة " أن اعتلى عرشها ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه أواخر سنة 887 هـ وعمره 25 سنة ، وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد وباشر القتال بنفسه ، وحقق انتصارات على النصارى ، وانتزع منهم حصونا وقلاعا سنة 888 هـ / أبريل سنة 1483 م إلا أنه وقع أسيرا في يد النصارى في إحدى المعارك "[1] ، وقد كان أسره محنة جديدة للبيت العربي في غرناطة ، إذ أنه سبب في وقوع مفاوضات بين الإسبان والعرب على تسليمه بشروط وتم الاتفاق بين الطرفين بالشروط التالية :

1 . يعلن أبو عبد الله تبعيته لملك إسبانيا .

2 . يتنازل عن الحصون التي يستولي عليها القشتاليون مما تحت يدي أبي عبد الله .

3 . يتعهد الصغير بأن يسمح للجيش القشتالي بالمرور في الأراضي الخاضعة له كلما طلب الملك القشتالي ذلك .

4 . يطلق خلال خمس سنوات سراح 700 أسير ممن هم تحت يده ، على أن يختار ملك قشتالة 300 منهم .

5 . وتحقيقا للوفاء بهذه الشروط يسلم أبو عبد الله ابنه البكر و12 شخصا من كبار رجال دولته ليبقوا رهائن بيد ملك قشتالة .

[1] . علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، ص : 245 .

6 . يدفع أبو عبد الله فدية مقدارها 14000 دينار من الذهب [1].

أما عن تفوق إسبانيا في احتلال غرناطة فيكمن في سيطرتها على أمرائها ، وتشديد الخناق عليهم بتلك المعاهدة التي أبرمت ، والتي مفادها تنازل حكام غرناطة عن الحصون ، كما نص عليه البند الثاني من المعاهدة ، وبذلك أصبحت غرناطة مفتوحة الأبواب أمام هجمات النصارى ، ولم يكن لديها درع يحميها ، إذ كانت تلك الحصون بمثابة حاجز عسكري يمنع دخول الإسبان إليها ، وبعد ذلك " ابتدأ الإسبان بالاستيلاء على المناطق المحيطة بغرناطة ، ثم عسكروا في جنوب غرب المدينة في مرج غرناطة ، حيث قاموا ببناء معسكر أطلق عليه اسم بلدة شنتفي أو (الإيمان المقدس) ، وابتدؤوا من هذا المعسكر بالإغارة على المدينة وتشديد الحصار عليها ، ولم تنفع محاولات سكان المدينة البطولية في رد الجيش المهاجم ، أو تخليص المدينة لكثرة عدد المهاجمين ، وقلة الأقوات داخل المدينة، وقد استمر الحصار نحو سبعة أشهر ، خسر فيها العرب كثيرا من فرسانهم ورجالهم ، وانقطعت عنهم المؤن التي كانت تأتيهم من جهة جبال شلير أو الثلج بسبب نزول الثلج والأمطار ، الأمر الذي اضطرهم إلى قبول المفاوضات مع العدو من أجل إيقاف القتال وتسليم المدينة " [2] .

---

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 86 .

[2] . عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، المدار الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 2004 م ، ص : 8 . 9 .

وبعد هذه الهزائم التي مني بها سكان غرناطة ، وعدم جدوى القتال في وجه عدو يفوقهم قوة وعتادا ، وانقطاع الاتصال مع سكان المغرب وحكامها ، وعجز هؤلاء على إرسال الجيوش إلى الأندلس لمقاتلة الأعداء لم يبق في وسع الأندلسيين سوى الاستسلام للهزيمة والرضا بأقل الخسائر البشرية مما جعلهم يقبلون التفاوض مع ملوك إسبانيا ولكن بشروط بأن " يؤمنهم على أنفسهم وبلادهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورياعهم وجناتهم ومحارثهم ، وجميع ما بأيديهم ، ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة ، ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته في مراكبه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الإقامة بغرناطة من المسلمين فله الأمان في دينه مغلظة على أنه يوفي لهم جميع ما شرطوه عليه "[1] .

وعليه تمت المفاوضات بين المسلمين ومنهم أبو عبد الله مع النصارى ، وقد تمت معاهدة بينهم تحوي العديد من البنود التي بينت ضعف المسلمين ، وقوة الصليبيين وتفوقهم ، ومنها تسليم رهائن قبل موعد التسليم ، كما أن هذه المعاهدة نصت على بنود عفو شمال لكل من اعتدى على إسبانيا أو شارك في مقاومة ما ، كما نصت تلك البنود السماح للمسلمين بالحفاظ على ممتلكاتهم ، وأباحت لهم ولليهود حرية الدين والمعتقد ، أما من الجوانب

---

[1] . مجهول ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب ، ضبط وتعليق : الفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط : 1 ، بور سعيد ، 2002 م ، ص : 41 ، وينظر أيضا : محمد عبد الله عنان ، أندلسيات ، تقديم : محمد الرميحي ، الكتاب العربي ، د . ت .

الاقتصادية فإنها أصدرت قرارا بإعفائهم من الضرائب والرسوم ، كما حافظت على مكانة القضاة والفقهاء ، مع طلق أسرى المسلمين ، واتلسماح بعودة المغتربين إلى بلادهم ، واستفادتهم من جميع الامتيازات المذكورة ، كما منعت إكراه المسلمين من التنصر ، والسماح لهم بممارسة الأنشطة الاقتصادية وعلى رأسها التجارة ، مع السماح لمراقبة المكاييل من طرف المسلمين[1] .

وبهذا أصبح المسلمون بحسب هذه المعاهدة في مأمن على حياتهم الدينية والاقتصادية ، وأن هذا الاستسلام قد أظهر وجها من التسامح الديني الإسباني للمسلمين ، لكنه في مقابل ذلك أخفى في طياته العديد من أوجه الحقد والكراهية للدين الإسلامي والتعصب الديني النصراني في مواجهة كل أثر يدل على الإسلام وعناصر هوية المسلمين ، وهو ما سنبينه بعد هذا الاستسلام .

إن غرناطة قد سقطت إذن بموجب تلك المعاهدة السابقة ، ونتيجة للأسباب الداخلية والخارجية المباشرة وغير المباشرة ، التي مهدت الطريق أمام التوحد الإسباني الذي أعد العدة لذلك اليوم الحاسم الذي انتظره لمدة تزيد عن ثمانية قرون استطاعت فيها إسبانيا المسلمة أن تواجه لمرات لا تحصر العدو في معارك بطولية دونتها كتب التاريخ ، لكن الانهيار النهائي للأندلس كان عظيم الأثر على المسلمين هناك ، وفي سائر بقاع الأرض .

[1] . ينظر هذه المعاهدة في الملحق رقم 1 في آخر البحث .

حوصرت المدة لعدة أشهر ، " دام سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون ، وفشلت محاولات الاقتحام المتكررة ، ومع بداية شهر محرم من عام 897 هـ / أواخر 1491 م كانت وسائل الاتصال بالخارج قد أمست مستحيلة ، فعم اليأس وانتشر الجوع والمرض ، فاجتمع أعيان القوم واتفقوا على تسليم المدينة ما عدا القائد موسى الذي رفض القرار ، وخرج من الاجتماع مغضبا واختفى أثره ، ثم أرسل الوزير أبو القاسم عبد الملك للمفاوضة ، وتم التوقيع على معاهدة التسليم في الخامس والعشرين من كانون الأول 897 هـ / 1491 م أي يوم عيد الميلاد "[1]، أما ما يخص ملوكها فقد كانوا أسوأ حالا ، إذ هانت عزائمهم ، وخارت قواهم ، ولم يستطيعوا البقاء في الأندلس ، ورؤية مرارة الهزيمة ، فالملك أبو عبد الله " اتفق أن يغادر إلى منطقة البشرات حيث يعطي ضياعا يعيش في مدخولها ، ويكون في طاعة ملك قشتالة ، كما اتفق أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها ضمانة للإخلاص والطاعة "[2].

وقد تشاور ملك الأندلس مع أهله وذوي السلطان على إيجاد حل للمشكلة التي ألمت بغرناطة ، ولم يكن في وسعهم بد من المقاومة أو مواجهة الأعداء ، " فدعا السلطان أبو عبد الله رجال الدولة وأهل المشورة يستطلع آراءهم فيما ينبغي عمله ، فاتفقوا على إسلام البلاد حفاظا على النفوس أن تهلك حيث لا يجدي الهلاك ، فاختاروا وفدا من رءساء الجند

[1]. يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، ص : 53 . 54 .

[2]. المرجع نفسه ، ص : 54 .

المفاوضة فخرجوا إلى معسكر الإسبانيين فاستقبلهم فريديناند وإيزابيلا بحفاوة ، فعرضوا عليها إسلام العاصمة على شروط فقبلا العاهلان دون تردد " [1].

وبعد أن اتفق الجانبان على البنود المذكورة آنفا أصبحت غرناطة مفتوحة الأبواب ، وسمحت بدخول الملكين الكاثوليكيين إليها ، " فأخليت دورها وقصورها ومنازلها ، وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها ، فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعمائة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فريديناند بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام بقية الجيوش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر "[2] .

أما عن كيفية دخوله الحمراء فإنه دخلها في عظمة من جنده ، وأمر ببناء الحصون ، وإعادة ترميم ما هدم منها ، وكذا إخراج المسلمين منها حتى يأمن على نفسه حيث " أتاهم بالمراكب إلى الساحل ، فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ودوره ، فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جناته وأرض حرثه وكرمه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن* ،

---

[1]. بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، دار مارون عبود ، د . ط ، 1987 م ، ص : 147 . 148 .

[2]. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص : 314 .

* **الدجن** : مصدر دَجَنَ أي أقام بموضع وسكنه ، ويقال لهم أيضا المدجنون ، وهم المسلمون الذين اضطروا إلى المكوث في الوطن الأصلي تحت حكم السادة الجدد الإسبان ، كان المدجنون بين رعايا ملوك اسبانيا أفضل العناصر وأنشطها ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا الساعد الأيمن للنبلاء في زراعة أراضيهم واستغلالها ، وكانوا أبرع الأطباء ، وأشهر المهندسين والبنائين ، وكان لهم الفضل في إدخال قصب السكر والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز ... وغير

ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ، ويرجع بالليل فلم يزل كذلك إلى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه نفر من قومه وحشمه " [1].

أما عن أبي عبد الله فقد أثير جدل حول رحيله إلى البشرات ثم إلى المغرب ، وإقامته في مدينة فاس ، بين من أقر أن خروجه كان اختيارا ، ومن قال أنه أجبر على الخروج بالاستناد إلى نصوص ووثائق تاريخية " وهل كان خروجه إجباريا أم بوسائل فنية في طريقة الإقناع ، ومما لا يقبل مجالا للشك أن الملوك الكاثوليك لم يسعدوا بانسحاب أبي عبد الله إلى منطقة البشرات ، وإنما كانوا يرغبون بشدة بأن يغادر شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأن يذهب إلى ما وراء البحار ، وفي واقع الأمر أن الملوك الكاثوليك بحصافتهم وحكمتهم الدبلوماسية وصلوا إلى تنفيذ بنود اتفاقية تسليم غرناطة وأراضيها بالشكل الذي يسمح للملك أبي عبد الله

ذلك إلى اسبانيا ، وكانوا خبراء في الصناعات الرقيقة كالمنتجات القطنية والحريرية والفخار والخزف والجلود ، فلم يكن إذ ذاك أشهر من حرير المرية وغرناطة ، ولا خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية ، ومع طول الزمن انتهوا بالاندماج في المجتمع الاسباني النصراني .

والمدجنون تسمية أطلقت على ذلك النفر من المسلمين بسبب وضع التبعية والحماية الذي كانوا يعيشون في ظله ، وينطوي ذلك الوضع على عنصر من الخضوع ، وثمة شبه واضح بين وضع (أهل الدجن) في المجتمع المسيحي ، وبين وضع (أهل الذمة) أو الشعوب المحمية من يهود ومسيحيين في المجتمع الإسلامي ، ولكن إذ يكون وضع هؤلاء محكوما بنصوص القرآن الكريم يرى نظام الدجن الذي يحمي المدجنين ناشئا عن شروط معاهدات الاستسلام . أنظر : أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955م ، ج : 4 ، ص : 306 . ليونارد باتريك هارقي ، المدجنون ، مقال نشر في : الحضارة العربية في الأندلس لسلمى الخضراء الجيوشي ، ج : 1 ، ص : 288 .

[1] . عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، المرجع السابق ، ص : 314 . 315 .

وأفراد عائلته وأتباعه الكبار والصغار بالذهاب إلى ما وراء البحار إذ رغبوا في ذلك إلى الإسكندرية وتونس ووهران أو فاس " [1]، وفي مقابل قبول الملك الرحيل عن غرناطة إلى ما وراء البحار فقد قدمت له العديد من التسهيلات ، حيث التزم أصحاب الجلالة بأنهم سوف يتعهدون بالنسبة لأبي عبد الله والملكات المسلمات وأخته ، ولكل أتباعه وخدامه أن يمكنوهم من نقل حاجياتهم وممتلكاتهم في سفينتين كبيرتين بدون أي رسوم كما سبق الاتفاق عليه في تسليم غرناطة ، وأنهم لن يدفعوا أية رسوم على أي شيء يخرجونه معهم من المملكة ، وأي أشياء أخرى وردت الإشارة إليها في اتفاقية التسليم المذكورة [2] .

وعلى أية حال ، ومهما قيل عن كيفية انتقال الملك أبي عبد الله من الأندلس ، فإنه لم يكن له أي خيار آخر أمام مغادرة غرناطة إلى المغرب ليختار بعدها مكان لجوئه .

وقد حمل نفسه وارتحل عن غرناطة حيث " امتطى أبو عبد الله الصغير صهوة فرسه ، وقد ارتعدت فرائسه موليا ظهره لقصر الحمراء ، وقد تقطب جبينه ، وانعقدت سحابة الحزن على أسارير وجهه ، وانطفأ وهج الحياة أمام ناظريه ، وقد خيم على الركب المرافق له صمت كئيب لما اكتنف القلوب من الغم والكرب الشديدين ، ومضى أبو عبد الله تتبعه أمه وأهله وأقاربه وصحبه متجها نحو مقر منفاه "[3].

---

[1] . عبد الفتاح عوض ، إشراقات أندلسية ، صفحات من تاريخ الحضارة الإشلامية في الأندلس ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط : 1 ، 2007 م ، ص : 71 . 72 .

[2] . عبد الفتاح عوض ، المرجع السابق ، ص : 79 .

[3] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 116 . 117 .

وقد ترك أبو عبد الله وراءه قصورا عظيمة ، وضيعات واسعة ، وخيرات كثيرة ، وجنات رحبة لم يستطع لذلك الصمود ، وحين " تذكر قصور الحمراء تلفت إليها وهو على مرتفع من الأرض فرأى غرناطة ، ورأى بيوتها البيضاء الجميلة ، فألقى عليها نظرة وداع أخيرة ، وفاضت عيناه بالدمع ، فاعتصر قلبه حزنا ، وانهمرت الدموع من عينيه ، فحاول جاهدا أن يخفيها عن أمه التي ترقبه والحسرة تملأ قلبها فقالت له قولة صارت مثلا وهي : " ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال "[1] " ، وقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها :

تذكر الله باكيا هل يرد الدمع   مجدا ثوى وعارا أقاما

هدني فوق خطبنا أنك ابني   يا لأم تسقي العذاب تؤلما

لم تصن كالرجال ملكا فأمسى   ركنه اندك فابكه كالأيـامى[2]

وهكذا انتهى آخر وجود للعرب المسلمين في الأندلس بعد زهاء ثمانية قرون وذلك " في الثاني من ربيع الأول 897 هـ كانون الثاني يناير سنة 1492 م ، وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة ، وما كاد الكاردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا، ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبا كبيرا فضيا وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن من فوق البرج ثلاثا أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكيين " [3].

---

[1]. فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص : 117 .

[2]. محمد علي الصلابي ، دولة الموحدين ، ص : 254 .

[3]. نفسه ، ص : 253 .

وبهذا انتهى مصرع غرناطة بالصورة المؤلمة التي عرفتها ، وهي من أفجع مظاهر سقوط المدن الإسلامية في التاريخ ، وما صور التنصير التي عرفتها إلا أنها تبدي صورا من الحقد الصليبي على المسلمين الذي مكنهم من دخول غرناطة ، والقضاء على الوجود العربي بها .

أما عن كيفية إظهار ملامح النصرانية في مدينة غرناطة ، ورفع الصليب على أبراجها ، " فتشير الغالبية من الرواة والمؤرخين إلى البرج الأعلى أو برج الأجراس الذي يطلق عليه اليوم اسم برج لابيلا ، أما عن طريقة الاحتفال بهذا النصر ، فقد ذكر العديد من المؤرخين أنه كان احتفالا مهيبا تعلوه بهجة عارمة في صفوف الإسبانيين ، وقد " تمت صلاة الشكر بنشيد مقدس ، وربما كانت بعد رفع الصليب مباشرة ، على الرغم من أن بعض المؤرخين يفترضون ذلك بعد رفع كل الشعارات والرايات ، واستمرارا لذلك ، وبعد البيرق الملكي ، وبيرق شانت ياقب أعلن قائد السلاح من شرفة القلعة نفسها سيادة الملوك الكاثوليك على مدينة غرناطة وذلك في خطاب مختصر ظهر بعد ذلك مطولا وبتغييرات متعددة ، وكان الاحتفال مثيرا للغاية وبخاصة الذين حضروه ، وأن مجموع الحاضرين قد ركعوا ليقدموا الشكر لله وهم يبكون الدموع ، ويعبرون عن عاطفتهم الجياشة "[1] .

وعليه أضحت غرناطة مهزومة منكسرة أمام أعدائها الذين لم يكتفوا بهذا الاستسلام والتسليم ، بل أقدموا على تغيير المظاهر الإسلامية ثقافيا وعمرانيا واجتماعيا .

[1] . عبد الفتاح عوض ، فصول من تاريخ الأندلس ، عين للدراسات ، د . ط ، 2009 م ، ص : 156 . 157 .

المبحث الثاني : أوضاع المسلمين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة :

بعد اتفاق أبي عبد الله حاكم غرناطة مع ملك إسبانيا فريديناند ، وتفاوضه على مسألة الاستسلام ، وانعقاد معاهدة التسليم التي أسفرت . كما مر بنا . عن حسن نية إسبانيا تجاه المسلمين الذين لم يرغبوا في الرحيل عن الأندلس وتمسكوا بالأرض ، ونظرا لأن إسبانيا أعطت الوعود لهم بعدم المساس بممتلكاتهم وأراضيهم ، أو الطعن في عقيدتهم ودينهم والسماح لهم بإقامة شعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم بالوجه الذي تعارفوا عليه ، إلا أن الشيء الذي حدث كان خلافا لما أبرم ، ونقضا لما اتفق عليه الطرفان ، فتحولت بذلك غرناطة إلى سجن للمسلمين ، ومقر للتعذيب والتنصير .

1 . التنصير القسري وإنشاء محاكم التفتيش* :

* يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشأة محاكم التفتيش ، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر ، فخلال المجلس الكنائسي الثالث في (1179 م) أصدر البابا ألكسندر الثالث أمرا بمتابعة المارقين وحجز ممتلكاتهم بل واسترقاقهم ، وقد بدئ بتطبيق هذه الفكرة منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة بتعقيب المارقين والكفرة ، واتسع اختصاص محاكم التفتيش بمضي الزمن ، فلم يبق مقتصرا على مطاردة المارقين والكفرة بل تعداه إلى السخرة ، وجاء بعد ذلك دور اليهود فاتهموا بسب الديانة المسيحية ، وقد سبق أن أنشئت محاكم تفتيش في فرنسا باجتماع رجال الكنيسة في مدينة طلوشة (تولوز) سنة 1329 م (729 هـ) لأول مرة أيام البابا جريجوريوس التاسع اجتماعا تمهيديا لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم في دينه الكاثوليكي ، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة الكاثوليك أمثال اليهود والبروتيستانت وجماعة المفكرين والأحرار المسلمين الذين كانوا بأوربا .أما إسبانيا فيرجع تأسيس محاكم التفتيش بها إلى عهد الملكين الكاثوليكيين ، واتخذت الخطوة الحاسمة بالفعل لتنفيذ المشروع في سنة 1480 م ، وأنشئت محكمة التفتيش الأولى في إشبيلية ، وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين سنة 1502 م أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة ، ففي الوصية التي تركها فرناندو الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره

لقد كان استسلام غرناطة إيذانا بنهاية الوجود العربي الإسلامي بها ، ورغم التسامح الديني الذي قام به حكام العرب في الأندلس لسنين طويلة مع أهل الذمة (النصارى واليهود) الذين تعايشوا جنبا إلى جنب مع المسلمين ، مع إقامة كل عباداتهم الدينية وفقا لنصوص القرآن والسنة التي تدعو إلى عدم المساس بأهل الذمة وأذيتهم ، وفي مقابل حسن النية هذه أعلن الصليبيون حربا ضروسا على من بقي من المسلمين في الأندلس عن طريق جبرهم على التنصر وفرض الديانة المسيحية عليهم بالقوة .

ومن مظاهر هذا الضعف أنهم " نقضوا شروط المعاهدة بندا بندا ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس ، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين بها ، وحرق من بقي منهم ، وزاد الكاردينال كيمينس (1436 . 1517 م) على ذلك فأمر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكداس في أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدر بثمن ، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها "[1] .

وكان الزعيمان الكاثوليكيان يتخوفان من استمرارية الوجود العربي بإسبانيا وعودة هؤلاء إلى الانتفاضة من جديد نظرا للانتصارات العظيمة التي شهدها تاريخ الأندلس عبر فترات

بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد ، لذلك فقد ظل الموريسكيون دائما يحملون الملكين الكاثوليكيين مسؤولية إنشاء محاكم التفتيش ، فكثيرا ما يتردد في محاضرهم قولهم : " إن إيزابيلا دخلت جهنم لأنها أنشأت محاكم التفتيش " . أنظر : محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 62 . علي مظهر ، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس الإسلامي المفقود ، المكتبة العلمية ، د . ط ، مصر ، 1947 م ، ص : 51 .

[1] . علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، ص : 256 .

متعاقبة من الزمن فكانت " السياسة الإسبانية تخشى دائما العرب المسلمين المقيمين في البلاد ، والذين أطلق عليهم منذ سقوط غرناطة اسم الموريسكيين* " [1].

وقد عمل هؤلاء بمبدأ التقية مخفين عن أنظار المسيحيين ممارساتهم لعقيدتهم الإسلامية ، وذلك بالفتوى التي أفتى بها مفتي وهران ، والتي جاء فيها :

* **الموريسكيون** : يشار بهذا الاسم إلى المسلمين القدامى الذين أجبروا بعد عام 1492 م على اعتناق النصرانية في إسبانيا ، وذلك بعد حروب الاسترجاع ، ويطلق الاسم على الأصليين من غرناطة ، وعلى من ظل فيهم من المسلمين ، ويمتد تاريخ الموريسك ما بين سنوات 1492 و 1610 م أي فترة إجبارهم على التنصير وبين إخراجهم قسرا من إسبانيا ، ويعتبر الموريسك إلى جانب اليهود من الأقليات الدينية التي تعرضت في تلك الفترة لشتى أنواع الملاحقة والاضطهاد ، ويتراوح عدد الموريسكيين الذين جرى تهجيرهم بما بين 300000 نسمة ونصف مليون نسمة أي ما يوازي 1 / 20 من جملة سكان اسبانيا حينذاك .

كان الموريسك من الناحية الخارجية من المتعمدين النصارى ، أما من الناحية الأخرى ، فقد تابع هؤلاء سرا اعتناقهم الإسلام ، وقد لعبت هذه الظاهرة دورا بارزا في تحديد مصيرهم التاريخي ، وفي التعجيل بنهايتهم ، كما لجؤوا إلى التقية ، وهي عقيدة شيعية بالأساس ، ولكن السنة بالذات قد مارسوا التقية أيضا وذلك بناء على فتوى العلماء والفتوى الوحيدة التي وصلتنا هي الفتوى التي وضعها عالم وهران ابن بوجمعة عام 1504 م ، والتي ترجمت إلى الإسبانية ، ووصلت إلى أوساط الموريسك ، وهكذا احتفظ عدد كبير من الموريسك بمعتقداته الإسلامية .

أما عن أصل الكلمة فقد اختلف في تحديد معناها ، فالكثير من المؤرخين يرى أن أصل الكلمة لاتيني إغريقي مشتق من كلمة موري وتطلق على مجموعة ذات بشرة سوداء ، وأصل الكلمة مشتق من الكلمة الإغريقية ومنها اشتقت كلمة مورو ويقصد به شديد السمرة ، أما ليفي بروفنسال فيرى بأنها كلمة اسبانية تطلق على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى عليها الملكان الكاثوليكيان ، ويذهب الدكتور حسين مؤنس بعيدا في تحديد أصل الكلمة ، إذ يعود بها إلى العهد الروماني فمورو مشتقة من ماوري وتعني الداخلين تحت سلطان مسيحي ، ومنها جاءت موريطانيا ، ومهما يكن فإن الموريسكيين مصطلح خاص بمسلمي الأندلس بعد 1492 م وكلمة الإسبانية والتي تقابلها الكلمة الانجليزية ، ولم نجد لها استعمالا قبل تاريخ 1492 م سواء في إسبانيا أو خارجها . ينظر : كلوس كريزيل ، فارنرديم ، هانس جورج مابر ، معجم العالم الإسلامي ، ترجمة ج . كتورة ، م . ج . د . ن . ت ، ط : 2 ، بيروت ، 1998 م ، ص : 654 . 655 . وجمال يحياوي ، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين ، 1492 . 1610 م ، دار هومه ، د . ط ، الجزائر ، 2004 م ، ص : 42 . 43 .

[1] . عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية في الأندلس ، ص : 15 .

. يمكن أن يقولوا حمد إذا طلب منهم شتم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقصدون بذلك مهمادا اليهودي ، وهو لقب الكثير من اليهود .

. إذا تعذر عليهم الصلاة في النهار فيؤدونها في الليل .

إذا أجبروا على شرب الخمر ، فيشربوا مع اعتبار ذلك أمرا فاحشا (أي دون نية) .

. يمكن استخدام إشارات بدل الجهر في الصلاة .

. يمكن تعاطي الربا شرط أن تنفق الفائدة على الفقراء .

. إذا طلب منهم أن ينكروا اتباعهم الإسلام فيقولوا ذلك ظاهرا وينكرونه في قلوبهم [1]. ولكن هذه التقية لم تحل دون ملاحقة الملكين الكاثوليكيين للمسلمين الذين بقوا في غرناطة ، واعتبرتهم أعداء لها أو مساعدين لأعدائها من الخارج ، وبهذا كانت محاكم التفتيش سبيلا للحيلولة دون بقاء هؤلاء المسلمين على دينهم الإسلامي .

وفي تموز (يولييه) 1501 م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمرا خلاصته " إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت ، أو مصادرة الأموال ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع ، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه يزج به في السجن ، وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة تغص بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم ، ومن أنواع التعذيب إملاء البطن بالماء حتى الاختناق ، وربط يدي المتهم

---

[1] . جمال يحياوي ، المرجع السابق ، ص : 52 .

وراء ظهره ، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، تمزيق الأرجل ، وفسح الفك ، ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده ، أو جف دمه " [1]. كما تنوعت آلات التعذيب " كالأسواط التي بها بعض قطع الحديد الشائك لجلد المسجونين ، وإهراء لحومهم عن عظامهم ، وقدور من الحديد لعلها كانت لصهر الرصاص فيها وصبه على المعذبين ، أو لغلي الماء أو الزيت لمثل ذلك الغرض ، وأبنية التعذيب كانت تدعى (دور الديوان المقدس) ، يستولي الرعب والخوف على كل من يمر أمامها لمجرد تصوره أنه سيدخلها يوما ما " [2].

وبهذه الطريقة الموحشة التي لا تعبر عن أي نوع من الإنسانية التي يتميز بها هؤلاء ، ومدى إكراههم للمسلمين على الدخول في النصرانية جبرا بالقوة ، وهي أساليب لم يقم بها الإنسان العربي المسلم في الأندلس منذ أن وطئت أقدامه أرضها ، بل ميز الوجود العربي فيها نوع من التسامح الديني الذي لم يشهد التاريخ له مثيلا .

وفي مقابل هذا التسامح الذي تميز به المسلمون فإنهم لما غلبوا على أمرهم ، واستدالت الأيام عليهم ، ودارت الدائرة لصالح أعدائهم الإسبانيين تنكروا لهم ، وعملوا على طمس هويتهم العربية والإسلامية بالقضاء على لغتهم ودينهم ، وكل رمز من رموز السيادة العربية، فاستحالت بذلك الأندلس إلى أرض نصرانية تكثر فيها النواقيس والصلبان والكنائس والمعابد،

[1] . علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، ص : 257 .

[2] . محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس ، . ط ، د . ت ، ص : 78 .

وتحولت المساجد والمدارس التي تخرج منها العديد من العلماء إلى دير للنصارى تقام فيها طقوسهم وعاداتهم ، ومحي صوت الأذان ، واستبدل بجرس النواقيس ، ولم يقف النصارى عند هذا الحد بل راحوا يمارسون بكل وحشية أقسى أنواع التعذيب والتنصير والقتل ، ولم يجد الأندلسي خيارا بين الموت على دينه ، أو الردة عنه ، أو التقية في ممارسة شعائره .

وقد أوضح الدارسون أن هناك ثلاث مراحل للتعايش الموريسكي الإسباني ، وكانت المرحلة الأولى قد تميزت " بسحق انتفاضة المسلمين في جبل البشرات بقيادة إبراهيم بن أمية، فتنصرت الجماعات الناجية من الموت كي لا ترحل إلى المنفى ، وفي مرحلة ثانية انتفض موريسكيو البيازين في غرناطة 1568 . 1570 م ، وقد لاقوا أيضا المصير ذاته ، وتجسد المرحلة الثالثة إلغاء الوجود الاجتماعي الموريسكي من كل الأراضي الإسبانية ، وقد صدر الأمر بطردهم نهائيا من إسبانيا ، وانتصرت السياسة الكاثوليكية التي تلغي الآخر ، ولم يعد الموريسكيون ينتمون إلى مجتمع الدولة الذي صاروا غرباء فيه ، وإنما عاشوا على هامشه ، واعتبروا فيه جماعة دونية ، وإن امتلك بعضهم ثروة صغيرة ، كانوا يقومون بالأعمال القاسية التي لا يقوم بها الآخرون ، وحوصرت آمالهم بمستقبل أفضل " [1].

ومن بين المضايقات التي تعرض لها المسلمون في إسبانيا " سيطرة النبلاء على مساحات شاسعة من الأراضي والأملاك التي كانت للأندلسيين الذين أصبحوا بعد ذلك أتباعا لهؤلاء السادة الجدد ، ثم فرضت عليهم الضرائب ، ومنعوا من أداء شعائرهم الدينية علنا ،

[1] . عبد الفتاح عوض ، إشراقات أندلسية ، ص : 118 . 119 .

وبذلت محاولات مستمرة لإقناعهم بالتخلي عن عقيدتهم ، وقطع صلاتهم بتاريخهم ، واستعملت في هذا السبيل أساليب الإرهاب والبطش والتعذيب التي ابتدأت أولا بمزاحمة الإسبان لأهل غرناطة على الأرض ، ثم على لقمة العيش ، وأخيرا على الدين والتاريخ واللغة " [1].

ولم يكن التعذيب وحده الذي ابتلي به الأندلسيون ، بل قد مس كذلك حياتهم الفكرية والثقافية ، ولم تسلم كتبهم ومؤلفاتهم وحضارتهم التي بنيت لقرون طويلة ، وأخرجت الإنسان الأوروبي من ظلمات القرون الوسطى ، ولتحقيق الطمس الثقافي فقد " أمر الكاردينال خمينيث عماله في عام 905 هـ / 1499 م بالطواف على أهل غرناطة لتسليم ما لديهم من مخطوطات عربية ، ومصاحف وحملها إلى ساحة المدينة العامة في ميدان باب الرملة فجمعت عشرات الألوف من هذه الكتب التي تشمل مختلف العلوم والآداب والأحاديث .. وغيرها وأشعلت فيها النيران ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والكيمياء والرياضيات وغيرها من المواضيع التي كان بحاجة إليها " [2].

وبهذا قطعت الصلة بين المسلمين وماضيهم وتاريخهم ، وهي أعمال تهدف بالدرجة الأولى إلى طمس كل معلم من شأنه أن يعرف بالإسلام أو ينشره ، وعزل هؤلاء المسلمون عن أي شيء يمد بصلة إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم ، وبينت سياستهم الحقد الصليبي على الإسلام الذي كان شوكة في حلوقهم لسنوات طويلة .

---

[1]. عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية ، ص : 17 .

[2]. نفسه ، ص : 18 . 19 .

ولم يكن القضاء على الكتب العربية بمثابة أعمال تخريبية فحسب ، بل لإنجاح خطة التنصير القسري الذي جاء به ملوك اسبانيا حيث كان الكاردينال خيمينس وأعوانه يقولون إنه لكي تنجح مهمتهم في تحويل المسلمين إلى النصرانية ، فيجب القضاء على اللغة العربية ، وقطع الصلة بين العرب وبين ماضيهم ، وفي رأيهم أن العرب ما داموا مقيمين على تقاليدهم وعاداتهم ، فإنه من الصعب نجاح المهمة ، لذلك كله أمر بالمباشرة بإتلاف الكتب العربية [1] ، " وقد اختلف في تحديد عدد الكتب التي أتلفت فيقدرها بعضهم بـ 5000 كتاب ، ويقدرها آخرون بـ 130000 كتاب ، ويقدرها بعض المهتمين بالدراسات العربية بثمانين ألف ، أما الكونت سيركور فيقدرها بمليون كتاب " [2] .

ولما فشلت هذه الأساليب في رد المسلمين إلى النصرانية لم يكن في وسع الإسبان إلا الإكراه على التنصير بالقوة ، " وقد كلفت الملكة خيمينس بالذهاب إلى غرناطة ، وأمر بمنع الزواج بين المسلمين والمسيحيين ، وحقق في بعض حالات اعتبرها هرطقة وكفرا ، واستعمل أساليب غريبة من العنف والإرهاب ، بعيدة كل البعد عن الروح الإنسانية وروح الأديان " [3]، وقد قام هذا العامل الإسباني بتنفيذ كل الخطط في رد هؤلاء المسلمين عن دينهم ، ومما قام به أنه " بدأ بتوزيع الألبسة الحريرية على المتنصرين ، وأكثر من العطاء والبذل ، وقد دخل

---

[1] . محمد حسن العيدروس ، العصر الأندلسي خروج العرب من الأندلس التطهير العرقي وجرائم الإبادة الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا ، دار الكتاب الحديث ، ط : 1 ، القاهرة ، 2011 م ، ص : 72 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 72 .

[3] . محمد حسن العيدروس ، العصر الأندلسي ، ص : 65 . 66 .

في المسيحية عدد كبير من الغرناطيين نتيجة لهذا الأسلوب ، كما أرسل الشرطة فقبضت على الفقهاء والوعاظ وسجنهم وأمر بتعذيبهم ومعاملتهم بالقسوة "[1]. وبهذا تعددت وسائل التنصير فأحيانا يكون مبنيا على أسس الترغيب ، وأحيانا أخرى يكون مصحوبا بتهديد ووعيد للمخالفين أو المتمسكين بعقيدتهم الإسلامية .

ومن أهم الوسائل أيضا التي عمل الإسبانيون النصارى بها في رد الاعتبار للنصرانية العمل على إقناع الأندلسيين المسلمين المتواجدين بالأندلس ، والذين لم يحبذوا الرحيل عنها إلى مناطق إسلامية نظرا لتمسكهم الشديد بالأرض ، ولتحقيق هذه الوسيلة " صدرت الأوامر إلى المقدمين من أرباب الكنيسة الذين يقع على عاتقهم واجب هداية الأنفس ، وتخليصها من الضلال والكفر ، وأن ينيبوا عنهم في القيام بهذه المهمة رجالا متعلمين يجعلون همهم الشاغل البحث بحثا دقيقا عن طراز المعيشة الذي يعيشه هؤلاء المتنصرون الجدد وعن الذنوب والخطايا التي يقترفونها بسبب اتباعهم لدينهم القديم ، كما صدرت إلى جميع قساوسة الأبرشيات بأن يعدوا جداول بأسماء المتنصرين وأن يستيقنوا من امتثال هؤلاء لوصايا الكنيسة وأوامرها "[2] ، ولكي يتجلى للقيمين على الكنائس مدى عداء هؤلاء المسلمين للدين النصراني لا بد من ملاحظة وجودهم في الصلاة التي تقام في الكنائس ، بحيث اعتبر حضورهم دليلا على تمسكهم بهذا الدين الجديد وعودتهم من ضلالهم إلى الهداية بحسب

[1] . محمد حسن العيدروس ، المرجع السابق ، ص : 66 . 67 .

[2] . هنري تشارلس لي ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ترجمة : حسن سعيد الكرمي ، دار لبنان ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م ، ص : 63 .

زعمهم ولتنفيذ ذلك " طلب إعداد جداول خصوصية بأسماء الذين تألفتهم محاكم التفتيش وضرورة حضور هؤلاء صلاة القداس أيام الآحاد والأعياد ، لأن حضور هؤلاء يكون دليلا على تخلف الآخرين فيمكن حينئذ تنفيذ الأحكام ضد المتخلفين عن الحضور "[1].

وقد اتبعت السلطة الإسبانية في سبيل إقناع هؤلاء المسلمين بالدين الجديد كل الوسائل التي من شأنها إنجاح هذه المهمة التي تبدو في نظرهم جد صعبة نظرا لتمسكهم بالأرض ونشأتهم على الدين الإسلامي منذ ولادتهم ، لذلك نجد القرارات تتوالى في إصدار بعض الأحكام الكنسية من أجل إقناع هؤلاء المسلمين بالرجوع إلى الدين النصراني ، ومن بين تلك القرارات ما قام به فريديناند " لما أرسل رسالة سنة 1540 م كان في الوقت نفسه قد قدم طلبا إلى البابا يوليوس الثاني مثل له فيها أن كثيرا من اليهود العرب والمسلمين نصروا منذ (سقوط غرناطة) سنة 1492 م وأنهم بسبب تعليمهم الدين الناقص ارتكبوا بحق الدين المسيحي كثيرا من آثام الفسق والخروج عن الدين القديم ، وبين له أنه قد أمر بتفقيه هؤلاء في أمور الدين الجديد ... وطلب إليه أن يأذن له بنشر مرسوم بالمسامحة ينص على أن الذين يدخلون في الدين الجديد يكون إدخالهم وقبولهم فيه من غير مصادرة للأموال ومن غير أن يضطروا إلى الإعلان علنا عن تبرؤهم من دينهم السابق "[2].

[1] . هنري تشارلس لي ، المرجع السابق ، ص : 63 .

[2] . نفسه ، ص : 64 .

كما طبق النصارى بعض الأساليب التعسفية التي بينت عدم تسامح النصراني مع الأقليات المسلمة المتواجدة بالأندلس والتي ظنت أن استسلامها لا يعني خروجها عن دينها ، وقد قوبلت هذه الأقليات المسلمة واليهودية بأبشع أنواع التعذيب والقهر طبقتها بعض المؤسسات التي أطلق عليها محاكم التفتيش ، التي " هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية ، وبأشد وسائل العنف ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية "[1] ، ولم يكتف النصارى بتحويل مقدسات المسلمين المتمثلة في المساجد والمدارس إلى كنائس ، وضرب النواقيس وحرمان المسلمين من سماع صوت الأذان ، بل تعدى الأمر إلى بسط أوسع السبل لقمع المسلمين وتحويلهم عن هذا الدين بالقوة والعنف وقد " كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب ، وكانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان "[2] ، وقد صور بعضهم تلك المشاهد التي رافقت هذا التحول الديني في أرض الأندلس ، وتمكن النصرانية من بسط نفوذها الديني على المنطقة ، ومن تلك المشاهد ما بينت لوعة الأندلسيين المسلمين لخروج الإسلام من تلك الديار " فقلوبهم تشتعل نارا ودموعهم تسيل سيلا غزيرا مدرارا ، وينظرون أبناءهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون

[1]. علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، ص : 256 .

[2]. نفسه ، ص : 258 .

للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم "[1].

وقد عملت محاكم التفتيش جرائم في حق الإنسانية في ذلك الوقت ، بينت الحقد الديني الدفين الذي كان يخفيه هؤلاء النصارى تجاه تواجد المسلمين في الأندلس ، ومحاولة منهم في التمكين للدين النصراني على حساب الدين الإسلامي وفيما يلي سنحاول أن نعطي ملامح ذلك الحقد من خلال بعض العمال التي قامت بها هذه المحاكم " التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر عام 888 هـ وعين بمقتضاه القس طوماس دي تركيمادا محققا عاما لهذه المحاكم الجديدة التي نظم لوائها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة "[2] .

وعلى الرغم من التسامح الديني الذي طالما طبقه ملوك الأندلس المسلمون في حق النصارى ومصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام " من آذى ذميا فقد آذاني " أنشئت بمرسوم بابوي صدر عام 888 هـ وعين بمقتضاه القس طوماس دي تريكيمادا محققا عاما لهذه المحاكم الجديدة التي نظم لوائحها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة " [3] .

وقد أعطت محاكم التفتيش التي أصدرها الملوك بتزكية من الكنيسة أبشع صور التعذيب من أجل سلخ الأندلسي من هويته الإسلامية سواء تعلق الأمر بالعقيدة الدينية أو بمظاهرها

---

[1] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 122 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 128 -129 .

[3] . نفسه ، 128 . 129 .

المعبرة عنها كاللغة العربية واللباس والمأكل والمشرب وغيرها ، " فمنذ دخول الملكين الكاثوليكيين غرناطة والأوامر تصدر الواحد تلو الآخر ، حتى أصبح الموريكسي مقيدا في كلامه ولباسه ، مأكله ومشربه ، مسكنه وتعليمه وعمله ... وما إلى ذلك فمنع الحديث باللغة العربية ، ومنع اللباس العربي حتى أنهم أجبروا الموريسكي على حمل شارة زرقاء في قبعته وحرم المورسكيون من الذهاب إلى الحمامات وأجبرت النساء الموريسكيات على كشف وجوههن وترك الأبواب مفتوحة أيام الأعياد" [1] ، أما ما يتعلق بالضرورات الاقتصادية والمالية فإنها لم تسلم من بعض القرارات التعسفية التي تريد أن تحرم الأندلسي المسلم من حرية ممارسة نشاطاته الاقتصادية ، فقد " صدر قانون يحرم على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة ، ولا يجوز بيع الأراضي والأملاك والتصرف فيها بأي شكل من الأشكال مع دفع الضرائب المضاعفة ومصادرة الأملاك ... وغيرها من الإجراءات التي ضيقت الخناق على الموريسكيين وحدت من تحركاتهم وجعلتهم يعيشون في سجن كبير، وكل مخالفة للأوامر السابقة تعتبر جريمة كبرى يعاقب مرتكبها ويقدم إلى محاكم التفتيش "[2].

أما فيما يتعلق بالمقدسات الإسلامية كالمساجد وغيرها ، فقد لاقت ما لاقاه أهلها من تدنيس وطمس وتحويل ، وقد كانت العمائر الإسلامية بالأندلس شاهدة على حضارة إسلامية

[1]. جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص : 74 .

[2]. نفسه ، ص : 75 .

راقية في فن العمارة ، لكن بسقوط غرناطة آخر المدن الأندلسية التي حوت هذه الحضارة فإن النصارى لم يكفهم أن قضوا على أهلها وشردوا ملوكها وأعلوا راية التنصير فيها إما قسرا أو اختيارا ، أشئ ترغيبا أوترهيبا ، فقد راحوا يقومون بأعمال تنصيرية تخص العمائر الإسلامية وكشاهد على ذلك " ففي يوم 5 كانون الثاني 1492م ، وهو اليوم المخصص رسميا لدخول الملكين لغرناطة – نزل الملكان إلى جامع الطيبين وهو أحد المساجد الرئيسية في البلدة فاستوليا عليه وأمرا بتحويله إلى كنيسة ، ولم يتحرك المسلمون ، إذ أدركوا أنه لا فائدة من الاحتجاج وبقوا في أماكنهم ينظرون مزيدا الاعتداء على حقوقهم التي صانتها المعاهدة "[1] .

وبعد تهجير العديد من الأندلسيين عملت المملكة الإسبانية على تحويل مساجد الأندلس ومدارسها إلى كنائس فبعد " أن هدأت الفتنة ورجع جل المتنصرين إلى حظيرة الإسلام ، وهاجر آلاف منهم إلى الجزائر اتخذ الملك ذلك ذريعة لإظهار غضبه ، وإنزال نقمته على الباقين في مملكته ، وأخذ على نفسه أن لا يدع مسلما في بلده ، وأمر البابا فجعل كل المساجد هناك كنائس ، ومن ذلك الحين حولت المساجد إلى كنائس ، وحرم عليها أن يتلى فيها اسم الله ، وأن تقام فيها الصلاة "[2].

[1] أسعد حومد ، محنة العرب ، ص : 151 .

[2] . محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في إسبانيا ، ص : 51 وما بعدها .

وقد كان للشعر الأندلسي نظرته الخاصة لتلك المصائب ، فالموريسكيون كانت لهم عاطفة دينية صادقة تجاه العمائر الإسلامية ، فصوروا معاناتهم وهم يشاهدون ما حل ببيوت الله من تدنيس ، وحرق للمصاحف ورميها في المزابل ، وإكراه المسلمين على دخول الكنائس لتعميدهم وتعليمهم أناجيل النصارى ، وقد أخذت من تلك القصيدة الطويلة للموريسكيين هذه الأبيات التي تبين هذا الغرض :

واها على تلك المساجد سورت   مزابل للكفار بعد الطهـارة

واها على تلك الصوامع علقت   نواقيسهم فيها نظير الشهـادة

واها على تلك البلاد وحسنها   لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعباد الصليب معاقلا   وقد أمنوا فيها وقوع الإغـارة[1]

ولم يكتف النصارى بطمس معالم الدين بل عمدوا إلى حرمان المسلمين أنفسهم من هذا الحق المشروع وقد توالت الاضطهادات الدينية بإصدار أوامر ملكية تأمر بمنع المسلمين ممارسة شعائرهم الدينية " ففي 16 تشرين الثاني 1525 م أذيع في بلنسية الأمر الملكي الذي يقضي بمنع ممارسة الدين الإسلامي منعا تاما ونهائيا ، وكلف الأمر السادة الإقطاعيين باتخاذ التدابير التالية :

- إغلاق المساجد بعد ثلاثة أيام من صدور هذا الأمر .

[1]. أحمد عبد الرحمن السماوي ، رحلة إلى الفردوس المفقود ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دمشق ص : 169 .

- منع جميع الاجتماعات العامة للمسلمين ، سواء أكانت للصلاة أو الحج أو للدفن أو للوعظ .

- منع المسلمين من الاحتفال بالأعياد ومنعهم من ختن أولادهم .

- منعهم من ذبح حيواناتهم حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين .

- إجبار المسلمين على حضور القداس والصلوات والركوع عند مرور الصليب وحين قرع النواقيس ، ومن خالف ذلك منهم كانت عقوبته فرض الرق عليه ، وهي عقوبة ثقيلة جدا [1].

2 . الصراع العربي الإسباني بعد سقوط غرناطة :

بينت الحقائق التاريخية أن الصراع القائم بين المسيحية والإسلام لم يتوقف في الأندلس منذ السنوات الأولى لفتحها ، فقد ظلت طيلة قرون بؤرة صراع ديني وسياسي ، لكن هذا الخلاف الديني قد تعزز بعد ذلك بتفوق الإسبان على المسلمين ، وسقوط آخر معاقلهم في مملكة غرناطة ، التي ظلت تدافع عن الوجود الإسلامي وحضارته بالمنطقة لسنوات طويلة ، لكن سقوطها لم يوقف حركة الاسترداد والتمرد ضد السياسة التعسفية الرهيبة التي مارسها حكام إسبانيا النصرانية في حق المسلمين الذين فضلوا البقاء في المنطقة نظرا لتشبثهم

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 151 .

بالأرض ، وسنبين فيما يلي أهم الثورات التي قام بها الأندلسيون في مواجهة حركة التنصير ، ومقاومة السقوط :

2 . 1 . انتفاضة حي البيازين* :

تعود أسباب ثورة الأندلسيين إلى شروط معاهدة الاستسلام الآنفة الذكر التي خرق بنودها الإسبان بعد الانتصار الذي حققه ملوكها في غرناطة ، فسقوط الأندلس لم يكن سياسيا فحسب ، بل تجاوز ذلك إلى انتقام ديني ، وحقد صليبي دفين ، " فلم يكن سقوط غرناطة في يد الإسبان مجرد نهاية حكم وقيام حكم آخر ، ولا مجرد تغير في النظام السياسي ، بل مثل سحقا لدولة الإسلام والمسلمين في الأندلس " ، وما الاضطهاد الذي أعقب معاهدة الاستسلام إلا دليل قاطع على صحة هذا القول ، " فلم تنته مصيبة المسلمين في الأندلس بزوال سلطانهم حتى حلت بهم مصيبة أكبر " ، وما كانت معاهدة الاستسلام التي وقعت بين الطرفين إلا حبرا على ورق ، ومجرد اتفاقية سياسية تبين تسامح المملكة الإسبانية في الظاهر ، لكن جوهرها كان يثبت عكس ذلك ، إذ توالى الاضطهاد ، واستمر

* **حي البيازين** : كان هذا الحي التابع لمدينة غرناطة مكتظا بالسكان ، وقد قدر أحد المؤرخين الإسبان عدد الأسر العربية التي كانت تقطنه بعشرة آلاف أسرة ، أي أنه كان يضم نحو خمسين ألف عربي . أنظر : عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس ، ص : 21 .

الصراع الصليبي على المنطقة بإنشاء محاكم التفتيش ، وإصدار العديد من المراسيم* والمواثيق الملكية لاضطهاد المسلمين ، وإجبارهم على الخروج من أرض الأندلس .

ولإعلان هذه الثورة " طاف زعماء غرناطة وعلماؤها بالبيازين يحثون الناس على حمل السلاح ، وإعلان الانتفاضة دفاعا عن وجودهم ودينهم والتصدي لممارسات زمنير* بعد استفحال خطره ومضيه في مسلكه دون رادع أو خوف من انتقاد أو عقاب " [1] ، وقد جرت أحداث هذه الانتفاضة إذن نتيجة سلوك زمنير ، مما جعل الثائرين يفكرون في وضع خطة لإنهاء هذا التعسف ، وبعد مشاورات سريعة " انتهت على استقرار الرأي بتوجه فريق من

---

* منها مرسوم 20 يوليو 907 هـ / 1501م : صدر أمر من الملكين يمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة ، ولقد اختارهما الله لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، كما أنه يحظر عليهم . أي المسلمين . أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم .

مرسوم 12 فبراير 908 هـ / 1502 م : يحتم كل مسلم يبلغ من العمر 14 سنة إن كان ذكرا و12 من سنها إن كانت أنثى أن يغادر مملكة غرناطة قبل أول شهر مايو التالي .

مرسوم 12 سبتمبر 909 هـ /. 1502 م : وهو أمر ملكي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضي عامين . للمزيد أنظر : علي مظهر ، محاكم التفتيش ، ص : 26 . 27 و محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في إسبانيا ، المكتبة الجامعية ، ط : 1 ، 2007 م ، ص : 46 .

* **زمنير** : هو الراهب فرانسيسكو دي سيسنيروس ، ولد عام 1436 م في توري لاغونا ، وكان رئيسا للكهنة أوثيدا أيام المطران ضون ألونسو كاريبولو ، ومسؤول كتدرائية سيغويننا ، وبعد ذلك ألحق نظام رهبنة القدس فرانسيسكو باشر في إجراء إصلاحات واسعة في هذا النظام الفرنسيسكي بإرشاد من البابا ألكسندر السادس ، وفي عام 1492 م عين مشرفا روحيا للملكة إيزابيلا ، وتولى أيضا منصب حاكم إسبانيا في 1495 م ، تم انتخابه مطرانا لطليطلة ، وبعد وفاة الصون بيدرو غونثالث دي ميدوثا ، ولقد أسس جامعة الكلادي إينارس ، ونشر الإنجيل بعدة لغات ، توفي في بوا " برغش " عام 1517 م . أنظر : محمد عنان ، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مكتبة الخانجي ، ط : 4 ، القاهرة ، 1997 م ، ص : 235 .

[1] . عادل سعيد بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، د . ط ، القاهرة ، 2001 م ، ص : 114 .

أهل غرناطة إلى قصر الحمراء حيث ينزل زمنير للقضاء عليه ومساعديه ، بينما يتعهد الباقون لجمع الرجال والسلاح ، وتحصين البيازين استعدادا لقتال جنود قشتالة "[1] .

وتعود أسباب هذه الثورة حسب الفيكونت دوشاتو إلى أعمال الكاردينال كيمينساس " الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة ، اعتسف السبيل ، ومال إلى العنف والإكراه ، وأساء معاملة المسلمين ، وحمل الملكة إيزابيلا على ما بقي نقطة دهماء في تاريخ حياتها من اضطهادهم ، واستعبادهم ، وإكراههم على التنصر ، فأثار ذلك ساكنهم ، وأخرج كامنهم، وفي إحدى المرات حبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل فثار سكان البيازين ، وتحصنوا وحملوا السلاح ، وكادوا يفتكون بالجند ، وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكاردينال كيميناس " ، ولكن هذه الثورة قد أخمدت ، واستطاع المطران هرناندو أن يوقف حدة الحرب التي كادت أن تؤدي بحياة الكاردينال كيمانس ، حيث استطاع أن يستمع إليهم ، وينقل شكواهم ، وتمكن من تحقيق الأمن في البيازين .

2 . 2 . ثورة البشرات* :

---

[1] . عادل سعيد بشتاوي ، المرجع السابق ، ص : 114 .

* **البشرات** : منطقة جبلية في جنوب إسبانيا وجنوب غرناطة ، وإلى الجنوب من سلسلة جبال سيرانيفادا وموازية لها ، وكانت هذه المنطقة مسرح ثورة عربية ومسلمة تثور مرة بعد أخرى مدة 70 سنة من 1500 إلى 1570 م ، ومنطقة البشرات تنحصر في الأرض المرتفعة بين جبال الثلج أو سيرا نيفادا والبحر المتوسط ويبلغ طولها نحو تسعة عشر ميلا ، وتضم الكثير من القرى التي يقطنها العرب ، وقد أصبحت هذه المناطق لوعورتها وصعوبة الوصول إليها ملاذا للفارين من الأندلسيين الذين رفضوا قبول التنصر ، وقرروا مقاومة السلطات الاسبانية . أنظر : عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة ، ص : 27 .

إن القضاء السلمي على ثورة البيازين لم يعن انتهاء الانتفاضات الإسلامية بالأندلس ضد حركة التنصير التي مارسها الإسبان عليهم ، فالكاردينال السالف الذكر بقي يصر على الملكة لتوافق على إحدى الخطتين : الجلاء أو النصرانية ، وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الأصل ، فأغلقت المساجد وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون ، وزبد الحقب ، وأذيق المسلمون العذاب أشكالا وألوانا ففضل عامتهم فراق دينهم على فراق وطنهم ، إلا أن شعلة الحمية الإسلامية بقيت تلمع في جبال البشرات حيث حمتهم من مضطهديهم " [1]، فظلت جبال البشرات طيلة سنوات ملجأ الفارين والمضطهدين في غرناطة من سياسة المراسيم التي تدعو إلى التنصير القسري أو التعذيب والنفي ، وأكثر المسلمين الذين اختاروا الموت في سبيل الله على التفريط في دينهم لجؤوا إلى تلك الحصون، وحاولوا أن يقدموا شيئا لمواجهة الاضطهاد المسيحي في الأندلس ، " فانضم الهاربون من غرناطة إلى عصابات المنفيين في البشرات ، حتى أصبح عددهم في أواخر عام 1499 م قرابة 1500 رجل ، واتخذوا مدينة قولجر الحصينة الواقعة في سفح جبل الثلج قاعدة لهم ، ومنها بدأوا يقومون بهجماتهم على الحاميات النصرانية في مرج غرناطة ، وكلما حقق الثائرون نصرا أو أوقعوا بالحاميات الإسبانية هزيمة شدد ذلك من عزائم إخوانهم في غرناطة والمناطق الأخرى ، ودفع بهم إلى الانضمام إلى الثائرين بغية الانتقام من الظالمين "[2] .

[1] . شكيب أرسلان ، خلاصة تاريخ الأندلس ، مطبعة المنار ، د . ط ، مصر ، 1925 م ، ص : 351 .

[2] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 195 .

تعود بدايات الثورة الأندلسية في هذه الجبال إلى الدفعات الأولى التي أرسلت للقضاء على ثورة البشرات ، إذ أرسل أول جيش إليهم " تحت قيادة الدون الونزو دو أغيلار البطل الشهير انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة 1501 م وقتل الدون المذكور وقيل أنه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين ، فازداد انتقام الإسبنيول من المغاربة بعد هذه الغلبة وهجم كونت طنديلة على قوجار ، وهدم كونت سرين جامعا على جماعة التجأوا إليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم ، وأمسك الملك فريديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال فمن بقي حيا من الثوار فر إلى مراكش ومصر والبلاد العثمانية ، وانتهت الثورة الأولى في الجبال " [1] .

والجدير بالذكر أن عدد الذين نقلوا إلى شمال إفريقيا كان قليلا ، لأن من شروط تلك الاتفاقيات أن من أراد الانتقال إلى تلك المناطق عليه أن يدفع مبالغ مالية ، " ولكن لم يستطع الكثير من الباقين دفع المبالغ اللازمة للعبور ، فاضطروا إلى قبول التعميد والتنصير " [2].

وبهذا استمرت الثورات مجددا من طرف هؤلاء لرفضهم تلك السياسات التعسفية من قبل الملكة ، " فأهل الأندلس الذين امتنعوا عن التنصر كأهل قرى ونجر والبشرة واندراش وبلفيق،

---

[1] . شكيب أرسلان ، خلاصة تاريخ الأندلس ، ص : 351 . 352 .

[2] . عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة ، ص : 31 .

فجمع ملك الروم عليهم جموعه وأحاطه بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد، فقتل رجالهم ، وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم " [1].

ويذكر في هذا الصدد كتاب نبذة العصر الصراع القائم بين هؤلاء وملك الروم والمجهودات الجبارة التي قام بها المسلمون دفاعا عن أنفسهم ودينهم ، واستماتة من أجل البقاء في الأرض بقوله : " إلا أن أناسا من غربية الأندلس امتنعوا من التنصر ، وانحازوا إلى جبل منيع وعر ، فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه ، فجمع عليهم ملك الروم جموعه ، وطمع في الوصول إليهم كما فعل بغيرهم ، فلما دنا منهم ، وأراد قتالهم خيب الله سعيه ، ورده على عقبه ، ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة ، فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجال وفرسان وأجناد ، فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطونهم الأمان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين ، فأنعموا بذلك إلا أنه لم يسرح لهم شيئا من متاعهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه " [2].

ويبين المقري في أزهار الرياض في قصيدة تائية رائعة تبين مأساة الأندلسيين وآثارها على نفوسهم ، ما يكشف عن حال هؤلاء ، وأنهم ما قبلوا تلك المفاوضات إلا بعد تلك السياسات الرهيبة التي قام بها دعاة التنصير حيث جاء في تلك القصيدة الطويلة هذه الأبيات :

ووالله ما نرضى بتبديل ديننـا   ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة

[1]. عبد الواحد ذنون طه ، حركة المقاومة ، ص : 31 .

[2]. مجهول ، نبذة العصر ، ص : 45 .

وإن زعموا أنا رضينا بدينـهم   بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسل حرا عن أهلها كيف أصبحوا   أسارى وقتلى تحت ذل ومهانة

وسل يلفيقا عن قضيـة أهلـها   لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة

ومنيافة بالسيف مزق أهلهـا   كذا فعلوا أيضا بأهل البشـرة

وأندرش بالنار أحرق أهلهـا   بجامعهم صاروا جميعا كفحمة [1].

بعد أن تمكن الإسبان من فرض سيطرتهم على جبال البشرات وتعميد العديد من الذين قبلوا بالاستسلام ، إذ قام القساوسة بتنفيذ خططهم في تنصير الكثير من المسلمين ، لكن بعض المناطق الأخرى بقيت منتفضة ضد هذا الوضع فثارت منطقة ألمرية عام 1500م ، " ولكن الملك أسرع بإرسال قوات كبيرة إلى المنطقة الثائرة تحت إمرة أحد قواده ، وكلفه بمهاجمة معاقل الثوار ، فاتجهت القوات الرئيسية إلى مدينة " بلفيق " التي تتجمع فيها قوات الثائرين الأساسية ، وكان بين القوات المتجمعة في (بلفيق) عدد من رجال عصابات المنفيين ، وعدد من المتطوعة الإفريقيين ، فاستماتوا في الدفاع ، وقاتلت القوات الثائرة قتالا عنيدا ، وألحقت بالجيش الإسباني هزيمة منكرة " [2] ، ولكن سرعان ما دارت الحرب لصالح النصارى حيث استطاع فرسانها أن يحاصروا مدينة بلفيق ، ويلحقوا الهزيمة بالجيش العربي،

---

[1] . المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، مطبعة لجنة ، ج : 1 ، ص : 114 .

[2] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 198 .

وكان ذلك بسبب قلة القوت واشتداد الجوع والعطش مما جعلهم يستسلمون ، لكن هذا لم يمنع من تواصل الثورات من جديد ، فاستسلام أهل ألمرية ، وبلفيق أدى إلى انتفاضة مدن أخرى حيث اندلعت نيران ثورتين :

. ثورة قام بها سكان ثلاث من قرى وادي المنصورة ، فطردوا الرهبان المبشرين ، وأعلنوا تمسكهم بدينهم الإسلام ، فأسرع قائد المنطقة الإسباني بقواته ، وتمكن بقليل من الجهد إخضاع الثائرين .

. وثورة أخرى اندلعت في (أدرا) على ساحل البحر الأبيض ، فهاجمها الجيش الإسباني ، وحاصرها حصارا شديدا ، وقاوم الثائرون مقاومة باسلة ، ولما طال أمد الحصار بدأ المدافعون يتناقص عددهم من ويلات الحرب ، ومن الجوع والعطش ، ولما أدرك الإسبان ضعف المقاومة شنوا هجوما اقتحموا به الأسوار ، ودخلوا المدينة ، فلم يجدوا فيها أكثر من 400 شخص أخذوهم أسرى ، وفرضوا عليهم الرق[1] .

2 . 3 . الثورة الأندلسية الكبرى 973 هـ / 1568 م :

تعد من الثورات الهامة التي روعت الحكم الإسباني في الأندلس ، لأنها عززت قوة العرب بعد فشلهم في ثورتي البيازين والبشرات ، أما من الناحية الدينية فقد استطاعت أن تنقل سياسة الكنيسة من التنصير بالإقناع إلى التنصير بالقوة .

---

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 199 .

ويعود السبب المباشر لهذه الثورة حضور " القسيس بيدرو جيريرا مجمع تارانت ، وأظهر فيه كثيرا من الحماس ، فلمع اسمه فيه ، وعاد إلى إسبانيا ، فجعل من نفسه مراسلا يوافي الفاتيكان بأنباء إسبانيا ، وقد كلف بأن يبلغ الملك فيليب الثاني أن البابا سيذكر تسامح الملك مع العرب في ممارسته عاداتهم وتقاليدهم التي تعتبر في نظره نوعا من الهرطقة ، ويطلب إليه اتخاذ تدبير صارم بحقهم ، يجتث جذور هذه العادات والتقاليد " [1].

وبهذه السياسة التي انتهجتها الكنيسة في حق المسلمين ثارت شرارة الثوار الرافضين لهذا القمع والتعسف في حقهم " ، وفي 15 نيسان 1568 م اندلعت الشرارة الأولى للثورة في جبال البشرات ، ولكن جنود مركيز مندخار تمكنوا من القضاء عليها ، وكانت نيران الثورة تنتقل من قرية إلى أخرى ، وتحول جبل البشرة إلى قلعة حقيقية ضد فيليب الثاني* " [2]، وتحضيرا لهذه الثورة " أدرك القادة الغرناطيون أن الثورة أصبحت أمرا لا غنى عنه ، وقد رأوا أنه ليكتب للثورة النجاح لا بد لها من توافر عنصرين :

---

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 209 .

* **فيليب الثاني** : 1527 . 1598 م ولد في أحد البيوت المجاورة للقديس بابلوضون برناردينو بمنشل (بلد الوليد) ، وعمد في كنيسة سان بابلو في الخامس من حزيران من العام نفسه ، وفي التاسع من نيسان من عام 1528 م ولاه مجلس قشتالة ولاية العهد ، وكان ذلك في مدريد ، وأشرف على تدريبه رجل من كبار النبلاء ضون خوان دي ثونيغا وفافيانيدا .. وفي عام 1549 وصل الأمير فيليب الثاني إلى فلنديس فأعلن سيدا على جميع مدن المقاطعة وأريافها ، وورث امبراطورية والده الواسعة ، أصدر العديد من المراسيم في حق الموريسكيين . أنظر : محمد عبده حتاملة ، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني ، ط : 1 ، الأردن ، 1982 م ، ص : 11 وما بعدها .

[2] . عادل سعيد البشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ص : 299 .

. المشاركة الفعلية لجماهير العرب في مملكة غرناطة ، وفي المناطق المحيطة بها على أوسع نطاق .

. العون المادي بالرجال والسلاح من السلطات الإسلامية في المغرب والجزائر ، وهذا العون ضروري لنجاح الثورة لأنه يوفر لها السلاح الحديث الذي لم يكن لدى الشعب الأندلسي كثير منه ، يوفر للثورة الرجال المتطوعين الملمين بأصول الحرب واستعمال السلاح الناري " [1].

وقد " اندلعت الثورة في أواخر سنة 1568 م ، ولعل هذا التوقيت كان مخططا له مسبقا، إذ أن إسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة ، وجندت العديد من سكانها لهذا الغرض ، كما أن السواحل الأندلسية كانت مقفرة بسبب الحرب والخوف من الغارات البحرية الإسلامية ، وكان زعيم الثورة فرج بن فرج قد بدأ عدته وأخبر مواطنيه بذلك ، وبعث برسله إلى المغرب والجزائر " [2] ، والشيء الملاحظ حول هذه الثورة تنظيمها المحكم ، ومساعدة أهالي الجزائر لقادتها ، إذ " بعث علي باشا والي الجزائر التركي إمدادات إلى الموريسكيين نزلت على الساحل الأندلسي في جهتي المرية ومربلة ثم سارت إلى الأماكن المحددة لها " [3]، أما عن تنظيم هذه الثورة ، فقد قسمت إلى عدة فرق كل فرقة منها تحمل علما ذا لون معين ، وكل حامل علم إلا وله مهمة محددة حيث " حاملوا العلم الأحمر يحتلون باب

---

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب ، ص : 211 .

[2] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 92 .

[3] . نفسه ، ص : 92 . 93 .

فجالوتا ، ثم يتجهون من باب سري باتجاه المستشفى الملكي ، ثم يدخلون من باب ألبيرة ، لكي يحتلوا محكمة التفتيش ، فيخلصوا المسلمين المعتقلين بها ، ويضعوا في أماكنهم أعضاء المحكمة ليذوقوا العذاب الذي طالما عذبوا الموريسكيين به ، حاملوا العلم الأصفر يحتلون ساحة البنود ، حملة العلم الأزرق يأخذون أماكنهم عند مدخل وادي آش ، وينزلون من طلعة تشابش وطريق نهر دره (Darro) ثم يتجهون إلى مركز محكمة التفتيش بحثا عن الرئيس ديسا لقتله " [1] .

وبعدها انتخب محمد بن أمية ملكا على البشرات ، وعمل على تنظيم الثورة " فغدا ينظم قواته من جديد ، وينظم المحاربين بنظام عسكري ، وأخذ يدعو إلى نبذ الأسماء والألقاب النصرانية ، وإعادة الألقاب الإسلامية ، وطلب العون من مسلمي إفريقية ، فبعث أخاه عبد الله إلى الجزائر ليطلب العون والنجدة ، ثم أتبعه بسفارة ثانية إلى المغرب برئاسة فرناندو الحبقي ، ثم شن هجمات عديدة على الاسبان بثت الرعب في النفوس وخاصة القساوسة والرهبان ، ولم يعد الإسبان يجرؤون على الذهاب إلى الكنائس والأديرة ، ولا على الخروج إلى الحقول ولو جماعات " [2]، ولإخماد هذه الثورة بقيادة محمد بن أمية " أصدر فيليب الثاني قرارا تضمن شطر قيادة الجيش بين المركيز مندخار ومركيز بلش ماقة الذي تسلم قيادة

[1] . محمد عبده حتاملة ، التهجير القسري ، ص : 35 .

[2] . نفسه ، ص : 43 .

المنطقة الشرقية وأراد أن يثبت تفوق خبرته العسكرية ، ودارت معارك متقطعة منيت فيها قوات المركيز بخسائر كبيرة اضطرته إلى الانسحاب " [1] .

وقد نتج عن فشل هذه الثورات تفوق القوات النصرانية ، فغلبت المسيحية في المنطقة ، وتنصرت غرناطة بعد إسلامها ، وطمست معالم حضارتها كما أن " الملايين الذين نزحوا من الأندلس انتقلوا إلى شمال إفريقية ، وأدى ذلك إلى ظهور وتنشيط التجارة وصناعات مختلفة ، وظهور حرب جديدة ، وهي استغلال العثمانيين لهؤلاء المهاجرين في حروب القرصنة ضد المسيحيين ، وإرهاق الإسبان ، وعدم تمتعهم بخيرات الأندلس ، كما أقيمت محاكم التفتيش عقب انهيار الوجود العربي في الأندلس قتل فيها الآلاف من المسلمين " [2]، والأهم من ذلك كله ما تعلق بقضية طرد المسلمين من الأندلس ، والذي اعتبرته الدولة الإسبانية حلا نهائيا للوجود العربي في المنطقة ، وذلك لتخوفها الشديد من حملات الاسترداد التي يمكن أن تندلع من حين لآخر متى ما سمحت الفرصة للمسلمين بذلك ، ولتوفر العديد من العوامل المساعدة في نظرها كون الأندلس المنفذ المطل على بلاد المغرب إذ " لم تكتف إسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين وإحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم ، بل رأت أن توهم الناس أنه لا سبيل إلى قيام وحدتها إلا بنفي العرب " [3]، وعليه لم يبق أمام إسبانيا سوى الحل الأخير للمشكلة وهو الطرد ، " ففيليب في زمن مبكر في سنة 1571 م حينما

---

[1] . البشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ص : 156 .

[2] . علي حسين الشطشاط ، نهاية الوجود العربي في الأندلس ، ص : 93 .

[3] . كريم علي ، غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، ط : 1 ، مصر ، 1923 م ، ص : 142 . 143 .

كان في لشبونة يوطد أركان حكمه في البرتغال ألف جمعية من كبار مستشاريه لوضع سياسة محددة تتبع بموجبها المملكة لمعالجة القضية ، وكانت السياسة التي توصلت إليها تلك الجمعية سياسة الرحمة (ويا لها من رحمة) ، وأوصت على أساسها بأن جميع العرب والمسلمين الذين يرفضون التنصير وتعلم الدين المسيحي ، ولا يرغبون في البقاء بالمملكة إذا أجبروا على التنصر ينبغي إرسالهم إلى البحر ، وتحميلهم على سفن فاسدة غير صالحة على أن تخرق تلك السفن وهي في عرض البحر في طريقها إلى شمال إفريقية " [1] .

وكانت العوامل الدينية من أهم أسباب الطرد ، إذ جاء في في هذا القرار ما يبين الحقد الصليبي الدفين على الإسلام والمسلمين : " إن المتنصرة هم أعداء الملة والدين والوطن ، وأن لهم اتصالا بأعداء إسبانيا ، وأن لا سبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحي (الكاثوليكي) ، ولهذا وجب طردهم إلى بلاد البربر في إفريقية ، وأنه يجب أن يغادر المتنصرون إسبانيا رجالا ونساء وأطفالا في ظرف ثلاثة أيام من تاريخ نشر القرار في المدن والقرى ، وأن يذهبوا إلى الثغور التي يعينها لهم المكلفون بترحيلهم من قبل الحكومة وجزاء من يتخلف الموت ، وقد صرح لهم أن يأخذ كل منهم ما يستطيع حمله من المتاع فوق ظهره " [2].

[1] . هنري تشارلس لي ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ص : 173 . 174 .

[2] . محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس ، ص : 65 . 66 .

ولإن كان هذا الطرد الذي اعتبرته المملكة الإسبانية حلا نهائيا للمشكلة العربية في الأندلس ، إلا أن الحضارة الأندلسية قد انتقلت إلى بلاد المغرب ، واستكملت التأثيرات التي نتجت عن الهجرات الاختيارية للأندلسيين الذين فضلوا عدم البقاء فيها بسقوط كبرى المدن الأندلسية العريقة ، فبرحيل الأندلسيين أشرقت صور التأثير الأندلسي على المنطقة ، فأثروا تأثيرا لا مثيل له على الحضارة المغربية في جميع النواحي السياسية منها والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وقد أدى ذلك إلى نشوء تمازج فكري ، فما " إن انتهى القرن السادس عشر حتى كان عدد الأندلسيين المبعدين عن وطنهم إلى أرض المغرب كبيرا إلى الحد الذي يمكن اعتبارهم معه أقلية لها شأنها بين سكان المغرب " [1] .

المبحث الثالث : مواقف الدول الإسلامية من سقوط غرناطة :

لا شك أن سقوط غرناطة قد آلم الأمة الإسلامية آلاما عظيمة قدر عظم المصيبة التي ابتلي بها المسلمون ، فقد كانت غرناطة المعقل الوحيد ، والحصن المتبقي الذي حافظ على إرث الحضارة الإسلامية ، وبضياعها ضاعت معالم هذه الحضارة الإنسانية بمختلف معانيها وأبعادها الاقتصادية والثقافية والعمرانية ، وكان لذلك كله أثر عميق في نفوس الدول الإسلامية المعاصرة لها .

[1] . ج . س . كولان ، الأندلس ، ترجمة : إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس ، حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، د . ط ، د . ت ، ص : 142 .

1 . موقف دول المغرب :

إن المغرب الإسلامي بحكم الرقعة الجغرافية التي تقربه من غرناطة ، كانت له مواقف مشرفة تجاه القضية الغرناطية ، وظل الملجأ الوحيد الذي كان يمد المنطقة بالبعثات المنقذة للأندلسيين والأندلس من السقوط لسنين طويلة طيلة حكم الدويلات التي مر بها تاريخ المغرب الإسلامي عموما ، وتاريخ المغرب الأوسط على وجه الخصوص .

وقد تجسدت هذه المواقف في تلبية المغاربة لرسائل الاستغاثة التي كان يبعث بها الأندلسيون إلى المغرب من أجل رفع همم أهلها ، وحث حكامها على رفع رايات الجهاد ضد الإسبان النصارى الذين لم يحفظوا مواثيقهم ، ولم يهتموا بمعاهدات الصلح التي أبرمت بينهم، وقد كانت الاستغاثة بشتى طرقها أشعارا كانت أم رسائل نصية ترسل إلى ملوك المغرب ، والسبب في طلب الأندلسيين الغوث من المغرب ، " لأن هذا الأخير كان دائما وراء العمليات الجهادية التي كان يقوم بها هؤلاء " [1] ، ولكن كانت استغاثة الأندلسيين ببلاد المغرب في العهد المرابطي والموحدي أكثر فعالية مقارنة بالعصر الغرناطي ، ويعود هذا السبب إلى ضعف بلاد المغرب " فقد كان يسودها الضعف والتمزق ، وانتهى الدور التاريخي لهذه البلاد في نجدة الأندلس منذ ضعف بني مرين " [2] .

[1] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 63 .

[2] . عبد اللطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ص : 51 . 52 .

1 . 1 . موقف المغرب الأقصى :

وقد تجلت العلاقة بين العدوتين من خلال القصائد الرثائية التي بعث بها بعض الشعراء إلى بلاد المغرب ، يستنجدون بها حكامها ، ويحثونهم على مساعدتهم في رد خطر النصارى الداهم ، " ومن القصائد المشهورة قصيدة محمد بن عبد الله العربي العقيلي وزير أبي عبد الله الصغير وكاتبه التي وضعها على لسان مولاه يعتذر فيها لملوك بني مرين في المغرب عن النكبة التي حلت بالأندلس ومما جاء فيها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجـم رعيا لما مثله يرعى من الذمـم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبـا وأقطع الحطب ما يأتي على الرغم

حكم من الله حتم لا مرد لـه وهل مرد لحكم منه منحتـم

لوصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالرحـم[1]

ومن بين أهم الرسائل التي وجهها ملوك غرناطة ، خطاب ونداء السلطان محمد الخامس الغني بالله سلطان غرناطة إلى المسلمين عامة وحكام المغرب خاصة ، من أجل إنجاد الأندلس ، وغوثها من إنشاء ابن الخطيب ، ويقول في نص رسالته : " أيها الناس : رحمكم

[1] . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 320 . 321 . والقصيدة موجودة كذلك في : المقري ، أزهار الرياض ، ص : 72 .

الله ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو . قصمه الله . ساحتهم ، ورام الكفر . خذلهم الله . استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، فقد استغاث الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يصل الله لكم جميع العوائد .. أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت "[1] ، ومن هذه الرسالة نستخلص أهمية المغرب بالنسبة للأندلس ، وقد بينت الحاجة الماسة التي جعلت غرناطة تستغيث بأهل الإسلام ، وما عانته من طمس معالم الدين ، ثم بينت سبب لجوئهم إلى المغرب ، وأنه الحلقة المكملة التي عرف فيها الجهاد ونصرة الأندلس لسنين طويلة ، وقد ناداهم بحكم رابطة الدين الإسلامي ، وناشدهم بأواصر الأخوة والقرب .

وقد سقطت الأندلس في وقت كان فيه المغرب الإسلامي يعاني من انحطاط رهيب على المستوى العسكري ، وقد تمثل هذا الضعف في السياسة الداخلية للبلاد ، إذ لما أطل القرن

---

[1] . محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية 64 . 897 هـ / 683 . 1492 م دراسة ونصوص ، منشورات مؤسسة الرسالة ، ط : 1 ، بيروت 1980 م ، ص : 499 . 500 .

العاشر الهجري ، كان المغرب الإسلامي في ضعف وتدهور وانقسام من طرابلس إلى الغرب إلى رباط الفتح ، فقد تداعى الحفصيون بتونس والزيانيون بتلمسان إلى التدهور ، فاستبد الأعراب بالداخل ، واستغلت مدن السواحل ، وأصبح السلطان الحفصي في بعض الحالات لا يشمل نفوذه إلا مدينة تونس وضواحيها ، ، ولم يكن حظ الملك الزياني في تلمسان بأحسن من حظ الملك الحفصي ، أما المغرب الأقصى فقد كان في نزاع عنيف فيما بين بني وطاس أنفسهم أو فيما بينهم وبين الأشراف السعديين[1] .

والجدير بالذكر أن أهمية مساهمة المغاربة في حماية منطقة الأندلس كان ضعيفا إذا ما قورن بالمجهودات الكبيرة التي قام بها المرابطون والموحدون في استرداد المدن الأندلسية من أيدي النصارى ، ومن هنا تتبين أهمية الوحدة السياسية ودورها في التفرغ لرد الخطر الداهم على الدولة الموحدة ، فالوحدة السياسية التي تمتع بها المرابطون في المغرب كله والموحدون من بعدهم ، مكنتهم من النظر إلى خارج رقعتها الجغرافية والاهتمام بعلاقاتها الخارجية ، فكان اتصالها بالأندلس اتصالا بطوليا حفل بالعديد من الانتصارات في المعارك الحاسمة مع النصارى لمرات كثيرة ، أما بعد سقوط دولة الموحدين لم يتمكن ملوك المغرب من تحقيق ما حققه أسلافهم ، فكانت مساعدتهم لذلك الثغر نسبية لا تفي بالغرض المطلوب " فرغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس ، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة

[1] . نادية محمود مصطفى ، العصر المملوكي ، ص : 78 . 79 .

كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة* ، والموحدون في معركة الأرك والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرابطين والموحدين كانوا يقاتلون بإمكانيات المغرب كله ، ومهما يكن من أمر فإن بني مرين ساهموا بدورهم في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة الفوضى والاضطراب والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة وضد جيرانهم من جهة ثانية ، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة ، والتي حالت دون تمكن المرينيين أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس ، بل جعلتهم عاجزين حتى على حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني والبرتغالي " [1] .

ويذكر ابن أبي زرع الفاسي مجهودات الدولة المرينية في الدفاع عن الأندلس فيقول : " أما بنو مرين فبهم أقام الله تعالى في المغرب الدين ، وبسيفهم قمع بجزيرة الأندلس المشركين، وأبقى لها دماء المسلمين :

هم نصروا دين الإلاه وأظهروا   على الدين والدنيا من الحق رونقا

* **الزلاقة** : كانت هذه الموقعة في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان في سنة 480 هـ في عهد يوسف بن تاشفين كان النصر فيها للمسلمين ، فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر . ينظر حول تفاصيل هذه المعركة في : أبو محمد عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص : 99 . 100 . 101 .

[1] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس ، تصدير : نصر الدين سعيدوني ، دار الأصالة ، ط : 2 ، الجزائر ، 2011 م ، ص : 49 . 50 .

بملكهم قد أخمد الله للعـدا ومن عدلهم ضاء الزمان وأشرقا[1]

كما كانت هناك عدة مساعدات لملوك المغرب لإخوانهم في بلاد الأندلس حيث " ساعد بنو مرين غرناطة بالجيوش عدة مرات خلال الربع الأخير من القرن السابع هجري ، وشهد النصف الأول من القرن الثامن هجري معارك جزئية تبادل فيها الغرناطيون مع المرينيين مع الإسبان الانتصار أو الهزيمة إلى القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي ، وهو مرحلة الذبول وهو نفس الوقت الذي أخذت تتجمع فيه قوى كل من إسبانيا والبرتغال " [2].

ولما جاء السعديون عزم المنصور على تحرير الأندلس ، بالتعاون التام مع الأندلسيين ، ولكن المنصور لم يعمر طويلا ، فدخلت الدولة السعدية بعده مرحلة الانهيار ، وجاء العلويون ليجدوا كثيرا من المدن الشاطئية سقطت في يد الإسبان والبرتغال ، فلم يستطيعوا إلا مؤازرة الأندلسيين في الجهاد البحري ، وسعوا إلى استرداد الكتب الإسلامية التي سلمت من الحرق ، فأرسل المولى إسماعيل رسالة إلى دون كارلوس الثاني ليبعث إليه بالكتب الأندلسية الموجودة في غرناطة وقرطبة وغيرهما في مقابل تحرير مائة أسير إسباني .[3]

وأما ما ذكر حول المواقف السلبية للمغرب من حصار وتسليم غرناطة ، وضعف ملوك المغرب عن تقديم يد العون لهم بعد استصراخ أهلها ، نجد نصا في نبذة العصر يفيد حول

[1] . ابن أبي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، د . ط ، د . ت ، ص : 13 .
[2] . ص : 263 .
[3] . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، ط : 2 ، الدار البيضاء ، 1986 م ، ص : 335 .

سلبية موقف المغرب تجاه القضية في ذلك الوقت حيث يقول : " إن إخواننا المسلمون من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم ، فلم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن ، وهو يزداد قوة ، ونحن نزداد ضعفا ، والمدد يأتيه من بلاده ، ونحن لا مدد لنا ، وهذا فصل الشتاء قد دخل ، ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت ، وقد قطع عنا الحرب ، وإن تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل ما نطلب منه ، وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع ، تجتمع عليه جيوشه مع ما يلحقنا نحن من الضعف والقلة فلن يعود يقبل منا ما نطلبه منه " [1] ، ومن خلال هذا النص تتبين المفارقة الكبيرة بين القوتين ، وضعف المسلمين في غرناطة ، وتمكن عدوها ، نظرا لعدم استطاعة المغرب رد هذا الخطر ، وانشغال حكامه بأمورهم الداخلية .

1 . 2 . موقف الجزائر :

كانت الأحداث السياسية التي شهدتها مدينة غرناطة قد وصلت مسامعها للمغرب الأوسط الذي كان تحت الحكم الزياني ، وذلك عن طريق استغاثة أهلها بالملوك الزيانيين ، " وأهل الأندلس كانوا يلجؤون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل ، فمن ذلك أنه

[1] . مجهول ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ، ص : 40 ، ويعلق على هذا بأسباب قاهرة حالت دون رد المغاربة لاستغاثة إخوانهم ، وأنه كان لهم مواقف مشرفة ، وما الظروف القاهرة إلا وهي السبب في ذلك الرد السلبي .

عندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة استصرخ ملكها أبو عبد الله بأبي حمو الزياني بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستنجد أم من مجير للغريب المفرد[1]

ولم يكن أدب الاستغاثة مقصورا على الشعر فقط ، بل كان للنثر أيضا دور في استنهاض الهمم ، ومن بينها رسالة ابن الخطيب التي جاء فيها أن الأندلسيين : " ... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة وضيقا أشد مما هم عليه الآن ، وذكر بأن ملك النصارى جمع جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية ، وأنهم قاموا بإحراق الزروع والمسلمون ليس لهم مغيث يلجؤون إليه . بعد الله . سوى إخوانهم في الدين ، وذكر بأنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر ، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة ، وأنهم لا يملكون غير أنفسهم ، وقد بذلوها في سبيل الله ، وهم ينتظرون نجدتكم " ، وقد قام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيل والطعام ، وبهذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول[2] .

وقد توسع انتشار صدى القضية الأندلسية في الدولة العثمانية خاصة بعد إلحاق الجزائر إليها ، وبذلك صارت الجزائر الدولة الوصية على حماية اللاجئين الأندلسيين الفارين إليها أو

[1] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 53 .
[2] . نفسه ، ص : 53 . 54 .

مد يد العون للمستغيثين منها ، " فالتاريخ العثماني إبان القرن 16 في علاقته مع الأوروبيين قد تميز بظهور شخصيات كبرى حققت الانتصارات العثمانية "[1] .

وعند دخول الجزائر في الدولة العثمانية كان لهذه المنطقة مواقف بطولية في نصرة إخوانهم الأندلسيين ، وفي مساعدتهم في ثوراته التي ثاروا بها ضد الإسبان وخير ما نستدل به على نصرة هؤلاء ما قام به الأخوان عروج وخير الدين من الجهاد البحري في إنقاذ أهل الأندلس الفارين بأهلهم وعقيدتهم إلى بلاد المغرب الوسط ، ومنهم أيضا صالح رايس الذي كانت سياسته تقوم على تحقيق عدة أهداف منها : إبعاد الإسبان نهائيا عن أراضي الجزائر ، وإعلان نفير الجهاد العام ، والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس، ولم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الإسبان ، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي "[2] .

وكان من بين السلاطين الذين حملوا لواء نصرة المسلمين في الأندلس ، وطرد الإسبان من بلاد المغرب حسن بن خير الدين الذي أعيد إلى الجزائر عام 964 هـ / 1557 م الذي قام " بتعيين بريحي الرايس فقام بتخريب الساحل الإسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فشت ، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن ، وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق ،

[1] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 155 .

[2] . عيسى الحسن ، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية ، الأهلية ، ط : 2 ، بيروت ، 2011 م ، ص : 531 . 532 . 533 .

ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس ، وقد رفع تجار إشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الإسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية ، فعم الخوف سكان الساحل الإسباني " [1] .

كما قامت الجزائر في الكثير من الأحيان بتقديم يد المساعدة للأندلسيين الذين أعلنوا عدة انتفاضات متتالية في الأندلس رافضين مبدأ التنصير والتهجير ، وعليه كانت الجزائر " في نظر الموريسكيين أكثر الإيالات العثمانية المغربية المهيأة عسكريا لتقديم الدعم والمساندة ، وهذا نظرا لفعالية تحرك أسطولها البحري في الحوض المتوسط الغربي ، وكذا كثرة رياسها وبحارتها أمام الأسطول الإسباني الذي يراقب كل تحرك يجري في اتجاه سواحله " [2].

أما عن مساعدة الجزائريين للأندلسيين في الثورات الأندلسية التي أعلنها الأندلسيون الرافضون لمبدأ التنصير ترغيبا كان أم ترهيبا ، فهو خير دليل على المواقف المشرفة من طرف الجزائر اتجاه القضية الأندلسية ، وقد وصلت رسائل استغاثة من مسلمي غرناطة إلى علج علي حاكم الجزائر ، ومما جاء فيها قولهم : " لقد أمر النبي محمد العظيم في سنته بإغاثة المسلمين المحتاجين ، وبخاصة من هم في حرب ضد المسيحيين ، وقد قال لنا

---

[1] . عيسى الحسن ، تاريخ العرب ، ص : 538 . 539 . 540 . وأنظر أيضا : علي محمد محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، د . ت ، ص : 415 .

[2] . حنيفي هلايلي ، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني ، دار الهدى ، ط : 1 ، عين مليلة ، الجزائر ، 2007 م ، ص : 113 . 114 .

القرآن هذا في كتاب السيف ، ونحن الآن أيها الملك العظيم في أشد الحاجة لمساعدتكم ونحن نرزخ تحت حكم الإسبان المسيحيين كي نتخلص من هذه العبودية الثقيلة ، فاعطنا السلاح والرجال القادرين على الحرب ، ونحن نعدك بتسليم إسبانيا لك ، ونحيطك علما بأن لدينا خمسة وأربعين ألف رجل مستعدين للقتال ، وهم شباب يتوقون إلى حمل السلاح ، وبعون من الله سوف تعود إسبانيا للخضوع لمشيئة الله العظيم "[1] ، و استجاب العلج العلي(1568 . 1571 م) ، ودعم الموريسكيين في انتفاضة غرناطة بأربعين سفينة وصلت إلى شواطئ المرية ، وتذهب بعض المصادر إلى أن علج علي كان يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجيش بالأندلس ، لكن ما أشيع من تجمع أساطيل المسيحية ، واستعدادها لإجراء معركة ليبانت ، وأمر السلطان له بالاستعداد رفقة البحرية الجزائرية للمشاركة في هذه الحملة العظمى اضطره للبقاء في الجزائر ، وفي شهر أكتوبر 1569 م نجحت البحرية الجزائرية من إيصال 400 بندقية إلى أراضي الأندلس وكمية من الذخائر ، وكان الأسطول يحمل أعضاء من الجيش الانكشاري ممن يملكون الخبرة ليكونوا عونا للموريسكيين[2] ، ويقال أن

[1] . خينيس بيريث دى إيتا ، الحرب ضد الموريسكيين ، ج : 2 ، الحروب الأهلية في غرناطة ، ترجمة : عائشة محمود سويلم ، مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن ، المركز القومي للترجمة ، ط : 1 ، القاهرة ، 2009 م ، ص : 33 .

[2] . حنيفي هلايلي ، بنية الجيش الانكشاري ، ص : 113 .

جيشه كان عظيما بلغ قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق ، وستون ألفا آخرون استعدادا للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس[1] .

وعليه كانت للجزائر مواقف مشرفة في نصرة المسلمين الأندلسيين المضطهدين في الأندلس ، باعتبارها القوة الإسلامية الوحيدة التي استطاعت أن تتحمل هذه المسؤولية ، وتتكفل بحماية الأراضي الإسلامية التي حاول الإسبانيون اقتطاع جزء منها ، ونظرا للأهمية السياسية والعسكرية المضطربة التي شهدتها دول المغرب الإسلامي عشية سقوط الأندلس ، فقد أصبحت بذلك هذه الدولة محط أنظار الأندلسيين ، وأملا في استرداد الأندلس ، خاصة بعد ظهور أسرة عروج وخير الدين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وبوادر ظهور أعمال الجهاد البحري في الجزائر .

1 . 3 . موقف تونس :

كانت تونس بحكم علاقتها الطيبة مع الأندلس من المحطات الجغرافية التي استقبلت رسائل الاستغاثة لمساعدة الأندلسيين إثر الهجمات الصليبية المتلاحقة على مدنها ، وقد ذكر ابن خلدون مستعرضا هذه الحادثة بقوله " لما ظهر أمر بني أبي حفص بإفريقية ، أمل ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبا زكريا للكرة ، وبعثوا إليه بيعتهم وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الأبار صريخا ، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود

[1] . فتحي زغروت ، العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي ، الأندلس الجديدة ، ط : 1 ، 2010 م ، ص : 240 .

بالحضرة ، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين ، يستصرخه فيها للمسلمين ، ومنها هذه الأبيات :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

عاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا للنائبات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدا عرسا[1]

وقد ذكر ابن خلدون في نهاية هذه القصيدة موقف الأمير من هذا الاستصراخ فقال : " فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم ، وبعث إليهم أسطوله مشحونا بمدد الطعام والأسلحة والمال ، مع أبي يحي بن يحي بن الشهيد أبي إسحاق بن أبي حفص ، وكانت قيمته ذلك مائة ألف دينار ، وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار ، فنزل بمرسى دانية ، واستفرغ المدد بها ورجع بالناض إذا لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه ، واشتد الحصار على أهل بلنسية ، وعدمت الأقوات ، وكثر الهلاك من الجوع ، فوقعت المراودة

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ص : 385 . 386 .

على إسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أراغون في صفر سنة ست وثلاثين وستمائة ، وخرج منها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر "[1] .

لكن موقف تونس أثناء نكبة غرناطة ، وبعد سقوطها لم يظهر بالمستوى المطلوب " ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيامها ، ولم يكن بمقدور أمرائها أن يقدموا أي جهد جدي لدعم مسلمي الأندلس ، خصوصا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني "[2] .

2 . موقف مصر :

نظرا للأوضاع المزرية التي عرفها المغرب سياسيا وإداريا بسبب الصراع السياسي القائم بين دويلاته ، لم يبق أمام المسلمين الأندلسيين خيار سوى توجيه الاستغاثة إلى نقاط جغرافية أخرى ، وكانت مصر من بين تلك الدول التي حملها الغرناطيون مسؤولية الدفاع عنهم ، فوجهوا لها رسائلهم مطالبين منها النجدة والعون ، وأهم أمثلة على رسائل الاستغاثة التي وجهها الأندلسيون إلى مصر : " قصة السفارة الأندلسية التي بعث بها السلطان أبو عبد الله إلى سلطان مصر الظاهر جقمق في سنة 844 هـ / 1440 م ، لكنها لم تسفر عن

[1] . ابن خلدون ، العبر، ج : 6 ، ص : 388 .

[2] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 52 .

نتائج تذكر ، إلا أن حوادث الأندلس المفجعة كانت قد تداعت في العالم الإسلامي ، وأصبح صداها يتردد في بلاط القاهرة "[1] .

وقد انتابت العلاقة بين مصر والأندلس العديد من التغييرات التي تنطلق من أوضاع مصر في العصر المملوكي ، وسياسة المهادنة القائمة بين الطرفين ، " وقد كان الاستنجاد الأول في عهد السلطان المملوكي جقمق الذي اعتذر عن إرسال العسكر بسبب طول المسافة ، ووعد بتقديم المال والسلاح ، وإذ كان التحليل التاريخي يثبت أن الدولة المملوكية كانت دولة غير بحرية ، وكانت تواجه صعوبات من الإفرنج في المتوسط ، ويمكن القول أنه كان يزيد من صعوبة احتمال إرسال نجدة لغرناطة أولهما من ناحية الحملات البحرية التي أرسلتها لغزو رودس ، والتي أصابها الفشل ، وثانيها العداء والتربص الذي أحاط علاقاتها بألفونسو الخامس الذي كان يسيطر على غرب البحر المتوسط "[2] ، هذا عن الاستغاثة الأولى ، وقد أعقب ذلك عدة نجدات من مصر لبلاد الأندلس ، وذلك في " عهد السلطان خشقدم في 868 هـ / 1464 م ، واستجابت مصر بتقديم المدد والمعونة من الأسلحة والعتاد في مرحلة خطيرة في المواجهة نظرا لظروف الحرب الأهلية والتي كانت تمر بها غرناطة بسبب التنافس على العرش " [3].

---

[1] . بن زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 63 .

[2] . نادية محمود مصطفى ، العصر المملوكي ، ص : 118 .

[3] . المرجع نفسه ، ص : 118 .

وقد توجه سلوك السلطان المملوكي قايتباي إلى نفس سياسة سابقيه في نظرتهم للوضع الأندلسي الغرناطي في تلك الفترة ، وكانت تحز في نفوسهم ما آلت إليه البلاد من تنصير واحتلال ، ولهذا قام هذا الملك " بوضع خطة مشتركة مع السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481 _ 1512) تنص على أن يرسل هذا الأخير أسطولا قويا لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من أملاك إسبانيا ، فيشغل بذلك اهتمام فرناندو وإزابيلا وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقيا تجوز البحر إلى الأندلس لتجنيد جيوشها وقواعدها ، لكن الظروف الداخلية للسلطان بايزيد الثاني حالت دون تنفيذ هذه الخطة اكتفى بتوجيه كتاب الى الملكين الكاتوليكيين لم يعملا بشيء منه وكان ذلك بعد انتفاظة البيازين عام 1499 م "[1] .

و الواضح أن الأندلسيين لم يلجؤوا إلى مصر في عهد المماليك طلبا للاستغاثة ، ومد يد العون والنصرة لهم إلا بعد أن استنفذت جهودهم في طلب المساعدة من ملوك المغرب _ كما مر بنا _ وذلك بسبب التفوق المريني ، وعن مواقف دولة مصر تجاه الأندلس فإننا نلاحظ " عدم مبادرة المماليك عسكريا أو دبلوماسيا باتخاذ ما يمكن أن يساعد غرناطة والمغرب في صورة مباشرة في جهادهم ضد الاسبان ، بل على العكس فإن هذه المرحلة شهدت علاقات طيبة بين دولة المماليك وقشتالة وأراقون ، ولقد سبق وأوضحنا طبيعة هذه العلاقات ووضعها في سياق العلاقات المملوكية الافرنجية ، وهي العلاقات التي ترجمت

---

[1] . محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 63 –64 .

نفسها في معاهدات واتفاقات عقدها قلاوون واستمرت من بعده في فترة طويلة مع ابنه الناصر محمد "[1].

ورغم الصعوبات التي واجهت مصر في ذلك الوقت ، والتي حالت دون تقديم العون إلى إخوانهم بالأندلس بشكل كبير فإنهم في الوقت ذاته كانت لهم مواقف إخوانية صادقة مع إخوانهم المسلمين في الأندلس ، وقد أعرب حكامها عن عاطفة دينية تجاه ما يعانيه الأندلسيون من تنصير وتجهيل وظلم ، " واعتذروا عن تقديم المساعدة لبعد المشقة إلا أنهم أعربوا عن مواساتهم وتشجيعهم وتعاطفهم ومساندتهم المعنوية ، وظهر ذلك في المراسلات بين السلطان المريني والسلطان الصالح بن الناصر بن قلاوون بعد معركة طريف سنة 1340 م "[2] .

3 – موقف الدولة العثمانية* :

---

[1] . محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 81 . وقد أوضحت الأسباب التي أدت بالمماليك لعدم نصرة الشعب الغرناطي نصرة فعلية منها بعد المنطقة عن بلاد الأندلس ، والصراع الحفصي المملوكي ، حيث اختزلت الخلافة العباسية في مصر ودولة الموحدين في تونس مما أسفر عن تنازع على مركز الخلافة ، والتهديدات من الشمال فلا تستطيع الوصول بسهولة للأندلس . للمزيد ينظر : المرجع نفسه ، ص : 79 وما بعدها .

[2] . محمد زروق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص 80 .

* أصلهم من التراكمة الرحالة النزالة (وهم طائفة من التتار) وأول من تولى منهم السلطنة في بلاد الروم ونسبوا إليه السلطان عثمان رحمه الله بن أرطغل بن سليمان شاه ، ويتصل نسبه إلى يافث بن نوح عليه السلام . ينظر : محمود مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق : علي الزواري ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م ، ج : 2 ، ص : 5 .

لقد صاحب سقوط غرناطة سنة 1492م ظهور قوة إسلامية عظيمة في المشرق هي الدولة العثمانية ، فقد "كان فتح القسطنطينية سنة 857 هـ / 1453 م أي قبل سقوط غرناطة بأربعين سنة إيذانا بدخول دولة إسلامية جديدة إلى الميدان الدولي في مصاف الدول العالمية الكبرى ، حيث انسابت الفتوح الإسلامية الجديدة في شرق وجنوب أوروبا ، متزامنة تماما مع انحسار المد الإسلامي في غرب القارة (الأندلس) وقد ظهر العثمانيون منذ بدايات القرن 8 الهجري في مناطق الثغور على الحدود البيزنطية الإسلامية في الأناضول ، وبسطوا نفوذهم على أجزاء واسعة منه "[1] ، وقد تطورت الدولة العثمانية تطورا سريعا إلى أن أصبحت تتزعم قضايا العالم الإسلامي آنذاك ، وأهم قضية أثارت انتباه الدولة العثمانية هي قضية الأندلس ، وما أسفرت عنه من مآسي دامية وأحداث مؤلمة كان للعثمانيين مواقف مشرفة تجاهها من خلال استقبال رسائل الاستغاثة التي كانت توجه للسلاطين العثمانيين في ذلك الوقت .

إن من بين أهم المواقف الرائدة للدولة العثمانية تجاه القضية الأندلسية أنها حالت دون استمرار توسع إسبانيا النصرانية للسواحل الإفريقية ، إذ حافظت على عروبته و إسلامه وإنقاذ المسلمين الفارين إلى ذلك الإقليم " فمن الخدمات الجليلة التي قدمتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمال إفريقيا من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوروبي الذي حمل لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية

[1] . عبد الطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين ، ص : 49 .

المعروفة باسم فرسان القديس يوحنا ، وكان من أهداف هذا الغزو أيضا إنشاء ممالك تتناثر على الساحل الشمالي لإفريقيا كمرحلة ثالثة ، وبذلك يغدو البحر المتوسط في المدى البعيد بحيرة مسيحية أوروبية ويعقب ذلك تغلغل صليبي أوروبي جنوبا في داخل القارة الأوربية "[1]

وقد وفدت إلى سلاطين الدولة العثمانية رسائل كثيرة ، تخبر عن حال الأندلسيين ، وواقعهم المزري جراء الحرب النصرانية ضدهم ، وإكراههم على ترك أراضيهم والتخلي عن مقدساتهم وعناصر هويتهم الإسلامية ، ومن بين تلك الرسائل التي جاءت في شكل قصيدة تحمل أبياتها معنى الاستصراخ وطلب الغوث :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بأندلس بالغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجـــة

سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبــة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عـــــزة

سلام عليكم من وجوه تكشفـت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة

سلام عليكم من بنات عواتـق ... يسوقهم الصراط قهرا لخلـــوة

سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفــــــة

[1] . إسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، مكتبة العبيكان ، ط: 2 ، 1998م ، ص : 237 .

نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعـــــة

شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزيـــــــة [1]

وقد وجهت هذه القصيدة في شكل رسالة إلى السلطان العثماني " بعد انتفاضة البشرات 1501م ، وما تلاه من إجراءات القمع ضد العرب المتنصرين وذلك حوالي سنة 1505م وهي تلخص وضعا آل إليه المسلمون بعد سقوطها عام 1492م [2] ، وقد جمعت هذه القصيدة كل مظاهر القهر والتعذيب والطمس ، فهي تؤكد مشهد المأساة الموريسكية من مختلف الجوانب الإنسانية والحضارية والثقافية "[3] .

ومن بين رسائل الاستغاثة التي وصلت إلى أسماع الدولة العثمانية من سكان الأندلس " عندما أعلنت إسبانيا في 975 هـ / 1567 م قرارات جديدة ضد المسلمين منها منع استعمال اللغة العربية أو التسمي بأسماء عربية ، وتحريم لبس الألبسة الإسلامية العربية ، ومنع حجاب المرأة ... كتب مسلموا الأندلس إلى العثمانيين بما اقترفه الإسبان ضدهم من قرارات جائرة وحاجة المسلمين هناك للسلاح لاستخدامه في الجهاد ، فأجاب العثمانيون في رسالة موجهة إليهم : " لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم ، وكيف أن الكفار الضالين ذوي الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ، ويمنعونهم من التخاطب باللغة

---

[1] . جمال قنان ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ، 1500 – 1830 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، د .ط، 1987 ، ص : 37 .

[2] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، دار الهدى ، د . ط ، الجزائر ، 2010 م ، ص : 141 .

[3] . نفسه ، ص : 142 .

العربية ، ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف ، ويوجد الآن عشرون ألفا من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف ... وفي صورة وصول هذا المقدار من السلاح من الجزائر ، فإن ذلك من شأنه أن يقوي من عزيمة الناس " [1] .

وهناك رسالة استغاثة أخرى بعث بها سكان الأندلس إلى الدولة العثمانية باعتبارها أهم القوى الإسلامية الناهضة في تحقيق أمر الجهاد البحري في ذلك الوقت ، ومنها الرسالة الموجهة من ابن عبو ، وهو أحد قادة مسلمي الأندلس إلى مفتي استنبول (شيخ الإسلام) في 11 شعبان 977 هـ / 1570 م التي تضمنت طلب الغوث والنجدة والنصرة [2] ، وقد اختلف رد الدولة العثمانية تجاه المسألة الأندلسية بحسب قدرات الدولة ، وبهذا " أولت عناية فائقة لمسألة مسلمي الأندلس ، حيث فتحت لهم أبواب النزوح والهجرة إلى الأراضي العثمانية، كما عملت على تأمين سبل الوصول والهجرة إلى بقية البلدان الإسلامية " [3].

ومن المواقف الهامة للدولة العثمانية تجاه القضية الأندلسية ما قام به السلطان بايزيد " الذي عرف بالتقوى والتدين ، فإنه قد رد على هذا الاستنجاد بإرسال أسطول عثماني تجول في الشواطئ الإسبانية ، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أصبح بعد إذن مصدر الرعب الذي كانت تشعر به الأساطيل العثمانية في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي ،

---

[1] . عبد اللطيف محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ص : 101 .

[2] . أنظر نص الرسالة في الملحق رقم : 4 .

[3] . عبد اللطيف محمد الحميد ، المرجع السابق ، ص : 131.

وكان رد فعل السلطان بايزيد الثاني[1] بقيامه بمساعدة هؤلاء المستضعفين من مسلمي غرناطة إنما كان يترجم عن شعور صادق بالقيام بواجب ديني تفرضه رابطة الأخوة في الدين والتضامن الإسلامي "[2] ، وقد رد السلطان لنجدة المسلمين الأندلسيين حيث قام " بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ، ووقع اتفاقا يرسل بموجبه السلطان بايزيد أسطولا إلى سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة إسبانيا ، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية إفريقيا وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الإسبانية "[3] .

وعليه فإن أمل الأندلسيين بالعثمانيين لم ينقطع ، لقناعتهم بأهمية وقوة هذه الدولة من جهة ، وثقلها السياسي والديني من جهة أخرى ، ولولا موقف هذه الدولة المشرف تجاه القضية الأندلسية لما تواصلت رسائل الاستغاثة الكثيرة التي وصلت إلى مسامعها ، وما الجهود التي بذلتها في خدمة القضية إلا دليل يعكس أهمية الأندلس في نظر العثمانيين ، وكانت الجزائر الرقعة الجغرافية المساعدة على تحقيق أهداف العلاقات الأندلسية العثمانية .

---

[1] . أنظر وثيقة الاستغاثة الأندلسية المرسلة إلى السلطان بايزيد الثاني في الملحق رقم 3 في آخر البحث .

[2] . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، ص : 153 .

[3] . عيسى الحسن ، تاريخ العرب ، ص : 478 . وذكر العوائق التي حالت دون الإسراع في هذه المهمة ومنها : مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم ، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية ، وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في كراسيلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا . ينظر : نفسه ، ص : 478 .

الفصل الثاني

الآثار السياسية والعسكرية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط

المبحث الأول : الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط

المبحث الثاني : الدور السياسي والعسكري للأندلسيين في المغرب الأوسط

الفصل الثاني : الآثار السياسية والعسكرية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط

تحدثت في الفصل التمهيدي عن علاقة الأندلس ببلاد المغرب الأوسط ، وأن هذه العلاقة متجذرة في التاريخ منذ أن وطئ المسلمون أرضها ، فكانت منطقة للجهاد ضد الصليبيين لعدة قرون ، ولما ضعفت قوتها نتيجة العوامل التي ذكرناها سقطت سقوطا ذريعا ، وانتهت نهاية مأساوية لا مثيل لها في التاريخ العربي الإسلامي ، ولم يكتف النصارى باحتلالهم لهذه الأرض وطمس معالمها وآثارها الحضارية التي مست جميع جوانب الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، بل راحت تبحث عن قطع كل سبيل من شأنه أن يعيد المسلمين إلى المنطقة.

ولما كانت الأندلس بحكم رقعتها وموقعها الجغرافي قريبة من بلاد المغرب عامة وبلاد المغرب الأوسط على وجه الخصوص ، ومحاولات الاستنجاد التي قام بها سكان هذه المنطقة حكاما ومحكومين لمساعدة المسلمين المضطهدين في بلاد الأندلس طيلة ثمانية قرون كاملة خلال الفتح الإسلامي وعهد ملوك الطوائف وعبور المرابطين ثم الموحدين للقضاء على الصليبيين في معارك بطولية خالدة ، فإنه كان يتوجب على إسبانيا أن تحاول التوسع على حساب هذه الأراضي لأن أغلب الأندلسيين الذين لم يستطيعوا مقاومة التنصير القهري قد فضلوا الهجرة إلى حواضرها مثل وهران وتلمسان وبجاية وقسنطينة ... وغيرها .

وعليه مكنت لنفسها من إعداد العدة لملاحقة هؤلاء الفارين من جهة ، وكسر شوكة المساعدين لهم في عدوة المغرب من جهة أخرى ، فكان بذلك انتقال الصراع السياسي والعسكري من عدوة الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط ، فتأثر المغرب بهذا السقوط أيما تأثير ، وحاول الإسبان احتلال المدن ، والسيطرة على أهم موانئه البحرية التي كانت بمثابة شريان الحياة الاقتصادية تلك المدن ، كما أن سقوط الأندلس مكن العديد من الأندلسيين اللحاق بالوظائف الحكومية في المغرب الأوسط ، مثل الوزارة والحجابة وكانوا أيضا جنودا محاربين للاحتلال الإسباني ، وسنحاول في هذا الفصل تحليل أهم أسباب هذا الاحتلال ونتائجه .

المبحث الأول : الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط

إن بروز إسبانيا* النصرانية ومحاولة جمع شتاتها ، ولم شمل أهلها الذين تشتتوا في المدن الإسلامية الأندلسية عبر أزمنة طويلة ، قد فتح لها المجال للتفكير في مواصلة

---

* **الإسبان** : هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام ، واختلف في كونهم من ولد يافث لصلبه أم من ولد حفيده ، وهل هم إخوة الفرنج أو من الروم ، قال الحافظ أبو راس في عجائب الأسفار : والإسبانيون هؤلاء من الليطنيين (اللاتينيين) ، وكانوا من أعظم ملوك العالم ، وقال أيضا في المشاريخ : والليطنيون من ولد ليطن بن يونان ، وقال في موضع آخر منه : " إن الليطنيين وهم الكثيم المعروفون بالروم من بني يونان ، والمحققون ينسبون الروم جميعا إلى يونان الإغريقيين والليطنيين . والإسبانيون نسبة لإسبانيا وهم من ولد يافث وأتباعهم البطرك وهو الباب ، وخلف يافث سبعة أولاد كما في التوراة وهم كومر وياوان ومادي وماغوغ وطوبال وماسخ وطيراش ، ولا شك أنهم فرقة من الروم لا من الفرنج .. وأرض الإسبانيين هي جزيرة الأندلس بتمامها ، وهي جزيرة واسعة بين البر الرومي والبحر المحيط . للمزيد حول هذا المصطلح أنظر : محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق : المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د . ط ، الجزائر ، 1979 م ، ص : 125 وما بعدها ، وفيه تفصيل في التعريف

حروب الاسترداد ، ولما كانت إسبانيا منطقة ضعيفة اقتصاديا وماديا ، وأمام هذا العجز المالي الذي عرفته إسبانيا خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، أرادت أن تسطو على خيرات البلدان المجاورة وخاصة منها الجزائر التي نعمت باقتصاد وافر تجاريا وصناعيا وزراعيا ، وكانت المراسي الجزائرية من أهم الموانئ التي حركت التجارة الخارجية لكامل الجزيرة الأوروبية ، وأمام هذا الاختلال في موازين القوى بين العدوتين راحت إسبانيا تبحث عن علاج لأوضاعها المزرية بتنفيذ خططها التوسعية ، وكانت لهذا التوسع عدة أسباب .

1 . أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط :

1 . 1 . الأسباب الدينية :

إن بروز الروح الصليبية في إسبانيا خاصة بعد زواج كل من فريديناند وإيزابيلا قد باركته الكنيسة ، فجعلا منه هدفا لنشر المسيحية في كامل أرجاء المنطقة ، وتطهير البلاد من المسلمين الذين اعتبروهم كفرة لا يحق لهم التعايش مع النصارى ، وتكمن مباركة الكنيسة لهذا العمل التنصيري في أن " الرهبان والقساوسة كانت لهم الكلمة الأولى في توجيه سياسة الدولة نحو المسلمين سواء كان ذلك في الأندلس أو في الشمال الإفريقي ، فهم الذين كانوا يلهبون الحماس الديني في الجموع الإسبانية ، ويثيرون بواعث الكراهية والتعصب ضد

بالدولة السابعة " الإسبانيون " ، آغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تحقيق ودراسة ليحي بوعزيز ، دار البصائر ، طبعة خاصة ، 2009 م ، ج : 1 ، ص : 203 .

المسلمين ، كما أن البابا لعب دورا كبيرا في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولا ، ثم إخضاع الشمال الإفريقي لإسبانيا تمهيدا لتنصيره ثانيا " [1].

وبهذا كانت الحملة على الأندلس أولا ، وملاحقة الفارين باستحواذ إسبانيا على سواحل المغرب الأوسط ثانيا وليدة التعصب الديني النصراني الذي كان دفينا لعدة قرون ، فالتسامح الديني * الذي عرف به المسلمون خلال فتحهم لبلاد الأندلس ومكوثهم بها لأكثر من ثمانية قرون عوقب عند سقوط الأندلس وزوال الوجود الإسلامي بها بحملة تنصيرية شرسة ، أكرهت المسلمين الذين فضلوا البقاء في أراضيهم على التنصر ، وحملتهم على اعتناق هذا الدين بالقوة ، وأنشأت محاكم التفتيش ، ووسعت سبل الترهيب والترغيب من أجل القضاء النهائي على الوجود الإسلامي والعربي بالمنطقة ، وقد كان للبابا دور في نشر هذه الحرب العدائية على منطقة بلاد المغرب الأوسط بدعوته ومباركته العمل الذي أقدم عليه الملكان الكاثوليكيان فريديناند وإيزابيلا " فالدور الأساسي الذي قام به البابا في مدينة روما من أجل

[1]. محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512 . 1543) ، ص : 119 . 120 .

* وقد اعترف بهذا التسامح حتى أساقفة اسبانيا أنفسهم ، إذ يعترف أحد المستشرقين الاسبان وهو الراهب فرانشكو سيمونيث في كتابه (تاريخ المستعربين في اسبانيا) على الرغم من تعصبه الشديد للنصارى بقوله : " لا بد أن حرية العقيدة التي نادى بها الفاتحون قد راقت لأهالي الأقاليم المفتوحة ، ولاسيما للكثيرين الذين تعرضوا للملاحقة من قبل الحكم السابق " ، ويقول تورس بلباس في كتابه (المدن الاسبانية الإسلامية) : " إن خير ما يمثل ذلك التجمع السكني الخالي من الحدود بين الأقليات هو بقاء الكنائس داخل أسوار المدينة ، بل في مراكزها أيضا ، كما تشهد على ذلك كنيسة الملك المجاورة للمسجد الجامع في طليطلة " ، وغير هذا كثير مما يدل على روح التسامح الديني الذي اهتم بها المسلمون ، وطبقها حكامهم في الأندلس . أنظر : محمد بشير العامري ، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي ، دار غيداء ، ط : 1 ، 2012م ، ص : 57 .

حمل البلاد المسيحية قاطبة على وضع كل إمكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف CRUSADA لملوك إسبانيا من أجل الحرب الإفريقية ، وجمع القساوسة والرهبان أموالا باهضة في ذلك السبيل ، بل إنهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة لكي يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد " [1].

ولم يكتف الحكام الإسبانيون في زمن إيزابيلا بهذا فحسب ، بل استمرت الدعوة الدينية للتنصير الجماعي والقهري بعدها بفضل الوصية التي تركتها بعد وفاتها لتبين بذلك أنها لم تكن تنوي القضاء على المسلمين في بلاد الأندلس فقط ، بل أنها كانت عازمة على نشر هذا الدين في كامل البلدان الأخرى ، وخاصة منها بلاد المغرب " فعندما ماتت سنة 1504م تركت وصيتها الملحة لخليفتها بتوسيع السيطرة الكاستيلية حتى تشمل جميع شمال إفريقية من مضيق جبل طارق إلى طرابلس ، ولكن موت زوج ابنتها فيليب سنة 1506 م وجنون ابنتها جوهانا ، والخلاف بين فريديناند وحكومة الوصاية على عرش كاستيل منع من حركة سريعة ، كما أن توحيد المملكتين الإسبانيتين قد أصيب بخطر جديد ، وهو أن فريديناند قد ولى وريثا لعرش أراغون لا علاقة له بكاستيل ، ولكن مجلس وصاية كاستيل رفض السماح لفريديناند القيام بأي حركة قد ينتج عنها حرمان أحفاده من إيزابيلا ، وهما شارل وفريديناند

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 . 1792م ، دار البصائر ، ط : 3 ، الجزائر : 2009م ، ص : 71 . 72 . وينظر أيضا : صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر ، ص : 75 .

فون هابسبورغ في كاستيل ، ولم يكن هذا المشكل العائلي وحده هو الذي منع من احتلال شمال إفريقية " [1].

ومنه نستخلص أن من جملة العوامل الدينية ما اتفق عليه الإسبان من ملاحقة فلول الأندلسيين المنهزمين إلى عدوة بلاد المغرب الأوسط ، ويعود " سقوط الأندلس سنة 1492م وبداية النهضة الأوروبية الحديثة وما تبع ذلك من انتقام الدول المسيحية وعلى الأخص الإسبان من المسلمين الذين كانوا سادة على جنوب بلادهم أكثر من ستة قرون ، وخوفا من عودتهم مرة أخرى قرروا احتلال المدن الساحلية الإسلامية الواقعة في المنطقة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط بالنسبة إليهم ، ففي ظروف خمس سنوات من 1505 إلى 1510 بالنسبة للجزائر فقط احتلوا المرسى الكبير ، وهران ، أرزيو ، مستغانم ، شرشال ، الجزائر ، بجاية ، عنابة " [2] ، وبهذا فقد حقدت إسبانيا على هذه العدوة . بلاد المغرب الأوسط . لحمايتها للاجئين الأندلسيين ، ومساعدتها لثورات الموريسكيين في الأندلس [3] ، كما أن ملامح التعصب الديني قد اعتلت في نفوس الإسبانيين بمختلف طوائفهم الاجتماعية

---

[1] . جون . ب . وولف ، الجزائر وأوربا 1500 . 1830 ، ترجمة وتعليق : الدكتور أبو القاسم سعد الله ، عالم المعرفة ، دار الرائد ، د . ط ، الجزائر : 2009م ، ص : 25 .

[2] . علي خنوف ، تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا ، دار الأنيس ، ط : 2 ، الجزائر : 2011م ، ص : 74 .

[3] . قد كان للأندلسيين رسائل استغاثة بالجزائر فابن أمية لما علم بتحرك المركيز أرسل رسالة إلى الجزائر يطلب العون والنجدة ، كما أرسل يستدعي قوات الثورة في ألمرية ووادي المنصورة للاجتماع إليه ، وفي 1569 أرسل ابن أمية قائده هرناندو الحبقي إلى الجزائر ليتصل بواليها علوش علي لعله يمدهم بالرجال والسلاح ، فأذاع علوش بيانا في الجزائر دعا فيه الناس من أتراك ومغاربة إلى التطوع لنصرة إخوانهم الأندلسيين . أنظر : أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، ص : 237 . 238 .

وطبقاتهم السياسية ، وبهذا " فإن الحروب الإسبانية في إفريقيا قد أخذت الصبغة الصليبية الحقيقية ، وذلك نظرا للدور الممتاز الذي قام بأدائه رجال الكنيسة والكهنوت من أجلها ، فالكنيسة بإسبانيا قد اهتمت بجميع ما لديها من الحماس ومن الجرأة بهذه المعركة ضد الإفريقيين بل إن الكنيسة قد أرادت في الكثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها "[1] ، ثم إن أشد الأمثلة إثارة في توضيح هذه الضربة الصليبية على بلاد المغرب الأوسط ما قاله البابا اسكندر الرابع (بورجيا الشهير) الذي أصدر سنة 1494م عندما ابتدأ التفكير الجدي في احتلال المغرب العربي عهدا يبارك به الصليبية الإسبانية بإفريقيا ، كما أن حملة خيمنيس كانت صليبية وأنه يستحق من أجل ذلك أن يدعى بآخر عظماء الصليبيين[2].

وأهم ما يميز انتقال التعصب الديني إلى شمال بلاد المغرب الأوسط ما عزم عليه الصليبيون من نشر المسيحية في ربوعها حيث يقول الأستاذ أ . كانت : " ولم يكن للإسبان من هم إلا نقل الحرب إلى إفريقيا بعد أن كانت نفس البلاد الإسبانية مسرحا لهذه الحرب طيلة قرون ، وإرغام العرب من أهل إفريقيا على اعتناق دين المسيح بواسطة السلاح ، وأصرح من ذلك ما يقوله المؤرخ الشهير بربروجر في كتابه عن صخرة مدينة الجزائر : إن

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص :73 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 72 . 73 .

الراهب خيمينس يستحق كل تقدير من أجل تفكيره على الأقل في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية لكي تتنصر فيها المسيحية والحضارة " [1] .

ومما يستدل على وحشية الإسبان وتطرفهم الديني ، وتعصبهم في نشر المسيحية في بلاد المغرب الأوسط أن أغلب مدنه كانت تحوي العديد من المنشآت الدينية الإسلامية ، وخاصة منها المساجد والزوايا ، إذ كانت مدينة وهران مثلا " تشمل على عدد كبير من المساجد والزوايا قيل إنها تربو على الثلاثين ، ولكن الإسبان خربوا معظمها ، وحولوا الباقي إلى كنائس ، مما يدل على مدى تعصبهم الديني والعرقي ، فجامع البيطار الذي أسس عام 747 هـ / 1347م على كدية شمال القصبة قد حوله كيزيمينس إلى كنيسة عام 1509م باسم امرأتنا المنتصرة Notre dame de la victoire ثم أطلق عليها فيما بعد اسم القديس كريست الصبور " [2].

وهكذا أضحت بلاد المغرب الأوسط بؤرة من بؤر الصراع الإسباني الإسلامي التي انتقلت إليها بفعل سقوط الأندلس عام 1492م ، ومنذ ذلك الحين والمغرب الأوسط يعاني من تلك الهجمات المضادة لا لشيء سوى لأنه حمل على عاتقه حماية الأندلسيين المسلمين الفارين بدينهم وعقيدتهم الإسلامية من محاكم التفتيش التي فرضتها المملكة الإسبانية والتنصير

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 73 . 74 .

[2] . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ويليه مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ويليه المساجد العتيقة في الغرب الجزائري ، دار البصائر ، طبعة خاصة ، الجزائر : 2009 ، ص : 93 .

القسري الذي ارتد من جرائه العديد من المسلمين في بلاد الأندلس ، وفي مقابل الحضارة الإسلامية التي أقيمت في الأندلس لسنوات طويلة قوبلت بهجمة صليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين الذين نشروا أسمى معاني التسامح الديني مع أهل الذمة .

إن سقوط الأندلس بأيدي النصارى كان يهدف بالدرجة الأولى إلى القضاء على كل ما يمد بصلة إلى الإسلام وتعاليمه ، ولم يكتف الملكان الكاثوليكيان بهذا النصر الذي حالفهما بالقضاء على منبع هذا الدين ، بل تعدى ذلك إلى استأصاله كليا في أي مكان أو موطن يحمل راية التوحيد ، ولعل بلاد المغرب الأوسط على قربها من بلادهما . الأندلس . ونظرا للبطولات المتكررة في نجدة أهلها إثر سقوط المدن الأندلسية في أزمنة ماضية ، فإن الملكين بقيا على خشية دائمة للمسلمين هناك ، وما تجدر الإشارة بذكره مدى اهتمام هذين الملكين بأمر بلاد المغرب الأوسط يقول المؤرخ الفرنسي دي غرامون : " فغداة الاستيلاء على غرناطة مباشرة (وكان ذلك يوم 2 يناير 1492م) كلفت إيزابيل ملكة قشتيليا وزوجة فرناندو الكاثوليكي ملك الأرغون المسمى لورينثو دي باديليا (Lorenwo de padilla) حاكم مدينة القلعة في الأندلس بمهمة سرية أداها بكل كفاءة ونجاح ، هذه المهمة هي استطلاع الأمور والمواقع في تلمسان للإعداد لاحتلالها كمنطلق لاحتلال البلدان المغربية بل الإسلامية عامة ، فذهب لورينثو متقنعا بلباس تاجر تلمساني إلى مملكة تلمسان حيث أمضى أكثر من عام رجع بعده بكل المعلومات المطلوبة والضرورية لحملة الغزو التي كانت

بصدد الإعداد " [1] ، ومما يلاحظ حول هذا التخطيط أنه ليس تخطيطا لغزو عسكري كان من آثار سقوط الأندلس في أيديهم واستدعى التفكير في استمرار عملية الاسترداد ، ولكننا نستشف من خلال مقولة للملكة أن أسباب هذا الغزو للسواحل المغربية عموما ومدينة تلمسان على وجه الخصوص باعتبارها عاصمة لبلاد المغرب الأوسط آنذاك أن الحملة العسكرية كانت تتغذى من عقيدة صليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين أنى وجدوا ففي وصية لها تحث على استكمال هذا العمل المقدس في نظرها تقول : " إنه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا ، ولا إنهاء الصراع ضد الكفار (أي المسلمين) من أجل العقيدة " [2] ، فالهدف من الاحتلال ديني بحث جعل الملكان نشر العقيدة المسيحية من أولى أولوياتهما .

1 . 2 . الأسباب الأمنية :

لم يكن في وسع المسلمين الأندلسيين الذين لاقوا أصناف التعذيب ، وعاشوا الاضطهاد الديني ، وابتلوا في دينهم وأعراضهم وأنفسهم أشد البلاء ، حتى إن بعضهم اضطر إلى ممارسة التقية خوفا على نفسه من إظهار شعائر دينه كالصلاة وقراءة القرآن .. وغيرها ، ونتيجة لهذه الحياة الرهيبة حاول بعضهم الهجرة إلى بلاد المغرب الأوسط فارين بدينهم ،

---

[1] . مولود قاسم نايت بلقاسم ، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ، دار البعث ، ط : 1 ، الجزائر : 1985 ، ج : 1 ، ص : 51 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 55 .

ومحاولين الاستغاثة بالمسلمين الموجودين هناك علهم يعيدون للجهاد البطولي سيرته الأولى، ويتعاونون من جديد على رد خطر الإسبان ، وأمام هذا النزوح الذي شهده المغرب الأوسط فإن إسبانيا لم تبق مكتوفة الأيدي ، بل حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تحرس حدودها " فالإسبانيون يومئذ كانوا يخشون قبل كل شيء رد الفعل الإفريقي ، كانوا يعلمون من أمرنا أكثر مما كنا نعلم ، وكانوا يعرفون أننا . ذلك الحين . كنا نجتاز فترة انهيار ، وكنا نموج بين أحضان الفتن والشقاق والحروب الداخلية ، لكنهم كانوا يعلمون أيضا أن المغربي هو المغربي في إيمانه وفي شدة شكيمته وصلابته ، وبطولته في الحرب ، وفي تضحياته التي لا تقف عند حد ، ويعلمون أن ما أصابنا يومئذ لم يكن إلا نتيجة اختلاف الملوك والقادة والزعماء ، وأن هذا الشمال الإفريقي سوف يتغلب على هذه المآسي فتتجمع كلمته مرة أخرى "[1] .

وإذا ما قارنا أوضاع المشرق بالمغرب فإن تخوف إسبانيا من القوة الإسلامية العظمى في المشرق جعلها تفكر في احتلال المغرب ظنا منها أنه البوابة التي توصلها إلى الدولة العثمانية " ففشل الصليبيين في المشرق ، واحتلال الأتراك للقسطنطينية ، وتهديدهم لأوربا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح وظهور سيادة الأتراك البحرية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كان كل ذلك مع النجاح الذي أحرزته النصرانية على

---

[1] . توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 75 .

المسلمين بالأندلس دافعا للإسبان على متابعة الغزو والاكتساح للإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية " [1] .

ضف إلى ما سبق ما أرادت به إسبانيا حماية حدودها الجنوبية من خطر الهجمات الإسلامية ، فقد كان يحز في نفوس الإسبان من تلك النجدات التي كانت ترسلها السواحل الإفريقية إلى مسلمي الأندلس منذ عهد المرابطين إلى ضعف بني مرين ، وأن سلامتهم وتفوقهم إنما يتمثلان في ضعف هذه السواحل بل الاستيلاء عليها ، وقد كان الاضطراب السياسي في هذه الأقطار يساعد كثيرا على غزوها واكتساحها " [2].

1 . 3 . الأسباب الاقتصادية :

لا شك أن الحرب الصليبية القائمة هي حرب ضد الإسلام من أجل رد اعتبار المسيحية الضائعة ، ولكن في نفس الوقت لعبت الأمور المادية دورا بارزا في تكريس الهجمات المضادة في تاريخنا الإسلامي ، فقوة الإسلام تكمن في قوة اقتصادها أيضا ، وهذا ما جعل الأنظار الإسبانية تحاول أن تطمس هذا التطور من أجل بسط سيطرتها الاقتصادية على المنطقة ، فمن أسباب احتلال الإسبان لبلاد المغرب الأوسط ما تعلق بالجانب المادي ، والمتمثل في " فكرة الانتقام من مراسي المغرب العربي التي كانت مراكز القارات البحرية ضد

---

[1] . محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، د . ط ، 1982 ، ص : 260 . 261 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 262 .

السواحل والسفن الإسبانية ، فإن الكثير من المهاجرين الأندلسيين كانوا عندما يستقر بهم الأمر في المدن الإفريقية يعملون على الانتقام من الإسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد اكتسبت هذه القارات صبغة الجهاد ، فكان يشاركهم في ذلك كثير من سكان السواحل الإفريقية ، فيركبون السفن وينزلون بالسواحل الإسبانية لإنقاذ إخوانهم " الموريسكيين " من خطر الفناء والتنصير ، كما كانوا يغيرون على السفن النصرانية ويعودون بما فيها من غنائم وأسرى ، وتكونت بذلك قرصنة إسلامية ما كان يعرفها البحارة المسلمون في السابق " [1].

ومن الأسباب الاقتصادية التي دفعت بإسبانيا وحلفائها احتلال سواحل بلاد المغرب الأوسط ما عرفته إسبانيا نفسها من ضعف اقتصادي ومالي كبير ، أضعف ميزانية الدولة ، وجعلها تتعرض لتبعية اقتصادية كادت أن تهوي باقتصادها ، فراحت تبحث عن مراكز استعمارية من أجل سد عجزها الاقتصادي " لذا التجأوا في البداية إلى شمالي غرب أوربا لاقتناء القمح ولتونس وبجاية ووهران وتلمسان لشراء الأنسجة الصوفية " [2] ، والواضح أن هدف الاحتلال الإسباني عموما لبلاد المغرب كان ماديا " فقد حددت العوامل الطبيعية من فرض الاستغلال الزراعي بالبرتغال ، فالتربة فقيرة بكل ربوع البلاد عدا بالأودية لذا خيم شبح الجفاف والمجاعة باستمرار على البلاد لعدم انتظام سقوط الأمطار وسوء توزيعها خلال

[1] . محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص : 262 .

[2] . أحمد بوشرب ، مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر ، منشورات كلية الآداب ، ط : 1 ، الرباط ، 1996 ، ص : 25 .

السنة ، وقللت الوسائل المعتمدة في الاستغلال الزراعي ، وطرق استعمالها والاقتصار على زراعة الحبوب من مردودية الأرض " [1] .

ولم تكن العوامل الطبيعية وحدها التي حكمت على استمرار الهجمة الصليبية على بلاد المغرب ، فقد كانت الظروف التي تعيشها الكنيسة والضغوطات التي فرضتها على الملاك سببا في توجيه ضربات إلى بلاد المغرب " فقد كانت أغلب الأراضي الصالحة للزراعة في ملكية الأسرة الحاكمة والنبلاء والجماعات العسكرية والكنيسة ، وكان رجال الدين والنبلاء الذين كانوا يمثلون نسبة قليلة من مجموع السكان يتصرفون في ثلث الأراضي الزراعية ، فقد بلغت مداخيل الكنيسة سنة 1537 م مليون كروزادو أي أربعة مائة مليون ريال برتغالي " [2].

وعليه مكنت هذه العوامل من تفكير الدول الأوروبية وخاصة منها إسبانيا والبرتغال من توجيه احتلالها إلى بلاد المغرب ، بحثا عن وسيلة مثلى لسد عجزها الاقتصادي ، والرفع من مستواها المالي الذي أصبح مهددا بسبب تلك العوامل الطبيعية من جهة ، والإعاقات التي فرضتها الكنيسة من جهة أخرى ، وبهذا " دفعت التغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوربا في مطلع القرن السادس عشر كلا من إسبانيا والبرتغال إلى أن تبحثا عن موارد مالية أخرى خارج حدودها السياسية المعروفة " [3] .

[1] . أحمد بوشرب ، مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر ، ص : 74 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 74 .

[3] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس ، ص : 127 .

وقد اتخذ الاحتلال الأوروبي مناطق لنفوذه والرفع من عجزه الاقتصادي وذلك بالبحث عن مناطق لترويج منتجاته ، أو جلب خيرات البلاد المستعمرة إليه ، فوجد في شمال إفريقيا والمناطق المطلة على البحر المتوسط هدفه الذي يصبو إليه ومنه " شرع البرتغال منذ القرن الخامس عشر في احتلال المراكز التجارية المطلة على المحيط الأطلسي في المغرب لينطلق منها عبر السواحل الإفريقية الغربية مرورا بالمحيط الهندي ، وصولا إلى الشرق الأقصى حيث مصدر تجارة التوابل والحرير " [1] ، أما بلاد المغرب الأوسط فقد عرفت نوعا من الاحتلال تحت زعامة المملكة الإسبانية التي " شرعت تبحث لنفسها عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها، وموارد مالية لتمويل حروبها في أوربا ، وتحقيق طموحاتها التوسعية في شمال إفريقيا " [2] .

وتجدر الإشارة هنا أن سبب ضعف الاقتصاد الإسباني انهيار الحضارة الإسلامية الأندلسية ، التي لم تعرف تدهورا اقتصاديا من قبل سعيا منها في خدمة الأرض والشعب على كل المستويات والأصعدة ، فقد كانت بحق رمزا للرخاء وحسن المعيشة ، وقد مثلت الأيدي العربية التي استقرت في الأندلس نسبة عالية من السكان ، ولم يكن تواجدهم سلبيا على المنطقة ، بل قد خدمت هذه الأيدي بما اكتسبته من خبرات الجانب الاقتصادي ، وعملت على تطويره ، ولما سقطت الأندلس بأيدي النصارى ، وقامت بتعذيب أهلها وطردهم

[1] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس ، ص : 127 .

[2] . المرجع نفسه ، ص ، 127 .

تعطل شريان الحياة الإقتصادي الذي كان يغذيه هؤلاء ، وما ضعف دولتي البرتغال وإسبانيا الإقتصادي السالف الذكر إلا نتيجة حتمية لترحيل الأندلسيين إلى أقاصي البلاد مشرقها ومغربها ، وانتقل بذلك التأثير الحضاري بهذه الهجرة الجماعية إلى بلاد المغرب الأوسط التي عرفت بقدومهم قفزة نوعية في مختلف المجالات كما سنذكره لاحقا " فبتقويض دولة الأندلس الإسلامية ، وانهيار النظامين الاجتماعي والإقتصادي الإسلاميين في بلاد إسبانيا ، تم تشتيت شمل المسلمين ، وإبعادهم عن البلاد ، وقد كانوا دعامة الإقتصاد وخلايا العمل ، كل ذلك قد وضع إسبانيا أمام مشكل إقتصادي رهيب فالإنتاج قد تعطل بصفة تامة، وانعدمت وسائل التصنيع ، وأصبحت التجارة الخارجية بين تصدير واستيراد كلمة لا مدلول لها ، أما المعاملات المالية والقروض وما إليها فقد أصبحت أثرا بعد عين منذ إبعاد اليهود وإحراق من بقي منهم على قيد الحياة " [1] .

ونظرا لهذه الأوضاع المزرية التي آلت إليها إسبانيا بعد سقوط الأندلس وشتات أهلها لم يعد في وسعها سوى البحث عن حل لأزمتها الإقتصادية فكان أمامها خيار واحد إما أن تقوم ببناء ما تم هدمه خلال القرون الماضية ، وهذا ما يستدعي وقتا طويلا لإعادة مجد الحضارة بها ، وإما أن تبحث عن مكان لكسب قوتها ورفع مستواها وهذا ما يتطلبه التدخل العسكري ، لهذا كان الاحتلال الإسباني إلى بلاد المغرب الأوسط نتيجة حتمية لهذه الكوارث الاقتصادية التي حلت بالديار الإسبانية " فاكتساح المغرب العربي قد اشتهر يومئذ . ومنذ أزمان طويلة .

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 78 .

بأنه مهد الخيرات ومنبع الثروات : مزارع غنية ، وغابات كثيفة ومروج خضراء لا يدرك البصر نهايتها ، وثروة حيوانية تكاد تكون خيالية ، وسواحل غنية بالمرجان ، وصناعة الجلود وصوف وحرير تمتعت بسمعة عالمية ، كل هذا مع ما كان ينتاب هذا المغرب من حروب وفتن وقلاقل ، وعدم استقرار الحكم في أي مكان " [1].

إن الملاحة البحرية هي أهم ما حرك المستعمرة الإسبانية لدخول بلاد المغرب الأوسط ذلك أن ": التمكن من احتلال المغرب العربي يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرا إسبانيا بحتا ، إذا علمت أن إسبانيا كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من إيطاليا ، وتملك كل الجزر التي به صقلية ، سردينيا ، كورسيكا الباليار ، فهي تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه وتحيي بذلك سياسة بحيرتنا الرومانية " [2] .

وعليه كان البحر المتوسط الحد الفاصل بين القارتين ، والمعبر الرئيسي لدخول هذه القوات ، " ويكتسب البحر المتوسط أهمية في كونه منطقة حضارية راقية وفي كونه طريقا

---

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 79 . وقد وصف المراكشي المغرب وغناه بالمعادن والثروات وخاصة منها سبتة ووهران ، ينظر : أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص : 260 .

[2] . أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص : 80 .

عالميا للتجارة والعبور الدوليين بين أجزاء العالم القديم في العصرين القديم والوسيط " [1]،
فالسيطرة على هذا البحر سيطرة على التجارة العالمية ، هذا بالإضافة إلى ما كانت تتمتع به سواحل المغرب الأوسط كتلمسان ووهران وعنابة وبجاية من حركة بحرية قوية ، فحتى نهاية القرن الخامس عشر ظل النشاط التجاري للبندقية وفلورنسا وجنوة مستمرة ومزدهرة في مملكة تلمسان ، فقد كانت سفن البندقية تنتقل من ليدو (Lido) في النصف الثاني من شهر جويلية بعد توقفها في موانئ سيراكوزي (Syracause) لمدة يومين ، وفي طرابلس ثمانية أيام ، جربة ثمانية أيام ، تونس ثمانية أيام ، بجاية أربعة أيام ، الجزائر أربعة أيام ، وهران عشرة أيام ، وتنتهي الرحلة حيث الميناء الرئيسي لمملكة تلمسان " [2] ، ولا شك أن أهمية الملاحة البحرية في شمال الجزائر وكثرة موانئها حرك الدخول الإسباني إلى الجزائر ، إذ يذكر البكري واصفا المراسي المتواجدة على الساحل فيبدأ بذكر " مرسى أسلن ومنه في اتجاه الشرق مرسى الماء المدفون .. يليه شرقا مرسى عين فروخ وهو مرسى شتوي مأمون له آبار ماء ، ثم يليه مرسى قصر الفلوس ، ثم يليه مرسى مغيلة بني هاشم وهو صيفي ، ثم يأتي مرسى مدينة تنس وهو صيفي له عيون ماء ، ثم يأتي مرسى جزيرة وقور ، ثم مرسى شرشال ويليه مرسى بجبل شنوة يسمى بطال ، ثم يأتي مرسى هور ثم مرسى الذبان ، ويليه مرسى جنابية وله جزيرة وله مدينة ، ويليه مرسى الجزائر وهو مرسى مأمون ثم يلي هذا

---

[1] . يحي بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500 . 1830 دار البصائر ، طبعة خاصة ، الجزائر ، 2009 م ، ص : 9 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره ، دار هومه ، د . ط ، الجزائر ، د . ت ، ص : 32 .

المرسى مرسى الدجاج ، ثم مرسى بجاية ، ثم مرسى سبيبة فمرسى جيجل ، ويليه مرسى الزيتونة ، ثم يأتي مرسى الخراطين ومرسى الشجرة ثم إلى مرسى الخروبة ثم إلى مرسى بونة المنيع ، ثم مرسى الخزر وهو آخر مراسي الجزائر "[1] ، ومن خلال هذا العدد الهائل من المراسي الذي تتمتع به السواحل الشمالية للمغرب الأوسط ، كان مآلها الاحتلال من قبل المملكة الإسبانية للاستحواذ على خيراتها الاقتصادية وجعلها معابر لنقل بضائعها التجارية ، وقد ذكرت ضعف المملكة الإسبانية من الناحية الاقتصادية ، وخاصة منها الفلاحة ، والعجز الغذائي في مصدر الحبوب ، وعليه فقد كان " هناك جانب اقتصادي آخر يستدعي تأمينه من خطر البحارة المسلمين الذين كانوا يجوبون أطراف البحر المتوسط ، فمن وراء تلك الحملات كان الإسبان يهدفون إلى حماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية التي كانت تزودهم بالحبوب "[2] .

وفي حديثنا عن الصراع العربي الإسلامي مع الصليبيين طيلة الحروب الصليبية القائمة بين الفريقين الحاملين لعقيدتين مختلفتين نذكر ما قاله ابن خلدون حول أهمية هذا البحر في الصراع القائم بين الطائفتين على مر العصور حيث يقول : " كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية

[1] . نخبة من الباحثين ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، رئيس المشروع : صالح بن قربة ، الأعضاء : سامية بوعمران ، خالف محمد نجيب ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث ، الجزائر ، 2007 م ، ص : 265 . 266 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني ، ص : 33 .

وميورقة وصقلية ، وملأت أساطيلهم فضاءه ، ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها ، وعادت لهم صورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة للمسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومراكبه " [1]، ومن هذا القول نستنتج أن البحر المتوسط مركز للصراع القائم بين العدوتين ، وسبيل لدخول الإسبان إلى المغرب الأوسط ، ونخلص إلى القول بأن إسبانيا دفعتها أسباب كثيرة لاستكمال عملية احتلالها ، فكان الدخول الإسباني لبلاد المغرب الأوسط إحدى النتائج السلبية التي ترتبت عن سقوط الأندلس من أجل استكمال حربها الدينية ضد المسلمين دفاعا عن عقيدتها ، أو لحماية حدودها الجنوبية، وذلك لعلمها بأن بلاد الأندلس جزء لا يتجزء من بلاد المغرب ، وما الصرخات المتوالية ونجدة أهاليها للأندلسيين على مر التاريخ الإسلامي بها إلا دليل على تمسك أواصر العلاقة بين العدوتين ، وأن ما يصيب واحدة منها يؤثر ولا شك على الأخرى ، هذا بالإضافة إلى أهمية الاجتياح العسكري في رفع مستواها الاقتصادي عن طريق استغلال خيرات المغرب الأوسط الطبيعية .

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 902 .

2 . واقع بلاد المغرب الأوسط السياسي والعسكري عند سقوط مدينة غرناطة :

لقد عملت إسبانيا بعد إسقاط الوجود العربي بها على العمل البناء لتأسيس حضارة نصرانية قوية على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي مقابل هذا الوضع كان ظهور الإمبراطورية العثمانية في بلاد المشرق على حساب الأراضي العربية ، أما المغرب الإسلامي فقد كان يعيش في ظروف سياسية صعبة خاصة على المستوى السياسي والعسكري ، إذ ابتلي بظاهرة الضعف العام في القرن التاسع الهجري ، لأنه قد انقسم على نفسه بعد سقوط دولة الموحدين إلى كيانات سياسية متفرقة فالمغرب الأقصى ظلت تحكمه الدولة المرينية ، والمغرب الأدنى تحت الحكم الحفصي ، بينما حكم بنو زيان المغرب الأوسط وكانت مدينة تلمسان عاصمة لهم ، ويقول الناصري في وصفه لذلك الانحطاط فيقول : " اعلم أن هذا المغرب حرسه الله وكلأه بعين حفظه ، لم يزل بجميع نفوذه ، وسواحله وأقطاره ، منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة ، محفوظ الجوانب من طرق أمم الفرنج وغيرهم ... محفوف الأكناف بالحامية من جنود المسلمين ، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة ، ولم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده ، ولم يكن أهله يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم ، ويتحاملون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها .. ولما دخلت المائة التاسعة ومضي صدرها وتداعت دول المغرب من بني حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط ، وبني مرين بالمغرب الأقصى وبنو الأحمر بالأندلس وأشرفت

على الهرم ، وحدثت الفتن بين المسلمين ، ودامت فيهم ، واشتغلوا بأنفسهم عن جهاد عدوهم ومطالبته في أرضه وبلاده ، أخذ الإسبان يهاجمون السواحل ويشرهون لاحتلالها "[1] ، ومن خلال هذا النص يتبين الانهيار الذي أصاب بلاد المغرب عشية سقوطها ، فأصبحت مطمعا للإسبان الذين خططوا لاحتلالها ، أما عن دولة بني زيان في المغرب الأوسط فقد وصف ابن الأحمر هذه الدولة بأنها كانت قوية في عهد يغمراسن إذ يرى " أن تلك الدولة كانت على الحقيقة من صنع رجل واحد من أعلام زناتة وهو يغمراسن بن زيان ذلك المحارب السياسي العفي الذي نحت لنفسه ولآله إمارة كبيرة قامت في تاريخ المغرب بدور كبير ، فهذا الرجل هو الذي استطاع أن يوسع لبني زيان مكانا فسيحا في تاريخ المغرب باستيلائه على تلمسان وتحصينه إياها ، وتوسيع رقعة سلطانها ، واقتداره على مغالبة بني مرين وبني حفص ، ومن فكر في العدوان على إمارته من العرب الهلالية "[2] .

لكن هذه المنطقة ظلت تعيش في صراع سياسي دائم حول حدودها فبنو مرين كانوا يعتبرون أنفسهم وريثي الدولة الموحدية ، فراحوا يجتاحون المناطق الأخرى ، ولطالما انشغل المرينيون في إخضاع السلطتين الحفصية والزيانية ، والأمر ينطبق كذلك على الدولة الحفصية ، فمدينتي بجاية وتلمسان ظلتا بؤرتين للصراع من الشرق والغرب ، " وبنو زيان

---

[1] . الناصري ، الاستقصا ، ج : 4 ، ص : 109 ، وأيضا نقل هذا النص : رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، دار الهدى ، ط : 3 ، الجزائر ، 2000 ، ص : 334 .

[2] . ابن الأحمر ، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم : هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط : 1 ، بور سعيد ، ص : 36 .

أصحاب الجزائر هم المعروفون ببني عبد الواد ، وكانت هذه الدولة تدين بالطاعة إلى بني حفص أصحاب تونس ، وكان كل من عبد الواد وبني مرين يسعى للقضاء على الآخر ، والسيطرة على الشمال الإفريقي ، إلا أن بني عبد الواد كانوا يعملون لحساب دولة بني حفص ، وكانت الغلبة في هذا الصراع دائما للمرينيين " [1] .

وكانت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط تتعرض لهجمات هذه الدويلات من حين لآخر، فلم تعرف استقرارا سياسيا يمكنها من البحث عن ادخار قوتها لوقت الحاجة الماسة إليها ، وخاصة في آخر مرحلة من مراحل حياتها " وهو دور الانحطاط والسقوط ، ودام 171 سنة وذلك من سنة791هـ / 1389 م إلى سنة 962 هـ / 1554 م سنة انهيار الدولة العبد الوادية وزوالها نهائيا على أيدي الأتراك ، ويتضح ضعف هذا الدور رغم طول فترته الزمنية، فمجرد قتل أبي حمو الثاني* وتولي ولده أبي تاشفين* الحكم في تلمسان تحت الوصاية

[1] . محمد الأمين محمد ، محمد علي الرحماني ، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، د . ط ، د . ت ، ص ، 167 .

* هو **أبو حمو** موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان ، ولد بالأندلس بالضبط في غرناطة عام 723 هـ الموافق لـ 1323م ، وقد دامت فترة حكمه إحدى وثلاثين سنة أي من 760هـ / 1359م إلى سنة 791هـ 1389م ، وقد قامت سياسته مع ملوك بني مرين على نوع من الاختلاف بحسب الظروف الزمانية والمكانية ، فكان إذا حوصر في تلمسان أجفل أمامهم إلى الصحراء وتحصن بها ثم باغتهم في عقر دارهم إلى أن يرحلوا عنها لأن بني مرين لم ينقطع لهم أمل في الاستيلاء على تلمسان . للمزيد أنظر : الجانب الأدبي من محفوظ الحافظ التنسي التلمساني من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وملوك الدولة الزيانية ، تقديم وتحقيق وتعليق : بو طالب محي الدين ، منشورات حلب ، ص : 168 ، الحاج محمد بن رمضان شاوس ، باقة السوسان في في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د . ط ، د . ت ، ص : 105 .

المرينية أصبحت سيادة الدولة بعد ذلك ناقصة وتابعة للدولة المرينية حينا والدولة الحفصية حينا آخر إلى سقوط الدولة نهائيا " [1] ، ورغم مختلف المظاهر الحضارية التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط في عهد الدولة الزيانية ، إلا أن ذلك لم يكن ليستمر طويلا بسبب الصراعات السياسية على الحدود الجغرافية لبلاد المغرب الإسلامي عموما بين طوائف سياسية مختلفة ، ولم تكن الحدود السياسية واضحة المعالم بالنسبة لتلك الدويلات ، وذلك بسبب تجاوزات كل إقليم على إقليم جغرافي آخر ، فلما كانت إسبانيا تحاول استرجاع وحدتها السياسية ، وذلك بتلاحم أعظم قوتين سياسيتين وعسكريتين في الجزيرة الأيبيرية وهما مملكة قشتالة وأراغون ، فإن بلاد المغرب أنهكتها الحروب من أجل السيطرة على المنطقة المجاورة مما ترتب عليه تحطيم للقوة العربية والمغربية الموحدة في عهد الموحدين التي طالما وقفت مواقف بطولية في مواجهة الخطر الصليبي على حدود البلاد الإسلامية ، وإن كان

---

* **أبو تاشفين** ابن السلطان أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يحي يغمراسن بن زيان مولده سنة اثنين وتسعين وستمائة ، كان فاضلا حميد السير ، رحب الجناب ، عظيم الخلق ، جميل الخلق ، بويع يوم الخميس الثالث والعشرين لجمادى الأولى سنة ثماني عشرة وسبعمائة بالملعب خارج باب كشوطة استوزر علجه هلالا القطلاني ، وولى كتابته الفقيه أبا عبد الله محمد بن مدورة ، وأشغاله الفقيه أبا عبد الله محمد بن سعود وأبا المكارم منديل بن المعلم ، وقضاء حضرته الفقيه أبا عبد الله محمد بن منصور بن هدية ، أمر بحصار بجاية سنة أربع وعشرين وظل كذلك إلى أن استشهد . ينظر في ترجمته : أبو زكريا يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ص : 215 وما بعدها . كما ذكر ابن الأحمر أنه في عهده ترك إليه المولى السلطان أبو الحسن المريني فنازله بتلمسان في شوال من عام 735هـ ، وضرب عليه ونشر عليه الحرب ، ونصب عليه المجانيق إلى أن دخلها عنوة . أنظر : ابن الأحمر : تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، ص : 72 .

[1] . بوزياني الدراجي ، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر : 1993 ، ص : 35 .

هدف الدولة المرينية أو الزيانية أو الحفصية هو إيجاد دولة موحدة كالدولة الموحدية ، إلا أن ذلك الهدف ظل محالا بسبب الأطماع للوصول إلى السلطة ، " وانقضى القرن الخامس عشر كله في مد وجزر ، واستقلت الجهات العديدة في أطراف وفي وسط المغرب بنفسها ، مؤلفة إمارات إقطاعية أو ملوك طوائف واهين ، فلا تكاد تعرف خلال فترة الانحطاط والتدهور حدودا معروفة لدولة ، ولا تخوما مرسومة لإمارة " [1] ، وأصبح العرب يتقاتلون فيما بينهم بسيوف بعضهم البعض ، عوض التفكير في توجيه تلك الضربات إلى الخطر الداهم على بلاد المغرب عموما ، وبلاد المغرب الأوسط خاصة مصداقا لقول الشاعر ابن حمديس الصقلي :

ولم ترحم الأرحام منهم أقارب   تروي سيوفا من دماء الأقارب

ولعل أهم ما يذكر في هذا الجانب ما قاله المؤرخ العسكري الفرنسي بيشو في تلخيص هذه الحالة المؤلمة فيقول في كتابه (تاريخ إفريقيا الشمالية) ما تعريبه : " إن العائلات المالكة الحفصية والزيانية والمرينية التي كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيرا ، قد انقسمت في حروب طويلة مزمنة ، وروت أرض هذه البلاد (المغرب العربي) بالدماء ، ثم سقطت في مهاوي الانحطاط ، فطوال قرن كامل لم يبق لأمراء هذه العائلات المالكة من السلطة إلا اسمها ، وكان الملوك لا يفكرون إلا في إحباط المؤامرات والفتن التي سيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش ، أو في إخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 58 .

العجز والطغيان ، ولقد ضربت الفوضى أصنابها في كل مكان ، فسكان الولايات القسنطينية، وسكان مدينة الجزائر ، وأهل الشرق الوهراني لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم، كما يذكر في نفس السياق المؤرخ ف . أبروديل في بحثه القيم الثري المنشور بالمجلة الإفريقية (1928) عند وصف حالة مغربنا فيقول : " لقد كان الشمال الإفريقي مستودع الرجال الذين كانوا يهبون دوما لنجدة مسلمي الأندلس ضد الإسبان وذلك لغاية سنة 1415 "[1].

وعليه فإن بلاد المغرب الأوسط كانت ضعيفة من الناحية السياسية والعسكرية ، وقد تجاذبت أطرافه دول الجوار وهي الدولة الحفصية من الشرق ، والدولة المرينية من الغرب وذلك نظرا " لفقدانه وجود سلطة مركزية مما كان مسرحا لفوضى القبائل ، وكان من جراء هذا التمزق أن أصبح المغرب الأوسط وحدة تتناحر فيه وتتصارع عليه عدة كيانات صغيرة ، فأنفقت في ذلك الأموال ، واستهلكت الحروب جزءا كبيرا من ثروة البلاد ، كما أدت إلى عدم الاستقرار "[2] ، ومن هذا المشهد السياسي المنحط الذي بين مدى ضعف بلاد المغرب الأوسط على الصعيدين السياسي والعسكري يتبين أن سبب قوة إسبانيا كان يغذيها ضعف هذه الأقطار التي لطالما كانت درعا حامية لحدود الأندلس الجنوبية ، ومركزا لإخراج العديد من الجنود المحبين للجهاد في سبيل رفع راية التوحيد في بلاد الأندلس طيلة قرون طويلة ،

---

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 61 .

[2] . حنيفي هلالي ، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي والموريسكي ، ص : 122 .

فأصبحت البوابة الوسطى على سواحل المغرب مفتوحة لكل هجمة من شأنها أن تهدد كيانها، وضعفت وسائل الدفاع على سواحل المغرب الأوسط .

وقد عبر عبد الرحمن الجيلالي عن هذا الوضع قائلا : " لقد أخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ أن ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان إلى التواكل والتخاذل ، وإخلادهم إلى الدعة ، واستمهادهم الراحة ، وتخاذلهم عن القيام بالمصالح العامة ، وانهماكهم في التآكل على الرئاسة ، وقصر اشتغالهم على أنفسهم شخصيا فانمحت يومئذ هيبتهم عن نفس الرعية، وانتشرت الفوضى بين الناس في كل ميادين السياسة والاجتماع ، واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي ، وقادة الجيش بما اتصل بأيديهم من أسباب الولاية والحكم .. وملوك الإسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الأمور خلسة ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الإسلام بهذا الشمال الإفريقي "[1].

وعليه ساعدت هذه الأوضاع جميعها في تفكير إسبانيا باحتلال هذه البقعة من الأرض ، وتطبيق سياستها التوسعية على حسابها من أجل تحقيق أهدافها الدينية والسياسية والاقتصادية من جهة ، ومحو آثار الأندلسيين الذين فضلوا الهجرة إلى الجزائر من جهة أخرى .

[1] . عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة ، د . ط ، الجزائر ، 2008 م ، ج : 2 ، ص : 181 .

3 . انتقال الصراع الإسلامي الصليبي من الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط [1]:

ذكرت فيما سبق أن الأندلس قد حافظت على وجود المسلمين بها طيلة ثمانية قرون بسبب ارتفاع روح الجهاد لدى سكانها من أجل المحافظة على هذا الإرث الحضاري الهام ، وقد غذت هذه الروح مساعدة مسلمي بلاد المغرب الإسلامي خلال العصور التي مر بها ، ولا شك أن ما حدث في الأندلس بعد سقوط غرناطة من ظلم وطغيان بسبب الهجمة الصليبية الحاقدة لم يقف عند تلك الحدود الجغرافية للبلاد ، بل امتدت أيدي النصارى إلى أبعد من ذلك من أجل قطع أواصر العلاقة بين العدوتين ، ومن هنا انتقل الصراع السياسي والعسكري إلى بلاد المغرب الأوسط .

3 . 1 . احتلال مدينة وهران* والمرسى الكبير* :

[1] . حول التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط ينظر الخريطة في الملحق رقم 6 في آخر البحث .

* **وهران** : ذكر محمد بن يوسف الزياني في أن أول من اختط وهران أي بناها وأسسها ومدنها وحرسها هو المغراوي خزر بن حفص بن صولات بن وزمار بن صقلاب بن مغراو ابن يصلين بن مسروق بن زاكين بن ورسيخ بن جانا بن زنات ، وذلك في عام اثنين وتسعين ، وقيل إحدى وتسعين وقيل تسعين من القرن الثالث من الهجرة ، وهذا القول هو الأصح ، وكان ابتداء بنائها في وقت ملك الأندلس . ويقال أن مسلمي الأندلس أيام عنفوان دولتهم كانوا مؤسسي مدينة وهران وذلك سنة 390هـ / 902م على يد القائد خضر أيام الأمير الأموي والد والد الخليفة عبد الرحمن الثالث فوق أرض كانت من ممتلكات قبيلتي مغراوة ونفزاوة ، وكان خضر عاملا بالمغرب الأوسط لبني أمية بالأندلس .

ووردت سبعة أقوال في أصل تسمية وهران ، فقيل أنها سميت بذلك لكون الرجل الذي يبني فيها اسمه وهران فسميت به ، أو سميت بذلك لكونها مركبة تركيبا مزجيا بين كلمتي وهران فوه معناه الضعف كانوا بها في تعب مع بني يفرن وعمال الشيعة من صنهاجة ، أو سميت بذلك لكونها زناتية ، وذلك أن مغراوة لما شرعوا في حفر أساسها وجدوا به غارا فيه ثعلب ، واسم الثعلب بلغتهم وهران فسموها بذلك ، وهذا أشهر الأقوال ... للمزيد أنظر : محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، ص : 32 . 33 .

إن المملكة الإسبانية عملت جاهدة على اختراق خط الدفاع الساحلي لبلاد المغرب الأوسط بعد أن تمكنت من القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492م " فكانت خطتها قائمة على غزو سواحل شمال إفريقيا ، من أجل تصفية النفوذ الإسلامي نهائيا من شبه الجزيرة الإيبيرية ، وقد أسفر هذا الانتصار الذي حققه الملكان المسيحيان ضد المسلمين على انتعاش الروح الصليبية من جديد وتعقب الأندلسيين الذين التجؤوا إلى موانئ شمال إفريقيا فبدأت إسبانيا بإنزال حملاتها على سواحل المغرب الأوسط " [1].

لقد كانت وهران عامرة ، مزدهرة في مختلف جوانب الحياة ، وإن خير ما نتستشهد به في وصف هذه المدينة الساحلية الهامة من مدن بلاد المغرب الأوسط على الجزء الغربي ما قاله المغيلي المازوني المولود سنة 1256م حيث تكلم في حسنها فقال : " هي مدينة من مدن المغرب الأوسط بساحل الروم (البحر الأبيض المتوسط) عظيمة وذات عظمة وفخامة جسيمة ، ذات البساتين والبروج مثيرة ، وقصور متعددة من طبقتين فأعلى ، وبنيانها حكيم ، وصورها فخم عظيم ، وغنى كل محتاج من أحضار المغرب التي عن نفسها تدافع ، لها

---

* **المرسى الكبير** : مدينة صغيرة أسسها ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط ، بعيدة ببضعة أميال عن وهران ، ومعناها الميناء الكبير لأن هناك ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه ، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية في مأمن من كل عاصفة وإعصار . أنظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 31 . وأنظر مدينة وهران والمرسى الكبير والمنطقة الغربية التي شهدت أحداث الإسبان في الملحق رقم 12 في آخر البحث .

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 123 .

صيت بالمغرب والمشرق وسائر الآفاق " [1] ، وقد ذكر في نفس السياق حول عمران مدينة وهران قبل الاحتلال الإسباني أنها كانت مركزا حضاريا هاما شهد فيه أوج عظمة البناء والتعمير ، " فلما دخلها ابن خميس اندهش لما شهد من عمران وتمدن قال بعدما كان يعرف الجزائر قرية حديثة التمدن والعمران فقال : " أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين (غارين) وهران " الخذر " جزائر " بلغين " " [2] ، وعليه فقد كانت وهران حافلة بالمظاهر العمرانية الهامة ، فهي معلم تاريخي ، وإرث حضاري سواء من الناحية الجغرافية لقربها من بلاد الأندلس التي لا يفصلها عنها سوى البحر ، فهي أكثر تأثيرا بالمعالم الحضارية الأندلسية ، وأقرب إلى التأثر بالمأساة الأندلسية ونكبة أهلها ، فكانت وجهة للعديد من الفارين من الأندلس إليها .

يذكر المؤرخ محمد بن يوسف الزياني في حديثه عن احتلال مدينة وهران من طرف الإسبان أنه جاء بعد إكمال فرناندو احتلال الأندلس فيقول : " ثم غزا فردينة المار بجيشه وهران في أوائل ربيع الثاني سة 911هـ فملك برج المرسى ، واستقروا به إلى سنة 914هـ دخلوا وهران على ما للشيخ أحمد بابا في ذيل الديباج ومثله في نزهة الحادي وزاد أن ذلك في آخر المحرم منها ، وبه قال المديوني في البستان والشيخ أبو عبد الله محمد التغريدي

[1] . المهدي بن شهرة ، تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران ، دار الريحانة للكتاب ، ط : 1 ، الجزائر ، 2007م ، ص : 57 .

[2] . المغيلي المازوني في المكنونة المازونية نقلا عن المهدي بن شهرة ، المرجع السابق ، ص : 57 .

الجزائري في رجزه ، وفيه مات صاحب المعيار ، وقال الصباغ والحافظ أبو راس وغيرهما دخلوها سنة 915 في صفر "[1] .

وبعد تحديد تاريخ دخول الإسبان إلى مدينة وهران يبين السبب المساعد لتمكين العدو من الدخول ، ويجعل دور اليهود في مقدمة تلك الأسباب ، حيث يقول في رواية له أن احتلال وهران كان " بمداخلة اليهود غدرا ، وذلك أن يهوديا * خدع المسلمين وغدرهم ، ومكن النصارى منهم فنكبوهم قتلا وسبيا ، وكيفية ذلك أن يهوديا يقال له الزاوي ابن كيسة أتى بجيش النصارى للمدينة ، وأدخله بها سرا بالحيلة ، فقام الجيش لباب المدينة ففتحه ، وأخذ العساسين الذين كانا يعسان وهما عيسى ابن الغريب الغري والغناش كبيرا ، وكان ذلك في وقت السلطان أبي قلموس الزياني من أواخر ملوكهم الذين لم يهن لهم بالملك قرار ، ولا استقرت به في المملكة عمارة دار فعجز عن دفاعهم عجزا كليا ، فلم يكن للمسلمين حينئذ دفاع ، ولم يبق لهم فيها طمع باجتماع قال الحافظ أبو راس في سينيته :

خامس عشر من عاشر أناخ بها   الإسبانيون أهل الشرك والرجس

---

[1] . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران ، ص : 141 .

* اختلف المؤرخون في أصل وتسمية اليهودي الذي ساعد الإسبان على الدخول لمدينة وهران ، فالمدني يرى أنه من يهود الأندلس اللاجئين إلى الجزائر ، واسمه شطورا ، كان يعمل قاضيا للضرائب ، بينما يرى الراشدي أن اسمه ابن الزواوي ، أما المصادر الأخرى فاكتفت بذكر الحادثة ، ولم تورد أي معلومات عن هوية اليهودي ، أنظر : محمد دراج ، الدخول العثماني للجزائر ، ص : 107 . 108 .

جحافل الكفر قد حموا جوانبها وعن دفاعهم عجل أبو قلموس [1]

ولما مكن اليهود النصارى من وهران شرطوا عليهم برج المرسى فأنزلوهم به وفاء بالعهد وإليهم ينسب برج اليهود ، وجعل الإسبانيون لهؤلاء اليهود من الصولة على المسلمين بعد ذلك ما لا يوصف [2] .

ويعود دخول الإسبان إلى وهران طمعا في خيراتها ، لما رأوا فيها من تطور مس جميع جوانبها ، وخاصة منها الجانب الاقتصادي والعمراني المتأثر بالحضارة الأندلسية ذلك أنها " شهدت في ظل السيطرة الزيانية والمرينية والحفصية ومهاجري الأندلس نشاطا تجاريا وصناعيا واسعين ، وزادت منازلها في هذه الفترة على ستة آلاف منزل ، وتعددت مساجدها وفنادقها ومدارسها وحماماتها ومبانيها العامة والمعتبرة " [3].

لقد تعددت الأسباب إذن في توجه الإسبان إلى احتلال مدينة وهران ، فقد " أسال لعاب القادة الإسبان وخاصة الكاردينال خيمينيس ، فبناء على التقرير التجسسي الذي تلقاه من " فيانيلي " الذي اعتبرها من أشهر مدن بلاد المغرب لغناها بالأسواق والتجارة عزم على غزوها فتحت إلحاح هذا الكاردينال صدر بيان ملكي في ديسمبر 1508م يوافق فيه على

[1] . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران ، ص : 141 . 142 .

[2] . المصدر نفسه ، ص : 142 .

[3] . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ص : 39 . 40 .

غزوها ، ولهذا الغرض جمع الكاردينال بيدرو نافارو (Pedro Navarro) *القوات العسكرية الموجودة في خارج إسبانيا وداخلها في مدينة قرطاجنة ، ولعظمة المهمة شارك في الحملة كبار القادة العسكريين نذكر منهم الكاردينال غونثالبو دي كوردوبا (Gonwalvo de Cordova) والدون ديغودي فييرا (Don Diegode Virra) [1] .

ومن أهم الهجمات العسكرية التي أراد من ورائها الإسبان ضرب القوة العسكرية لوهران " ما قام به الماركيزقوماريس في أواخر شهر أوت 1505م بحملة بحرية كبيرة من خمسة آلاف رجل ، واتجه بها إلى قرية المرسى الكبير غرب مدينة وهران وفرض عليها الحصار خمسين يوما ثم احتلها بعد أن أرغم سكانها على الجلاء عنها ، وذلك يوم 23 أكتوبر " [2] ، وما يستفاد من هذه الحملة العسكرية أنها كانت تهدف بالدرجة الأولى كما مر بنا إلى نشر المسيحية في كل أرجاء بلاد المغرب الإسلامي ، من أجل توسيع انتشار النصرانية ، والقضاء النهائي على الوجود الإسلامي بكل صوره من المنطقة ، ومما يدل على حقيقة هذا الصراع هو ما أسفرت عنه هذه الحملة حيث " حول قائدها مسجد وهران إلى كنيسة سموها

---

* بيدرو نافرو : هو الدون ديفوفير نانديز دي كورب ، وقد عينه الملك فرناندو والكاردينا خيمينيس قائدا عاما للإشراف على إعداد الأسطول والقيام بالحملة الإسبانية على السواحل الشمالية للمغرب الأوسط . أنظر : محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية ، تقديم : محمد الأمين بلغيث ، دار كرم الله د . ط ، الجزائر، 2011 م ، ص : 48 .

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 53 .

[2] . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ص : 40 .

كنيسة القديس ميقيل ، وأقاموا بها أول قداس لهم ، وحرروا خمسة وثلاثين أسيرا الذين أسروا في الحملة على ساحل الأندلس قبل ثلاث سنوات "[1] .

3 . 2 . احتلال مدينتي بجاية وعنابة 1510م :

أ . احتلال بجاية :

تعاقب الصراع على مدينة بجاية بين كل من الحفصيين والزيانيين لسنوات طويلة ، فأحيانا تكون تابعة للحفصيين من الجهة الشرقية ، وأحيانا أخرى للزيانيين من الجهة الغربية ، ولم تكن بجاية غائبة عن التأثيرات السياسية والعسكرية التي أسفر عنها سقوط الأندلس بزوال آخر معقل لها في غرناطة ، وكان دخول الإسبان المباغت لبلاد المغرب الأوسط باحتلالهم لوهران والمرسى الكبير قد فتح لهم الباب لمواصلة احتلال المدن الأخرى بحثا عن توسع أكثر على حساب السواحل الجزائرية وموانئها البحرية الهامة " فبعد أن تمكن الإسبان من احتلال وهران سنة 1509 م توجهت أنظارهم نحو مدينة بجاية* التي كانت لا تزال تحافظ على بعض ملامح ازدهارها الاجتماعي والثقافي ، وبين الفينة والأخرى يقوم بحارتها بعمليات جهادية ضد المسيحيين بنواحي إسبانيا وغيرها ، وعملت على إسعاف سفنهم ، ونجدة

---

[1] . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ص : 40 .

* كانت بجاية مدينة يسكنها العديد من الأندلسيين ، وهذا ما جعلها تتمتع بقوة عسكرية من شأنها أن تهدد أمن إسبانيا ، فلم تكن بجاية في منتصف القرن 11 حسب البكري سوى ميناء صغير يسكنه الأندلسيون . أنظر : روبار برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15 م ، ج : 1 ، ص : 410 .

مهاجري الأندلس ، كما أرسل أمير بجاية أبو العباس عبد العزيز جيشا لمساعدة أهالي وهران عام 1505 م للتصدي لهجمات الإسبان على المرسى الكبير ، وقاد الأمير نفسه الجيش ، وأرسل كذلك قوات بحرية بقيادة حاجبه محمد بن عبد الله الكناني " [1] ، وهذا ما يبين أن بجاية لم تكن بعيدة عن أحداث بلاد المغرب الأوسط ، بل كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن حماية ثغوره ، وكان تدخلها المستميت من طرف سكانها وحكامها في الشأن الداخلي للمنطقة ، وتدخلها في الشأن الخارجي بتكثيف الجهود لنصرة الأندلسيين سببا في توجه الإسبان لاحتلالها ، فكانت ترى أن عليها مسؤولية الدفاع عن الأندلس ، وحماية أهلها " فكانت سفنهم الحربية تقوم بعمليات انتقامية لإخوانهم الأندلسيين ، الذين التحق بعضهم بالمدينة هروبا من الضغوط التي كانوا يتعرضون لها في إسبانيا ، وقد أصبح بعضهم يشارك في تلك العمليات "[2] ، وكانت تلك المساعدات ذات أثر على احتلال المدينة ، إذ كان الإسبان ينظرون إليها على أنها شوكة من شأنها أن تهدد مستقبل وجودهم بالمنطقة ، فكانت بجاية الهدف الثاني بعد احتلال وهران بسنوات قليلة نظرا لأهمية المنطقة ، ودورها السياسي

---

[1] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 47 .

[2] Charles Feraud , Conquète de Bougie par les espagnols d'après un manuscrit arabe , R . A , p : 248 – 249 .

وقد أشار الحسن الوزان في وصفه لهذه المدينة قوله : " كان سكان بجاية على قدر عظيم من الغنى ، يسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة ، ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا ، ومن ثم كان سقوط المدينة وإرسال الكونت بيير نافار لاحتلالها . أنظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 51 .

والعسكري في بلاد المغرب الأوسط ، وفي مساعدة الأندلسيين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة .

ونظرا لأهمية المدينة فقد أعد لها الإسبان العدة لشن ضرباتهم ضدها إذ " بذل الكاردينال خيمينس من المهمة والجهد في تجهيز الحملة نفس ما بذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير ، وأسند القيادة إلى بطرس النفاري " بدرو نافارو " ، فأخذ يستعد تحت طي الكتمان حتى لا تتسرب أنباء المسيرة إلى بجاية ، وامتطى صهوة أسطوله بالمرسى الكبير يوم 30 نوفمبر 1509م مدعيا العودة إلى إسبانيا ، واتخذ طريقه فعلا صوب الشمال ، إنما أرسى على جزائر الباليار الإسبانية فقضى بها شهر ديسمبر القاسي ذا الرياح المتقلبة ، وجاءه المدد من إسبانيا إلى هناك ، فنظم الحملة ، ورتب تفاصيلها ، ووضع على الأسطول الأمير خيرو نيمو فيانلي " [1].

أما على صعيد الطرف الآخر ، فقد قابل هذا التحضير الجيد للحملة الإسبانية بعض التحصينات من طرف سكان مدينة بجاية ، نظرا لاطلاعهم على ما وصلت إليه وهران جراء الحملة العسكرية عليها وقد " وصل الأسطول الإسباني المكون من 20 سفينة تحمل 10000 مقاتل إلى بجاية يوم 5 جانفي 1510 م أما أهالي بجاية الذين كانت مأساة وهران قد بلغتهم فقد راحوا يستعدون للدفاع عن المدينة ، فتحصنت فرقة منهم في المرتفعات المحيطة بها لمنع الإسباني من النزول إلى البر ، وأخذت مدافع بجاية والمدافع الإسبانية

[1]. أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 108 . 109 .

تتبادلان النيران ، لكن الفرق كان كبيرا جدا بين فعالية المدفعيتين ، فالإسبان كانوا يمثلون قوة نامية تحت قيادة موحدة ، بينما كانت قوات بجاية تحت قيادة منهارة " [1].

وبقيت بجاية في حصار طويل كان الغلبة فيه للإسبان الذين استطاعوا الحصول على الضروريات التي تمكنهم من التغلب على الحصار " وذلك بفضل حصولهم على الماء والمؤونة والرجال والأسلحة ، ومختلف الضروريات التي كانت تصلهم من البر بواسطة السفن القادمة من وهران ، وهو ما ساعد على تفوقهم العسكري ، ومكنهم من الصمود أمام دفاعات أهل المدينة الذين لم تكن قطع مدفعيتهم في مستوى مدفعية أعدائهم " [2] .

وقد عبر توفيق المدني في سياق حديثه عن هذه المقاومة ووصفها ، فبين أن حراك شعب مدينة بجاية هو الذي حال دون سرعة دخول الإسبان إليها بقوله أن " المعركة كانت معركة شعب لا معركة حكومة ، فالشعب البجائي البطل هو الذي تولى كبر المقاومة ، وهو الذي استعد لكل تضحية ، فلم يفقد عزيمته ، ولا هو فقد ثباته عندما رأى الجيش الإسباني الجريء ينزل إلى الأرض بقضه وقضيضه ، بل أخذ يستعد للدفاع اليائس عن مدينة الناصر " [3] ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل عل تدهور الوضع السياسي والعسكري لمدن بلاد المغرب

---

[1] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 111 . 112 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 56 .

[3] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 109 . 110 .

كما مر بنا ، وأن دور الحكام لم يعد مقتصرا على حماية الثغور ، بل منشغلا في تحقيق أهدافه السياسية للمحافظة على نظام الحكم في رقعته الجغرافية المحددة .

ب . احتلال عنابة :

لما تمكن الإسبان من احتلال بجاية امتدت أيديهم نحو الشرق من بلاد المغرب الأوسط بعد القوة التي تلت انتصارها في معركة بجاية السالفة الذكر ، فحاولت أن تقضي على مدينة ساحلية أخرى ألا وهي مدينة عنابة ذلك " أن القيادة الإسبانية المحكمة التي كانت تنفذ برنامجا دقيقا من أجل احتلال البلاد الساحلية قد أصبحت تضيق الدائرة وتقطف المدن الساحلية ، فاحتلت مدينة عنابة الجميلة المتحضرة بعد مقاومة لا تكاد تذكر ، وسلك فيها جندها ما كان يسلكه باستمرار في المدن التي يحتلها ، وكان ذلك سنة 1510 م إثر احتلال بجاية "[1].

ويذكر أن مدينة عنابة قد تعرضت مرارا للاحتلال الإسباني وذلك سنة 1535 م في عهد الإمبراطور " المارك يدي مونديخار " (Don Alvardo de Bawane) حيث كلف هذا الأخير " في 16 أوت 1535 م باحتلال عنابة وهو في طريقه إلى إسبانيا بأسطوله المتكون من خمسة وعشرين سفينة فتحرك دون ألفارودي بازان ومعه خمسة عشر سفينة في

---

[1] . أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص : 128 .

طريقه إلى عنابة التي بلغها بعد خمسة أيام بسبب هبوب الرياح المعاكسة " [1] ، أما عن مصير هذا الاحتلال في هذه المدينة فرغم أنه لم يمكث طويلا في هذه المدينة ، إلا أنها قد أصابها من ويلات هذا الاحتلال من التخريب والدمار ما أصاب المدن الساحلية الأخرى ، لكن " لم يمكث الجنود الإسبان بعنابة إلا خمسة أعوام فقط ، حيث تمكنت القوات الجزائرية من محاصرتهم ، وأجبرتهم على الانسحاب سنة 1540 م ، وجاء دور الإمبراطور سريعا لضرب مدينة الجزائر في السنة الموالية " [2].

3 . 3 . احتلال تلمسان ومعسكر :

لم تسلم تلمسان وكذا معسكر من الهجمات الإسبانية أيضا ، ذلك أنها عرفت ويلات الاحتلال كباقي المدن الساحلية الأخرى ، وقد ساعدت الظروف السياسية والعسكرية في مدينة تلمسان على دخولهم إليها إذ " تكرر غزو النصارى لتلمسان بسبب اختلاف أمرائها حتى صار كل منهم يستعين على الآخر بالنصارى فمن ذلك أن المزوار منصور بن غانم الحشمي كبير بني راشد سأل من النصارى في سنة ثلاث وخمسين من العاشر الموافق 1546 . 1547 م الإعانة وغزا بهم تلمسان بعد أن أعطاهم ولده عليها رهنا ، وشرط معهم شروطا " [3] .

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 68 . 69 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 69 .

[3] . آغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود ، ص : 216 .

ولما كانت تلمسان من أهم المدن الساحلية التي استقطبت العديد من الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم وفكرهم إلى سواحل المغرب الأوسط ، فلم تسلم هذه المدينة كغيرها من المدن الساحلية الأخرى من هذا الاحتلال ، وبالتالي نالت نصيبا منه ، فتلمسان مدينة العلم والعلماء في العصر الزياني ، ومنطقة للتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب ، ورابط حضاري بين المغرب والأندلس ، فهجرة العلماء والمفكرين الأندلسيين إليها لم تعرف الانقطاع ، ونظرا لهذه الصلة الوثيقة بين العدوتين كان لزاما على الإسبان احتلالها لقطع هذا الحبل باعتبارها أهم منطقة جلبت الأندلسيين إليها من جهة ، وللقضاء على قوتها البحرية والاقتصادية من جهة أخرى ، فتضررت الحضارة الزيانية من جراء هذا الاحتلال أيما تأثير " فبعد أن وصل إلى تلمسان آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل عبر وهران بدأت التهديدات الإسبانية تظهر في الأفق ضد تلمسان ، واضطر الأمير الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه إلى إسبانيا ليطمئن فريديناند الخامس، ويقدم له الهدايا استرضاء له "[1] .

ورغم شهرة مدينة تلمسان الحضارية إلا أنها كانت على الصعيد السياسي تعاني من اضطرابات داخلية حول العرش ، وتدخلات خارجية من الشرق والغرب من طرف الحفصيين والمرينيين مما سهل دخول الاحتلال الإسباني لهذه المدينة " وأصبحت تلمسان بين فكي

[1] . آثار الدكتور يحي بوعزيز ، مدينة تلمسان ، ص : 54 .

كماشة يحيط بها خطر الإسبان من كل جهة ، وليس هناك نصير أو معين لها في حين لا تملك هي القوة والعدة الكافية التي تساعدها على مواجهة هذه الأوضاع الخطيرة "[1].

3 . 4 . احتلال مدينة الجزائر :

ذكر أحمد بن سحنون الراشدي في حديثه عن مدينة الجزائر ووصفها قائلا : " الجزائر في الأصل جمع جزيرة* وهي أرض في البحر ينحدر عنها المد ، ويقال جزائر السعادة ست جزائر في البحر المحيط من جهة المغرب ، واستعمل في عرفنا اسما لهذه المدينة القاهرة التي هي اليوم قاعدة ملك الأمراء العثمانية في المغرب الأوسط ، كانت تعرف بقلعة بني مزغنة ، وهم من طوائف صنهاجة ، وكانت لهم في القديم مواطن بالمسيلة إلى حمزة إلى الجزائر ولمدية ومليانة ، ويقال أن بلكين بن زيري خليفة العبيديين على المغرب هو الذي ابتناها وهو منهم "[2]، أما عن ذكر تخطيطها وكيفية بنائها وخاصة التحصينات العسكرية التي أقيمت بها ، والتي جعلت منها مدينة محصنة تدافع عن كل الأقطار الخارجية المحدقة

---

[1] . آثار الدكتور يحي بوعزيز ، مدينة تلمسان ، ص : 55 .

* قال أيضا الحسن الوزان أن معناها الجزر ، سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة ، لكن الإسبانيين يسمونها ألجي ، كانت خاضعة لتلمسان مدة طويلة ، لكنها استسلمت لملك بجاية القائم حديثا لقربها من مملكته . ينظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 37 ، وجاءت هذه التسمية أيضا في كتاب أعمال الأعلام حيث قال لسان الدين بن الخطيب : " قدمت رسل العدوة الغربية من زناتة والأدارسة والقيروان وجزائر بني مزغنة وملك القسطنطينية العظمى إلى الناصر الأموي الأندلسي " أنظر : لسان الدين ابن الخطيب ، تاريخ إسبانيا أو كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق : ليفي بروفانسال ، بيروت ، د . ط ، 1956 م ، ص : 37 .

[2] . أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي ، ص : 251 . 252 .

بها ، حيث يقول في فشل غارات الاحتلال عليها : " فهي الآن بحيث لا تنال ولا يطمع في أخذها إلا من يطمع في المحال ، قد جعلها الله شجى في حلوق ملوك النصارى وقذى في عيونهم ، فلم يزالوا عليها يكدحون ، ولزنادها يقدمون ، يريدون التوصل إليها والاستيلاء عليها فلم يحقق الله رجاءهم ولا أزال شجاهم ، بل يردهم كل مرة مفعولين مقهورين مذلولين "[1] .

وكانت الجزائر قد عرفت كغيرها صراعا سياسيا وعسكريا بسبب تضارب نفوذ الحكام على سيطرتها ، وخاصة في العهد الزياني الذي عرفت فيه هذه المدينة أوج صراع على أرضها ، وتفانى الملوك في إخضاعها فقد " فتحها مرتين أبو حمو الثاني ملك تلمسان ، ثم رجعت إلى أبي زيان ملك بجاية ، ثم إلى عبد العزيز المريني ، وفي هذه المدة صارت قريبة من الاستغلال بسبب انفراد بني التومي* بها "[2] ، ومن خلال هذا القول يستفاد أن مدينة الجزائر عرفت صراعا كباقي المدن الأخرى مما هيأها لأن تكون من أولويات المدن في التعرض للاحتلال الأجنبي الإسباني بعد زوال ملك غرناطة بها ، وقد كان لسقوطها دورا

---

[1] . أحمد بن سحنون الراشدي ، المصدر السابق ، ص : 252 .

* وهم فرقة من الثعالبة أصحاب " متيجة " الذين كانوا طردوا الصنهاجيين ، وألجؤوهم إلى الجبال ، ولا سيما سالم بن إبراهيم شيخهم فإنه انفرد وحده بحكم الجزائر ، وكان تارة يبايع بني زيان ، وتارة بني حفص ، وتارة أخرى بني مرين . محمد بن أبي شنب ، نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر ، دراسات وأبحاث في تاريخ المدن الثلاث : الجزائر ، لمدية ، مليانة بمناسبة عيدها الألفي ، إعداد ودراسة وتمهيد وتعليق : عبد الرحمن الجيلالي ، الجزائر ، د . ط ، 1972 كم ، ص : 67 .

[2] . محمد بن أبي شنب ، نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر ، ص : 67 .

بارزا في استمرار التوسع على حساب الأراضي المغربية ومنها الجزائر التي كان من بين أسباب احتلالها موقعها الجغرافي الهام ، وغناها الاقتصادي العظيم الذي جعل إسبانيا تفكر في احتلالها تعويضا للخسائر التي لحقت بها في حربها مع المسلمين في الأندلس حيث يذكر ابن شنب في وصف موقعها فيقول : " الجزائر مدينة عظيمة على ضفة البحر المتوسط في الجانب الغربي من الجون المسمى باسمها ، وهي واقعة في الدرجة 36 و 47 دقيقة و20 ثانية من العرض الشمالي و 44 دقيقة و10 ثوان من طول باريس الشرقي ، هذه المدينة مبنية في سفح جبل أبي زريعة ممتدة على ساحل البحر محفوظة من جهة البر ببساتين يانعة ورياض ساطعة في وسطها قصور أنيقة وصروح عتيقة " [1] .

وعن أهمية موقع مدينة الجزائر الساحلي ، وإطلالها على البحر ، ودور موانئها التجارية فقد وصفها الجغرافيون والمؤرخون بالحسن والأهمية التجارية والاقتصادية ومنهم ابن حوقل إذ يذكر في وصفها قائلا : " وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا، وفيها أسواق كثيرة ، ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة ، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في الجبال ، ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها ، ولها جزيرة في البحر

[1] . محمد بن أبي شنب ، نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر ، ص : 67 .

على رمية سهم منها تحاذيها ، فإذا نزل بهم عدو لجؤوا إليها فكانوا في منعة وأمن مما يحذرونه ويخافونه " [1] .

ويذكر في نفس السياق البكري حين وصفها بالجسر الذي يربط بين العدوتين أي بلاد الأندلس والمغرب فيقول : " هي مدينة جليلة ، لها أسواق ومسجد جامع ، ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما " [2].

ويضيف عن تقارب الواجهتين أي الأندلس وبلاد المغرب : " تمتد أرض الأندلس المحاذية لبلد الروم وأرض صقلية ، ثم تمتد أرض الأندلس على البحر فتواجه من أرض المغرب تونس ، وهكذا إلى طبرقة إلى جزائر بني مزغنا إلى تنس إلى وهران ... " [3] ، ويضيف المقدسي في وصفه لهذه المدينة وقربها من الأندلس حيث قال : " جزائر بني مزغناية على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس " [4] .

وبشهادة هؤلاء الرحالة الجغرافيين تتبين حقيقة أهمية الموقع الجغرافي الذي كانت تزخر به هذه المدينة ، والذي جعلها عرضة للاحتلال الإسباني ، ويتفق كلهم على أهمية موانئها

---

[1] . أبو القاسم ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 م ، ص : 77 . 78 .

[2] . البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، دار الكتاب الإسلامي ، د . ط ، القاهرة ، د . ت ، ص : 66 .

[3] . ابن حوقل ، المسالك والممالك ، مطبع بريل ، مدينة ليدن ، 1872 م ، ص : 43 .

[4] . أبو عبد الله محمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار صادر ، ط : 2 ، بيروت ، 1906 م ، ص : 228 .

التجارية ، وإطلالها على البحر الأبيض المتوسط ، وقربها من السواحل الأندلسية مما مكن للعديد من المسلمين الأندلسيين الفرار إليها والاحتماء فيها .

ومن الأسباب التي دفعت إسبانيا إلى هذا الغزو الدور الهائل الذي لعبه ولاتها على أرض الجزائر ، وتفانيهم في نصرة إخوانهم الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم إلى الجزائر ، " وكان الجهاد البحري في شمال إفريقيا قد لفت أنظار أوربا المسيحية ، ولاسيما مجاهدي الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية ، وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط ، حيث نقلوا معهم الكثير من الأسرى والغنائم ، وتكفلوا بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محنتهم ، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية الأوروبية عصرئذ " [1] ، وعليه كان للقائدين البحريين عروج وخير الدين* دور في هذا الجهاد ، وكانت إسبانيا تنوي التخلص منهما ، وسعت إلى ذلك بكل الطرق والمكائد

---

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 20 .

* يعود أصل خير الدين من أروام جزيرة مدللي ، وهو ابن يعقوب الذي كان له أربعة أبناء وهم : إلياي وإسحاق وعروج بالإضافة إلى خير الدين وكان خير الدين وأخوه عروج يشتغلان في خدمة السلطان الحفصي في تونس ، وكان عملهما أسر مراكب المسيحيين ، وأخذ كافة ما بها من بضائع ، وبيع ركابها رقيقا ، وكانت يقوم بهذه الأعمال يعقوب ولما توفي واصل إسحاق ويعقوب عمل أبيهم . أنظر : عدنان العطار ، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، دار الأصالة ، ط : 1 ، الجزائر ، 2010 م ، ص : 64 ، وينظر أيضا عن أعمال خير الدين في : Fray Diego de Haedo , Histoire des rois d'Alger , traduite et annotée par : H . D . de Grammont , Alger , 1881 , p : 129 .

وللمزيد حول حياة عروج وخير الدين ودورهما السياسي والعسكري في الجزائر أنظر أيضا :

A . Rang et Ferdinand Denis , Histoire d'Aroudj et de Khair Ed-Din (fondateurs de la récence d'Alger , Paris , 1857 , T : 1 , p : 2 .

والدسائس ، وقد ساء أعمال هذين القائدين ملوك إسبانيا الذين اعتبروها قرصنة بحرية ، في حين اعتبرها بعض الدارسين أنها نوع من الجهاد البحري لأن " القرصنة تعني لصوصية البحر ، والقراصنة ليسوا سوى لصوص وقطاع طرق ومغامرين ، يهدفون إلى الاستيلاء على الأموال والممتلكات دون أي اعتبار ديني أو سياسي ، والمتأمل في العمليات العسكرية التي كان يقوم بها البحارة العثمانيون وغيرهم ، يلاحظ أنها كانت تهدف إلى الدفاع عن المسلمين في السواحل الإسلامية ، والمساهمة في إنقاذ المسلمين في الأندلس ، والانتقام من سفن وسواحل الدول والممالك المعادية ، فهي إذن عمليات عسكرية يقوم بها أفراد مسلمون قبل أن ينتظم ذلك ليتحول إلى حالة حرب مفتوحة على كل الجبهات بين الدولة العثمانية انطلاقا من الجزائر ثم تونس وليبيا من جهة ، وبين إسبانيا وغيرها من الممالك الموالية لها من جهة ثانية " [1] .

ومما يضفي حقيقة هذا القول ما ذكره خير الدين في مذكراته حول جهاده البحري خاصة بعد سقوط الأندلس ، واصفا الحالة المزرية التي آل إليها سكانها من التعذيب والتنكيل ، وتأثيرها على نفسية هذين الرجلين حيث يقول : " خرجنا في ثمانية مراكب للغزو فوصلنا إلى سواحل الأندلس حيث كانت المدينة الإسلامية غرناطة قد سقطت قريبا بيد الإسبان ، كان الإسبان يقومون بمظالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سرا في

[1] . مذكرات خير الدين بربروس ، ترجمة : محمد دراج ، شركة الأصالة للنشر ، ط : 1 ، الجزائر ، 2010 م ، ص : 10 .

مساجد سرية قاموا ببنائها تحت الأرض ، لقد دمر الإسبان ، وأحرقوا جميع المساجد ، وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعذاب والإحراق ، خلال ذلك قمنا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار ، ونقلهم إلى الجزائر وتونس " [1].

ومن هنا نستخلص الأثر العظيم الذي تركه سقوط غرناطة في أيدي النصارى في نفسية هؤلاء البحارة الذين لجؤوا إلى السواحل المغربية ، من أجل تحقيق أهدافهم الجهادية في نصرة الأندلسيين المظلومين والمضطهدين في إسبانيا ، وما من شك أن هذه التصرفات أغضبت ملوك إسبانيا فحولت أنظارها إلى احتلال الجزائر .

وقد تعددت غارات الاحتلال الإسباني على مدينة الجزائر لمرات عديدة [2] " ففي الأولى غزوها قبل دخول الترك لها ، وتملكهم بها ، فملكوا برج مرساها الذي بوسط البحر في الجزيرة حيث برج الفنار الآن ، وصار لهم جباية حجيجة ، وضرائب على أهل متيجة " [3].

[1] . مذكرات خير الدين ، ص : 54 .

[2] . من أمثلة هذه الحملات على سبيل المثال لا الحصر :

. حملة ديقودو فيرا على مدينة الجزائر عام 1516 م .

. حملة دون هوجود ومونكادو على مدينة الجزائر عام 1519 م .

. حملة شارلكان وأندري دوريا على مدينة الجزائر عام 1541 م التي باركها وأيدها البابا بول الثالث .

. حملة البابا بيوس الرابع الصليبية ضد طرابلس وجربة والجزائر عامي 1559 . 1560م .

. غارة خوان قاسكون الإسباني ضد مدينة الجزائر عام 1567 م ، بمساعدة وتأييد ملك إسبانيا . ينظر : يحي بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا ، ص : 17 .

[3] . الآغا ابن عوده المزاري ، طلوع سعد السعود ، ص : 218 .

كانت الجزائر قبل دخول الأتراك إليها تابعة لمملكة بجاية يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي، وبعد أيام من سقوط بجاية توجه وفد مدينة الجزائر يرأسه الشيخ سالم للاجتماع بقائد الحملة الإسبانية بيدرو نافارو حيث اتفق الطرفان على :

. عقد سلام بين مدينة بجاية والإسبان .

. تعهد الجزائريين بإطلاق سراح من بأيديهم من الأسرى المسيحيين .

. عدم التعرض للسفن الإسبانية .

. أن يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الإسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه إلى ملك بجاية اعترافا بالتبعية ، ومقابل ذلك لا يتعرض الإسبان لمدينة الجزائر بسوء " [1] .

وبقيت هذه التبعية إلى ملوك إسبانيا وظلت مدينة الجزائر تحت مراقبة عيونهم إلى سنة 1516 م حيث " توفي ملك إسبانيا فريديناندو الكاثوليكي ، وبوفاته اعتبر الجزائريون أنفسهم أنهم أصبحوا بحل من يمين الولاء الذي كانوا قد أقسموه له ، وبما أنهم كانوا يطمحون في التخلص من سلطة الإسبان ، طلبوا من أحد مشايخهم سالم التومي إجراء محادثات مع عروج والطلب منه مساعدة الجزائريين على تحرير الجزائر " [2].

[1] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 114 . 115 .

[2] . حليم ميشال حداد ، عاطف عيد ، قصة وتاريخ الحضارات العربية موسوعة تاريخية جغرافية حضارية وأدبية ، د . ط، د . ت ، ص : 118.

والواقع أن هذا التحرير جاء عقب إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، أما عن سبب هذا الإلحاق وتاريخ ذلك فيقول فيه محمد يوسف الزياني " اعلم أن سبب مجيئهم للجزائر هو تغلب النصارى على السواحل ، ولما رأى ذلك العلامة ولي الله أبو العباس الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي كتب إلى السلطان سليم * بذلك ، فبعث للجزائر الباشا خير الدين حسن بن المدلية وشقيقه عروجا ولإسحاق .. واختلف في وقت مجيئهم للجزائر على خمسة أقوال فقال بعض المؤرخين أنهم ملكوا الجزائر سنة 899 هـ ، واستولوا على تلمسان سنة 941 هـ ولا يخفاك ضعفه ، وقال الحافظ أبو راس في زهر الشماريخ والحافظ أبو عبد الله محمد بن عسكر الشريف في دوحة الناشر أنهم ملكوا الجزائر في أول القرن العاشر ، يعني في العام الأول من القرن العاشر " [1] .

ولعل من أهم الأسباب التي دعت إلى هذا الانضمام ما شهدته الساحة السياسية والعسكرية في الجزائر من ضعف وانهيار بسبب الاحتلال الإسباني على بلاد المغرب الأوسط ، فالهجمة الصليبية المنتشرة على السواحل الجزائرية ، وضياع صرح الأندلس من أيدي المسلمين جعل أهالي مدينة الجزائر يفكرون في منع هذا الزحف ، واستمرارية هذا

* هو سليم الأول بن بايزيد 1512 . 1520 م تربع على العرش العثماني في عام 918هـ ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلا إلى تصفية خصومه ، ولو كانوا من إخوته وأبنائهم ، وعمل على محاربة الدولة الصفوية الشيعية الذي كان من نتيجته ضم شمالي العراق وديار بكر ، وتأمين حدود دولتهم الشرقية ، وسيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى ، كما أراد ضم دولة المماليك .. للمزيد ، أنظر : عيسى الحسن ، تاريخ العرب ، ص : 480 وما بعدها .

[1] . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران ، ص : 176 ، وفيه مزيد من التفصيل حول أصل الأتراك وأولية حكمهم في الجزائر .

التنصير ، فالعامل الداخلي هو ضعف الحكم وهوان الحكام ، والعامل الخارجي هو القوة الإسبانية المنتشرة ، فالوجود العثماني بالجزائر كان سببه " وجود الغزو الإسباني ، وجاء في مخطوط من خزانة السيد البشير محمودي بالبرج ولاية معسكر هذا نصه (إن سبب مجيئهم للجزائر هو تغلب النصارى على الساحل) " [1].

يذكر محمد بن رقية التلمساني في كتابه الزهرة الثائرة حول هذا الانضمام[2] فيقول : " ثم عزم خير الدين على السفر إلى إقليم الروم لأجل الغزو والمواصلة إلى الجهاد ، وجمع أهل الجزائر من العلماء والصلحاء وقال لهم : إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان ، وأمنت بلادكم من العدو بما تركت فيكم من المجاهدين ، ومن وصل إليكم من أهل الأندلس، وما تركت عندكم من العدة لأني تركت في بلادكم أكثر من أربع مائة مدفع ولم يكن في بلادكم ولو مدفع واحد . فقالوا كلهم له : أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ، ولا نسمح لك بذلك فالله الله أمة سيدنا محمد فإن الله يسألك عنهم " [3] ، ومن خلال هذا النص يتضح أن القائد خير الدين لم يكن هدفه البقاء والاستقرار في الجزائر ، وإنما كان هدفه جهاديا في نصرة المظلومين من ويلات المحتل الإسباني في الأندلس والمغرب ، وأن انضمام الجزائر كان بطلب من أعيان ووجهاء مدينة الجزائر ، ليتعزز هذا الطلب بإيصال مدينة الجزائر

[1] . مبروك مهيريس ، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د . ط ، 2009م ، ص ص : 15 . 17 .

[2] . أنظر وثيقة الانضمام في الملحق رقم 3 في آخر البحث .

[3] . محمد بن رقية التلمساني ، الزهرة الثائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة مخ هـ و ب ج رقم 1626 نقلا عن جمال قنان : نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 . 1830 م ص : 42 .

بالدولة العثمانية باقتراح من خير الدين نفسه حيث يقول : " قال لهم خير الدين : أنتم رأيتم ما وقع من الملاعين الكافرين ، ولا يؤمن من عواملهم ، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد ، ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه ، وضرب السكة عليه ، فرضي أهل المدينة ، وصوبوا رأيهم فيه " [1] .

وبعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية توالت غارات الإسبان على السواحل الجزائرية بسبب النشاط الحربي الجهادي العثماني ، ودوره في مواجهة الخطر المسيحي على حدود الدولة الإسلامية ، وخاصة منها بلاد الأندلس ، ومن أهم تلك الحملات حملة شارلكان على مدينة الجزائر عام 1541 م ، ولعل سبب تلك الحملة أنه كان يرى في العلاقات الوثيقة بين الدولة العثمانية وفرنسا خطرا عليه وعلى سياسته في أوربا وإفريقيا ، وقرر أن يغزو الجزائر ويخضعها لسيطرته ، ويقضي على الوجود التركي بها كخطوة أولى لضرب الدولتين معا " [2]، وقد ساعد شارلكان على اختيار هذا القرار بعد جهده في احتلال مدينة تونس حيث : " قاد عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل إسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي على ظهر خمسمائة سفينة ، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة ، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين الأمر الذي أعاد السيطرة

[1]. جمال قنان ، المرجع السابق ، ص : 42 .

[2] . آثار الدكتور يحي بوعزيز ، ص : 45 .

الإسبانية على تونس في 942 هـ / 1535 م "[1]، بعد ذلك حاول شارلكان احتلال مدينة الجزائر ، ولعل من أهم الأسباب التي دفعت به إلى ذلك :

. رغبة شارلكان في الانتقام للشرف الإسباني الذي لطخ بسبب الهزيمة العظيمة التي مني بها الأسطول الإسباني في معركة بروزة* سنة 1538 م، وازدياد العمليات العسكرية التي يقوم بها غزاة الجزائر على السواحل الأوروبية في إيطاليا وسردينيا وجزر البليار .

. الانتصار السياسي الذي أحرزه الإسبان في تلمسان والغرب الجزائري بفعل استمالتهم سلطان تلمسان ، وتمكنهم من إخضاع الدولة الحفصية لسلطانهم بعد احتلالهم لتونس ، واحتلال الجزائر سيضمن لشارلكان السيطرة على غرب البحر المتوسط ، ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري إمبراطوريته .

. وجود خير الدين في إستنبول ، وانشغاله بقيادة الأسطول العثماني ، وما ترتب عليه من فراغ لا يمكن ملؤه في الجزائر[2] .

---

[1] . عيسى الحسن ، تاريخ العرب ، ص : 520 .

* **بروزة** : وقعت في خليج بروزة في 28 سبتمبر 1538 ، بين التحالف الأوروبي المسيحي بقيادة أندريا دوريا ، وبين الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس كان النصر فيها للعثمانيين حيث يقول خير الدين : وأما عامل تفوقنا الآخر فيرجع إلى كون مدى مدافعنا أطول من مدى مدافع العدو ، ودون أن ننسى ذلك لحظة واحدة يجب أن نذكر بأنني كنت قد جعلت أسطولي في موقع يمكن قذائف مدافعنا من دك سفن العدو . للمزيد عن تفاصيل هذه المعركة أنظر : مذكرات خير الدين ، ص : 186 وما بعدها .

[2] . محمد دراج ، الدخول العثماني للجزائر ودور الإخوة بربروس ، ص : 306 . 307 .

ويذكر توفيق المدني في وصفه لحملة شارلكان على الجزائر بالمخطط لها ، وأنها كانت مؤيدة من البابوية المسيحية حيث أمده البابا يوحنا الثالث بعون أدبي عظيم علاوة عن العون المادي ، إذ نشر في البلاد الأوروبية كلها أمرا بابويا يعلن فيه أن هذه الحملة إنما هي حملة صليبية وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها ، وأن يشارك في محاربة الكافرين [1] ، أما عن عدد جيشه فقد قال عنه : " كان جيش شارلكان مؤلفا من خيرة المقاتلين البواسل ، وقد شارك فيه كل من نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا بإرسال متطوعين ، والبابا يوحنا الثالث أرسل مع الجيش حفيده كولونا ، ورهبنة مالطا القوية العنيفة أرسلت مائة وأربعين فارسا وأربعمائة راجل من خير ما عندها من المقاتلين الأشداء ، فكان الجيش الشارلكاني يبلغ 24000 رجل وألأفي قوس ، أما الأسطول فكان يشمل على أربعمائة وخمسين سفينة نقل ، وخمس وستين سفينة حربية كبرى ، فكان عدد البحارة في مجموعها يبلغ 12000 رجل تحت قيادة أندريا دوريا نفسه ، أما الجيش كله فقد كان تحت قيادة أندريا دوريا نفسه ، أما الجيش كله فقد كان تحت قيادة الإمبراطور شارلكان الفعلية الذي أراد أن يكون له نفسه شرف تحطيم مدينة الجزائر " [2] .

ولم تكن الحرب يستعد لها بكثرة الجيوش والسلاح والعتاد ، بل كانت هناك حرب نفسية في إنقاص كل طرف من عزيمة وقوة الطرف الآخر من أجل تحطيم حكام الجزائر تحطيما

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 260 .

[2] . نفسه ، ص : 261 .

نفسيا قبل أن يكون تحطيما عسكريا ، لذلك عمل شارلكان على مراسلة حاكم مدينة الجزائر برسالة يبين فيها قوته وعظمته وقدرته على احتلال المدينة بأقل تكلفة ممكنة ، وفي أقل وقت محدد طالبا منه تسليمه إياها دون مقاتلة ، وجاء في هذه الرسالة ما يبين فخر شارلكان وثقته بنفسه وبجنده في كسب المعركة حيث يقول : " أيها الرجل إنك خديم من خدام بربروشة وأملك إصبانية بأسرها ، وجميع بلاد النصارى تحت طاعتي ، فكيف تحدث نفسك بمقابلتي ، أما تعرف أني استوليت على مدينة تونس وأزعجت منها بربروشة لا يصدق النجاة بنفسه ، وهي أعظم من الجزائر شأنا ، وأحصن منها بنيانا " [1]، ولكن حسن آغا رد عليه بأحسن رد حيث قال : " وهل أنت إلا كلب من كلاب النصارى وأضعف ما في بلاد البربرية من القلاع لا تقدر على أخذها ، فكيف بمدينة الجزائر ، ولو سمع بك سيدنا السلطان الأعظم لأرسل إليك عبدا من عبيده مع شرذمة قليلة من عسكره لاستأصلك ومن معك ، ومع ذلك فإن في عسكر الجزائر ما يقابلك ، وسترى عاقبة أمرك ، فاجهد جهدك غير موفق " [2].

وقد خرج شارلكان على رأس هذه الحملة من ماهون يوم 18 أكتوبر 1541 م ، ووصل أمام ساحل مدينة الجزائر يوم 23 منه ، ونزل بجنوده على الضفة اليسرى لوادي الحراش ، وعسكر في كدية الصابون التي تسيطر على المدينة في اليوم الموالي ، وكان يظن واهما أن

---

[1] . جمال قنان ، المرجع السابق ، ص : 45 .

[2] . آثار يحي بوعزيز ، ص : 46 .

البايلرباي الآغا حسن سيسرع لتسليم المدينة له دون قتال ، غير أن حسن آغا لم يفعل ذلك ، وإنما حصن المدينة ، ودعم دفاعها ، وجند المزيد من المقاتلين[1] .

ومما زاد من إضعاف حملة شارلكان على الجزائر ملاءمة الظروف الطبيعية في مواجهة الخطر الإسباني إذ " سخر الله لجنود الإسلام الأمطار والرياح والأمواج ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام ، واقتلعت خيام جنود الحملة ، وارتطمت السفن بعضها ببعض ، مما أدى إلى غرق كثير منها ، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ ، وهجم عليها المدافعون المسلمون ، واستولوا على أدواتها وذخائرها ، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود "[2].

وبهذا أسفرت هذه الأسباب عن هزيمة شارلكان في مواصلة حربه ضد المسلمين التي ابتدأها بالأندلس ، وأراد أن يواصل توسعاته إلى بلاد المغرب الأوسط بعد تمكنه من القضاء على الأندلس نهائيا .

إن الانتصار الذي حققه سكان مدينة الجزائر في رد خطر الإسبان ، وكسر أعظم مخططات ملوكها في الاستيلاء على هذه المدينة ، كان عظيما إذ يعبر عنها أحمد توفيق المدني بقوله : " فاقت نكبة الجيش الصليبي في مداها واتساعها كل نكبة حلت بجيش مهاجم قبل ذلك فوق أديم الأرض الإفريقية ، كانت الخسارة تشمل 200 سفينة من بينها نحو

[1] . آثار يحي بوعزيز ، ص : 46 .

[2] . عيسى الحسن ، تاريخ العرب ، ص : 523 . 524 .

30 سفينة حربية و200 مدفع وكل العدد والأسلحة والذخيرة والأدوات ، أما الغنائم التي غنمها المسلمون الجزائريون من جراء ذلك فلا يكاد يحصيها عد "[1].

أما الخسائر البشرية فهي كثيرة " فقد جاء في كتاب الغزوات أن عدد القتلى بسيوف المسلمين في هذا اليوم اثنا عشر ألفا ، ويقال أن فرائس الكفرة ، وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر دلس شرقا وشرشال غربا "[2] .

ونستنتج من خلال ما ذكرناه حول تأثير سقوط الأندلس في انتقال الصراع الصليبي الإسباني الأندلسي من أرض الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط أنه كان عميقا ، أرادت من خلاله إسبانيا أن تمحو آثار الأندلسيين من الوجود ، لكنها لم تجد لذلك سبيلا ، فرغم المحاولات العديدة التي قام بها أكبر قادتها في هجماتهم على سواحل البحر المتوسط ، إلا أنها باءت كلها بالفشل ، بتأثير داخلي وخارجي ، تمثل التأثير الداخلي برفض سكان بلاد المغرب الأوسط لهذا الاحتلال ، ومواصلتهم العمل من أجل مساعدة إخوانهم الأندلسيين سواء في الأندلس أو بنقل الفارين منهم إلى عدوة المغرب ، وتمثل العامل الخارجي في ظهور الأسرة التركية متمثلة في شخص عروج وخير الدين اللذان عملا على توسيع دائرة الجهاد الإسلامي في رد خطر الإسبان ، وحماية الحدود الشمالية لإفريقية .

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 275 .

[2] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 320 . 321 .

إن الحملات الإسبانية على مدن الساحل دفعتها رغبة جامحة في مواصلة القضاء على الإسلام والمسلمين في كل بقاع الأرض ، فلما فشلت الحروب الصليبية في المشرق ، عززتها في المغرب ، وكان سقوط الأندلس من أهم العوامل المساعدة على توسيع دائرة هذا الصراع ، إذ فتح شهية ملوك إسبانيا في مواصلة نشر النصرانية بمباركة من الكنيسة الكاثوليكية .

المبحث الثاني : الدور السياسي والعسكري للأندلسيين في بلاد المغرب الأوسط:

ذكرت سابقا أن بلاد المغرب الأوسط كانت لها مواقف مشرفة في حماية اللاجئين الأندلسيين إليها ، وقد شنت عدة عمليات بحرية صوب السواحل الأندلسية من أجل إنقاذ الفارين إلى السواحل المغربية ، مما ترتب عليه غزو إسباني رهيب على مدن الجزائر الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد " تركزت جهود البحارة الأتراك وعلى رأسهم الأخوان بربروسة خير الدين وعروج على تسهيل هجرة الأندلسيين ، والإسراع بنقل المضطهدين منهم إلى السواحل الجزائرية بحيث تمكنوا في الفترة الممتدة بين سنتي 1528 . 1584 م من شن ثلاثة وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية أنقذوا أثناءها كثيرا من الأندلسيين " [1] .

---

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 2003 م ، ص : 21 .

ورغم أن هذه الهجرة قد كان لها أثر سلبي لانتقال الاحتلال الإسباني من الأندلس إلى بلاد المغرب ، إلا أن هذه الهجرات كانت ذات أثر إيجابي أيضا ، فقد استفادت منها المنطقة في المجال السياسي والعسكري ، وكان لتواجدهم حماية للسواحل الجزائرية من أيدي الإسبان الذين واصلوا تحقيق أطماعهم التوسعية ، وتوسيع دائرة صراعهم السياسي مع المسلمين إلى سواحل شمال إفريقية باعتبارها الحصن الواقي للأندلسيين والملجأ الآمن لهم ، ولا شك أن معاودة استرداد الأندلس ظلت هاجسا يروع عقول الملوك الكاثوليك نظرا للدروس التي استفادوا منها طيلة ثمانية قرون خلت ، من خلال حملات الاستنجاد التي كانت تبعث من بلاد المغرب لنصرة الحكام الأندلسيين خاصة في عهد ملوك الطوائف .

1 . مشاركة الأندلسيين في الدفاع عن الجزائر :

كان للأندلسيين أثر بالغ في بلاد المغرب الأوسط على المستوى العسكري ، نظرا للظروف الصعبة التي ألمت بالمنطقة ، بعد محاولات الإسبان العديدة اجتياح سواحلها البحرية لملاحقة الأندلسيين الفارين من جهة ، والتسلط على الملاحة والتجارة في حوض البحر المتوسط من جهة أخرى .

ولقد " كانت هجرة نبلاء غرناطة إلى شمال إفريقية سببا في وضع حد للتوسع البرتغالي على حساب بلاد المغرب العربي " [1]، ولا شك أن الألم الواحد الذي لحق بالأندلسيين في إسبانيا والجزائريين في المغرب ، والهدف المشترك من أجل استئصال شأفة الإسبان من المنطقتين ، كان هناك تكاثف لجهود الأندلسيين والجزائريين من أجل الدفاع عن سواحل البحر الأبيض المتوسط ، إذ " ساعد الأندلسيون البحرية الجزائرية في الهجوم ببراعة على السواحل الشرقية الإسبانية " [2].

أما عن مساهمتهم في الجهاد ضد الاحتلال الإسباني فكانت لهم مواقف بطولية في الاستماتة من أجل رفع راية التوحيد ، لعلمهم بعظم المسؤولية اتجاه دينهم الإسلامي بعد حملة التنصير القسري التي لحقت بهم في إسبانيا ، فلما ضعفت شوكتهم في الأندلس أرادوا تعزيزها في بلاد المغرب الأوسط ، من أجل الدفاع عن حدوده ، والتحضير لاسترداد الأندلس ، فأمل العودة لم ينقطع من نفوس أولئك المهاجرين أبدا ، معتبرين أن إقامتهم في هذه المنطقة مرحلة انتقالية يصحبها تحرير للأرض التي نشأوا فيها ، وبالفعل كان ذلك " فما أن أعاد العثمانيون بناء مينائهم في الجزائر حتى أرسل خير الدين أسطولا حربيا يقوده رئيس لتفتيش مضيق جبل طارق بحثا عن الغنائم ولنقل الأندلسيين إلى الجزائر " [3]، وعلى الصعيد

---

[1] . فتحي زغروت ، العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس ، ص : 268 .

[2] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 51 . 52 .

[3] . أندروهين ، افتراق العالم الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، منشورات ذات السلاسل ، ط : 1 ، الكويت ، 1986 م ، ص : 107 .

الداخلي السياسي لبلاد المغرب الأوسط لعب الأندلسيون الفارون إلى المنطقة دورا سياسيا وعسكريا بطوليا في الدفاع عن مدن المغرب الأوسط ، وحماية ثغوره من الاحتلال الإسباني خاصة في عهد التبعية للسلطنة العثمانية زمن خير الدين بربروس ، الذي اعتبرهم القاعدة في المشاركة الجهادية ضد أعدائهم " فخلال هذه الفترة كذلك أدت هجرة مسلمي إسبانيا إلى شمال إفريقيا إلى تعزيز القوة العسكرية للتحالف الموالي للأتراك والمعادي للمسيحيين ، وبعد أن استقر معظم المهاجرين من جنوب شرقي إسبانيا في مدن المغرب الساحلية انضموا دون استثناء إلى رجال الحدود الشرقية الذين كانوا بالنسبة إليهم المدافعين عن المجتمع الإسلامي " [1].

وفي المراحل الأولى من إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، واعتبارها مقاطعة جغرافية تابعة لها ، " لعب المهاجرون الأندلسيون دورا كبيرا حيث ساهموا في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الغارات الإسبانية المتكررة ، وفي هذا السياق يذكر مارمول بأن الأتراك أرسلوا حوالي 300 جندي من الموريسكيين ذووا أصول أندلسية ومدجنية وثغرية إلى مدينة المدية لحمايتها واستتباب الأمن فيها " [2].

ولما كان الأندلسيون يمتازون بكفاءات عالية في القيادة والجيش ، وخبرات اكتسبوها من قتالهم للإسبان في بلاد الأندلس ، فقد استفاد حكام الجزائر العثمانيون من خبراتهم العسكرية

[1] . أندروهين ، افتراق العالم الإسلامي والمسيحي ، ص : 106 .

[2] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 52 .

في مواجهة الخطر الإسباني لسنين طويلة ، فشكلوا قوة دعم للجهاد العربي على سواحل البحر المتوسط ، حيث " طلب العلج علي باشا من الأندلسيين توحيد جهودهم ، والعمل يدا واحدة ضد الإسبان ، وبغية تشتيت جهود الإسبان ، وإرباك قواتهم قرر مهاجمة وهران ، ومن بعدها سيتحرك إلى السواحل الإسبانية " [1].

والشيء الذي دفع العثمانيين الاعتماد على القوة الأندلسية في الجزائر ما امتازت به هذه الطائفة على المستوى العسكري ، من صبر على الجهاد ، وخبرة في الدفاع ورد الهجمات الإسبانية ، وقد قال الملك الإسباني فيليب الثاني لسفير فرنسا في بلاطه " فوكفوليس " واصفا رجال الأندلس المهاجرين : " يوجد بمدينة الجزائر 15 ألفا ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية ، من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذين نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة وهم من خيرة الجنود " [2].

ولقد كان للأندلسيين مشاركات عديدة في المعارك التي وقعت في الجزائر بعد الاحتلال الإسباني ، وكان نصيب الأندلسيين كبيرا في مشاركتهم الجهادية في تحرير العديد من المدن التي عرفت هذا الاحتلال ، والأمثلة على ذلك كثيرة إذ " أن عروج بربروسة تمكن من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه في معركة جرت بسهول الشلف بفضل مساعدة 500 فارس

---

[1] . عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي عامر ، دار النهضة العربية ، ط : 1 ، بيروت ، 1989 م ، ص : 226 .

[2] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، ص : 166 .

أندلسي من أهل غرناطة وأراغون وبلنسية ، كانوا نعم السند للقوة التركية المشكلة من ألف جندي من المشاة " [1]، وقد امتهن الأندلسيون مهنة حراسة الحدود والثغور " فاستعان الحكام الأتراك في حكم المدن التي حكموها لأول مرة بحاميات أندلسية ، إذ أوكلوا إليها أمر الحراسة في تلك المدن ، ومنها مدينة المدية* ، التي نصب بها الأتراك حامية من الفرسان الأندلسيين مع بعض المشاة من الأتراك بعد أن هزموا متوليها حماد بن عبيد المعروف في المصادر الغربية بحميد العبد عام 1517 م " [2].

ومما يذكر حول اندفاع الأندلسيين لمناصرة العثمانيين والجزائريين في رد الخطر الإسباني عام 1516 م بعد مشاركة بعض الضعفاء إلى الاتفاق مع الإسبان للدخول إلى البلاد ، وطرد الأتراك منها حيث " وجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه مد يد المساعدة ، فأصدر الوكيل الإسباني (باش وكيلي . رئيس الوكلاء) الكاردينال كريمينسين أمرا في صيف 922 هـ / 1516 م بإرسال خمسة وثلاثين سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندي ، وعهد إلى ديقوديفيرا بقيادتها ، والتوجه إلى الجزائر

---

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية ، ص : 29 . وينظر أيضا : مولاي بلحميسي ، مدينة المدية عبر العصور ، تاريخ المدن الثلاث ، ص : 326 .

* **المدية** : ذكر ابن خلدون في كتابه العبر أن عثمان بن يغمراسن نهض إلى المدية ، وبها أولاد عزيز من بني توجين ، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بالمدية ، وهي تنسب إليهم ، ويقول في موضع آخر أن لمدية بطن من بطون صنهاجة المسمى بأهله ، أما الحسن الوزان فيكتفي بذكر أنها مدينة بناها الأفارقة في تخوم نوميديا على بعد نحو ثمانين ميلا من البحر المتوسط ، وتقع في سهل خصيب جدا تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين . أنظر : محمد المختار اسكندر ، المدية عبر العصور ، تاريخ المدن الثلاث ، ص : 345 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 326 .

لمحاصرتها ، ومساعدة القوة الأهلية المتحالفة معهم ، والمكونة من العرب والبربر والإسبان الموجودين في الجزائر "[1] .

ولكثرة المكائد السياسية والتحالفات بين أهالي الجزائر والإسبان حفاظا على مصالحهم الشخصية ، وامتيازاتهم في المنطقة ، لم يكن في وسع الأتراك ، وعلى رأسهم عروج سوى جمع القوى الشعبية المتمثلة في الأندلسيين إذ " استعد عروج مع الأتراك والمهاجرين الأندلسيين الذين احترقت قلوبهم من ظلم الإسبان للتصدي للأعداء ومقاومتهم ، يساندهم بعض الأهالي والقبائل ، واصطدم الطرفان في قتال دام ومستميت "[2] .

ومن مواقف الأندلسيين الجهادية في بلاد المغرب الأوسط ، ما كان لهم من تأثير في الدفاع عن الجبهة الغربية ، وخاصة بعد احتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير ، فلما " استولى الإسبان على المرسى الكبير كان من بين الذين قادوا مقاومة ضد الاحتلال الإسباني أفراد من الجالية الأندلسية ، لأن سكان المرسى الكبير سبق لهم أن استقبلوا مجموعة من المهاجرين الأندلسيين ، وعلى الخصوص بعد سقوط غرناطة والمراكز الأخرى بالجنوب الإسباني كألمرية وقرطاجنة ومالقة "[3] .

---

[1] . عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ص : 54 . 55 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 55 .

[3] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 247 .

وعليه كان للأندلسيين المهاجرين إلى المدن الجزائرية دور في محاربة التوسع الإسباني على حساب الأراضي الجزائرية ، التي أراد أن يجعل من أرضها موطنا لاستكمال حملاته الصليبية التي ابتدأها في الأندلس ، لكن وجود هذه الفئات الأندلسية بمختلف طبقاتها الاجتماعية من بربر وعرب منعت بمشاركاتها الفعلية في الجهاد ضد المحتلين إلى جانب إخوانهم الجزائريين من تمكين الإسبان تحقيق أهدافه المرجوة ، فكانوا بذلك عونا لهم في الدفاع عن حدود المغرب الأوسط بكل ما اكتسبوه من خبرات في قتال الإسبان .

2 . دور الأندلسيين في تثبيت الحكم العثماني في الجزائر :

ابتدأ الوجود العثماني في بلاد المغرب الأوسط من خلال الأحداث التي عصفت ببلاد الأندلس ، والتي كان نتيجتها سقوط غرناطة ، وتشتت أهلها ، ولم يكن غائبا عن أسماع الدولة العثمانية هذه الأحداث جميعها ، وقد ذكرت في الفصل الأول من هذا البحث ، مواقف الدولة العثمانية تجاه المأساة الأندلسية ، والدور الكبير الذي قامت به في إنقاذ مسلمي الأندلس رغم العراقيل التي كانت تواجهها من الناحية السياسية والعسكرية .

بالإضافة إلى تمسك الأندلسيين بهذه الدولة الناشئة التي علم الأندلسيون من خلال الأهداف التي كانت ترمي إلى تحقيقها أنها تعمل على الدفاع عن المقدسات الإسلامية في أي بقعة من الأرض ، ولما كان الدور المغربي في نجدة الأندلسيين قد تقاعس عما كان

يعرف عليه من قبل ، فلم يبق أمام هؤلاء المسلمين المضطهدين سوى التعاون مع العثمانيين في رد خطر الهجمة الإسبانية المضادة .

و كان للبحارة العثمانيين دور في إنقاذ أهل الأندلس ، وترحيلهم إلى الجزائر ، فأصبح عدد هؤلاء يتكاثر يوما بعد يوم خاصة بعد أن حملهم عروج وخير الدين إلى الجزائر بعد الحملات الجهادية التي قاما بها في حوض البحر المتوسط ، كما كانوا لهم عونا في القضاء على الحكام المتعاونين مع الإسبان " إذ وقفوا بجانبهما في محاربة بقايا الإدارة الحفصية ، وناصروهما ضد الزعماء المحليين مثل سالم التومي* شيخ الجزائر وأحمد ابن القاضي أمير كوكو* ، وكثير من الكتاب يؤكدون على أن الأندلسيين قد أغنوا مدينة الجزائر بكفاءتهم ومهاراتهم " [1] .

ولتأكيد موقف الأندلسيين من الدولة العثمانية ، والثقة التي وضعها أهالي غرناطة في حكامها ما بينته الرسالة التي توجهوا بها إلى السلطان سليمان القانوني ، يطلبون فيها الغوث من جهة ، ومواصلة الدفاع عن الجزائر من جهة أخرى من بطش شارلكان حيث جاء في

---

* زعيم الأعراب القاطنين بسهل متيجة ، من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من معقل ، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الإسبانيون بجاية ، واستقر فيها عدة سنوات ، إلى أن أتى بربروس وقتله . أنظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 34 .

* إمارة كوكو تقع في الجبال المتصلة بالأطلس الكبير ، وهي نسبة إلى مدينة واقعة في الجبل المسمى كوكو ، والذي يتميز بعلوه ووعورته ، إذ يبعد عن مدينة الجزائر بثمانية عشر فرسخا (حوالي 144 كلم) من جهة الشرق ، كما تبعد عن بجاية المدينة بخمسة عشر فرسخا (حوالي 120 كلم) أنظر : بومولة نبيل ، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني إمارة المقرانيين في القرن 10 هـ / 16 م ، دار هومه ، د . ط ، الجزائر ، 2013 م ، ص : 119 . 120 .

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي والموريسكي ، ص : 51 .

رسالتهم ما نصها : " ... واتفق رأيهم المعكوس ، وتدبيرهم المنكوس على قتال الجزائر لألا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر ، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف ، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام ... يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله ، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج أهل الإسلام ، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان ، وهي موسومة باسمكم الشريف ، وتحت إيالة مقامكم المنيف .. وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام ... بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا إلى الجزائر فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك من خايف وحاير ."[1].

ومن خلال هذه الرسالة يتبين أن جهود خير الدين في إنقاذ مسلمي الأندلس قد آتت أكلها في تعزيز ثقة هؤلاء بالعثمانيين ، وجعلهم الملاذ الوحيد لإنقاذ الأمة الإسلامية من خطر الهجمة الصليبية الحاقدة ، ولهذا " ناشد الأندلسيون في نهاية رسالتهم السلطان سليمان القانوني الدفاع والمحافظة على الجزائر لأنها " سياج لأهل الإسلام " ، وتثبيت خير الدين بربوس في الجزائر لأن وجوده يرهب الأعداء ، ويساعد في إنقاذ المسلمين الأبرياء " [2] .

ولعل اهتمام الأندلسيين بالعثمانيين ، واستصراخهم لهم لدليل على الدور الذي قاموا به في نصرة الأندلسيين ، فكانوا يرون أن دعم الحكم العثماني في الجزائر من شأنه أن يعيد

[1] . عبد اللطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية ، ص : 80 . 81 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 81 .

لهم الأندلس ، حيث بينت الرسالة السابقة اليأس الذي لحق بنفوس الأندلسيين من حكام بلاد المغرب وسكانها بسبب الظروف العصيبة التي كانت تمر بها المنطقة بدليل قولهم : " ... وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان " [1]، ومن هنا يتبين أن الدور الذي لعبه الأندلسيون في مد يد العون للأتراك في حوض البحر المتوسط كان كبيرا ، لأنه في نظرهم يخدم مصلحة البلاد ، ويعيد لهم الأندلس المفقود .

وعليه فإن الأندلسيين استعملوا كمدافعين وجنود في رد كيد الأعداء ، فاستغلت الدولة العثمانية ما امتازوا به من قدراتهم الدفاعية ، والخبرة التي اكتسبوها من الصراع القائم بينهم وبين الإسبان في الأندلس ، مما مكنهم من تنشيط الجهاد وتوسيع دائرته " إذ عمل الموريسكيون على تنشيط حركة الجهاد البحري ، والهجوم المتواصل ضد السواحل الإسبانية بواسطة الأسطول البحري الجزائري ، لمعرفتهم الجيدة للغة القشتالية (الإسبانية) ، وللأماكن الجغرافية والطرق البحرية ، وترجع المساهمة الأندلسية في ميدان الجهاد البحري إلى مجالات تجهيز السفن والمعدات ، وهذا من أجل إنقاذ من بقي من المسلمين في الأندلس " [2].

وفي مقابل هذا الدعم نجد أن بعض المهاجرين الأندلسيين كانوا رافضين للحكم التركي في الجزائر ، وعملوا على الإطاحة به ، كذلك أن هؤلاء " المهاجرين الأندلسيين الذين

---

[1] . عبد اللطيف بن محمد الحميد ، المرجع السابق ، ص : 79 .

[2] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي والموريسكي ، ص : 53 .

استقروا في مدينة الجزائر بالأجرة لدى الأتراك تظاهروا بالنفاق لاعتقادهم بأن عروج ورفاقه لم يحققوا لهم ما يصبون إليه ، فانقلبوا عليهم لأن مصلحتهم الذاتية غدت مهددة بالخطر والدمار بسبب وجود الأتراك ، فاندفعوا بشراهة للاتفاق مع الأعداء ضد إخوتهم في الدين " [1].

ولكن هذه الفئة لم تكن كبيرة مقارنة مع العدد الكبير من الأندلسيين الذين أنقذهم الأتراك العثمانيون ، وقاموا بنقلهم إلى السواحل الجزائرية ، وعليه فإنهم عرفوا قدر هذا الجميل ، فعملوا على تقديم المكافأة لهم من خلال دعم وتعزيز وجودهم بالمنطقة ، والعمل معهم في العمليات الجهادية التي كانوا يقودونها ، فكانوا أداة لدعم الوجود التركي بالجزائر .

3 . ممارسة الأندلسيين للوظائف السياسية في بلاد المغرب الأوسط :

لم يبق المهاجرون الأندلسيون مجرد رعايا في بلاد المغرب الأوسط ، أو غرباء لا توكل إليهم المهام والوظائف السياسية ، ولم يكونوا عالة على المجتمع المغربي لسرعة اندماجهم مع أهالي المنطقة ، لتقاربهم من حيث اللغة والعقيدة والثقافة ، التي جمعهم عليها الإسلام ، ووحدت صفوفهم اللغة ، وإن كانوا قد وجدناهم دروعا بشرية فدوا أنفسهم في حراسة الثغور ، فكان لهم شرف الجهاد لأنهم تربوا على هذا الأصل في الأندلس نتيجة

[1] . سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ص : 52 .

الصراع الديني القائم بين المسيحية والإسلام لسنين طويلة ، أعطتهم تجربة في القتال والدفاع عن النفس والأرض.

كما كان للأسرة الخلدونية[1] أثر سياسي واضح في المغرب الأوسط ، ومن بين أهم تلك الشخصيات التي تركت بصماتها السياسية في المنطقة نجد شخصية عبد الرحمن ابن خلدون[*] ، الذي نال مكانة سياسية مرموقة سواء عند الحفصيين أو المرينيين ، ومن بين أعماله السياسية أنه يتولى منصب الحجابة في بجاية ، " ولما قصدها راجعا من الأندلس في سنة 766 هـ / 1365 م ، كان أخوه يحي بن خلدون في هذه الفترة يعمل حافظا للرسوم لدى صاحب بجاية بأمر وإشارة من السلطان أبي سالم قبل وفاته ، كما أن عبد الرحمن ابن

[1] . يعود وجود الأسرة الخلدونية الأندلسية في المغرب إلى الصراع القائم بين بني هود وبني الأحمر ، وكذا خشية بني خلدون عاقبة هذه السياسة ، وتخوفهم من أن يقوم الطاغية النصراني بغزو إشبيلية ، فهاجروا إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وحصل ما كانوا يتوقعونه ، فاحتل الطاغية مدن قرطبة وإشبيلية وقرمونة وجيان وما إليها في ظرف عشرين عاما . ينظر : آثار الدكتور يحي بوعزيز ، ص : 147 .

[*] أنظر ترجمته في : صديق بن حسن النجاري القنوجي ،التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر و الأول ، مكتبة دار السلام ، ط: 1 ، الرياض : 1995م ، ص359 . وابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر، تحقيق حسني حبشي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، د . ط ، القاهرة ، 1389هـ ، ج : 1 ، ص : 322 . وأبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، تقديم : محمد رؤوف القاسمي الحسني ، موفم للنشر . ط : 1991م ، ج : 2 ، ص: 27 . و انظر : السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ج :2 ص :145 . وابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون ، دار المطبعة الأميرية ، د . ط ، القاهرة : 1957م ، ص: 343 .

خلدون ساعد الأمير أبا عبد الله على استعادة إمارته بجاية ، وتعهد له بأن يسند له وظيفة الحجابة "[1] .

أما في الجانب العسكري ، فقد استعملت الدولة الزيانية الأندلسيين المهاجرين في فرق الجيش المختلفة ، واستفادت منهم في الأحداث العسكرية التي شهدتها البلاد في تلك الفترات من تاريخها و " عمل بعض الأندلسيين في صفوف الجيش الزياني كجنود وضباط في الفرق العسكرية ، فقد استعمل منهم أبو يحي يغمراسن إبراهيم الآبلي وأخاه أحمد في سلك الجندية، حتى صار إبراهيم قائدا عاما لمدينة هنين " [2].

هذا على المستوى الإيجابي ، أما عن تأثيراتها السلبية في ممارساتها السياسية في بلاد المغرب الأوسط ما نقلته من طبائعها التي كانت عاملا في سقوط الأندلس ، وخاصة ما يتعلق بالدسائس السياسية ، والمبالغة في الترف ، والرذوخ إلى أصناف البذخ ، وصرف الأموال ، والابتعاد عن التقشف الذي هو أساس الملك ، وتجنيد النفس للجهاد في سبيل الدفاع عن مقدسات الدول وممتلكاتها ، ذلك أن الأندلسيين الذين كانت لهم منزلة سياسية وإدارية مرموقة ، وخاصة في البلاط الزياني كانت لهم أعمال ودسائس مست استقرار الدولة في ذلك الوقت ، " فأصبحت تمثل مركز القوة في البلاط الزياني ، تثير أحيانا بعض الدسائس ، وتقاوم معارضيها بمختلف الوسائل للاحتفاظ بالنفوذ والامتيازات السلطانية ،

[1] . آثار الدكتور يحي بوعزيز ، ص : 161 . 162 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص : 179 .

ولعلهم كانوا يحاولون فرض نوع من الوصاية السياسية والحضارية على أهل تلمسان كما فعلوا مع أهل تونس ، وقد بلغ نفوذهم الإداري والسياسي مبلغا جعل بعض شيوخ بني زيان ، وبعض علماء تلمسان يضيقون بهم درعا ، وخاصة في عهد الأمير عبد الواحد بن أبي عبد الله 814 . 827 هـ / 1411 . 1424 م الذي طالت مدته نسبيا وساءت سمعته " [1] .

أما عن مدن المغرب الأوسط الأخرى التي كانت تابعة أحيانا للدولة الحفصية مثل بجاية وقسنطينة والجزائر ، فقد كانت تعج بالوافدين من بلاد الأندلس ، سواء قبل سقوط غرناطة أو بعد سقوطها ، وقد كان لهذه الجالية أثر على الجانب السياسي بتقلدها للعديد من الوظائف السياسية ، وأخص بالذكر مدينة بجاية التي كانت قبلة للمهاجرين الأندلسيين من شرق الأندلس وغربها ، فالأمير الحفصي أبو زكريا قد عمل على توظيف هؤلاء الأندلسيين ، وإدخالهم في المعترك السياسي بالمنطقة ، " فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة ، ونزل بجاية ، وظاهر بها تونس ، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته ، وفوض إليه فيما وراء بابه ، وأجراه في رئاسته على سنن ابن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذي كانوا يتلقنون طرقه ، وينزعون إلى مراميه، بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه ، كما كان ابن أبي الحسين مزاحما بهم " [2] .

[1] . عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص : 178 .

[2] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 32 .

وقد كانت لهذا الأندلسي حظوة في بجاية ، وصار له أمر ونهي فيها , وتفانى في أداء مهامه السياسية على أكمل وجه " فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية ، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام ، وصار إلى الحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وتمكن في يده الزمام إلى أن هلك سنة 690 هـ أعظم ما كان رئاسة وأقرب من صاحبه مكانا وسرا "[1].

وتعتبر هذه الشخصية من بين الشخصيات الهامة التي كان لها تأثير سياسي على الأحداث السياسية والعسكرية في مدينة بجاية ، و كانت السلطنة الحفصية تحاول دائما إخضاعها ، وضمها إلى حدودها الجغرافية ، وقد جرت بعض الأحداث في فترة استقرار ابن سيد الناس في بجاية ، وكانت له مشاركة في تلك الأحداث ، إذ ساعدت هذه الشخصية الأمير أبا حفص في خلاصه من أحد أعدائه ، حيث يذكر ابن خلدون في كتابه العبر " أن الأمير أبا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي* بمرماجنة ، فخلص من المعركة راجلا ، ونجا إلى قلعة سنان معقل هوارة القريب من مكان الملحمة ، ولاذ به في ذهابه إلى منجاته ثلاثة من صنائعهم : أبو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس ، ومحمد بن القاسم بن إدريس

---

[1] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 33 .

* الدعي : هو أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة ، نشأ ببجاية ، كان وسيما محترفا بصناعة الخياطة غرا غمرا ، وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك ، وكان هو يخط فيوريه خطه ذلك ، ثم اغترب عن بلده، ولحق بصحراء سجلماسة ، واختط بعرب المعقل ، وانتمى إلى أهل البيت ، وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار ، وإنه يخيل المعادن إلى الذهب بالصناعة ، فاشتملوا عليه وحدثوا بشأنه أياما . أنظر في المزيد عن أخباره في : ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 141 وما بعدها .

الفازازي ، ومحمد بن أبي بكر بن خلدون وهو جد المؤلف الأقرب ، ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس ، وشاع خبر منجاته إليها " [1] .

ويذكر في موضع آخر وصول هذه الشخصية الأندلسية إلى منصب سياسي هام ألا وهو منصب الحجابة حيث يقول في حديثه عن استيلاء الأمير أبي زكريا على الثغر المغربي بجاية والجزائر وقسنطينة : " ... وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين ، واستحثوا الأمير أبا زكريا فأعد السير إليهم ، ودخلها سنة أربع وثمانين وستمائة ، ويقال إن ملكه ببجاية كان سابقا على ملكه بقسنطينة ، وهو الأصح فيما سمعناه من شيوخنا ، وبعث إليهم أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القريبة ، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله ، وأغفل ذكر أمير المؤمنين أدبا مع عمه الخليفة بالحضرة ، ونصب للحجابة أبا الحسين بن سيد الناس فقام بها "[2] .

وفي حديث آخر قوله : " عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته ، وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رياسته على سنن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذي كانوا يتلقنون طرقه ، وينزعون إلى مراميه ، بل كانت رياسة هذا في حجابته أبلغ من رياسة بن أبي الحسين لجلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه ، كما كان ابن أبي الحسين مزاحما بهم ، فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية ،

---

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 445 .

[2] . المصدر نفسه ، ج : 6 ، ص : 449 .

وقام بأمر مخدومه أحسن قيام ، وصار إلى الحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وتمكن في يده الزمام إلى أن هلك سنة تسعين وستمائة " [1].

ومن هنا نستنتج الدور الفعال الذي لعبته هذه الأسرة الأندلسية في البلاط الحفصي ، بوصولها لمنصب سياسي هام ، استطاعت من خلاله أن تفرض وجودها ، نظرا لثقة هؤلاء الحفصيين بالجالية الأندلسية من جهة ، والروابط التي كانت تربط بين الدولة الحفصية والأندلس من جهة أخرى .

ولم يكن أبو الحسين الشخصية الأندلسية الوحيدة الوافدة إلى بجاية في عهد الحفصيين ، والتي كان لها مكان سياسي في المدينة ، بل قد خلفه أندلسيون آخرون شاركوا مثله في الوظائف السياسية والحكومية ، إذ خلف ببجاية أبا الحسين أندلسي آخر هو أبو القاسم بن أبي حي الذي تمتع بنفس النفوذ ، ودخل في سعايات ومغامرات عديدة ، وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الشخصية عند حديثه عن وفاة ابن سيد الناس السابق حيث يقول : " فأقام الأمير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حي ، ولا أدري من أوليته أكثر من أنه من جالية الأندلس" [2] ، وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا ، وهو محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس ، الذي لعب دورا هاما في سياسة عصر ولي الحجابة " [3] .

---

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 452 .

[2] . المصدر نفسه ، ج : 6 ، ص : 452 .

[3] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 33 .

ووفد إلى بجاية كذلك شخصيات أخرى كانت تلعب دورا سياسيا في المنطقة ، ومنهم أبو عبد الرحمن يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي الذي قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية ، وولي أبو عبد الرحمن بن عمر الحجابة ببجاية ، واستبد بها سنة 715 هـ . 1315 م مقتصرا على ذكر السلطان في الخطبة ، واسمه في السكة إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719 هـ نوفمبر 1319 م [1] ، ولا يعلم تاريخ محدد لتاريخ أسرة ابن عمر ، " إذ يبدو أن أهل شاطبة وبلنسية بعد سقوطهما في يد الإسبان النصارى نزحوا إلى إحدى مدن الأندلس المستقرة نسبيا ، وبعد اضطراب الأمور أكثر نزحوا إلى العدوة المغربية ، وبشكل أكبر نحو إفريقية الحفصية ، وأول الداخلين إلى تونس هو محمد بن غمر قاضي شاطبة أيام السلطان أبي عصيدة (694 . 709 هـ) ، أما ابنيه : أبو بكر ومحمد فقد انتقلا إلى قسنطينة وهي يومئذ تابعة لبجاية ونزلا على ابن أوقيان عاملها من مشيخة الموحدين ، ولكونهما من النخبة فقد أوسعهما الوالي تكريما وعناية تليق بمقامهما ، واستعملهما في خدمة البلاط ، فولي منهما أبا بكر بن محمد بن غمر ديوان البحر في القل " [2].

---

[1] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 33 .

[2] . رفيق خليفي ، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن الثالث إلى نهاية القرن التاسع هجري ، إشراف : د . نجيب بن خيرة ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، 2007 . 2008 م ، ص : 292 . 293 . ومنصب ديوان البحر مؤسسة شاملة تشرف على الميناء إداريا وماليا ، ومتوليه يسمى صاحب الديوان أو ناظر الديوان ، ومهمته جباية الضرائب ، ومراقبة حركة البيع والشراء والشحن والتفريغ ، ويشرف كذلك على موظفي الديوان وأعوانه . أنظر هذا التعريف في : رفيق خليفي ، المرجع نفسه ، ص : 293 .

ويذكر لنا ابن خلدون في كتابه العبر تفصيلا عن هذه الأحداث ، ويشير إلى أن هذه الأسرة الأندلسية كان لها تأثير على الجانب السياسي في مدينتي بجاية وقسنطينة ، إذ كان لابن غمر دورا بارزا لما كان حاجبا للسلطان حيث يقول : " طلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسنطينة فعقد له وولي عليها ابن عمه الحجابة بتونس نائبا عنه وفصل من الحضرة ولحق بقسنطينة ، وصرف منصور ابن فضل إلى عمله بالزاب ، فكان من خلافه ما يذكر ، وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته ، ثم داخله في الانتقاض على أخيه ، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء ، وأحس علي بن الغمر بارتيابه فلحق بقسنطينة " [1] .

كما كانت لهذه الأسرة مظاهر استبداد بالحكم خاصة بعد الوظائف الحكومية التي وصلت إليها كالحجابة ، وهو من أرقى الوظائف الحكومية* كما يذكر ابن خلدون حيث يقول : " لما قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابته وكفالته كما كان " [2]، ويقول في موضع آخر : " لم

---

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 471 . 472 .

* إذ كانت الحجابة في بعض الأحيان ، وخاصة في عهد الدولة المرابطية والموحدية معناها رياسة الوزراء ، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الوزارة معناها الحجابة في دولة الموحدين حيث يقول في مقدمته : " ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولا للبداوة ، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب ، وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين ، وقلدوها في مذاهب السلطان ، واختاروا اسم الوزير لمن يجب السلطان في مجلسه ، ويقف بالوفود ، والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم ، والآداب التي تلزم من الكون بين يديه " . أنظر : حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس (عصر المرابطين والموحدين) ، مكتبة الخنانجي ، ط : 1 ، مصر ، 1980 م ، ص : 101 .

[2] . ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج : 6 ، ص : 476 .

يزل ابن غمر مستبدا على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده ، وأمر متوقف على إنفاذه ، وصار يغريه ببطانته يقتلهم ويغرمهم ، وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه، وداخله بعض أهل قسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك ، ولم يتم ففطن لها ابن غمر ، فأوقع بهم ، وقسمهم بين النكال والعذاب فرقا ، ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لما أهمهم من حصاره ، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده " [1].

وكان للأندلسيين الذين استطاعوا أن يصلوا إلى مراتب عليا في المغرب الأوسط دور في تقديم أهلهم لبعض المهام السياسية ، مما يبين عصبية بعض هؤلاء لأهل بلدتهم ، فكانوا يحبون توظيف أقاربهم من الأندلسيين ومنهم أبو الحسين بن سيد الناس الذي قدم محمد بن فرحون لمهمة الحجابة بالنيابة عنه ، إذ يقول في ذلك ابن خلدون : " أقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم ، واستقدم خالصته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسن ابن سيد الناس ، فقدم في محرم فاتح ثمان وعشرين وسبعمائة وولاه حجابته فاضطلع بها ، وجدد له العقد على بجاية وحجابة ابنه بها ، فدفع إليها للنيابة عنه

[1]. ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 478 .

في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون "[1] ، وفي موضع آخر قوله : " لما استبد سيد الناس بحجابة الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون " [2].

وممن اشتغلوا بهذا المنصب أيضا يحي بن محمد بن المنت الحضرمي الأندلسي بعد عزل أبي القاسم بن علناس من طبقة الكتاب وقد " كان أبوه وعمه قدما على جالية الأندلس ، وكانا ينتحلان القراءات ، وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علم القراءات ، وكان خطيبا بجامع السلطان ، ونشأ على ابن أخيه ، واستعمل في الديوان ، وكان طموحا للرياسة واتصل بحظية كانت للمولى أبي زكريا تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه ، فرسمت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة ، واستعمله فيها ، فقام بها ، وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره ، وجهز له العساكر وجال في نواحي أعماله " [3] .

وبهذا نلاحظ أن مدينة بجاية كانت تحظى بحضور أندلسي شارك في الميدان السياسي ، وذلك بالوصول إلى أرقى الوظائف السياسية .

كما كانت تلمسان مركزا للنشاط السياسي للجالية الأندلسية ، إذ أوضحت الأستاذة راشيل أربي أن أربعة من وزراء الأمير الزياني كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلة بن الملاح من قرطبة) ، وأن أكبر أمير زياني (أبو حمو موسى الثاني) كان ذا ثقافة أندلسية ، وأنه

---

[1]. ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ج : 6 ، ص : 493 . 494 .

[2] . المصدر نفسه ، ج : 6 ، ص : 515 .

[3] . المصدر نفسه ، ص : 516 .

كان يختار مساعديه الرئيسيين من أفراد حاشيته الأندلسية ، وذكرت في هذا المجال يحي بن خلدون من أصل إشبيلي ، ومحمد يوسف القيسي الأندلسي الذي خلد الأحداث الكبرى التي شهدها عصر الأمير الزياني [1] ، وقد كانت لعائلة بني الملاح في البلاط الزياني نفوذ كبير في الدولة الزيانية ، وتقلدوا العديد من الوظائف السياسية فيها ، ففي عهد السلطان أبي حمو موسى الأول (707 . 718 هـ) " ألقى إليهم مقاليد الوزارة والحجابة لثقته بهم ، وأمانتهم التي عرفوا بها منذ كانوا في قرطبة " ، وهي المرة الأولى التي يتولى فيها بيت أندلسي أعلى منصب في جهاز الحكم الزياني وأرفعه ، إذ يأتي بعد منصب السلطان مباشرة من حيث الأهمية والمكانة ، بعد أن كانت الوزارة حكرا على البيت الزياني وأبناء القبيلة الأصلية في تلمسان " [2] . وعليه كان لهؤلاء المهاجرين أثر بالغ على المستوى السياسي والإداري خاصة في العهد الزياني ، الذي عرف موجة هجرة واسعة إلى المنطقة ، فقد كان للأندلسيين وظائف سياسية هامة في الحكم إذ " تواصلت خدمتهم في البلاط الزياني مع عثمان بن يغمراسن (681 . 703 هـ / 1281 . 1303 م) ، وابنه أبي حمو موسى الأول (707 . 718 هـ / 1307 . 1318 م) الذي كان لهم في دولته مزيد من العناية والحظوة ، فولى الوزارة والحجابة ميمون بن ملاح ، ثم ابنه الأشقر من بعده ، وعين ابنه إبراهيم بن محمد على نفس الخطة بعدهما ، واشترك معه في الوظيفة قريبه علي بن عبد الله بن ملاح ، وظلت هذه الأسرة تختص بالمناصب الإدارية السامية إلى أن نكبهم أبو تاشفين الأول بن

[1] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 53 .

[2] . رفيق خليفي ، البيوتات الأندلسية ، ص : 185 .

حمو الأول ، عندما ثار على أبيه ، وقتله مع خاصته وخلصائه من بني ملاح بالدار البيضاء في تلمسان سنة 718 هـ / 1318 م ، فالجالية الأندلسية تركت بصماتها في المجتمع التلمساني ، ونجحت في مهامها الإدارية والسياسية في البلاط الزياني على مر السنين ، حتى ظهرت منهم طبقة سياسية متميزة ولاسيما في النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي " [1] .

وبهذا تمكن العديد من المهاجرين الأندلسيين الوصول إلى أعلى المراتب الحكومية " فمرتبة الوزير من أهم الوظائف والمراتب في المغرب الإسلامي عامة ، ودولة بني عبد الواد خاصة لما تشمله من معاني الشرف والسؤدد ، والوزير في دولة بني عبد الواد هو صاحب أسمى مرتبة في جهاز الحكم بعد السلطان ، ويمكن اعتباره في هذه الحالة بمثابة نائب السلطان في شؤون الحكم والحرب ، ففي بداية العهد كانت مهام الوزير مركزة على تسيير إدارة الدولة، إذ كانت أمور الحرب من مهمات السلطان نفسه ، أما في عهد أبي حمو موسى الثاني فقد تغير الأمر ، إذ أصبح الوزير بمثابة قائد للجيش " [2] ، وبهذا كانت وظيفة أسرة

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ص : 178 . 179 .

[2] . بوزياني الدراجي ، نظام الحكم في دولة بني عبد الواد ، ص : 114 . 115 . 116 .

بني الملاح * ذات أهمية كبرى في الدولة العبد وادية وتوارثت هذه الأسرة وظيفة الوزارة بين أبنائها في عهد أبي حمو الأول ، وهم :

1 . محمد بن ميمون بن الملاح : تولى وزارة أبي حمو الأول وحجابته معا ، وهو من رجال المال والأعمال الذين قدموا من قرطبة ، واستقروا بتلمسان .

2 . محمد الأشقر بن محمد بن ميمون بن الملاح ، وهو ولد الوزير السابق ، تولى هو الآخر وزارة وحجابة* السلطان أبي حمو الأول .

3 . إبراهيم بن محمد بن ميمون الملاح : وهو حفيد أول وزير للسلطان أبي حمو .

4 . علي بن عبد الله بن الملاح ، وهو عم إبراهيم [1].

ومن بين الأسر الأندلسية الوافدة إلى تلمسان عائلة الآبلي إذ عدت بعض أسماء رجالها في مناصب عليا في الدولة العبد وادية ، ومن بين القادة الذين وظفوا في الجانب العسكري "

---

* قدمت هذه العائلة من قرطبة بالأندلس ، حيث كانوا يعملون في السكة (طباعة الدنانير والدراهم) ، ويعتقد عبد الرحمن بن خلدون أنهم كلفوا بالمهام المالية لبعض السجايا التي يتحلون بها ، ويقول بأنهم قدموا إلى تلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى أي السكة . ينظر : المرجع نفسه ، ص : 116 .

* الحجابة : يذكر ابن خلدون في هذا الصدد في تعريفه لمنصب الحجابة فيذكر أن دولة بني عبد الواد لا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ، ولا تتميز الخطط لبداوة دولتها وقصورها ، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره ، كما كان في دولة بني أبي حفص ، وقد يجمعون له الحساب والسجل ، كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها ، وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم ، أنظر : ابن خلدون : المقدمة ، ص : 340.

[1] . المصدر نفسه ، ص : 125 .

إبراهيم الآبلي والد العلامة محمد الآبلي قائد على جيش الدولة بهنين في عهد عثمان بن يغمراسن[1] .

وممن حظوا بوظائف عسكرية ، وخاصة منها الجندية في تلمسان أسرة الآبلي التي نزحت إليها في أوقات مبكرة ، وترعرعت في أوساط هذه المدينة ، وأنجبت العديد من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي ، فقد اشتغل أعلام البيت الآبلي لمدة طويلة بالجندية ، كما دلت عبارة يحي بن خلدون ، لكن تأخر ظهورهم إلى بداية القرن السابع ، ولا نعلم تحديدا أي الرتب التي حازوها في الجيش الموحدي الزياني ، هل الجندية البسيطة أم قيادة الفيالق والفرق ؟ فأول ظهور لهم كان مع الأخوين إبراهيم وأحمد بن علي (أو أحمد) في زمن السلطان الزياني يغمراسن سنة 633 . 681 هـ استعملها في جنده لما اشتهر به أهل آبلة من الفروسية والشجاعة ، وأظهر كفاءة رشح إبراهيم منها لتولي قيادة هنين مكانة إبراهيم الآبلي كقائد لهنين مكنته من أن يكسب خطوة لدى أعيان تلمسان وكبرائها " [2] .

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 268 .

[2] . رفيق خليفي ، البيوتات الأندلسية ، ص : 189 .

الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية والاقتصادية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط

المبحث الأول : آثار سقوط الأندلس على الحياة الاجتماعية

المبحث الثاني : تأثير سقوط الأندلس على الحياة الاقتصادية

<u>الفصل الثالث : الآثار الاجتماعية والاقتصادية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط</u>

لم يكن سقوط الأندلس ذا تأثير على الحياة السياسية والعسكرية فحسب ، بفعل استمرار الهجمات المضادة ، والتوسعات الأوروبية على حساب الأراضي المغربية ، بل تعدى تأثير سقوطها ليشمل ميادين أخرى لا تقل أهمية عن الجانب السياسي والعسكري ، إذ كانت لهجرة الأندلسيين إلى دول المغرب تغيير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة ، وكان لبلاد المغرب الأوسط حظ أوفر من هذا التأثير ، إذ ساهمت الجالية الأندلسية بمختلف طوائفها الاجتماعية مساهمة فعالة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية بفعل خبرتها في هذين المجالين ، فالتطور الذي شهدته بلاد الأندلس قد انتقل بفعل هذه الجالية إلى بلاد المغرب الأوسط لأنهم كانوا يكونون عناصر سكانية نشيطة وفعالة في بناء أرقى الحضارات التي عرفتها الأمة الإسلامية على مر العصور ، وسأبين في هذا الفصل هذا التأثير الذي مس جميع الأنشطة الاقتصادية ، وكان الأندلسيون أداة لتطويرها بما جلبته خبرة أيديهم وثروتهم التي انتقلوا بها إلى بلاد المغرب .

وإن كان للمهاجرين الأندلسيين دور في هذين المجالين على المستوى الإيجابي ، فقد كان للاحتلال الإسباني دور سلبي ، أثر تأثير وجوده في المنطقة على تراجع الاقتصاد المحلي .

المبحث الأول : آثار سقوط الأندلس على الحياة الاجتماعية :

لقد تكونت عناصر المجتمع الأندلسي من طوائف اجتماعية مختلفة بسبب الهجرات الاجتماعية للمنطقة وخاصة في عهد التواجد الإسلامي بها ، فلما سقطت في أيدي الإسبان انتقلت الحضارة الأندلسية إلى بلاد المغرب ، فأثرت في مختلف المجالات وأصبح المجتمع المغربي تكسوه عادات وتقاليد أندلسية ، كما انتقلت إليه طوائف اجتماعية أخرى ذات ديانات مختلفة كاليهود والنصارى ، وقد لعبت الجالية الأندلسية بمختلف طوائفها الاجتماعية والإسلامية في تغيير الأوضاع الاجتماعية في بلاد المغرب الأوسط بمختلف أبعاده ، سواء ما تعلق منها بالاكتظاظ السكاني الذي عرفته أغلب المدن الجزائرية ، وخاصة المدن الساحلية ، أو ما ارتبط بممارسة هذه الجالية للعديد من الحرف والمهن ، وفرض بعض العادات والتقاليد التي لم تكن معروفة من ذي قبل خاصة في العهد العثماني ، وسنحاول أن نبين في هذا الفصل أهم أوجه التغيير التي حدثت في هذه المنطقة بسبب دخول هذه الجالية الأندلسية الوافدة ، وأبرز نشاطاتها الاجتماعية ، وكذا مراكز تواجدها ، وأهم العادات والتقاليد التي عرفها المجتمع المغربي عن طريق العلاقة القائمة بين السكان المحليين والأندلسيين المهاجرين ، بفعل الروابط الدينية المشتركة .

1 . أهم الجاليات الأندلسية الوافدة إلى بلاد المغرب الأوسط :

لجأ إلى بلاد المغرب الأوسط الأندلسيون بكل طوائفهم سواء ما اختلف منهم في الدين كاليهود والمسلمين والنصارى ، أو ما اختلف في الأصل كالعرب والبربر ، وبالتالي عرف المغرب الأوسط هذه الهجرة بكل اختلافاتها في العرق والعقيدة .

1 . 1 . العرب المسلمون الأندلسيون الوافدون إلى بلاد المغرب الأوسط :

1 . 1 . 1 . مراحل الهجرة الأندلسية :

مرت الهجرة الأندلسية من شبه الجزيرة الأيبيرية إلى نواحي متفرقة من العالم الإسلامي بالعديد من المراحل ، وقد ذكرت في الفصل التمهيدي من هذا البحث أبعاد العلاقة بين العدوتين المغربية والأندلسية خلال المراحل التاريخية التي مر بها الوجود العربي في الأندلس ، ولكن نظرا للصراع الإسلامي مع إسبانيا الكاثوليكية لسنوات طويلة انتقل العديد من المسلمين إلى بلاد المغرب ، وقد كانت هذه الهجرة في ثلاث مراحل : أولها الهجرة الاختيارية التي هاجر فيها المسلمون إلى المغرب خاصة بعد سقوط المدن الإسلامية الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، أما المرحلة الثانية من الهجرة فقد كانت بسبب سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492 م ، وهي آخر معقل للوجود العربي بالمنطقة ، يليها بعد ذلك مرحلة من أصعب الفترات التاريخية التي عاشها المسلمون

في الأندلس ، والتي جاءت عقب مرسوم طرد العرب المسلمين من الأندلس سنة 1609 م ، وهو ما يعرف بالهجرة الإجبارية .

أ . الهجرة الاختيارية :

يعتبر الوجود العربي الأندلسي في المغرب الأوسط ذا جذور تاريخية بالغة في القدم ، قدم العلاقات السياسية القائمة بين العدوتين ، ففي عهد الدولة الرستمية التي تعتبر أولى الكيانات السياسية المستقلة عن الخلافة العباسية ، كان هناك اتصال وثيق بين الدولتين رغم اختلاف المذهب فقها وعقيدة ، إذ كانت الدولة الرستمية على المذهب الإباضي الذي لا يعترف به الأمويون في الأندلس ، ولكن نظرا للمصير المشترك ، والعداء للدولة العباسية فقد كانت هناك رحلات من الأندلس إلى المغرب ومن المغرب إلى الأندلس ، لدرجة أن بعض الأندلسيين أوشك أن يصل إلى سدة الحكم مثل مسعود الأندلسي حيث يذكر الدرجيني ذلك بقوله : " لما حضرت الوفاة عبد الرحمن بن رستم جعل الإمامة شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحدهم مسعود الأندلسي ، وكان فاضلا ورعا من شيوخ المسلمين " [1] .

[1] . الدرجيني ، طبقات المشايخ ، ج : 1 ، ص : 46 .

وقد كان للأندلسيين في هذه الفترة دور بارز في الجانب المعماري والاقتصادي ، حتى أن مدينة تيهرت سمي أحد أبوابها بباب الأندلس [1] ، كما أن حضور الأندلسيين كان واضحا خلال القرن الثالث الهجري ، وشاركوا في العديد من الأعمال التي خلدت وجودهم في المناطق التي استقروا بها في المغرب الأوسط ، فالعلاقة بين أموي الأندلس والرستميين لم تقف عند العلاقات السياسة فقط " بل تعدت ذلك إلى الميدان التجاري ، فقد كانت السفن التجارية تتردد بين الموانئ المغربية والأندلسية مثل ميناء فروخ ومثل مرسى الجزيرة الخضراء وبجاية وشاطبة وغيرها من الموانئ الأندلسية الممتدة على الساحل الجنوبي والجنوب الشرقي في ذلك الوقت محملة بالمتاجر وبالعلماء والمسافرين "[2] ، كما ساهم الأندلسيون بخبراتهم في مجال البناء والتعمير بإنشاء بعض المدن الهامة على ساحل البحر المتوسط ، " حيث قام البحارة الأندلسيون بإنشاء المدن والثغور على طول ساحل المغرب الأوسط ، وشكلوا جماعات هامة من سكانه ، وكان من بين هؤلاء من يسكن مرسى الدجاج ومدينة تنس ، حيث ذكر البكري أن البحريين من أهل الأندلس قد ساهموا في تشييد وبناء تنس لدليل على أنهم لعبوا دورا رئيسيا في عمليات التبادل التجاري بين المغرب الأوسط والأندلس " [3] . وقد كانت تنس من أهم الحواضر في بلاد المغرب الأوسط التي ربطت هذه المنطقة بالأندلس رباطا حضاريا إذ " أصبحت محطة تجارية هامة تختلف إليها السفن الأندلسية في فصل

---

[1] . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج : 2 ، ص : 8 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، ص : 100 .

[3] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 8 . 9 .

الشتاء ، ثم تعود منها في فصل الصيف ، وكان يسكنها فريقان من أهل البيرة وأهل تدمير من الأندلس "[1] .

ومما يؤكد أهمية الهجرة الاختيارية ودورها في المغرب الأوسط ما قام به الأندلسيون في الغرب الجزائري ، فكانت وهران أهم عمل معماري في بلاد المغرب ساهم في تأسيسه الأندلسيون ، إذ أشارت بعض الروايات إلى فضل الأندلسيين في تأسيسها حيث يذكر الزياني نقلا عن البكري أنه " اتفق على بنائها محمد أبي سحنون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران " [2].

ولم تكن تيهرت ووهران المدينتين الوحيدتين اللتين ساهم الأندلسيون ببنائهما وتعميرهما " فقد شيدوا المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري ، وأرزيو التي اشتهرت بتجارها الأندلسيين الذين كانوا يصدرون ملح سباخها إلى الأندلس " [3].

ومع بداية السقوط التدريجي للمدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى زادت موجة الهجرات الجماعية والفردية من بلاد الأندلس إلى المغرب الأوسط " فكانت بوادر سقوط قواعد مسلمي إسبانيا تدريجية منذ عهد مبكر ، فقد سقطت طليطلة بيد النصارى 478 هـ ، وسقطت بلنسية في المرة الأولى 478 هـ ، وسقطت سرقسطة 512 هـ ، وسقطت جزيرة ميورقة 627

[1]. عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص : 101 .

[2]. محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران ، ص : 32 .

[3]. حنيفي هلايلي ، التريخ الأندلسي والموريسكي ، ص : 11 .

هـ ، وسقطت قرطبة عاصمة مسلمي إسبانيا 633 هـ ، وسقطت إشبيلية 646 هـ " [1]، وبهذا كانت الأندلس تستسلم للسقوط مرة بعد أخرى ، ولولا تدخل المرابطين والموحدين لآل زوالها إلى تاريخ بعيد ، وفي مقابل هذه النكبات التي حلت بمدن الأندلس ، كانت بلاد المغرب الأوسط تستقبل الوافدين إليها من شتى المدن الأندلسية " ووجدت في المغرب الأوسط مكانا مناسبا فاستقرت في المراكز الساحلية مثل هنين ووهران وأرزيو ومستغانم وتنس والجزائر ودلس وعنابة ، بينما فضلت أعداد أخرى الاستقرار ببجاية وتلمسان لمكانتهما العمرانية ، حيث أصبحت المدينتان عاصمتين للإشعاع العلمي والحضاري ، بالإضافة إلى نشاطهما التجاري في المغرب الأوسط ، وكان الأندلسيون يفضلون الاستقرار في مكان يستطيعون فيه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والعسكرية والاقتصادية " [2] .

ب . الهجرة الأندلسية بعد سقوط غرناطة :

يعتبر تاريخ سقوط غرناطة تاريخا فاصلا لنهاية الوجود العربي في الأندلس ، ذلك أنها كانت المعقل الوحيد والحصن الآمن للمسلمين الذين لم يفضلوا الخروج عن المملكة الأندلسية، نظرا لتمسكهم بالأرض والحضارة الأندلسية ، ولكن عقب سقوط غرناطة اضطر الكثير منهم إلى البحث عن أماكن أخرى للاستقرار بعيدا عن الصراع العسكري القائم في

---

[1] . محمد حسن العيدروس ، العصر الأندلسي ، ص : 12 .

[2] . حنيفي هلايلي ، المرجع السابق ، ص : 12

الأندلس ، حيث يذكر صاحب كتاب نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر ذلك فيقول : " ... الهجرة التي وقعت على إثر سقوط غرناطة حيث عبر أهل مالقة إلى تلمسان ، وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة ، وأهل رندة وبسيطة إلى تطوان " [1] .

وقد استهلت هذه الهجرة ، بمغادرة حكامها إلى بلاد المغرب بعد توقيعه معاهدة الاستسلام مع حاكم إسبانيا ، التي انتهت بغدر هؤلاء للميثاق الذي عقدوه مع العرب وقد جاء في نبذة العصر قوله : " ثم إن الطاغية دمره الله ظهر له أن يصرف الأمير محمد بن علي إلى العدوة ، فأمره بالجواز ، وبعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة* ، واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز ، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام ، وكرامة مع النصارى ، وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ، ثم ارتحل إلى مدينة فاس حرسها الله " [2] .

ج . الهجرة الاضطرارية :

هاجر الأندلسيون إلى بلاد المغرب اختيارا من أنفسهم عدم البقاء في تلك المنطقة ، لكن بعضهم الآخر . ممن صعبت عليهم الهجرة . بقوا فيها رغم صعوبة المعيشة وغلائها متمسكين بأرضهم ومساكنهم ، لكن هذا الوضع لم يستمر على هذه الحال بسبب نقض

---

[1] . مجهول ، نبذة العصر ، ص : 48 .

* عذرة : Adra بلدة من أعمال ألمرية سكانها اليوم 11000 يصب في شواطئها نهر يحمل هذا الاسم ، يتولد من سلسلة جبال غرناطة والمرية ، ينظر : مجهول ، نبذة العصر ، ص : 43 .

[2] . مجهول ، نبذة العصر ، ص : 43 .

النصارى لمعاهدة وشروط الاستسلام التي كان من بنودها السماح للمسلمين بالقيام بشعائرهم والسكن بديارهم ، لهذا اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى عدوة المغرب ، فيذكر لنا صاحب كتاب نبذة العصر أحوال نكبة الأندلسيين في غرناطة ، ومحنتهم التي أجبرتهم على مغادرتها فيقول : " لما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز ، وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام في الأوطان ، أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ، ولم يزل ينقضها شرطا شرطا ، ويحلها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين ، وإدراكهم الهوان والذلة ، واستطال النصارى عليهم ، وفرضت عليهم الفروضات ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الأذان من الصوامع ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة ... فخرجوا أذلة صاغرين " [1] .

ونتيجة سياسة الاضطهاد الديني الذي مارسه النصارى في حق المسلمين المستقرين ببلاد الأندلس ، والذي مس عقيدتهم وعباداتهم وأركان دينهم ، فقد تردد المسلمون في شأن الرحيل أو المقام ، وأصبحوا في حيرة من أمرهم ، فمال البعض منهم إلى كتمان دينه ، وممارسة التقية في القيام بأركانه ، وقبل آخرون الهجرة كراهية بعد الفتاوى التي قدمها العلماء لهم ، فجوزوا لهم مسألة العبور إلى الأماكن التي تمكنهم من القيام بشعائر دينهم .

أما الماكثون في غرناطة فقد مارسوا التقية في عباداتهم ، حتى يختفوا عن الأنظار ، فكان صومهم وصلاتهم ودعاؤهم ... وغيرها من العبادات تقام سرا عن أعين النصارى ، "

[1] . مجهول ، نبذة العصر ، ص : 44 .

فخلال القرن السادس عشر أصبحت تعاليم الإسلام وممارسته لدى الطائفة الموريسكية تقاليد موروثة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل في حلقات مغلقة لها صفة المجالس السرية ، وحافظ الجميع على هذه الممارسة إلى غاية السنوات الأخيرة للتواجد الموريسكي في الأندلس ، فقد لبث المجتمع الأندلسي متماسكا ، محافظا على شعائر دينه رغم تنصيره بالقوة ، مخلصا في سرائره للدين الإسلامي " [1] .

وقد وصلت إلى أسماع الموريسكيين بعض الفتاوى التي تجوز لهم ممارسة التقية في إخفاء دينهم ، حتى تعدى الأمر إلى إباحة إظهار بعض المنكرات قصد التمويه على العدو باعتناق النصرانية ، ومما يبيح لهم ارتكاب بعض المنكرات لكن بشرط إنكارها بالقلب ما وجد في رسالة مفتي وهران ، التي بين فيها بعض الأمور الفقهية الخاصة بالمأكل والمشرب والصلاة والطهارة والنكاح والعقيدة ... وغيرها ، واقترح عليهم بعض البدائل ، واصفا إياهم بالغرباء القابضين على الدين كالقابض على الجمر حيث يقول لهم : " فاعبدوه واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوما في البحور ، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار ، وتسقط في الحكم طهارة الماء ، وعليكم بالتيمم ولو

[1] . جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص : 182 .

مسحا بالأيدي للحيطان ... " [1] وغيرها من الأحكام التي تبين سرية إقامة الموريسكيين لعباداتهم خوفا من التنصير .

وبهذا كانت التقية عاملا مهما في حفاظ الأندلسيين الموريسكيين على عباداتهم ، " فقد ظل هؤلاء طوال السنوات التي تلت سقوط غرناطة ، وإلى غاية صدور قرار الطرد النهائي يمارسون عدة مهن للتمويه ، وفي الليل يقبل الموريسكيون على تعليم القرآن ، وتدارس تعاليم الدين الإسلامي ، كما كانوا يستقبلون المبعوثين من شمال إفريقيا ، ومعهم الكتب الضرورية لنسخها وبيعها للموريسكيين ، وبذلك لم تقتصر مهمتهم على التعليم فقط ، فهم يقومون بإعادة نسخ الكتب القادمة لهم من المغرب الإسلامي للحصول على أكبر عدد ممكن من النسخ ، وتوزيعها على نطاق أوسع ، كما كانوا يقومون بعملية جمع الزكاة والصدقات ، وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين في المناسبات والحفلات التي كانوا يقيمونها سرا في بيوتهم " [2] ، ولم يقتصر موضوع التقية على العبادات فحسب ، بل تعدى ذلك إلى العادات الاجتماعية والثقافية كذلك .

أما مسألة الهجرة فهي موقوفة على بعض الفتاوى التي قدمت للأندلسيين في بيان مشروعيتها ، فذكر أبو العباس أحمد الونشريسي في مخطوطته هذا الحكم ، وبين وجوب الهجرة على المكرهين على التنصير في مخطوط له بعنوان " أسى المتاجر في بيان أحكام

[1] . جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ، ص : 265 وما بعدها .

[2] . نفسه ، ص : 184 .

من غلب على وطنه ولم يهاجر " نصا مفاده : " إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سيوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن) ، وقد روى أشهب عن مالك : (لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير الحق) ، وقال في المعارضة : فإن قيل : فإذا لم يوجد بلد إلا كذلك ، قلنا : يختار المرء أقلها إثما ، مثل أن يكون بلد فيه كفر وبلد فيه جور خير منه أو بلد فيه عدل وحرام ، وبلد فيه جور وحلال خير منه للمقام ، أو بلد فيه معاص في حقوق الله ، فهو أولى من بلد فيه معاص في مظالم العباد) ، وهذا إلا نموذج دليل على ما وراه " [1].

وقد قطع الونشريسي (ت 1508 م) الأمر في فتواه بتحريم البقاء في ديار الكفر " الذي كان جوابه قاطعا : إن البقاء في بلد احتله الكفار محرم شرعا كما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير " [2] .

ويؤكد على وجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام حيث " كتب هذه الفتوى 901 هـ / 1495 م في شأن أحد مسلمي الأندلس يريد البقاء بإسبانيا لمساعدة مواطنيه على حل

[1] . أبو العباس أحمد الونشريسي ، أسى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه ولم يهاجر . مخ م و ج ، رقم : 2083 ، نقلا عن جمال قنان ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ، ص : 39 .

[2] . مرسيداس غارسيا . أرينال ، شتات الأندلسيين ، منشورات زرياب ، د . ط ، الجزائر ، 2003 م ، ص : 118 .

مشاكلهم لدى السلطات الإسبانية فهو (يتكلم مع حكام النصارى فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر ، ويخاصم عنهم ، ويخلص كثيرا منهم من ورطات عظيمة بحيث يعجز عن تعاطي ذلك عنهم أكثرهم ، بل قل ما يجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر ، وبحيث أن يلحقهم في فقده ضرارا كبيرا إن فقدوه) ، وقد كان جواب الونشريسي هنا أيضا بالرفض " لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار لما تنتجه من الأدناس والأوصار ، والمفاسد الدينية والدنيوية طول العمر " [1] .

وفي حوالي سنة 1510 م أصدر مفتوا المذاهب الفقهية الأربعة في القاهرة أربع فتاوى حول وضعية المسلمين الذين يعيشون تحت السيطرة المسيحية في إسبانيا ، ويبدو أن هذه الفتاوى صدرت بطلب من مغاربي فالنسيا الذين عبروا القاهرة أثناء سفرهم للحج بمكة ، وحسب هذه الفتاوى يجب على المسلمين أن يهاجروا متى وجدوا لذلك سبيلا ، ولا يجوز لهم أن يقيموا بين الكفار ، ولا أن يدينوا بالولاء والطاعة لسلطتهم ، فالإقامة بين الكفار تحول دون القيام بممارسة بعض الشعائر الأساسية للإسلام " [2] .

وقد شكلت هذه الفتاوى في تبيان حكم الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام توعية دينية للمسلمين الراغبين في الهجرة ، وبينت أحكاما للمضطرين للبقاء في الأندلس ، والتي من

[1] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 149 .

[2] . مرسيداس غارسيا . أرينال ، شتات الأندلسيين ، ص : 118 . 119 .

خلالها لجأ هؤلاء المتأخرون عن الهجرة إلى مغادرة موطنهم ، بحثا عن بلد يمكنهم من إقامة شعائر دينهم ، وفرارا من جور وظلم الحكام في الأندلس .

وقد كان لعامل قرار الطرد تأثير على تحريك هذه الهجرة إلى المغرب حيث " أصدر فيليب الثاني مرسوما لاحقا في الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة 1570 م قضى بترحيل جميع الأندلسيين من مملكة غرناطة بلا استثناء ... ويروي لين بول نهاية الثورة الأندلسية الكبرى فيقول : " كان السبب والنفي المصير الذي آل إليه من بقي حيا بعد الثورة، ولكن عدد هؤلاء لم يكن كبيرا ... أولئك الذين أسروا والثورة مشتعلة أصبحوا عبيدا ، وسيق الباقون إلى النفي تحت حراسة الجنود ... وكثير من المنفيين التعساء ماتوا في الطريق جوعا أو تعبا من الحر والبرد ، وتمكن آخرون من الوصول إلى إفريقيا " [1] .

ولعل إصدار قوانين الطرد في حق الموريسكيين عامل قوي في رفض الممالك الإسبانية وجود الأقليات الإسلامية أو المتنصرين الجدد في حدودها ، كما أدى حفاظ هؤلاء الأندلسيين على أراضيهم وممتلكاتهم تضييقا على الجانب الاقتصادي لبعض الإسبانيين الذين حاولوا منع هؤلاء الموريسكيين من الوصول إلى درجة من الرفاهية في العيش ، " فأدت الدوافع الاقتصادية إلى شن حملات ضد الموريسكيين ، ورغم أنه لم تجر دراسة التفاصيل حتى الوقت الحاضر ، فإن التاريخ الاقتصادي للعلاقات بين الموريسكيين ، وغالبية السكان المسيحيين القدامى على الحدود يدل على انتقال الثروة بشكل مستمر من

[1] . عادل سعيد بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ص : 168 .

المسيحيين الجدد إلى المهاجرين من الشمال ، وقد تصدت الحدود إلى حد ما لهذا الاستقطاب الجاري في داخل المجتمع ، والذي كان من المحتمل أن يمس أملاكهم ودخولهم، إلا أن الأحكام المتشددة الصادرة في المحاكم المسيحية ضد أملاك الموريسكيين ، وكذلك شكاوى المسيحيين الجدد من نوعية العدالة المحلية ، قد أوضحت تحولا في مجرى الأحداث "[1].

هذا على الصعيد الاقتصادي ، أما على الصعيدين الديني والسياسي فقد اعتبر الموريسكيون شوكة في حلوق المسيحيين الإسبان ، ونقطة تخوف كانت ترعبهم دائما نظرا لحنين هؤلاء لديانتهم القديمة التي طالما كانوا يمارسونها في تستر دائم ، " فلما كان المسيحيون الجدد على استعداد دائم للعودة إلى ديانتهم القديمة ، فقد اتهموا بالتآمر مع أعداء التاج الأجانب ، وقراصنة شمال إفريقيا والعثمانيين بهدف تهديد إسبانيا داخليا وخارجيا، يضاف إلى هذا أن المسيحيين القدامى نظروا إلى عادات المسيحيين الجدد لا باعتبارها إسبانية ، بل باعتبارها جزءا من حضارة إسلامية لا تتغير ، ومن ثم فإن بقاء هذه الممارسات الاجتماعية كان يعني في نظرهم تغلغل حضارة أجنبية قوية في المسيحية "[2].

ومن خلال ما سبق ذكره حول أنواع الهجرة الأندلسية وأسبابها يتضح منها غلبة العوامل العسكرية على رحيل العديد من الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ، خاصة بعد سقوط كبرى

---

[1]. أنروهين ، افتراق العالم الإسلامي ، ص : 217 .

[2]. المرجع نفسه ، ص : 217 .

المدن الأندلسية ، في حين لعبت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية دورا في تغيير وجهة نظر الإسبانيين تجاه العديد من الأندلسيين الذين فضلوا البقاء في مواطنهم ، محافظين في ذلك على عاداتهم وتقاليدهم ، مقيمين لشعائرهم الدينية في تستر تام ، وأمام تلك الشكوك قامت المملكة الإسبانية بطردهم نهائيا من المنطقة ، فكان لهم في بلاد المغرب مراكز استقرار حافظوا فيها على وجودهم ، ونقلوا إليها ما حوته عقولهم من معارف وعلوم كونت تمازجا حضاريا وفكريا بين الحضارتين المغربية والأندلسية .

1 . 1 . 2 . مراكز هجرة الأندلسيين بعد سقوط غرناطة :

اتخذ الأندلسيون لأنفسهم طريقا للهجرة إلى مواطن أكثر أمنا واستقرارا ، فكانت وجهتهم مختلفة منها إلى بلاد المغرب بأقسامه الجغرافية الثلاثة : الأدنى والأوسط والأقصى ، ومنها إلى بلاد المشرق .

أ . الهجرة إلى تونس :

توافد على تونس الحفصية العديد من الأندلسيين " وكثير من العلماء نتيجة لسقوط بلدان العدوة الأندلسية الواحدة تلو الأخرى ، وقد استغل الملوك الحفصيون هذه الظروف ، فشجعوا الهجرة الأندلسية ، وحرصوا على استقدام أكثر ما يمكن من العلماء الذين توافدوا بدورهم لما لاحظوه من تشجيع وعناية واستقرار ، وقد شجع على هذه الهجرة أبو زكريا الحفصي ، وسار

على منواله المستنصر ثاني الملوك الحفصيين الذي سمى نفسه خليفة ، واعتبر تونس وارثة للحضارة الإسلامية خاصة بعد سقوط بغداد ، واضمحلال حضارتها ، وقد جعل المستنصر مكانة خاصة لأهل الأندلس ، واتخذ منهم جندا أعانوه في حربه ضد النصارى " [1].

وكانت هناك عدة أسباب لتفضيل الأندلسيين الهجرة إلى تونس ، وهي تشترك فيها العوامل التي ذكرناها سابقا من الاضطهاد المسيحي ، وسقوط غرناطة ، لكن هناك أسباب أخرى ثانوية تتعلق فقط بمدينة تونس ومنها[2] :

. الاستقرار النسبي ، والازدهار الحضاري فغي تونس خلال العصر الحفصي .

. الصلات الطيبة القديمة بين الأسرة الحفصية وأهل الأندلس .

. العلاقات الوطيدة بين الدولة الحفصية وبين مملكة بني الأحمر وبعض الإمارات الأندلسية .

. المصاهرات وموقف علماء وشيوخ تونس من المهاجرين فكانت هناك مصاهرات تربط بين الأسر الشهيرة في كل من تونس وغرناطة .

---

[1] . ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم : الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، د . ط ، 1984 م ، ص : 8 .

[2] . كمال السيد أبو ماضي ، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ، مركز الإسكندرية للكتاب ، د . ط ، الإسكندرية ، 2003 م ، ص : 213 وما بعدها .

وبهذا مكنت هذه الأسباب جميعها من تفكير بعض الأندلسيين في الهجرة إلى تونس طلبا في العلم ، أو حبا في الاستقرار بعد سقوط العديد من المدن ، وسأبين في الفصل الآتي مدى استقرار الأندلسيين في بعض مدن المغرب الأوسط التي كان الصراع عليها قائما بين الحفصيين والزيانيين ، مثل بجاية وقسنطينة ، والتي التجأ إليها عدد كبير من الأندلسيين ، فكانوا علماء ومعلمين في بعض المساجد والكتاتيب ، ونقلوا إليها فكرهم ، فكانوا منارة للعلم أضاءت فكر المغاربة ، ومزجت بين الثقافتين الأندلسية والمغربية .

وبسقوط غرناطة توسعت دائرة الهجرة الأندلسية إلى تونس " حيث وصل إليها الكثير من المدجنين الأندلسيين الذين لم يحملوا حياة الدجن ، أي الإقامة بدار الحرب تحت الحكم المسيحي ، وبعد أن أصبحت الأندلس كلها دار كفر ، ولم يبق بها من يستطيع الجهر بكلمة التوحيد " [1] ، ويلخص المقري في حديثه عن هجرة الموريسكيين الأندلسيين بعد قرار الطرد النهائي إلى مدينة تونس وضواحيها في كلام مفاده أن " الألوف من الأندلسيين (الموريسكيين) عبرت إلى بلاد المغرب في تلك السنة أي سنة 1017 هـ ، واتجه بعضهم إلى فاس وتلمسان حيث تعرضوا للنهب والإيذاء من جانب الأعراب ، أما معظمهم فقصد تونس في عهد عثمان داي ، ويضيف (وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها " [2] .

[1] . كمال السيد أبو ماضي ، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص : 221 .

[2] . المقري ، نفح الطيب ، ج : 6 ، ص : 327 .

أما عن أشهر الذين وفدوا إلى تونس بعد سقوط غرناطة ، فيذكر منهم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي شيخ التجار بتونس في عهد السلطان المتوكل علي الله عثمان الحفصي (839 . 893 هـ / 1435 . 1488 م) / ومحمد عبد الرفيع المرسي الأندلسي (ت 1052 م) صاحب كتاب الأنوار النبوية في آثار خير البرية [1] .

وبهذا تمكن الموريسكيون الأندلسيون من العبور إلى بلاد المغرب الأدنى ، والاستقرار في حواضر تونس ومدنها ، حتى كثر عدد اللاجئين الأندلسيين ، وقد كانوا يمارسون نشاطاتهم بكل حرية في تلك المنطقة ، حتى أن بعضهم أحصى عدد العائلات المقيمة في تونس ، إذ " أحصى القبطان الانجليزي روبرت إليات Robert Elliatt أن عدد الموريسكيين بلغ بتونس سنة 1615 حوالي 8000 عائلة ، وقد حاول الباحث الانجليزي Latham أن يستخرج رقما تقريبيا من العدد المذكور ، فقدره بحوالي 50 ألف موريسكي (بمعدل 6 أفراد لكل عائلة) ، ومن هنا يتضح أن الأندلسيين كان عددهم كبيرا في مدينة تونس .

أما عن كيفية استقرارهم ، وأهم الطوائف الاجتماعية التي توزعوا حسبها ، فإنه لم يكن هناك توازن في طريقة استقرارهم في المدن التي اختاروها ، " فالأندلسيون الذين هاجروا من مملكة غرناطة بعد سقوطها في أيدي النصارى سنة 897 هـ / 1492 م فقد نزلوا في تونس والقيروان وقابس ونفطة وصفاقس وسوسة وبجاية وغيرها من حواضر المغرب " [2] .

---

[1] . كمال السيد أبو ماضي ، المرجع السابق ، ص : 224 .

[2] . نفسه ، ص : 225 . 226 .

وقد شهدت تونس حضارة فكرية راقية بدخول هؤلاء المهاجرين إلى ترابها ، وشملت إسهاماتهم في التأليف والتعليم ، وخاصة منها العلوم الشرعية والأدبية ، " إذ زخرت البلاد أثناء هذه الفترة بعدد كبير من أهل الأدب ، وأقيم صرح العديد من المدارس ، وأقبل الناس على التعليم ، وتعددت التآليف الأدبية والعلمية والتاريخية ، وتوفر عدد من الرحلات تدلنا على ما كانت تتميز به العاصمة الحفصية تونس وبعض المدن الإفريقية من حركة أدبية وعلمية اتسمت بعطاء كثير من الأدباء واللغويين الأندلسيين اختاروا تونس دار مقام ومن هؤلاء نذكر أحمد بن الغماز ومحمد بن الأبار وحازم القرطاجني "[1] ، والملاحظ أن الأندلسيين قد اندمجوا مع التونسيين اندماجا عظيما ، واختاروا العديد من الثغور للاستقرار ، " فكان معظم الأندلسيين ينزلون ببنزرت والمهدية وحل جلهم بالعاصمة "[2] .

ب . الهجرة إلى المغرب الأقصى :

كانت بلاد المغرب الأقصى موطنا لهجرة بعض الأندلسيين إليها بما تحتويه من مدن ساحلية قريبة من بلاد الأندلس ، وكان سقوط غرناطة حدثا فاصلا عزز من الهجرة الجماعية للأندلسيين إلى تلك المنطقة ، " وكان انتقال الموريسكيين إلى المغرب عن طريق

[1] - أحمد الطويلي ، في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، د . ط ، تونس ، د . ت ، ص : 24 .
[2] . محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، الشركة التونسية للتوزيع ، د . ط ، تونس ، د . ت ص : 141 .

المراكز التي يحتلها الاسبان : طنجة ، سبتة ، مليلة ... ومن هناك تسربوا إلى الداخل ، وينتمي هؤلاء إلى بلنسية ومنطقة الأندلس وقشتالة وغرناطة ، وبعض العناصر من الأراجون وكطالونيا " [1] .

لقد كان للصراع الإسلامي المسيحي في بلاد الأندلس خلال سنوات قبل سقوط غرناطة، ولسنوات بعدها أثره في انتقال أسرات كثيرة إلى مدن مغربية ، وكانت هذه الهجرة تضم طوائف اجتماعية ، وطبقات من المجتمع الأندلسي ، منها أصحاب النفوذ السياسي ، وأفواج أخرى من عامة الناس ، وقد ذكرنا في فصل سابق أن الأمير الأندلسي قد فر إلى بلاد المغرب بعد تسليم غرناطة ، أما عامة الناس فقد واصلوا هجراتهم إلى هذه المنطقة ، وتمركزوا في العديد من المدن ، وخاصة منها مليلة ، وقد كانت هناك عدة عوامل ساعدت على اختيار الأندلسيين هذه المدينة منها [2] :

. استيعاب المنطقة لعدد كبير من المهاجرين الأندلسيين ، وهم في طريقهم إلى فاس وتلمسان .

. عامل استراتيجي ، ويتلخص في كون المنطقة تقابل السواحل الأندلسية ، وخاصة ساحل المرية ، وهي بهذا الموقع كانت منطلق العديد من العمليات الجهادية البحرية ضد السواحل الإسبانية .

[1] . محمد بن زروق ، الأندلسيون ، ص : 129 . 130 .

[2] . نفسه ، ص : 156 .

كما كان لمدينة تطوان * حضورا أندلسيا ، إذ يذكر صاحب كتاب الاستقصا ذلك قائلا : " لما استولى الاصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى المغرب ، فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين ، ولما نزلوا به لم يقدموا شيئا على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي ، فأجل مقدمهم ورحب بهم فقالوا : إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعا نبني فيه بلدا يكننا ، ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف ، فأجابهم إلى مرادهم ، وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة ، وولي عليهم كبيرهم أبا الحسن علي المنظري ، وكان رجلا شجاعا من جند ابن الأحمر ، وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن ، ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا ، ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجل منهم إلى تطاوين ، وشرع في بناء أسوار البلد القديم ، فجدده وبنى المسجد الجامع به ، واستوطنه هو وجماعته ، ثم أخذ في جهاد البرتغال " [1] ، ويستفاد من هذا النص الدور الذي لعبه الأندلسيون في بناء هذه المدينة ، وانتقلوا إليها جماعات بعد سقوط غرناطة ، فكانت ملجأ لهم ، ومكانا لمعاودة الجهاد في المنطقة ، كما يشير في نص لاحق أن أحد ملوك بني الأحمر قد سافر إلى المغرب في عهد السلطان محمد الوطاسي فيقول : " لما استولى طاغية الاصبنيول على حضرة غرناطة ، وسائر الأندلس انتقل سلطانها أبو عبد الله بن

* **تيطوان** : عرفها الوزان بأنها " مدينة صغيرة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو ثمانية عشر ميلا من المضيق ، وستة أميال من البحر ، وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا سبتة من يد القوط ، ومنذ فترة من الزمان هاجم البرتغاليون تيطوان وخربوها ، وبقيت خربة زهاء ثمانين سنة " ثم ذكر القصة التي تورد دور الأندلسيين في إعادة بنائها ، أنظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 1 ، ص : 318 .

[1] . أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج : 4 ، ص : 124 .

الأحمر إلى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه من إنشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم   رعيا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن   جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا   وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم

حكم من الله حتم لا مرد لـه   وهل مرد لحكم منه منحتـــــــــم[1]

وقد أثر هؤلاء الأندلسيون في حضارة المغرب أيما تأثير " فالنازحون من الفردوس إلى المغرب قد أعادوا إليه جزءا من مدنية الأندلس ، وبثوا فيه قوة من عزائم الأندلسيين ، ثم زينوه بآثارهم في المهارة والإتقان ، وقد جاء في نفح الطيب : (إن حاضرة مراكش هي بغداد المغرب وأكثر مصايفها ومبانيها الجليلة وسياستها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون إليها متاع الأندلس من جزيرتهم ومدينة تونس بإفريقية انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا بن أبي يحي بن أبي حفص)[2] ،

[1] . أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج : 4 ، ص : 124 . 125 .

[2] . محمد سعيد الدغلي ، الحياة الاجتماعية في الأندلس وآثارها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي ، دار أسامة ، ط : 1 ، 1984 م ، ص : 75 .

كما شكل الأندلسيون طبقة عسكرية في الدفاع عن المغرب في العصر المريني ، حيث نجد أن من بين عناصر الجيش كانت فئة الأندلسيين ، إذ يصفهم النويري بقوله : " يمكن تمييز الفرسان الأندلسيين بأقبيتهم المختلفة الألوان ، وبالترافيل التي على رؤوسهم ، وبالعصي الطوال التي اعتلقوا بها ، وبالسنابيل التي تقلدوها ، وبالراية التي تحملها عصا كل منهم ، وبخيولهم المبرقة ، وأجراسهم التي تملأ الجو بأصواتها المدوية "[1] ، وعليه فإن مدن المغرب قد ازدادت قوة وحضارة بدخول هؤلاء اللاجئين إليها من الجزيرة الخضراء .

ج ـ الهجرة إلى الجزائر[2] :

ذكرت في إشارات سابقة إلى أن المغرب الأوسط كان موئلا للهجرات الأندلسية منذ أوقات مبكرة خاصة في العهد الرستمي والحمادي ، الذي عرف هجرات اختيارية عديدة للمهاجرين الأندلسيين الذين فضلوا الاستقرار في مدنه ، وممارسة نشاطاتهم الاقتصادية

---

[1] . ابن الحاج النميري ، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب ، دراسة وإعداد : محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1990 م ، ص : 106 .

[2] . ينظر موجات الهجرة الأندلسية وخطوط نقلهم إلى الجزائر في الخريطة في الملحق رقم 8 و الملحق رقم 10 في آخر هذا البحث ، وفيها يتبين الحملات البحرية التي كانت تخرج من موانئ جيجل والجزائر وتنس إلى السواحل الأندلسية من أجل إنقاذ المسلمين الأندلسيين ، وكذا طرق المواصلات البحرية لنقل الأندلسيين ، بالإضافة إلى أهم مناطق استقرار اللاجئين الأندلسيين في المغرب الأوسط .

والتعليمية بكل حرية ، فأسرة بني حمدون[1] من الأسر الأندلسية التي رحلت من الأندلس واستقرت في بجاية في العصر الحمادي ، وكان لها نشاط سياسي مكثف في المنطقة ، حيث يذكر ابن خلدون أن " مطرف بن علي بن حمدون قائد يحي بن عبد العزيز قام من بجاية في العساكر إلى إفريقية ، وملك عامة أمصارها ، فتغلب على تونس ، وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ، ونقله إلى بجاية بأهله وولده ، وولى على تونس كرامته ابن المنصور عم يحي بن عبد العزيز ، فبقي واليا عليها إلى أن مات " [2] .

وفي العصرين المرابطي والموحدي زادت موجات الهجرة الفردية والجماعية إلى المغرب الأوسط عن طريق العلاقات التي كانت تربط بين العدوتين ، وتشجيع الأمراء المرابطين والموحدين على هذه الهجرة خاصة بعد استردادهم لبعض المناطق الأندلسية ، فقربوا إليهم العلماء والحرفيين والصناع وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى ، لدرجة مشاركة هؤلاء الأندلسيين في الوظائف السياسية والاقتصادية في المنطقة ولكن بعد بداية الصراع العربي الإسباني اضطر الكثير منهم للفرار إلى هذه المناطق لبعدها عن مراكز العدو من جهة ، والحفاظ على تراثهم الفكري من جهة أخرى ، وقد لاحظنا من خلال اطلاعنا على كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للغبريني حضورا أندلسيا

---

[1] ذكرهم ابن خلدون في صدد حديثه عن قبيلة صنهاجة وبطونها حيث قال فيهم : " وبني حمدون وزراء بني حماد ، وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن علم منهم ميمون بن جبل بن أخت طارق مولى عثمان بن عفان صاحب فتح الأندلس " أنظر : ابن خلدون ، العبر ، ج : 6 ، ص : 202 .

[2] . المصدر نفسه ، ج : 6 ، ص : 217 . 218 .

مكثفا في هذه المنطقة ، نظرا لأهمية بجاية كمؤسسة ثقافية في المغرب الأوسط ، فزاول هؤلاء العلماء الفارون من الأندلس مهامهم في التعليم والقضاء والتأليف ، وتعود أسباب هذه الهجرة إلى رغبة الملوك الحفصيين في استقبال الأندلسيين والسماح لهم بالاستقرار في المناطق التابعة لهم ، لدرجة أن " من فضائل الأمير فارس بن عبد العزيز* أنه وظف لأهل الأندلس في كل عام من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد عدو الدين " [1] ، لذلك نجد أن مدينة بجاية من أهم المدن الساحلية التي عرفت موجات كثيرة من الهجرات الأندلسية ، لدرجة أنها اصطبغت بالصبغة الحضارية الأندلسية على مختلف المجالات ، وخاصة منها ما يتعلق بالحياة الفكرية والثقافية في ذلك الوقت ، وتشير أغلب المصادر التي تحدثت عن بجاية في العهد الحفصي ، أن هذه المدينة كانت تعد من أكبر حواضر المغرب الأوسط ازدحاما بالسكان يؤيد هذا ما ذكره أبو علي المريني في معرض حديثه عن المهاجرين الأندلسيين الذين دخلوا بجاية في عهد السلطان عبد العزيز (796 . 837 هـ / 1394 . 1434 م) أشار إلى أن هذا الأخير لم يجد فضاء لتوطينهم إلا بجوار قبر السبوكي لأنه لم يعد ممكنا استيعاب كل المهاجرين داخل المدينة ، لكن بالمقابل فإن المصادر الجغرافية المتأخرة لاسيما منها كتاب وصف إفريقيا لحسن الوزان تنافي هذا الطرح ، إذ عد سكانها

* وهو ابن المولى أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي يحي أبي بكر بن أبي زكريا بن يحي بن إبراهيم بن أبي زكريا بن المستنصر بن يحي بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص رحمه الله ، بويع رابع شعبان بعد وفاة والده ، وأقام بالأمر أتم قيام . أنظر : ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، مطبعة الدولة التونسية ، ط : 1 ، 1286 هـ ، ص : 134 .

[1] . المصدر نفسه ، ص : 134 .

نحو ثمانيثة آلاف كانوا في القسم المأهول منها فقط ، لكن لو امتلأت حسب تعبيره لفاق العدد أربعة وعشرين ألف " [1] .

هذا بالإضافة إلى دور المهاجرين الأندلسيين في فك العزلة عن بعض المدن التابعة لبجاية ، بحيث كان لهم دور في ربط علاقات اجتماعية مع السكان الأصليين ، فمدينة بني جناد مثلا " بفعل احتكاكها بالعناصر العربية والجالية الأندلسية في كل من مدينتي مرسى الدجاج ودلس ساعد في فك عزلتها ، وفي تسهيل اندماجها في المنظومة العربية "[2] .

والحديث عن مدينة بجاية ينطبق على مدينة تلمسان التي عرفت هي الأخرى استقرارا للجالية الأندلسية في ربوعها ، نظرا لما تتميز به هذه المدينة من موقع جغرافي هام يقربها من الأندلس تقريبا جغرافيا وحضاريا ، فأصبحت هي الأخرى مقصد المهاجرين الأندلسيين ، حيث " انتقل شرفاء الأندلس كأسرة بني حمود إليها ، وامتدت فروعهم إلى الساحل الوهراني والمستغانمي وإلى أرزيو " [3] ، و إثر انقسام دولة الموحدين ، وانكماش دولة بني الأحمر بغرناطة ، واتباع الملوك الزيانيين سياسة حسن الجوار إزاء حكام الأندلس ليتصدوا للأطماع الحفصية والغارات المرينية ، وهذا ما شجع السلطان النصري أبو عبد الله محمد الخامس ملك غرناطة على إرسال وفد إلى تلمسان سنة 763 هـ / 1361 م يطلب العون والمدد من

[1] . يراجع قول الحسن الوزان في ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 50 . مفتاح خلفات ، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ، ص : 139 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 121 . 122 .

[3] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 78 .

السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني ، وكان على رأس هذا الوفد الكاتب إبراهيم بن الحاج الذي نجح في مهمته ، وتحصل من السلطان الزياني على خمسين ألف قدح من الزرع ، وثلاثة آلاف قطعة من الذهب لكراء السفن وشحنها إلى الأندلس ، وقد أشار لسان الدين بن الخطيب بقوله :

وقالوا الجزيرة قد صوحت   فقلت غمام الندى تنظر

إذا وكف كف موسى بها   غماما يعود الجناب الخضر [1]

وقد فضل سلطان غرناطة اللجوء إلى تلمسان بعد نفيه من غرناطة ، وهذا ما يدل على حسن العلاقات القائمة بين ملوك غرناطة وأمراء الدولة الزيانية بتلمسان .

أما خلال عصر السقوط النهائي للأندلس بعد حملات الاسترداد الإسبانية للمدن الأندلسية الكبرى لجأ العديد من الأندلسيين الرافضين لفكرة التنصير القسري الذي انتهجته إسبانيا في حق المسلمين الذين يفضلون البقاء في الأندلس ، ويذكر في هذا الشأن عبد الرحمن الجيلالي في سياق حديثه عن هذه المأساة وأثرها في تلك الهجرات المتعاقبة على سواحل المغرب الأوسط أن بداية الهجرة الأندلسية إلى الجزائر تعود إلى سنوات قليلة قبل

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، ص : 129 .

السقوط النهائي لغرناطة ، وبالتحديد إلى عام 856 هـ / 1452 م بفعل تزايد نشاط القرصنة، وبداية الهجمات الاسبانية [1] .

فعند تولي الأمير أبي العباس أحمد بن أبي زيان ، استقبل المهاجرين الأندلسيين الذين نزل البعض منهم في تلمسان والجزائر وبجاية وندرومة وهنين ... وغيرها من أراضي الدولة الزيانية [2].

أما بعد النهاية المأساوية لمدينة غرناطة ، فر العديد من المسلمين الأندلسيين من الأندلس لاجئين إلى الجزائر ووهران وبجاية وتلمسان ، لأنها كانت تحت حكم العثمانيين خاصة بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1516 م ، فكان للجيش الجزائري دور في حماية هؤلاء الفارين ، ومساعدتهم على الدخول إلى الجزائر ، وعليه تعززت الهجرة الأندلسية إلى الجزائر بفضل رياس البحر الذين كانوا على خبرة عالية في الجهاد البحري ، ولعل الهدف من وراء تتبع بلاد المغرب الأوسط للقضية الأندلسية هو محاولة استرداد الأندلس ، وقد " تمكن خير الدين من جعل إيالة الجزائر قوة بحرية في المنطقة المتوسطية لغزو إسبانيا ، كما أرعدت أوربا ، واستحقت بأن يطلق عليها " بلد الجهاد " ، وعلى مؤسساتها العسكرية أكبر مدارس الإسلام البحرية ، وكانت معرفة خير الدين بالملف الموريسكي جيدة ، مما جعله يعتقد في

[1] . عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج : 2 ، ص : 178 .

[2] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ص : 79 .

وجوب إنشاء دولة قوية بالمغرب الأوسط ، وانطلاقا من هناك يسترجع الأندلس ، والعمل على إنقاذ الموريسكيين من سياسة الاحتواء الثقافي والديني الذي مارسته محاكم التفتيش "[1].

وبهذا يعود سبب هجرة الأندلسيين إلى المنطقة ، لأنهم كانوا يرون في المغرب الأوسط قوة من شأنها أن تدافع عن قضيتهم ، وتساندهم في وجه أعدائهم ، فكانت السفن الجزائرية مخصصة لنقل هؤلاء المسلمين المهاجرين إلى المغرب الأوسط ، ويذكر في هذا السياق أن " خير الدين جهز للأندلسيين ستة وثلاثين سفينة فتكرر ذلك منهم سبع مرات ، وكان من جملة ما حملوه من أهل الأندلس على ما قيل سبعين ألفا ، وتواصلت جهود إنقاذ الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، وتسهيل عمليات نقلهم من خلال الأسطول ، وكمثال على ذلك جهود حسن فنزيانو الذي جلب ألفي موريسكي من الرجال والنساء ، وكان ذلك سنة 1584 م من منطقة أليكانت "[2] ، وكانت هذه العمليات قد حققت نجاحا باهرا في إنقاذ الأرواح والممتلكات ، إلا أنها في المقابل كانت تضحيات جسام ، حملت رياس البحر صعوبات جمة خسروا خلالها الأرواح من أجل إنقاذ المسلمين الأندلسيين ومساعدتهم على الهجرة إلى الجزائر .

[1]. حنيفي هلايلي ، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني ، ص : 113 .

[2]. المرجع نفسه ، ص : 115 .

أما مدينة شرشال* فقد استقبلت هي الأخرى مجموعة كبيرة من الأندلسيين استقروا بداخلها ، فيقول في هذا الموضوع الحسن الوزان في وصفه لهذه المدينة : " بقيت المدينة خالية من السكان زهاء عدة قرون حتى سقوط غرناطة في يد المسيحيين فقصدها الغرناطيون " [1] ، وبين لسان الدين ابن الخطيب أن التأثير الاجتماعي الأندلسي كان كبيرا بعد هجرة السكان الأندلسيين واستقرارهم بها حيث قال : " وقد هاجر إليها . أي شرشال . عدد كبير من الأندلسيين ، وصار مجتمعها من أرقى المجتماعات الإسلامية " [2].

وفي بداية القرن السابع عشر أي في سنة 1609م كان الطرد النهائي عاملا على هجرة الآلاف من الأندلسيين إلى المدن الساحلية في المغرب الأوسط ، فقد " نفي نيف وثمانية وعشرون ألفا من المتنصرين من ثغر دانية وثغور أخرى ، وقد ذهبت بهم السفن إلى وهران في الجزائر ، ونزلوا في جوار وحماية سلطان تلمسان ". [3]

وما إن حل عام 1609 حتى أصبح عدد الأندلسيين بمدينة الجزائر وحدها يناهز 25 ألفا، وأضحت الهجرة الأندلسية ظاهرة عامة تأثرت بها أغلب الجهات الساحلية ، وذلك بسبب

* مدينة جميلة على الساحل الجزائري في عمالة الجزائر ، تشرف عليها جبال بني مناصر الخضراء ، أسست المدينة أيام الفينيقيين ، وفي عهد الرومان اكتسبت شهرة عالمية واسعة ، وصارت عاصمة للملك المغربي يوبا الثاني (22 ق . م) الذي سماها قيصرية . للمزيد أنظر : لسان الدين بن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق : أحمد مختار العيادي ، محمد إبراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، د . ط ، الدار البيضاء ، 1964 م ، ص : 167 .

[1] . الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 34 .

[2] . لسان الدين بن الخطيب ، تاريخ المغرب العربي الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص : 167 .

[3] . محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محلكم التفتيش في الأندلس ، ص : 67 .

قرارات الطرد الجماعية الخاصة بنفي مسلمي قشتالة وبلنسية والذي أدى إلى طرد 28 ألفا من ميناء دانية وخمسة عشر ألفا من ميناء بلنسية نقل الأولون على نفقة الحكومة الإسبانية نحو وهران ، بينما اضطر الآخرون إلى الاعتماد على أنفسهم في استئجار السفن التي حملتهم إلى السواحل الجزائرية [1].

ومما ميز النزوح الجماعي الأخير أنه شمل المناطق الساحلية الجزائرية ، وكانت جهات وهران ومستغانم وتلمسان في طليعة الأقاليم التي استقطبت النازحين الذين وفد أول فوج منهم من الدة نوفيلدا ، وتوجهوا إلى تلمسان بعد أن تفاوض في أمر نقلهم من وهران إلى تلمسان الحاكم الإسباني لوهران الدوق داغيون ، ثم تلاهم فوج آخر ضم مهاجري النواحي الجنوبية من كاسلون وكولين الواقعة إلى الغرب من بلنسية الذين نقلوا رأسا إلى المراكز الإسبانية بوهران والمرسى الكبير أو النواحي الفريبة منها كآرزيو ومستغانم ورأس فالكون[2] .

ولعل الشيء الذي عرقل وصول أعداد أكبر إلى المغرب الأوسط ما قام به قطاع الطرق من الأعراب وغيرهم في قطع الطريق أمام السفن المحملة بالأندلسيين وأمتعتهم ، والتي تخللها النهب والخراب وقتل أهلها ، حيث " تسلط عليهم الأعراب ، ومن لا تخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم " [3].

---

[1]. ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص : 132 .

[2]. المرجع نفسه ، ص : 134 .

[3]. المقري ، نفح الطيب ، ج : 6 ، ص : 280 .

ونستخلص مما سبق أن المغرب الأوسط بكامل مدنه الساحلية والداخلية كانت موئلا للهجرة الأندلسية ، خلال الفترة الممتدة من القرن السادس إلى القارن العاشر هجري ، وكانت جذورها ضاربة في عمق التاريخ إلى فترات مسبقة ، وتختلف هذه الهجرات حسب الظروف التي مرت بها إلى هجرات اختيارية ، كان يطغى عليها ما سيمى بالرحلات العلمية الأندلسية إلى كبرى الحواضر المغربية ، أو هجرات اضطرارية جراء الاحتلال الإسباني لكبرى المدن الأندلسية .

1 . 2 . أهل الذمة :

1 . 2 . 1 . اليهود :

لا شك أن الحياة الاجتماعية في الأندلس عرفت وجود طوائف اجتماعية متعددة ، ولإن كان للعنصر العربي نسبة عالية من التواجد إلا أن ذلك لا ينفي وجود أقليات دينية متمثلة في اليهود الذين تمركزوا في المدن الأندلسية بأعداد كبيرة ، ممارسين فيها نشاطاتهم الدينية والاقتصادية بسبب التسامح الديني الذي نهج السياسة العربية في الأندلس ، وعليه فإن من آثار سقوط الأندلس في أيدي الإسبان هو اضطهادها لكل الطوائف المناهضة للمسيحية ، من أجل تطهير الأرض حسب زعم الكنائس من الكفرة الذين يرفضون الاعتراف بالديانة المسيحية ، فمست آثار الاحتلال تهجير اليهود قسرا من الأندلس إلى مناطق متفرقة من العالم ، وكانت بلاد المغرب الأوسط كغيرها من البلدان قد شهدت هجرة بعض اليهود إليها .

أ . أسباب هجرة اليهود إلى بلاد المغرب الأوسط :

عرفت الأندلس بوجود الجالية اليهودية في مدنها منذ العصر القوطي ، أي قبل الفتح الإسلامي " وكانت لأنشطة بني إسرائيل أهمية كبرى في الحياة الاقتصادية بالأندلس ، لكنهم قد تعرضوا لمعاملة قاسية في عهد الدولة القوطية ، حيث أجبرهم الملك Ervigio سنة 681 م على اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد ، لذا قاموا في السنوات الأولى من فتح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا بمساعدة الفاتحين الذين أوكلوا لهم حماية العديد من المدن المفتوحة " [1].

وكانت المدن الأندلسية تعج باليهود الذين كانوا يسكنون في أربضة خاصة بهم تدعى بأرباض اليهود ، ومن أهم المدن التي حوت هؤلاء اليهود " غرناطة التي انتشرت فيها التقاليد العبرية بشكل قوي مما جعل الرازي يسميها مدينة اليهود لاكتظاظها بهم " [2] .

ولم يكن وصول اليهود إلى بلاد المغرب الأوسط مرتبطا بسقوط الأندلس عام 1492 م فحسب ، بل كانت هناك هجرات عديدة لهذه الطائفة الاجتماعية إلى المنطقة في عصور تاريخية ضاربة في القدم إذ " تعتبر مدينة الجزائر نموذجا حيا لتعايش جماعات يهودية مختلفة ، فقد سجل منذ القدم توافد عناصر يهودية إلى شمال إفريقيا ، نظرا لما لحق بهم من شتات ، واستقروا بالمراكز التجارية التي أنشأها الفينيقيون على السواحل ، واستمر توافدهم

---

[1] . ليوبولدو طريس بالباس ، الحواضر الأندلسية ، ترجمة : محمد يعلى ، مراجعة : بوجمعة العبقري ، دار أبي رقراق ، ط : 1 ، الرباط ، 2007 م ، ج : 1 ، ص : 335 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 335 .

إلى المنطقة لكن بصفة غير منتظمة خلال العهود الرومانية والوندالية والبيزنطية ، وقد سجل وقتئذ يهود بعض القبائل البربرية ، ومع بداية الفتوحات الإسلامية سجل قدوم أعداد أخرى من اليهود ، استقروا بمختلف المدن الداخلية الواقعة على الخطوط التجارية ، وبالمدن الجديدة التي بنيت ، أو أعيد بناؤها بالمغرب الإسلامي ، وشكل هؤلاء جميعا ما عرف بجماعة اليهود الأهالي أو " التوشابيم " "*" [1] .

ومنه نجد أن اليهود كانوا يلتجؤون إلى بلاد المغرب الأوسط منذ فترات موغلة في القدم بحسب الظروف السياسية والعسكرية التي كانوا يتواجدون بها ، وقد استقروا في بلاد المغرب بفعل الهجرات المتتالية لهذه الجالية بعد التشتت الذي عانوا منه في بلاد الشام ، وقد " دخل اليهود المغرب ، وعاشوا فيه نتيجة ثلاث هجرات متفرقة ، فالهجرة الأولى جاءت بعد الأسر البابلي من فلسطين إلى المغرب ، والهجرة الثانية دخل فيها اليهود إلى المغرب بصحبة الفينيقيين ، واتصلوا بالبربر ، ولهذا يوجد يهود من أصل بربري ، والهجرة الثالثة كانت في

* . التوشابيم : يعني اليهود الأهالي أطلقت على هذه الفئة منذ القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي . أنظر : فاطمة بوعمامة ، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري ، كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2011 م ، ص : 55 .

[1] . نجوى طوبال ، طائفة اليهود بمجتمع مدينة الجزائر من خلال سجلات المحاكم الشرعية ، دار الشروق ، د . ط ، الجزائر ، 2008 م ، ص : 60 . 61 .

العصر الروماني ، من القرن الأول الميلادي ، وقد جاؤوا من فلسطين ، وانتشروا بالمغرب "[1] .

وفي مقابل هذا التسامح الديني الذي عاشوا في ظله بوجود الإسلام ، فإنهم عانوا أشد معاناة من النصارى ، ولعل أعظم الأسباب التي دفعت باليهود إلى الهجرة إلى بلاد المغرب الأوسط كثرة ما عانوه من الاضطهاد في بلاد الأندلس على أيديهم ، فالدولة الزيانية في نهاية القرن الثامن عرفت هجرات عديدة من اليهود " وعلى الخصوص بميورقة وأراغون وقشتالة ، كان ذلك في أواخر القرن الثامن هجري الرابع عشر الميلادي 792 هـ / 1391 م، وما سهل مهمة هؤلاء الحفاوة التي كانوا يتلقونها من قبل أمراء الدولة الزيانية وسكانها ، زيادة على العلاقة التي كانت تربطهم بيهود الدولة المستقرين فيها منذ فترات تاريخية "[2] .

ويعد سقوط الأندلس من أهم العوامل جميعها في هجرتهم إلى المغرب الأوسط خلال القرن الرابع عشر ميلادي ، كما أنهم اضطهدوا من قبل المسيحيين في أوروبا في العصور الوسطى ، فقد عانوا كما عانى الأندلسيون من ويلات التنصير والاضطهاد والقمع والتعذيب " وخاصة في عامي 1348 . 1349 م ، إذ قام المسيحيون بموجة من الاضطهاد لليهود كان فيها المسيحيون يتخذون من قتل اليهود وسيلة للتقرب إلى الله الذي يكرههم ويمقتهم ،

[1] . نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي ، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني ، دراسة سياسية حضارية ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة الموصل 2004 م ، ص : 90 . 91 .

[2] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ص : 248 . 249 .

وكلما كان اليهود يبذلون جهودهم لمقاومة موجات الاضطهاد الأوروبي فإن موقف القوى الأوروبية بمختلف اتجاهاتها كانت ترى في التخلص من اليهود تحررا من الخطر الرابض وسط التناقض الأوروبي ، والمخطط له من قبل اليهود لاستبقائه وتعميق أسبابه " [1] .

كان هذا الاضطهاد سببا في هجرة اليهود الذين راحوا يبحثون عن مكان آمن لهم في السواحل الإفريقية التي رأوا فيها منفسا لاستمرار نشاطاتهم الاقتصادية " فالحملة الاضطهادية الكبيرة التي اندلعت في 1391 م في جميع شبه الجزيرة الأيبيرية ولاسيما في مملكة قشتالة ، ومنطقة قطلونية وجزر البليار قد تسبب في هجرة عدد كبير من اليهود الذين اتجه قسم منهم إلى البلاد المغربية " [2].

ولعل أهم سبب أدى إلى هجرة اليهود إلى المغرب الأوسط مراسيم الطرد التي أقيمت في حقهم بسبب تطاولهم على السلطة ، ووصولهم إلى مراتب عليا في البلاد خاصة في الجانب السياسي ، بعد أن اعتنق بعضهم المسيحية ، ولأجل تطهير الأرض من هؤلاء عمل الإسبان على طردهم ، " فقد استاء المسيحيون القدامى حين تبوأ كثير من اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية مراكز عليا في المجتمع الإسباني ، وبحلول أواسط القرن الخامس عشر حين كان الوضع في داخل شبه الجزيرة قد أصبح معبأ بالحماسة الدينية ، وحين ازدادت الضغوط

---

[1] . صابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 3 ، 1991 م ، ج : 1 ، ص : 52 .

[2] . روبار برنشفيك ، تارخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 ، ترجمة : حمادي الساحلي ، ج : 1 ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م ، ص : 433 .

الناتجة عن تشكيل دولة حديثة انفجر العداء بين المسيحيين القدامى وبين اليهود ومعتنقي المسيحية الجدد ، واتخذت شكل تشريعات في بلنسية (1412 م) ، ومطالبة الجماهير في طليطلة بإبعاد من تحولوا إلى المسيحية عن المناصب العامة (1449 م) ، ثم طبق المسيحيون القدامى أول المراسيم الخاصة بنقاء الدم بعد قلائل طليطلة التي جرت في عام 1449 م " [1].

وكانت هناك مجهودات جبارة من أجل حمل اليهود على الهجرة بمباركة من البابوية العليا في البلاد التي كانت تحرض على ذلك أشد التحريض ، حيث " أصدر الملك روبرشت (Rubercht) (1400 . 1410) قرارا بطرد جميع اليهود من إقليمي الراين وبافاريا ، كما حرض على وجوب ارتداء اليهود ملابسهم الخاصة التي سبق أن ابتدعها عام 1210 م البابا إينوسنس الثالث (Innezenes 3) ، ومن ثم أخذت هذه العادة في منتصف القرن الثالث عشر في الانتشار في كثير من البلاد الأوروبية ، وظل اليهود عرضة للتقتيل والحرق والتشريد فريديريك الثالث (1440 . 1493 م) الذي أعلن حمايته لليهود ، ومنحهم كثير من خطابات الأمان " [2] .

ولا شك أن حملة التنصير التي صحبها هدم للمساجد وتحويلها إلى كنائس قد مس أرباض اليهود أيضا ، إذ يشير إلى ذلك " الرحالة الألماني Jeronimo Munzer الذي زار غرناطة

[1] . أندروهين ، افتراق العالم الإسلامي والمسيحي ، ص : 200 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 52 . 53 .

أواخر سنة 1494 م بأن موقع ربض اليهود في نهاية الدولة النصرية ، كان عند وسط المدينة ، وضم . حسب نفس هذا الرحالة . حوالي 20000 يهوديا ، وقد أمر الملك فيرناندو بهدمه ليقيم على بقعته مستشفا كبيرا ، وكنيسة كتدرائية منسوبة للعذراء (La Virgen) بنيت قببها في تاريخ مذكور [1] .

وبهذا نلاحظ أن التنصير والتعذيب لم يمس العرب المسلمين المتواجدين في بلاد الأندلس فحسب ، وإنما تعدى ذلك إلى جميع الطوائف المناهضة للنصرانية مهما كانت عقيدتها ومذهبها الديني لذلك كان " اليهود بصفة خاصة هدفا للتعصب المسيحي المتزايد في القرن الخامس عشر ، فقد جرت مذابح في تلك الأزمان ، فالملكة إيزابيلا أمرت في سنة 1480 م بطرد جميع اليهود الذين رفضوا التعميد ، وأمر الملك فريديناند سنة 1486 م بطردهم من أراغون " [2] .

لقد كانت هجرة اليهود بناء على نص اتفاقية الاستسلام التي عقدت بين ملك بني الأحمر والإسبان ، والتي جاء في أحد بنودها أحقية اليهود في الهجرة إلى عدوة المغرب ، حيث شملت المادة الثالثة والثلاثون منها أن " اليهود من مواليد مدينة غرناطة والبيازين وأرباضهما والأراضي التابعة لهما ، واليهود الذين كانوا من قبل نصارى ، ويسمح لهؤلاء

---

[1] . ليوبولدو طريس بالباس ، الحواضر الأندلسية ، ج : 1 ، ص : 343 .

[2] . هنري تشارليس لي ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ص : 40 . 41 .

اليهود بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه "[1]، وعليه سمحت هذه الاتفاقية لليهود بالرحيل من بلادهم إلى الوجهة التي يرغبون الاستقرار فيها ، فكان حظ المغرب الأوسط منها كبيرا .

أما خلال القرن السادس عشر فأهم عمليات الطرد الجماعية لليهود من أوروبا كانت تفرض تباعا ، " ففي سكسونيا وقع أول اضطهاد بروتستيني على اليهود وكان ذلك عام 1536 م ، حيث طرد أمير الأقاليم يوحنا فريديريش اليهود من إقليمه ، وفي عام 1539 م سمح لهم بعبور سكسونيا فقط ، ثم ألغى هذا الإذن عام 1543 م ، وما حدث في سكسونيا حدث أيضا في هبين وبراندبورغ "[2] .

أضف إلى هذه الأسباب جميعها ما تسببت به الأوضاع الاقتصادية في تعجيل هذا الطرد، نظرا لغنى هذه الطائفة ، " فبتخصص اليهود بالتجارة التي تشكل عصب حياتهم الرئيسي ، ومجال نشاطهم الاقتصادي الهام فقد شكلوا عقبة أمام نمو الطبقة البورجوازية الإسبانية "[3].

وكانت هناك عوامل سياسية ودينية أخرى دفعت اليهود إلى الهجرة إلى بلاد المغرب الأوسط ، " فقد يتساءل البعض عن سر هجرة اليهود مع العرب بعد سقوط الأندلس إلى

---

[1] . عبد الحكيم ذنون طه ، آفاق غرناطة ، ص : 66 .

[2] . صابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام ، ص : 54 . 55 .

[3] . عبد الملك خلف التميمي ، الخليج العربي والمغرب العربي دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، دار الشباب ، ط : 1 ، الكويت ، 1986 م ، ص : 232 .

المغرب العربي ، رغم اختلاف الدين والعادات والتقاليد ، ففي الحقيقة أن اليهود قد رأوا في المعاملة الحسنة أثناء وجودهم في إسبانيا عاملا مشجعا للرحيل معهم إلى هذه المنطقة ، وهذا يرجع أساسا إلى الإسلام ودعوته إلى معاملة أهل الكتاب بالحسنى " [1] .

ويشهد التاريخ عن التسامح الديني الذي شهدته بلاد الأندلس خلال العصور التاريخية مع كل الطوائف الدينية المسيحية واليهودية ، فظاهرة التسامح الديني قد تجلت في العديد من علاقات المسلمين بغيرهم من أهل الذمة سواء كانوا نصارى أو يهود ، وقد كان يحملهم على فعل ذلك تعاليم هذا الدين السمحة الرامية إلى العدل مع الرعايا خاصة إذا كانوا على غير دينهم " فيهود الأندلس الذين تشبعوا كثيرا بالثقافة العربية الإسلامية عاشوا في عهد الخلافة الأموية ، وفترة ملوك الطوائف عصرا ذهبيا حقيقيا فكريا وثقافيا ، يمثل بعض الصفحات الساطعة لتاريخ اليهودية في القرون الوسطى ، ولم يكن التشريع الإسلامي يفرض عليهم قيودا " [2] ، هذا بالإضافة إلى وجود الدولة العثمانية القوية ، التي كانت سندا للعرب المسلمين ، والتي حملت لواء الدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم في المشرق والمغرب ، فالذي دفع باليهود إلى الهجرة هو " قوانين الإمبراطورية العثمانية حول حماية حقوق الجاليات الأجنبية ، كما أن خيرات المنطقة الاقتصادية ، وأهمية موقعها من الدوافع أيضا لتلك الهجرة " [3] .

---

[1] . عبد الملك خلف التميمي ، الخليج العربي والمغرب العربي ، ص : 232 .

[2] . مرسيداس غارسيا . أرينال ، شتات الأندلسيين ، ص : 37 .

[3] . عبد الله خلف التميمي ، المرجع السابق ، ص : 232 .

وبهذه العوامل جميعها ، أصبحت الهجمة مضادة للوجود اليهودي بالأندلس ، فكان سقوط غرناطة أهم لحظة تاريخية في نهاية الوجود اليهودي بها ، وأصبح لزاما على اليهود البحث عن أماكن آمنة للاستقرار فيها ، فوجدوا أرض المغرب الأوسط البقعة الجغرافية المناسبة للهجرة سياسيا واقتصاديا ودينيا ، فاستقروا في العديد من المدن الساحلية التي حافظوا فيها على تجارتهم وعقيدتهم وثقافتهم .

ب . مراكز استقرار اليهود المهاجرين من الأندلس في بلاد المغرب الأوسط* :

هاجر اليهود إلى المغرب الأوسط عبر فترات تاريخية عديدة ، رغم المواقف العدائية من بعض الدول الإسلامية التي حكمت المغرب كالمرابطين والموحدين ، " فالمرابطون اتخذوا موقفا متشددا نحو اليهود فيذكر الإدريسي أن اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي ، ولا تدخلها إلا نهارا ، وتنصرف منها عشية وليس دخولهم في النهار إلا لأمور له وخدم تختص به ، ومتى ما عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه " [1] ، أما في العهد الموحدي فقد قام الموحدون باضطهاد اليهود نظرا للسياسة الدينية التي اتبعها هؤلاء في التعامل مع أهل الذمة فيذكر المراكشي في تشدد

* أنظر هذا التوزيع في خريطة انتشار اليهود الوافدين من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492 م في الملحق رقم 6 في آخر هذا البحث .

[1] . كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، د . ط ، الإسكندرية ، 1996 م ، ص : 37 .

الموحدين نحو أهل الذمة في المغرب فيقول : " ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة " [1]، لكن رغم ذلك التجأ العديد منهم إلى المغرب الأوسط ، " ومن المحتمل علاوة على ذلك أن تكون جميع المدن ذات الأهمية الواقعة على ساحل إفريقية قد استمرت بدون انقطاع في إيواء عدد من اليهود من ذلك مثلا أن الطوائف اليهودية الموجودة في بجاية وعنابة وطرابلس والمشار إليها في القرن الخامس عشر في أجوبة الأحبار بالجزائر كانت تعتبر بلا شك أقدم الطوائف بكثير " [2] .

عرفت العديد من المدن الجزائرية هجرات يهودية كثيرة ، بفعل انتقالها إلى المغرب مع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، فلم يستقر اليهود في منطقة محددة ، وإنما انتشروا في كثير من المدن و" أكبر المناطق التي استقر فيها اليهود هي مدينة تلمسان ووهران والجزائر أين قطن بها عدد كبير من يهود الأندلس ، وفرضوا أنفسهم على اليهود الأهالي " [3] ، ومن أهم المدن التي استقر فيها هؤلاء اليهود نذكر :

---

[1] . كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ، ص : 38 .

[2] . حمادي الساحلي ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م ، ص : 431 .

[3] . فاطمة بوعمامة ، اليهود ، ص : 58 .

- **وهران :**

كانت هناك هجرات يهودية عديدة إلى وهران خلال العديد من العصور التاريخية ، ففي عهد الدولتين المرابطية والموحدية كان هناك توافد للعديد من اللاجئين اليهود إلى المنطقة ، وكانوا يشكلون وحدة اجتماعية ذات أعمال متفرقة في المجتمع المغربي ، " وفور وصولهم إلى وهران ساعد اليهود الأسرة البربرية الحاكمة للمرابطين على استمرار جهود الحرب ضد مسيحي إسبانيا ، فخضعوا للجزية ، ولكن مساهمتهم لم تقتصر على الجانب المالي ، فهم حاربوا إلى جانب المرابطين ، وكانت هناك فرقة من المرتزقة اليهود ضمن جيش المرابط يوسف " [1] .

أما في العهد الموحدي فقد تقلص عدد اليهود المتوافدين على المدينة " إذ في عام 1145 م عند استيلاء الأسرة الحاكمة للموحدين على وهران وقعت أزمة عدم التسامح الديني بوهران، فقد قرر الموحدون فرض الإسلام بالقوة على كل الذميين (المحميين) المقيمين بمملكتهم ، فمنع اليهود من التصرف وفق هويتهم علنا " [2] .

وبدخول وهران تحت الحكم الزياني ، فقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية بها ، وسمحت الدولة الزيانية بدخول الجاليات اليهودية إلى المنطقة ، وكان حظ مدينة وهران من هذه الجالية وافرا ، " فقد استقر بها مجموعة من هؤلاء اليهود تزعمهم الحاخام شمعون بن سماح

[1] . عيسى شنوف ، يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود ، دار المعرفة ، د . ط ، الجزائر ، د . ت ، ص : 48 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 48 .

دوران ، كما انتقل البعض لقلعة بني راشد لموقعها الاستراتيجي من جهة ، وازدهارها التجاري ، ولم تكن مدينة وهران في المرحلة الأولى من بين المدن التي تحتل فيها الجالية اليهودية نسبة كبيرة بالنسبة لمراحل تواجد الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية قبل القرن العاشر هجري السادس عشر الميلادي ، لكن خلال القرن 10 هـ / 16 م زاد تواجدهم عن ما كان عليه في السابق كنتيجة لمعاملة الدولة لهم ، فكانوا يشرفون على مراكز الديوانية في وهران ، وأبواب المدينة لقبض المكس من التجار الوافدين على المدينة " [1].

وتعود رغبة اليهود في الاستقرار بهذه المدينة نظرا لملاءمتها لمواصلة نشاطهم الاقتصادي في المنطقة ، فالمعروف عنهم أن أغلبهم كانوا يمارسون مهنة التجارة في الأندلس ، وقد ساعد موقع مدينة وهران الاقتصادي على تحقيق طموحاتهم في بلاد المغرب، فاليهود " أغلبهم من التجار الذين كانوا يتنقلون بين وهران وأراضي الدول الأوروبية المطلة على البحر المتوسط كمرسية ومالقة والمرية وغيرها من الموانئ " [2] .

- **تلمسان :**

تتجلى أهمية تلمسان عند اليهود في الأثر الروحي لهذه المدينة على نفوسهم ، إذ يعود وجود هذه الفئة فيها إلى أزمنة موغلة في القدم ، وكانت هناك علاقات بين الشعب اليهودي والمنطقة لدرجة أنهم بالغوا في وصفها وبيان جمال حسنها ، " فبالنسبة لليهود الذين يعدون

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 250 . 251 .

[2] . المرجع نفسه ، ج : 3 ، ص : 251 .

جزءا من تاريخها ، كانت تلمسان أرض اصطفاء ، فكانت تعرف عندهم باسم جوهرة المغرب، وكان الكلام عن تلمسان المقدسة الطاهرة تلمسان " محمية الرب " "[1] ، ومن هذا الأثر الروحي ، تعلقت نفوس اليهود بهذه المدينة ، فاختاروها مكانا لاستقرارهم .

أما خلال عصر الدولة الزيانية ، فيعود وجود اليهود بها إلى " الحاخام الكاوة المعروف بابن الأشقر ، كان يشرف على أبناء جاليته ، ويتمتع بنفوذ واحترام من قبل أمراء الدولة الزيانية ، كما أشرف على تعليم علوم الطب "[2].

وبسقوط غرناطة مملكة بني الأحمر في الأندلس ، توافد العديد من اليهود على مدينة تلمسان ، وكان لهم حظ في العديد من الوظائف السياسية والاقتصادية ، و" قد عاش اليهود في كنف المسلمين وتحت حمايتهم مقابل دفع الجزية التي قدرها الشرع الإسلامي ، وكانوا ينعمون بحرية أداء الشعائر الدينية والعناية والدعم من قبل سلاطين بني زيان "[3].

إن اليهود إذن كثر توافدهم إلى مدينة تلمسان إثر سقوط الحواضر الأندلسية ، وذلك بفعل الضغوطات التي تعرضوا لها في أوروبا من قبل الكنائس الكاثوليكية ، وبمباركة من البابوية في مباركة الحرب المقدسة ، لتطهير أوروبا من الأقليات الدينية الأخرى من مسلمين ويهود ، فقد كان لسقوط المدن الأندلسية وخاصة منها مدينة غرناطة أثر في توافد اليهود

[1] . عيسى شنوف ، يهود الجزائر ، ص : 59 .

[2] . نفسه ، ج : 3 ، ص : 250 . 251 .

[3] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ص : 193 .

على المدينة لقربها من الأندلس من جهة ، ولأهميتها الاقتصادية ، وخاصة في المجال التجاري من جهة أخرى لامتهان اليهود هذه المهنة منذ أزمنة بعيدة .

ولأهمية هذا النشاط فقد مارس اليهود التجارة في مدينة تلمسان " ولكونهم تجارا فقد أنشأوا علاقات بين أوروبا والمشرق ، وحافظوا عليها ، وابتداء من القرن الثامن أخذت العلاقات مع إسبانيا القارية ، وجزيرة مايورقة شكلا متواصلا ، فنظمت الشركات المختلطة الموجودة ببلاد المغرب وكتالونيا بتنظيم التبادلات التجارية ، فاتخذ اليهود من مايورقة وأراغون من تلمسان مدينة التجار النزهاء ، وقد فتح المغرب الأوسط ذراعيه لسكان كتالونيا بفضل مساعي اليهود "[1] .

وبهذا أضحت تلمسان المركز الآمن لليهود في ممارسة نشاطاتهم الاقتصادية بكل حرية ، فكان لهم دور في ربط علاقات تجارية من مختلف الجنسيات الأخرى .

وفيما يخص المساكن التي كان يقطنها اليهود ، وكيفية استقرارهم في هذه المدينة فإنه " لم تكن بالمغرب الأوسط أحياء خاصة لليهود ، بل كانوا يعيشون في جماعات موزعة ضمن الأهالي من المسلمين إلا أن يهود تلمسان كانوا يقيمون بأغادير في القرن 8 هـ / 14 م ثم

---

[1] . عيسى شنوف ، يهود الجزائر ، ص : 70 . 71 .

في نهاية القرن نفسه سمح لهم بالإقامة تحت أسوار المشور بعد تودد الحبر إفراييم عنقاوة للحاكم ، كما سمح لهم ببناء بيع " [1] .

- **الجزائر :**

هاجر اليهود إلى مدينة الجزائر ، وتعتبر هذه المدينة من أهم المراكز العمرانية العامرة بالجالية اليهودية القادمة من الأندلس لفترات تاريخية متعاقبة ، بفعل المنشآت التجارية العديدة بهذه المدينة ، ويعتبر تاريخ سقوط الأندلس وبداية التوسع الإسباني على حساب أراضيها تاريخا فاصلا في حياة اليهود واستقرارهم بالأندلس ، وبعامل القسوة الذي طبقته على هذه الجالية في عدوة الأندلس كان لزاما عليها الرحيل ، فاستقر الكثير منهم في مدينة الجزائر الساحلية لعوامل عدة منها قربها من بلاد الأندلس من جهة ، وتوفرها على الميناء البحري لامتهان التجارة من جهة أخرى ، وقد بدأت الهجرة اليهودية إلى مدينة الجزائر خصوصا " قبل عام 1391 م حيث وصلت جماعة صغيرة من اليهود وفدت إلى مدينة الجزائر من جزر البليار ، وبالضبط من مدينة مايورقة بعد أن تعرضوا للطرد من طرف الملك ألفونسو الأرغواني ، أما في سنة 1342 م وصل إلى مدينة الجزائر مهاجرون يهود من إيطاليا وعناصر أخرى وفدت من الأراضي المنخفضة عام 1350 م " [2] .

[1] . فاطمة بوعمامة ، اليهود ، ص : 70 .

[2] . سعيدوني ، دراسات أندلسية ، ص : 62 . 63 .

وبتعدد العوامل التي دفعت باليهود إلى الهجرة أضحت مدينة الجزائر الساحلية عامرة بالعديد من السكان اليهود الذين أصبحوا يمثلون جالية سكانية ذات كثافة معتبرة مقارنة بعدد السكان الأصليين ، وكانت لهم العديد من النشاطات الاقتصادية خاصة " مع تطور حرب القرصنة التي كونت ثورة مدينة الجزائر ، إذ سيكون لليهود دور إيجابي في إعادة بيع غنائم القراصنة وافتداء السجناء الأوروبيين " [1] .

وقد كانت هناك عدة علاقات تربط اليهود فيما بينهم أي بين اليهود الأهالي الذين كان وجودهم في بلاد المغرب الأوسط قديما ، وبين اليهود الجدد الوافدين على المدينة بفعل تأثير سقوط الأندلس ، فبالنسبة لمدينة الجزائر " يعود الفضل إلى الحاخامين إسحاق بارشيشا برفات وسيمون بن سماح دوران ، اللذان وضعا اللبنة الأولى والأساسية لتنظيم الجماعة اليهودية بمدينة الجزائر ، وقد أصبح لها مكانة مميزة لدى الكثير من الجماعات اليهودية في سائر بلاد المغرب " [2] ، ولم يفصل بين اليهود الأهالي واليهود الأندلسيين القادمين من بلاد الأندلس سوى الزي الذي كان يحمله كل من الطائفتين حيث كان " يعرف هؤلاء القادمون الجدد بحاملي القبعات أو الكابوسين تمييزا لهم عن حاملي العمائم اليهود الأهالي ، ويبدو

[1] . عيسى شنوف ، اليهود ، ص : 72 .

[2] . سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 64 .

أنهم عاشوا بها منذ نهاية القرن الخامس عشر وطيلة القرن السادس عشر في أمان حيث مارسوا شعائرهم الدينية ، وحافظوا على عاداتهم الاجتماعية " [1] .

- **بجاية وقسنطينة :**

على الرغم من الصراع السياسي القائم بين الدولتين الحفصية والزيانية حول هذه المدينة لسنوات طويلة ، إلا أنها كانت في العديد من الأحيان تخضع لنظام الحكم الزياني ، وقد عرفت هذه المدينة على غرار المدن الأخرى هجرات الطوائف الاجتماعية من بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة ومنهم اليهود الأندلسيون.

وقد اختار بعض اليهود مدينة بجاية لاستقرارهم فيها بفعل عدة عوامل ولعل أهمها " يرجع بالدرجة الأولى إلى موقعها الجغرافي والاستراتيجي الذي مكنها من ربط علاقات هامة مع الدول الإسلامية المشرقية والمغربية وحتى مع الدول والممالیك الأوروبية " [2] ، وبهذا غدت هذه المدينة أيضا موطنا لهجرات اليهود بعد ترحيلهم النهائي من الأندلس بحثا عن الاستقرار والتفرغ لممارسة نشاطاتهم الاقتصادية بكل حرية ، حيث "عاش اليهود في بجاية منذ وقت طويل أجواء من التسامح والعدل والإنصاف لهم حقوق ، وعليهم واجبات وفق أحكام أهل

[1] . سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 67 . 68 .

[2] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 66 .

الذمة ، وقد ساهموا في إثراء الحضارة العربية وتنوعها وترجمة تراثها إلى سائر اللغات الأوروبية " [1].

كما كان لهذه الجالية نشاطات اقتصادية واسعة لأهمية مدينة بجاية في الجانب الاقتصادي حيث " كان يهود بجاية يستوردون الفضة الأوروبية الموجهة للصناعة التقليدية المحلية ، ومارسوا أيضا الوساطة على الملح والجلود والأقمشة والشمع والعبيد " [2].

أما مدينة قسنطينة فكانت هي الأخرى موطنا للعديد من اللاجئين اليهود بعد سقوط غرناطة ، " ففي أوائل القرن السادس عشر كانت قسنطينة تعد حسبما يبدو حوالي ثمانية آلاف أسرة مثل بجاية ، وهو ما يمثل حوالي أربعين ألف نسمة بما في ذلك أفراد طائفة يهودية كثيرة العدد لم تكن تسكن في حي منفصل " [3] ، كما " كانت مدينة قسنطينة تضم بدون انقطاع يهودا من ذوي العادات المتأثرة جدا بالطابع البربري " [4] .

1 . 2 . 2 . النصارى* :

---

[1]. محمد الشريف سيدي موسى ، المرجع السابق ، ص : 67 .

[2]. عيسى شنوف ، اليهود ، ص : 71 .

[3]. حمادي ، الساحلي ، إفريقية في العهد الحفصي ، ص : 422 .

[4]. نفسه ، ص : 432 .

* استعملت عدة مصطلحات للدلالة على هذه الطائفة الاجتماعية ، فاستعمل بعض المؤرخين مصطلح " الروم " للتعبير عن نصارى كل الغرب المسيحي ، بينما استعمل مؤرخون آخرون لفظ " النصارى " أو " النصارى المعاهدين " أو " المعاهدين " فحسب ، في حين أطلق على نصارى الأندلس المحاربين لفظ " عجم الأندلس " ، وعلى المسيحيين الذين خضعوا لأحكام الذمة " الروم البلديين " ، أما ابن الأثير فقد سماهم " الممالك الافرنج والروم " ، واكتفى ابن خلكان بذكر

تشكل هذه الطائفة شريحة اجتماعية هامة في المجتمع الأندلسي ، وبعد دخول المرابطين إلى الأندلس وسقوط إمارات الطوائف ، كثر عدد المستعربين والمولدين ، " ونظرا للنمو الهائل لعدد المستعربين المقيمين بالأندلس ، فقد أصبحوا يشكلون خطرا يتعاظم يوما بعد يوم ، يهدد أمن الدولة ، خصوصا مع تقدم الحدود السياسية المسيحية في اتجاه الجنوب على حساب الأندلس الإسلامية ، مما جعل المرابطين مدفوعين بعقيدة دينية مثالية أقل تسامحا من عقيدة ملوك الطوائف يميلون إلى التفكير في خفض عدد المستعربين بالأندلس ، ففي سنة 1106 م تم بالتأكيد نفي المستعربين المالقيين إلى شمال إفريقيا " [1]، وبعد ذلك صدرت قوانين أخرى لحمل النصارى المستعربين الانتقال إلى إفريقيا ، " إذ نجم عن الحملة العسكرية التي شنها الفونسو المحارب على الأندلس ، صدور أمر من أمير المسلمين بن يوسف المرابطي في خريف 1126 م يفرض على عدد مرتفع من النصارى المستعربة الانتقال من الأندلس إلى إفريقيا صحبة أسرهم ، وتشير مدونة أخبار Adefonsi Imperatoris إلى أن تاشفين بن علي المرابطي ، عندما غادر الأندلس راجعا إلى إفريقيا سنة 1138 م ، حمل معه عدة أسرى مسيحيين مستعربين " [2] .

لفظ " مماليك " ، بينما أطلقت عليهم المصادر اسم " العلوج " . أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش ، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس عصر المرابطين ، دار الطليعة ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ص : 67 .

[1] . ليوبولدو طريس بالباس ، الحواضر الأندلسية ، ص : 316 .

[2] . نفسه ، ص : 317 .

وكانت الجالية المسيحية ذات طبقات في المجتمع المغربي ، فقبل دخول النصارى الإسبان إلى بلاد المغرب الأوسط ، واحتلال مدنه الساحلية ، كان هؤلاء النصارى يشكلون أغلبهم طبقة العبيد التي كانت تباع في أسواق المغرب الأوسط ، أو مشتغلين في الزراعة ، وقد تم جلب العديد من العبيد الاسبان خاصة بعد الهجمات التي كان يشنها رياس البحر على السواحل الجنوبية لإسبانيا ، " وكان هؤلاء الأسرى يباعون ويشترون بسوق بمدينة بجاية ، ويشكلون طبقة العبيد التي كانت محل ازدراء العامة والخاصة ، وكانت بجاية تغص بالأسرى ، ويسمع مشيهم في الشوارع وهم يساقون إلى ساحة السوق أو إلى مراكز السجون " [1] .

كما كثر عدد النصارى الذي أسروا في الحروب التي جرت في مسرغين بالقرب من وهران ، حيث يصف أحمد توفيق المدني غلبة المسلمين ، وخسارة المسيحيين فيقول : " فازداد رعب الإسبان وانهيارهم ، وانهال عليهم العرب من كل جانب يعملون في رقابهم السيف ، فكادوا يقتلون عن آخرهم ، لولا أن مناديا من أهل الأندلس المدجنين الذين خضعوا لإسبانيا وتنصروا نادى المسلمين باللسان العربي : أن ائسروهم ولا تقتلوهم ، فإنكم ستكسبون مالا كثيرا عندما يبعث لكم أهلهم بفديتهم ، وهكذا مال بعض المسلمين عن قتل الاسبان إلى أسرهم ، فأسروا بعض المئات "[2] .

[1] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 65 .

[2] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 95 .

أما المجتمع التلمساني فقد عرف وجود الطائفة المسيحية ، ومن أهم الشخصيات التي عرف عهدها نموا سكانيا هائلا بالنسبة لهذه الطبقة يغمراسن ، " فعندما وقعت محاولة اغتيال يغمراسن من قبل الفرقة العسكرية المسيحية سنة 652 هـ / 1254 م كف سلاطين بني زيان عن استخدامهم في حين تشير بعض النصوص إلى أنه في سنة 665 هـ / 1266 م استخدم العاهل التلمساني فرقة مسيحية هامة تتكون من القطاليين والأراغونيين بقيادة الأب فيلارجو ، ثم تولى القيادة بعده قيوم غاليران دي كارنيلا ، وفي سنة 670 هـ / 1271 م كان نحو 500 فارس من الروم يقاتلون إلى جنب يغمراسن ضد بني مرين "[1] .

ويشير يحي بن خلدون في كتابه بغية الرواد إلى وجود هذه الطائفة في المجتمع التلمساني في عهد السلطان أبي حمو الزياني الثاني حيث يقول عنه : " فاستركب الحرم ، وحمل الأموال وأكفل بذلك الخصيان والنصارى المستخدمين " ، كما " استقبل أبو تاشفين بعد سنة 725 هـ / 1325 م بعض أرباب السفن من النصارى مثل ابن الملك جاك الثاني الأراغوني، وصار هذا الأخير يقوم مقام الوسيط الدبلوماسي بين سلطان تلمسان والملك الأراغوني "[2].

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 188 .

[2] - المرجع نفسه ، ج : 1 ، ج : 1 ، ص : 189 .

2 . المظاهر الاجتماعية الأندلسية بالمغرب الأوسط :

لقد تأثر المجتمع الجزائري بمظاهر اجتماعية متعددة برحيل الأندلسيين واستقرارهم في مدن كثيرة من المغرب الأوسط ، ولعل هذا التأثير انعكس من خلال بعض المميزات التي يتميز بها المجتمع الأندلسي المتعلقة باللباس والمآكل والعادات والتقاليد والاحتفالات ... وغيرها من المظاهر الاجتماعية الأخرى ، خاصة بعد احتكاكه بالنصارى وتأثره ببعض خصائصهم الاجتماعية .

2 . 1 . الطبقات الاجتماعية للأندلسيين في المغرب الأوسط :

من خلال قراءتنا للتأثيرات المختلفة للجالية الأندلسية في المغرب الأوسط ، لاحظنا أنها مست كل الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية ، وكان لها نشاط مكثف[1] في المنطقة من خلال تطبيقها لخبرتها الاجتماعية في تلك المجالات ، وعليه انقسمت هذه الجالية إلى طبقات متعددة حسب المكانة التي كانت تتبوؤها في الأندلس ، والتي عملت جاهدة على تحقيقها في المغرب الأوسط فنجدها تتوزع في شكل طبقات كالآتي :

[1] . ينظر وثائق تبين نشاطات الأندلسيين في الجزائر في الملحق رقم 2 في آخر البحث .

- **طبقة الفلاحين :**

وهم المختصون بالجانب الزراعي ، فكانوا يفضلون الاستقرار في المناطق الريفية لمزاولة نشاطهم الفلاحي ، وكان هؤلاء الأندلسيون من الطبقة الوسطى التي تعتمد على الزراعة للحصول على قوتها ، وكانت هذه الفئة تنتشر " عبر السهول ، والتي تمتهن الزراعة وغرس الأشجار المثمرة ، وتتمركز في سهول متيجة ومرتفعات الساحل وسفوح الأطلس " [1] ، فكانت هناك طبقة اجتماعية ميسورة الحال ، لأن العديد من الأندلسيين كانوا يتمتعون بقدر عال من الرفاهية في العيش ، وبعد نكبتهم في الأندلس وخروجهم منها ، أخذوا معهم أموالهم واستغلوها في العديد من الأنشطة الاقتصادية ، ويذكر في هذا الصدد أن بعض الأندلسيين كانت لهم أوقاف[2] خصصوها للفقراء والمساكين " فحبس أغنياء الأندلس على ذلك أوقافا داخل مدينة الجزائر وخارجها ، لتنفق على شؤون العبادة وتقديم العون لفقرائهم ، وكانت هذه الأوقاف تشمل العديد من الأملاك العقارية والأراضي الزراعية " [3]، وقد ساعد الأندلسيين على تحقيق هذه المهام الاجتماعية النبيلة " تشجيع السلطان العثماني بايزيد الثاني الأوقاف في الدولة العثمانية ، وأسبغ عليها مناعة وحصانة أبعدت عنها أنظار الطامعين وجعلها في مأمن من الضرائب والمصادرات "[4].

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 58 .

[2] . ينظر الملحق رقم 10 في آخر البحث .

[3] . نفسه ، ص : 69 .

[4] . ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي في الجزائر ، ص : 141 .

- **طبقة البحارة :**

وكانت تفضل الاستقرار بالقرب من الموانئ البحرية ، وتفضل مهنة الملاحة والتجارة ، وكانت هذه الفئة أغنى من الفئة السابقة ، نظرا لأهمية نشاطها في خلق الثروة ، ومما يميز هذه الطائفة كذلك على المستوى الاجتماعي أن هؤلاء الأندلسيين " كان همهم الرئيسي في ذلك ليس السعي لاكتساب النفوذ السياسي والوصول إلى المناصب العليا بالدولة ، وإنما الرغبة في تنمية ثرواتهم ، واستغلال أملاكهم ، واستثمار مزارعهم ، وبذلك أصبح الأندلسيون يؤلفون طبقة ميسورة الحال مع بقية إخوانهم من سكان الحواضر بالنسبة إلى بقية سكان البلاد الجزائرية " [1].

- **الطبقة السياسية :**

وصل العديد من الأندلسيين إلى تقلد العديد من الوظائف السياسية في الجزائر ، مما مكنهم من دخول عالم السياسة ، والاشتغال في مناصب عليا في البلاد ، كالحجابة والوزارة، وهما من أرقى الوظائف الحكومية في ذلك الوقت ، حيث تخيل للوزير والحاجب صلاحيات واسعة في البلاد ، وقد يتدخل في الشؤون الداخلية كما هو الأمر بالنسبة لبعض الأسر

---

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص : 144 .

الأندلسية التي توارثت هذه المناصب بين أفراد عائلتها كأسرة ابن عمر الأنصاري في بجاية، وأسرة ابن سيد الناس ، وعائلة ابن الملاح .

- **طبقة الجند :**

شكل الأندلسيون أيضا شريحة اجتماعية هامة خدمت الجزائر خدمة عسكرية ، فكانوا أداة فاعلة في النشاطات العسكرية التي كانت تتم في البلاد ، بالإضافة إلى استغلالها كطاقات بشرية دافعت عن ممتلكات الدولة ، وحافظت على حدودها السياسية ، كما كان الجند الأندلسيون أداة فاعلة في القضاء على الثورات والفتن الداخلية حيث نجد أن " عروج بربروسة تمكن من تشتيت قوة حاكم تنس وأعوانه في معركة جرت بسهول الشلف ، وذلك بفضل مساعدة 500 فارس أندلسي من أهالي غرناطة وأراغون وبلنسية " [1]، هذا بالإضافة إلى وظيفتهم في حراسة الثغور ، والمشاركة في الدفاع عن الجزائر بعد احتلالها من طرف الإسبان .

- **طبقة العلماء :**

شكل العلماء والمدرسون طبقة اجتماعية هامة في المجتمع الجزائري في العصر الوسيط، وكان لهم مكانة مرموقة في أوساط السكان المحليين الذين تأثروا بهم وبأفكارهم ، حتى أضحت حلقاتهم تعج بطلبة العلم الذين الكانوا يتوافدون عليهم من كل صوب ، ولا شك أن

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 138 .

بروز هذه الطبقة في مجتمعنا راجع بالدرجة الأولى إلى اعتناء ملوكها بالحياة العلمية والثقافية ، وتأثرهم بالثقافة الأندلسية التي ذاع صيتها في المشرق والمغرب .

ومما يذكر في هذا السياق أن البعض من الأندلسيين المهاجرين ضاقت بهم الأرض ، ولم يرضوا على الوضعية الاجتماعية التي آلوا إليها خاصة في العهد التركي خلال القرن السادس عشر ، فتوجد إشارات إلى أن " السلطان العثماني سليم الثاني أرسل أحكاما إلى بايلرباي الجزائر عرب أحمد باشا (1572 . 1574 م) يبين كيف أن جماعة العلم والصلاح الذين قدموا من الأندلسيين إلى الجزائر قاموا بإرسال مبعوث عنهم إلى الدولة العثملنية للشكاية عن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي بالجزائر ، بحيث لما طلب هؤلاء العلماء توظيفهم وخاصة في الوظائف الإدارية والتعليمية رفضت السلطات المحلية تشغيلهم على أساس أنهم جاؤوا من الخارج ، وأمام هذه الوضعية قام الباب العالي بإرسال أمره السلطاني إلى حاكم وقاضي مدينة الجزائر بإنصاف هذه الفئة من أفراد الجالية الأندلسية على أن يكون التوظيف على أساس الاستحقاق والجدارة بعيدا عن التحزب "[1] .

- **طبقة الفقراء :**

على الرغم من وصول بعض الأندلسيين إلى مراتب عليا في البلاد ، إلا أنه وجدت إشارات في بعض الوثائق الإدارية التي تنص على وجود طبقة اجتماعية أندلسية فقيرة في

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 59 .

الجزائر خلال العصر التركي ، وأنها عانت من التهميش ، ولكن السلطة العثمانية قد تدخلت في هذا الشأن للتخفيف من حدة الوضع ، و نجد أن سلاطين الدولة العثمانية قد تحملوا المسؤولية تجاه هؤلاء الأندلسيين ، وخاصة المستقرون منهم في الجزائر ، فقد وجدت العديد من الوثائق السياسية التي تبين حرص الدولة العثمانية على حسن معاملة هؤلاء اللاجئين لاعتبارات أخلاقية ودينية ومن بين تلك الأوامر التي وجدت في الأرشيف العثماني الجزائري مهمة دفتري رقم (23) حكم رقم (244) بتاريخ : 19 / 7 / 981 حكم إلى أمير أمراء الجزائر ، وهو أمر بتحسين معاملة المهاجرين الأندلسيين ومنحهم أراضي مخصصة ، وجاء في نص هذه الوثيقة :

" تقدم فقراء الأندلس [كذا] ومدخل [كذا] بعرض حال جاء فيه أن غالبيتهم من الفقراء وأهل العمل ، وأنهم غير قادرين على الكسب والعمل ، وليس لهم حرفة يشتغلون بها ، وأنهم يعانون من ضيق العيش نتيجة ذلك .

وذكروا بأنه يوجد مخصصات [جهات] كثيرة لبلادهم في الجزائر ، إلا أن القضاة والمباشرين يعطون تلك المخصصات في حالة شغورها إلى أهالي البلاد ويدعون بأنها ليست من حق الأندلسيين أو من حق أعراب (مدجر ؟) ، وبناء عليه فإننا نأمر :

بإعطاء تلك المخصصات في حالة توفرها إلى المستحقين من فقراء المسلمين من أهل العلم والقرآن ، سواء كانوا من أعراب أو من أندلسيين أو غيرهم وأمرنا حال وصوله ، عليك بتنبيه

القضاة والحكام ومتولي الأوقاف هناك بألا يتعللوا وألا ينتحلوا الأغذار إزاء توزيع المخصصات ، ويجب إعطاء المستحقين من أعراب مدجر والأندلس منها كما جاء أعلاه ."[1]

وجاء في وثيقة أخرى أمر بتحري في شكوى من مهاجرين أندلسيين مهمة دفتري رقم (23) صحيفة (139 . 140) حكم رقم (284) بتاريخ : 28 / 7 / 981 . حكم إلى أمير أمراء الجزائر جاء فيها :

" أرسل فقراء الأندلس [كذا] وتقرتن [كذا] إلى سدة سعادتنا برسول أعلمنا بأنهم خرجوا من (دروب الحرب) وقدموا إلى الجزائر والأماكن التابعة لها . وذكروا أن القواد والمباشرين طالبوهم برسوم وحقوق كسائر الرعايا على حين أنهم فقراء ولا يملكون شيئا ، كما يطالبون بتكاليف لا طاقة لهم بها / مما أثقل عليهم ، وأن بعضهم أخذ يعمل كعمال ومزارعين إلا أن ما حصلوا عليه أخذ من أيديهم عنوة ، وأن البحارة سلبوهم ألبستهم ومتاعهم وأموالهم ومارسوا أنواع التعدي عليهم ، فما السبب في نزع ألبسة واغتصاب أجور المزارعين من فقراء المسلمين الذين وفدوا من ديار الحرب إلى ممالكنا المحروسة .

وعليه فإننا نأمر :

---

[1] . مصطفى أحمد بن حموش ، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 956 هـ / 1594 م . 1246 هـ / 1830 م ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، ط : 1 ، دبي ، 2000 م ، ص : 112 . 113.

التقيد في هذا الصدد حال وصول الحكم ، والتحري عمن اغتصبوا أموال ومتاع ولباس وأشياء وأجور الفقراء ، وبعد تثبيت ذلك ، عليك برد وتسليم تلك الأموال إلى أصحابها كاملة ، ولا يسمح لأي كان من سلب أجورهم ولباسهم وأشيائهم ، ويجب أيضا إعفاء الفقراء من كافة التكاليف لمدة ثلاث سنوات ، وعليك بإسكانهم وحمايتهم طيلة هذه الفترة حتى يستردوا قواهم ، ويصبحوا قادرين على دفع الرسوم المترتبة عليهم كسائر الرعايا ، وذلك بموجب القوانين الجارية في تلك المناطق ، ولا يسمح مطلقا بالتعدي على الفقراء خلافا للشرع والقانون والأمر الهمايوني ، وبعد الاطلاع على هذا الحكم يجب إبقاء ما في أيديهم " [1] .

وقد جاء في المعيار ما يؤكد شكاية بعض هؤلاء المهاجرين الأندلسيين ، حيث سئل عن هذه الطائفة الساخطة على وضعيتها الاجتماعية حيث جاء عنهم أنهم : " صرحوا بذم دار الإسلام وشأنه ، وشتم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبه ، وبمدح دار الكفر وأهله، والندم على مفارقته ، وبعضهم يرومون الحيلة في الرجوع إلى دار الكفر "[2] ، وكان الرد على هؤلاء : " وما ذكر في السؤال من حصول الندم والتسخط لبعض المهاجرين من دار الحربين إلى دار المسلمين لما زعموه من ضيق المعاش وعدم الانتعاش زعم فاسد ، وتوهم كاسد في نظر الشريعة الغراء فلا يتوهم هذا المعنى ويعتبره ويجعله نصب عينيه إلا ضعيف اليقين ،

---

[1] . مصطفى أحمد بن حموش ، المرجع السابق ، ص : 114 . 115 .

[2] . الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، إشراف : محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ، 1401 هـ / 1981 م ، ج : 2 ، ص : 120 .

بل عديم العقل والدين "[1] ، ويقول في موضع آخر : " أما علم المغبون في صفقته النادم على هجرته من دار يدعى فيها التثليث وتضرب فيها النواقيس ، ويعبد فيها الشيطان ويكفر بالرحمن أن ليس للإنسان إلا دينه ، إذ به نجاته الأبدية ، وسعادته الأخروية ، وعليه يبذل نفسه النفيسة فضلا عن جلة ماله "[2] .

ويقول أيضا : " وما ذكرت عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام ، وسب دار الإسلام ، وتمني الرجوع إلى دار الشرك والأصنام ، وغير ذلك من الفواحش المنكرة التي لا تصدر إلا من اللئام يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة وينزلهم أسوأ المنازل "[3] .

ومن هنا يتبين وجود طبقة اجتماعية أندلسية تتميز بالفقر والفاقة ، وهذا رجع لكثرة الوافدين على المنطقة ، إذ قدر عدد الوافدين على الجزائر بعد فشل ثورة غرناطة (1568 . 1570 م) بحوالي 30000 موريسكي[4] ، وكانت هذه الفئات الفقيرة قد رفضت أوضاعها المعيشية الصعبة في المنطقة ، وكان سبب ذلك التذمر عدم قدرتها التعايش في ظل القوانين المفروضة على كامل سكان المنطقة دون استثناء ، وخاصة ما تعلق منها بالضرائب والتكاليف الأخرى التي لم يستطيعوا دفعها .

[1] . الونشريسي ، المعيار المعرب ، ج : 2 ، ص : 130 .

[2] . المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 131 .

[3] . المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 132 .

[4] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 63 .

2 . 2 . ملامح التأثير الأندلسي على مجتمع المغرب الأوسط :

تأثر المجتمع المغربي عموما ، والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص بالتيارات الأندلسية ، التي تركت بصمات واضحة على عادات وتقاليد المجتمع ، والمعروف عن المجتمع الأندلسي أنه مجتمع حضاري ، امتزجت فيه الحضارات المشرقية والإسبانية والمغربية ، وكان يمتاز برفاهية العيش والترف في مختلف ربوع الأندلس ، وبانتقال الأندلسيين إلى المغرب الأوسط بعد الصدمات المتكررة إثر سقوط المدن والممالك الأندلسية، انتقلت رموز تلك الحضارة إلى المنطقة ، وخاصة في العهود التي تلت سقوط دولة الموحدين، وبداية الانقسام السياسي في بلاد المغرب ، وخير ما نستدل به على هذا الرأي ما قاله ابن خلدون عن هذا التأثير ، ويربطه ربطا مباشرا مع سقوط المدن الأندلسية حيث يقول : " وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت من عوائدها ، لما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الأندلس "[1] ، " وقد ذهب جورج ماسي وراشيل أويي وهما بصدد الحديث عن التأثيرات الأندلسية المتسربة إلى مملكة بني عبد الواد ، إلى أن بلاط تلمسان فقد في بداية القرن الثالث عشر تحت حكم أبي حمو موسى الأول طابعة

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 511 .

البدوي بفضل التأثير الأندلسي ، وذهبت الأستاذة آريي ومعها ماريس إلى أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي "[1] .

- **ارتفاع عدد السكان :**

كما كان النمو الديموغرافي ظاهرة اجتماعية لم يسبق للمغرب الأوسط أن عرفها ، فاكتظت المدن والأرياف بالجاليات الأندلسية ، ذلك أن أراضي الدولة الزيانية " كانت تشكو انهيارا ديموغرافيا تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية نتيجة كثرة الاضطرابات الداخلية ، وعلى الخصوص الصراع بين الدولة الزيانية والقبائل الزيانية كمغراوة وبني توجين في البداية ، ثم بينها وبين القبائل الهلالية التي استغلت الصراع وانتقلت إلى النواحي التلية ، ثم الحروب مع الدول المجاورة لها كالدولة الحفصية والمرينية " [2].

وقد بلغ عدد سكان مدينة الجزائر قبيل القرن السابع عشر الميلادي مئة ألف شخص منهم ألف عائلة أندلسية مهجرة [3]، وقد نتج هذا الارتفاع بسبب عمليات إنقاذ المسلمين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة مما أثر على التغير الاجتماعي الذي عرفته المنطقة .

[1] . محمد زروق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 53 .

[2] -مختار حساني ، الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 234 . 235 .

[3] . سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون ، ص : 145 .

- **التأثير في اللباس والأكل :**

تعد الملابس من أهم الخصائص الاجتماعية التي تميز بين المجتمعات عامة والمجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص ، فالملابس وكيفية اقتنائها تصور الحالة الاجتماعية والثقافية والدينية في المجتمعات ، ونظرا للاختلاط السكاني في بلاد المغرب الأوسط ، خلال الفترات التاريخية منذ القرن السادس وإلى غاية القرن العاشر هجري ، عرف المغرب الأوسط العديد من الطبقات الاجتماعية ، كالأندلسيين بمختلف طوائفهم الاجتماعية كالعرب واليهود والنصارى ... وغيرهم والأتراك ، وعليه يمكن للباس أن يبين ملامح التأثير الاجتماعي لهذه الشرائح المختلفة من المجتمع ، وطريقة اللباس من بين التأثيرات الأندلسية التي مست الحياة الاجتماعية في المغرب الأوسط ، فكان هناك تأثر بالجالية الأندلسية في لباسها ، وقد تميز الأندلسيون في طريقة لباسهم[1] ، إذ كانت ملابسهم تتميز بألوانها وتنوعها " فملابس الربيع كانت ملونة من الخز لا بطائن لها ولا أكمام ، وملابس الخريف قريبة

---

[1] . تميز أهل الأندلس بالنظافة والأناقة على عكس أهل المغرب الذين كانوا بدوا ، عرف عنهم بساطة العيش واختلاطهم مع الأندلسيين جعلهم يغيرون الكثير من عاداتهم ، ويأخذون عنهم طريقة اللباس . " فأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها " ، ويذهب ابن خلدون إلى القول : " وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين ، ويشهد لك بذلك قلة الأمصار ، فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة ، إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه ودبغه " . ينظر : شرقي نوارة ، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد دولة الموحدين ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط ، إشراف : عبد العزيز محمود لعرج ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2007 . 2008 م ، ص : 197 ، المقري ، نفح الطيب ، ج : 1 ، ص : 223 و ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 574 .

الشبه بالربيع إلا أنها مبطنة ، والصيف في الغالب بيضاء خفيفة من الكتان والحرير والقطن، بينما ثياب الشتاء داكنة من الصوف ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ، وكان الأندلسيون على جانب كبير من الأناقة والترتيب في ملابسهم "[1] ، ومن بين المدن المتأثرة بهذه الروافد الحضارية الأندلسية الجزائر وتلمسان وبجاية ، وهي المدن التي عرفت استقطابا كبيرا للجالية الأندلسية من مختلف مدن الأندلس ، فمدينة بجاية مثلا قد تأثرت بالحضارة الأندلسية ، وهذا يتجلى في " نقل هؤلاء الأندلسيين حضارتهم ورصيدهم الفكري ، وطريقة لباسهم وواجباتهم اليومية وتقاليدهم الاجتماعية في المأكل والملبس ، وتجلى تأثيرهم الكبير في بجاية حتى اصطبغت بالصبغة الأندلسية "[2] ، كما تأثرت تلمسان اجتماعيا بالموروث الاجتماعي الأندلسي إذ " وجدت ملابس أندلسية في المجتمع الزياني لقرب موانئ الأندلس التي تشتهر بصناعة المنسوجات مثل ألمرية حسب ما أورده الإدريسي خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي ، أن السلع كانت تصل باستمرار إلى هنين وغيرها من الموانئ الزيانية ، ومن بين تلك السلع الملابس المرية على الخصوص الخاصة بالعرائس "[3].

---

[1]. عصمت عبد اللطيف دندش ، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ، تاريخ سياسي وحضاري ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م ، ص : 318 .

[2] - Marçais George , la berberie Musulmane et l'Orient au moyen – age , ed , Montaigne , Paris , 1946 , p : 28 .

[3]. مختار حساني ، المرجع السابق ، ج : 3 ، ص : 115 . 116 .

كما انتقلت أنواع أخرى من اللباس كالبنيقة* مثلا ، " وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ، وما زال هذا اللفظ مستعملا بشمال المغرب والجزائر ، ويتعلق الأمر بمنديل تضعه النساء على رؤوسهن لجمع شعرهن ، واستعمل بإسبانيا بمعنى قريب جدا ، ولا نعرف متى دخل هذا اللباس إلى شمال إفريقيا ، ومن المحتمل دخوله مباشرة بعد سقوط غرناطة ، من طرف الفئات الغنية التي كانت تستعمل هذا اللباس "[1] .

وظهرت كذلك الشاشية ، " وهي من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ، وهي عبارة عن قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والعلماء والتجار والطلبة ، واستمر وجودها إلى يومنا هذا ، وهناك شاشية أخرى خاصة باليهود وهي سوداء "[2] .

كما تطورت في المغرب الأوسط الصناعة الجلدية مما ترتب عنها ورشات لصناعة الأحذية فانتشرت الأحذية الأندلسية وعلى الخصوص البليغة والخفاف والسندال والسومال ، والشاشية من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ، وهي عبارة عن قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والعلماء والتجار والطلبة "[3] . كما عرف

* البنيقة : دخل هذا اللباس إلى الجزائر بعد سقوط غرناطة ، ويتعمل للحفاظ على زينة الشعر والوقاية من البرد عند الخروج من الحمام . أنظر : حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 67 .

[1] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 295 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 296 .

[3] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 352 . 353 .

لباس البلغة* والقرق* في الأوساط الجزائرية ، وهي من الألبسة التي كانت معروفة في الأندلس ، أما البلغة " فقد كانت مستعملة في الأندلس خلال قرون عديدة وانتقلت مع المهاجرين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا ، وبها تركزت " [1] ، وأما القرق فقد وجد في المدن الجزائرية وخاصة بجاية ، والدليل على وجودها أن " ابن تومرت . الزعيم الروحي للموحدين . وهو في بجاية نهى الناس عن لباس نوع من الأقراق المعروفة بالزرارية كما كانت معروفة لدى ملوك الدولة الحفصية ، يتخذونها أثناء سيرهم في وسط الحاضرة ، وترك لبسها بعض الناس لما فيها من زخرفة وتطريزات كالأزرار الذهبية التي كانت تزينها " [2].

وعليه يمكن القول أن اللباس الأندلسي أصبح منتشرا في أوساط المغرب الأقصى ، وأصبح السكان المحليون يقلدون هذه الجاليات الأندلسية في طريقة لباسها ، إذ " استطاع

---

* **البلغة** : أطلقت هذه الكلمة في الأصل على نعال من الحلفاء ففي رواية لابن عبد الملك المراكشي في سياق حديثه عن ابن عسكر مؤرخ مدينة مالقة (عاش ما بين 584 . 636 هـ / 1187 . 1239 م) يذكر له أبياتا شعرية في النعل المتخذة من الحلفاء التي يسميها أهل الأندلس بالبلغة ، جاء فيها :

لتبليغها المضطر تدعى ببلغة   وإن قست بالتشبيه شبهتها نعلا .

أنظر : محمد مقر ، اللباس المغربي من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي ، دار أبي رقراق ، ط : 1 ، الرباط ، 2006 م ، ص : 186 .

* **القرق** : نعال سميكة من الفلين كانت معروفة في الأندلس لدى الجنسين منذ القرن 6 هـ / 12 م ، ويعتقد أن هذه التسمية لها أصل في اللهجات الإسبانية (quercus) . أنظر : محمد مقر ، المرجع نفسه ، ص : 189 .

[1] . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، ص : 294 .

[2] . محمد مقر ، اللباس المغربي ، ص : 189 .

الأندلسيون فرض أذواقهم على غالبية سكان مدن الجزائر والبليدة والقليعة وشرشال وتلمسان في العديد من الألبسة "[1] .

أما عن لباس المتصوفة الأندلسيين فالظاهر أنه لا يرقى إلى مستوى عال نظرا لحب هؤلاء في التقشف ، والزهد عن ملذات الدنيا ونعيمها ، لدرجة أن العديد منهم كان يرفض أن يرتدي الغالي من الثياب ، ولعل هذه النظرة تركزت في عقولهم بما أثرت فيهم انتكاسة الأندلس ، وتشريدهم بعد العز الذي كانوا يعيشون فيه ، والحقيقة أننا لم نحصل على وصف مدقق للباس المتصوفة الأندلسيين في بلاد المغرب الأوسط ، ولعل ذلك يعود كما أسلفت سابقا إلى اهتمامهم بالجانب العلمي في التأليف والتدريس ، فلم يلتفتوا إلى تحسين مستواهم المعيشي ، " ومن مظاهر زهدهم عدم تكلفهم في لبس الغالي والفاخر من الثياب ، فلم يرتد المتصوفة من اللباس إلا ما يستر عورتهم ، أو يحميهم من القر والحر ، وكان الخشن من الثياب هو الأحب والأسلم بالنسبة إليهم ، فكان لباسهم عباءة من تليس أو عباءة من صوف، ويذكر ابن سبعين أن التوبة لا تكون إلا بحلق الرأس ولبس الصوف "[2] ، كما كان لبعض المتصوفة الذين عاشوا في بعض المدن المغربية كبجاية مثلا " فالصوفي ابن عربي الأندلسي قد رفض التزام المتصوفة طريقة واحدة في الملبس ، وأكد على وجوب مراعاة

---

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 67 .

[2] . نوارة شرقي ، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين ، ص : 195.

ظروف الإقليم وعادات المناطق التي يعيش فيها المريد ، ولكنه وضع شروطا للباس ، ومنها أن لا يكون القماش من النوع الثمين ، وأن لا يفيد اللباس إلا في ستر العورة مع الحشمة "[1].

ولكن بعض المتصوفة الأندلسيين الذين استقروا في بجاية قد دأبوا على تحسين مظهرهم ، باختيارهم لأنواع جيدة من اللباس ، وقد تأثر بهم الصوفية المغاربة الذين كانوا يحضرون دروسهم وحلقات علمهم ، " فالملفت للانتباه أن عددا من صوفية زواوة* الذين انتسبوا إلى الطريقة المدينية ، دأبوا على تقليد شيخهم أبي مدين شعيب ، الذي كان لباسه على هيئة الملوك " [2]، وفي هذا السياق يذكر لنا ابن قنفذ قصة لأبي مدين مفادها اعتناؤه بمظهره فيقول : " قال الشيخ الصالح أبو عبد الله البوني ، وكان من الأخيار خرج مرة من بلد العناب إلى زيارة الشيخ أبي مدين ببجاية فقال : " فلما وصلت إليه وجدته بثياب حسنة رفيعة برائحة المسك والطيب وهو على حالة تشبه حالة الملوك ، فسلمت عليه وجلست بين يديه " [3] ، " ودليلا على ذلك ما أوصى به أبو عبد الله الزواوي (ت 884 هـ / 1486 م)

---

[1] . نوارة شرقي ، المرجع السابق ، ص : 195 .

* **زواوة** : قبيلة بربرية يجعلها ابن حزم من ولد يحي بن ضري بن زحيك بن مادغيس ، للمزيد أنظر : ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، ط : 5 ، القاهرة ، د . ت ، ص : 496 .

[2] . مفتاح خلفات ، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6 . 9 هـ / 12 . 15 م) دراسة في دورها السياسي والحضاري ، دار الأمل ، د . ط ، تيزي وزو ، د . ت ، ص : 238 .

[3] . ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقير ، نشر وتصحيح : محمد الفاسي ، أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب ، د . ط ، د . ت .ص : 94 .

أحد أتباع الطريقة قوله : " ينبغي لمن وسع عليه في دنياه أن يظهر أثر نعمة الله عليه فيلبس أحسن اللباس " [1] .

أما الطعام فقد عرف عن الأندلسيين اعتناؤهم بموائدهم فبرعوا براعة عجيبة في فن الطبخ[2]، وطوروه بفضل ما أنتجوه من منتوجات غذائية في الأندلس ، " فعملوا أصنافا عديدة منه ، وتفننوا في عمل الأشكال المختلفة من الحلوى ، وكان لهم ذوق جميل في تقديمها ، وما زال العديد منها يصنع بالمغرب " [3] ، وكان " الطبخ الرفيع مما تباهى به الأندلسيون دلالة على أصالتهم ، فقد عرضت المأكولات الأندلسية بالحلويات والأطباق ، ويتطلب إعدادها حذقا كبيرا وإنفاقا كثيرا لا يقدر عليه إلا العائلات الميسورة ، ولا يهون إلا في المناسبات والأفراح ، وتغلب عليها الفاكهة "[4] ، وهكذا أعطى الأندلسيون بملامح حضارتهم النمط المعيشي في الأندلس .

---

[1] . مفتاح خلفات ، المرجع السابق ، ص : 238 .

[2] . امتاز الطبخ الأندلسي بشهرته وإبداعاته نظرا لتوفر أغلب المواد من حيوانات ونباتات وأعشاب ، فضلا إلى جودة المناخ والازدهار الحضاري الذي تمتعت به الأندلس كما أن للخبرة أهمية في إعداد وجبات الطعام . للمزيد حول هذا الموضوع راجع : محمد بشير العامري ، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي ، ص : 269 وما بعدها ، وقد وضعه تحت عنوان براعة الأندلسيين في فن الطبخ ، تطرق فيه للعديد من المظاهر المتعلقة بهذا الفن .

[3] . عصمت عبد اللطيف دندش ، المرجع السابق ، ص : 332 .

[4] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 67 .

- **انتقال العادات والاحتفالات الأندلسية إلى المغرب الأوسط :**

برزت بعض العادات الاجتماعية التي لم تكن موجودة في المجتمع المغربي ، وأثرت في ظهورها الجاليات الأندلسية التي عرفت في عاداتها الاجتماعية الترف والرفاهية ... وغير ذلك ، فالأعراس أصبح فيها ما يعرف بظاهرة الاختلاط ، " حيث تقوم الأفراح ويحدث الاختلاط فيما بين الرجال والنساء لسماع المغنين والمغنيات ، لأن تلمسان خلال هذه الفترة عرفت توافد عدد من الأندلسيين الذين نشروا الموسيقى بها ، وهو ما يؤكده العقباني بقوله : " وأما ما يقع على رجل غير محرم يغنين ويطربن " [1] .

كما انتشرت في الأوساط الجزائرية مظاهر الاحتفالات الأندلسية ، وقد بالغ الأندلسيون في التباهي بالاحتفالات تقليدا للنصارى ، ومن بين الأعياد التي مازالت تقاد إلى يومنا هذا عيد عاشوراء وعيد يناير والاحتفال بشهر شعبان ... وغيرها ، " فعيد عاشوراء هو عيد الفاكهة والحلوى ، ومازالت هذه العادة في المغرب ، فكانوا يشترون الفواكه المتعددة ، وأنواع الحلوى ، وهناك الاحتفال بشهر شعبان فتقام فيه المآدب التي تسمى الشعبانية ، كما كانت هناك أعياد أندلسية متأثرة بالمسيحية كعيد يناير ، وهو أشبه بعيد النيروز ، وكانوا يحتفلون به احتفالا كبيرا في المنازل والشوارع ، حيث تقام النصبات في الحارات ، وهي عبارة عن موائد

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 210 .

كبيرة يضع عليها الباعة أصناف الحلوى والفواكه ، وروي في احتفال أهل الأندلس أن النصبة يبلغ ثمنها سبعين دينارا ، ويزيد على السبعين لما فيها من قناطير السكر " [1].

كما نلاحظ بروز بعض العادات الاجتماعية لليهود المقيمين في المدن الساحلية والداخلية للمغرب الأوسط ، والذين استغلوا التسامح الديني للمسلمين معهم ، فقاموا بإظهار عاداتهم وتقاليدهم في المنطقة بكل حرية ، ويقدم لنا الونشريسي في كتابه المعيار عن هذه الظاهرة قائلا : " كان اليهود يؤدون شعائرهم الدينية فيها بحرية تامة دون مضايقة من المسلمين ، وكانوا ينكثون بما التزموا به من عدم تقليد المسلمين في زيهم وزينتهم ، فالفقيه العقباني يذكر في إحدى فتاواه أن ما يفعله اليهود اليوم في الأسفار من ركوب الخيل والسروج الثمينة ، ولبس فاخر الثياب ، والتحلي بحلية المسلمين ، والتعمم بالعمائم فمحظور شنيع ، ومنكر فظيع ، يتقدم إزالته بما أمكن ، وربما يجعلون لذلك محللا زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم وأموالهم إن ظهر عليهم زيهم الذي يعرفون به ، وهم في ذلك كذابون لما شاهدنا من حصول الأمن والحظوة الكبيرة لما يرجون من حصول النفع منهم " [2] .

ولم يكن اليهود مسؤولين عن تفشي بعض مظاهرهم فقط ، فقد كان للنصارى أيضا تأثير في دخول بعض العادات والآفات الاجتماعية التي كان العديد من النصارى المسؤولون عنها، خاصة بعد دخول الإسبان ، واحتلالهم للكثير من المدن المغربية ، فكثرت عادات

---

[1] . عصمت عبد اللطيف دندش ، المرجع السابق ، ص : 326 . 327 .

[2] . كمال أبو مصطفى ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي ، ص : 37 .

شرب الخمر ، حيث يذكر الونشريسي كثرة انتشارها في المدن حيث كان الناس يخرجون من الأزقة وعلامة الخمر بارزة على أفعالهم ، ويتفق ذلك مع المازوني الذي ذكر هو الآخر انتشار الخمر ليس في المدن فقط بل في القرى ، وحسبه فإن أفرادا من الجالية اليهودية يقومون بنقله إلى الأرياف حيث يبيعونه إلى سكانها ، ومن ثم كان لليهود والنصارى دورا خبيثا في انتشار ظاهرة الإدمان على الخمر "[1] .

أما فيما يخص ممارسة أهل الذمة لعاداتهم الدينية ، فقد مارس النصارى واليهود طقوسهم بحرية مطلقة ، فالنصارى خلال القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي " احتفظوا بجنسياتهم ومعتقداتهم الدينية ، ولهم كافة الحرية في بناء كنائسهم ومعابدهم " [2] .

- **التأثير في اللغة :**

انتعشت اللغة العربية في المغرب الأوسط ، فبعد رحيل الأندلسيين من الأندلس ، ازدادت مكانة اللغة العربية ، وذلك بفضل جموع العلماء والأدباء الذين وفدوا على المنطقة ، فارتقت اللغة العربية في الأوساط الاجتماعية " بتسرب متقنيها من العرب الأندلسيين إلى جهاز الدولة فصار لهم ضلع في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وتغلب العنصر

---

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 178 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العصر الزياني ، ج : 1 ، ص : 190 .

العربي على غيره "[1] ، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد : " وألقت الأندلس أفلاذ كبدها من أهل تلك الملكة* بالجلاء إلى العدوة من إشبيلية إلى سبتة ، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية "[2]. وقد كان للكثير من هؤلاء العلماء دور في خدمة اللغة العربية ونشرها ، وسنفصل في جهود هؤلاء اللغويين والأدباء الأندلسيين في فصل لاحق .

ومما يلاحظ في الفترات الأخيرة للتواجد الإسلامي في الأندلس ، وغلبة النصارى على أغلب مدنها ، ضعف اللغة العربية ، وانتقل ضعفها بانتقال المهاجرين الأندلسيين إلى الجزائر " فقد تميزت الجالية الأندلسية في البداية بلهجتها الغرناطية التي كانت سائدة في حواضر الأندلس ، وتأثرت بها المدن الكبرى كالجزائر وبجاية وشرشال وتلمسان نظرا لرقة مخارج حروفها ، وسهولة التلفظ بها " [3].

كما استطاع الأندلسيون منذ أواخر القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي نشر اللسان العربي الدارج في المناطق الجبلية القريبة من شرشال والبليدة [4]، هذا بالإضافة إلى

---

[1]. عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ج : 1 ، ص : 197 .

* اعتبر ابن خلدون أن أهل الأندلس من المتفوقين في اللغة ، وقد أفرد في مقدمته بابا ببعنوان : " أهل الأندلس أقرب إلى تحصيل الملكة اللسانية " ، وذكر أنهم مجيدون في تحصيل ملكة اللغة إلى غاية استحواذ النصارى على رقعتهم فيقول : " وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا ، وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى كان الانفضاض والجلاء أيان تغلب النصرانية ، وشغلوا عن تعلم ذلك " . أنظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 784 .

[2]. المصدر نفسه ، ص : 784 .

[3]. حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 67 .

[4]. ناصر الدين سعيدوني ، التأثير الإيبيري والأندلسي على الجزائر ، ص : 59 .

شيوع اللغة الإسبانية بين أوساط المجتمع الجزائري ، كما " شاعت تعابير لغة الفرنكا ، والتي عرفت منذ التوافد الأخير للموريسكيين ، ويغلب على هذه اللغة الطابع الإسباني ، خاصة في مجال العلاقات الخارجية والأعمال التجارية ، وظلت بعض العائلات الأندلسية تحافظ على تداول اللغة الإسبانية بالجزائر العثمانية ، كما اعتبر هايدو لغة الفرنكا اللغة الثالثة في مدينة الجزائر ، ويعتقد أنها أدخلت إلى الجزائر من طرف الجنود البرتغاليين بعد معركة وادي المخازن 4 أوت 1578 م" [1].

[1]. حنيفي هلايلي ، المرجع السابق ، ص : 67 . 68 .

المبحث الثاني : تأثير سقوط الأندلس على الحياة الاقتصادية بالمغرب الأوسط:

حدثت في بلاد المغرب الأوسط تغيرات على المستوى الاقتصادي مست العديد من مظاهره الاقتصادية على الجانبين السلبي والإيجابي ، فأما ما تأثرت به بلاد المغرب الأوسط من الناحية السلبية ما خلفه سقوط الأندلس من تكالب نصراني إسباني رهيب على المنطقة خاصة بعد رحيل العديد من اللاجئين الأندلسيين إليها ، فأصيبت إسبانيا بضعف اقتصادي مس الزراعة والصناعة والتجارة ، لأن العرب المسلمين كانوا يشكلون أيدي عاملة نشيطة في الأندلس طورت اقتصاد المنطقة بعلاقاتها التجارية مع سواحل البحر المتوسط ، فكان التبادل التجاري دافعا قويا على تصدير واستيراد البضائع التجارية ، ولما سقطت الأندلس ، انغلقت أبواب التجارة على إسبانيا ، مما جعلها تصاب بعجز كبير في ميزانها التجاري ، لذلك سعت جاهدة على إصلاح الوضع باحتلالها للمدن الجزائرية كوهران وتلمسان والجزائر وبجاية ، مما أرهق اقتصادها . أما على المستوى الإيجابي فقد لعب الأندلسيون دورا هاما في تطوير اقتصاد المغرب الأوسط بالتجارب التي مارسوها في بلادهم .

1 . تأثير الاحتلال الإسباني في تدهور الأحوال الاقتصادية بالمغرب الأوسط :

لا شك أن امتلاك إسبانيا للأندلس كان له تأثير على اقتصاد المغرب الأوسط ، باعتبار أن الأندلس تمثل البوابة التي كانت تتبادل معها المنطقة منتجاتها الفلاحية ، هذا بالإضافة

إلى تأثير احتلالها للمغرب الأوسط ، وقضائها على مدنه الساحلية التي تمثل شريان الحياة الاقتصادي للمغرب ، وقد ذكرت في الفصل السابق تأثير العامل الاقتصادي على تحريك الحرب الصليبية في شمال إفريقيا بعد سقوط الأندلس ، إذ أن غرناطة كانت معقلا إسلاميا يحمي المغرب من هذا الخطر ، فلما سقطت أثر زوالها على اقتصاد المغرب ، فبعد أن كانت قوة اقتصادية يحسب لها ألف حساب غدت ملجأ لهؤلاء المستعمرين للاستحواذ على خيراتها باعتبارها سيدة البحر الأبيض المتوسط بلا منازع .

1 . 1 . تدهور اقتصاد مدينة بجاية :

عقدت معاهدة بعد استسلام بجاية بين الملك فرناندو ، وبين مولاي عبد الرحمن ملك جبال البربر تقضي من الناحية الاقتصادية في أحد بنودها بتفريغ خزينة المدينة ، وتزويد مؤنها للمملكة الإسبانية وهو يتعهد العرب بأن يزودوا مدينة بجاية الإسبانية سنويا بالمواد والمقادير الآتية :

3600 فينق من القمح .

100 فينق من الشعير .

50 فينق من الفول .

1000 رأس من الغنم .

50 بقرة .

100 حمل من الحطب [1].

أما عن التجارة ، فإن الاحتكار الإسباني قد مس هذا الجانب الاقتصادي الهام ، " وقد أعلن الملك فرناندو سنة 1510 م حمايته للتجارة الإسبانية مع بجاية ففرض ضريبة مقدارها 50 بالمائة على الأقمشة الصوفية المستوردة من بجاية ، إذا لم تكن صادرة إلى مرسى برشلونة رأسا ، وكان لبرشلونة في القديم امتياز منذ سنة 1309 م مع بجاية في شأن التبادل التجاري " [2] ، الذي يعتبر شريان الحياة بالنسبة لمدينة بجاية ، باعتبارها أهم ميناء في بلاد المغرب الأوسط ، تضغط به بجاية على الطرق التجارية البحرية .

وبهذا تحولت بجاية من قوة اقتصادية في بلاد المغرب الأوسط ، إلى مكان تستجلب منه خيراتها لتغطية احتياجات إسبانيا ، وخير ما نستدل به على عظمتها ما وصفها به الإدريسي في زمانه بقوله : " ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط ، وعين بلاد بني حماد، والسفن إليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها مياسير تجار ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 122 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 124 .

الشدود ، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد ، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود " [1] ، ولما سقطت الأندلس ، وانتقلت إليها حربها الصليبية تراجع اقتصادها ، وعنه " ذكر الكاتب (Salvator) أنه بعد احتلال بجاية من قبل الإسبان منحت الحكومة بصورة غير مجدية أكثر الامتيازات للتجار القطالونيون الذين كانوا يترددون على الميناء ... وهناك شهادة أخرى ذكرها الرحالة الألماني هانريش فون مالستان عن المصير الذي آلت إليه بجاية بعد الاحتلال الإسباني لها هذا نصها : " فبقدر ما كانت فرحة المسيحيين الكاثوليكيين كبيرة بغزوها ، إلا أن أهالي جنوة والبندقية لم يفرحوا باحتلال بجاية من طرف أكثر الأمم المسيحية تعصبا ، ذلك أن هذا الاحتلال قضى على الحركة التجارية دفعة واحدة " [2] .

1 . 2 . تدهور اقتصاد مدينة تلمسان :

كانت تلمسان قبل الغزو الإسباني قوة اقتصادية على حوض البحر الأبيض المتوسط ، نظرا لما تتوفر عليه من إمكانيات طبيعية ، وكثرة الموانئ البحرية التي اعتمد عليها حكام مدينة تلمسان في تنشيط الحركة التجارية ، فكانت تفيد وتستفيد منها العديد من الدول الأوروبية ، فيصف الحسن الوزان هذه المدينة ، وما توفرت عليها من مقومات فيقول : "

[1] . الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص : 260 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 217 .

ولهذه المملكة . أي مملكة تلمسان . ميناءان مشهوران ، ميناء وهران وميناء المرسى الكبير ، وكان يختلف إليها عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة ، غير أن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو ، فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان ، حتى إن الشعب طرد الملك أبا حمو ، وعوضه بأحد أعمامه وأعمام أبيه أبي عبد الله المدعو أبا زيان " [1] .

وهكذا أغلقت إسبانيا باحتلالها لتلمسان بابا مربحا للمنطقة يدخل إليها منتوجا وافرا من الجنويين ، إذ إن " التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانئ الجزائرية خصوصا الجنويين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان ، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى ميناء هنين إلا أن هذا الميناء سرعان ما احتله الإسبان ليشهد نفس المصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية الأخرى " [2] .

والشيء الذي أرهق اقتصاد تلمسان فرض الإسبان عليها أتاوات باهظة ، فكانت تدفع مبالغ ضخمة لحكام إسبانيا مقابل تحقيق السلم في المنطقة ، ويذكر الحسن الوزان نصا آخر يقول فيه : " أرضى أبو حمو جنود الإسبان ، وتمسك رغبة منه في السلم بالعهود التي قطعها على نفسه مع الامبراطور ، مؤيدا له سنويا الأتاوة المحددة ، وظل ملتزما بذلك طوال

[1] . الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 9 .

[2] . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 137 . 138 .

حياته "[1] ، " وكان مقدار الضريبة السنوية 12 ألف دوكا (Ducats) وفي المقابل يكون الملك محميا من طرف الإسبان " [2]، ويذكر الحسن الوزان أن هذه الضريبة بقي معمولا بها إلى أن مات ، " ولما آل الملك إلى أخيه عبد الله فامتنع هذا الأخير عن طاعة الامبراطور ، والامتثال إلى شروط العهد الذي أمضاه أخوه ، وذلك ثقة منه في مساندة سليمان إمبراطور الأتراك ، لكن هذا لم يمدده إلا بالقليل من العون "[3] .

أما عن المقادير المالية التي كانت تدفعها تلمسان للإسبان في أواخر سنة 1514 م والنصف الأول من سنة 1515 م .

ففي أول نوفمبر 1514 م سلم مبعوث تلمسان إلى مارتين دي أرغوت (Martin de Argote) 2500 دوبلا المتعلقة بالجزية .

في 5 فيفري 1515 م دفع 2833528 مرافيدي .

في 13 مارس 1515 م دفع 200000 مرافيدي .

في 20 أفريل 1515 م دفع 225878 مرافيدي .

في 19 ماي 1515 م دفع 50000 مرافيدي .

---

[1] - الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 10

[2] - Ernest Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) de puis les temps les plus reculés jusau'à la conauète Française , Paris , 1868 , T : 3 , p : 19 .

[3] . الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج : 2 ، ص : 10 .

المجموع بلغ 4023294 مرافيدي .[1]

1 . 3 . تراجع اقتصاد مدينة وهران :

إن أهمية وهران التجارية جعلت إسبانيا تهتم بها اهتماما بالغا من أجل رفع اقتصادها وامتيازاتها بالمنطقة ، ولأجل ذلك عملت إسبانيا على ربط علاقات مع بعض الأشخاص الذين كانوا يوالون إسبانيا ، ويمدونها بمساعدات اقتصادية ، " ومن بين الأشخاص الذين عرفت أسماؤهم في هذه العلاقة من الكناستيل ، وأصبحوا موالين للإسبان أحمد بن علي وحدوب احمد ، وأحمد بن بواري وعصار ، ومن مستغانم امحمد ومحمد بن حسون ، وهناك شخصيات أخرى وهم لعراب عبد الله وعيسى وإبراهيم بن إيهين وابن عقبة " [2].

ومن أهم العراقيل التي أهلكت اقتصاد مدينة وهران إرهاقها بالضرائب التي أثقلت كاهلها من طرف إسبانيا ، التي منعتها من الحرية التجارية ، ومن أهم هذه الضرائب ضريبة السيغورو ، والتي جاء في بنودها شروط رادعة أعاقت حرية التجار ومنها :

. يمنع على العرب المسالمة إبرام أية علاقة ، أو إجراء أي اتصال مع العرب المعادية ، أو الانضمام إليهم .

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 231 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 244 . 245 .

. ممنوع على العرب المسالمة أن يزودوا العرب المعادية بأية معلومات أو أخبار تتعلق بالإسبان ، أو كل ما يتعلق بوهران .

إن شروط دفع هذه الضريبة التي حددها حكام وهران قلصت من حرية تحرك القبائل الموالية ، وذلك بوضعهم تحت الرقابة باستمرار ، وهذا ما جعلهم يكونون عرضة للاستغلال من قبل الإدارة العسكرية الإسبانية ، وجعل القبائل الوهرانية الملزمة بدفع هذه الضريبة لا تطبق تلك التعليمات إلا نادرا ، مما جعلها عرضة في كثير من الأحيان إلى الغارات العنيفة والتجاوزات التي يقوم بها الجنود الإسبان [1] .

ومن بين الضرائب التي فرضت على وهران أيضا ضريبة الرومية ، التي قدمها العرب القاطنون بوهران لإسبانيا مقابل تحقيق الأمن لهم ، وكان مقدار هذه الضريبة أن " يدفع كل دوار ضريبة من القمح تبلغ قيمتها 2 دوبلا عن الحتمية الواحدة " [2] .

وقد استفاد الإسبان على المستوى الاقتصادي من احتلالهم لوهران ، وفرضهم لضرائب قاسية عليهم استفادة عظيمة ، لدرجة أن إسبانيا استطاعت لفترة قصيرة بعد قضائها على الأندلس أن تغطي عجزها الاقتصادي من استغلال اقتصاد المغرب الأوسط ، " ففي الفترة الممتدة ما بين (1568 . 1571 م) شن الإسبان إحدى عشر غارة ، وقد اضطرت بعض القبائل التي كانت تمتهن الزراعة ، وتربية المواشي إلى دفع الضريبة للإسبان بدل ترك

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 245 . 246 .

[2] . نفسه ، ص : 247 .

أراضيهم ، وقد استولى الجنود الإسبان خلال هذه الغزوات المذكورة فقط على 5000 بقرة و 10000 رأس غنم و3500 من المعز و1135 حصان و700 جمل ، واستحوذ الجنود الإسبان إلى جانب ذلك على كميات النقود الذهبية والفضية والألبسة والأسلحة ... وغيرها ، وتمكن الإسبان من تحصيل كميات كبيرة من الحبوب ، وقام الإسبان في وهران إلى جانب التخزين بتوجيه المنتوج الزائد إلى بلادهم "[1] .

ولم يكن تدهور الاقتصاد الوهراني منصبا على دفع الضرائب فحسب ، بل عمل الاحتكار التجاري الإسباني لموانئها دورا فعالا في خنق حريتها التجارية ، وتبادلاتها الخارجية مع الدول الأوروبية ، أو الدول المغربية المجاورة ، وتبين إحدى الوثائق المؤرخة في أفريل من سنة 914 هـ / 1508 م جاء فيها : " أن أحد التجار الإسبان كان يحتكر المبادلات التجارية ، ويربط علاقات في الأراضي الممتدة ما بين جبل طارق وتنس ، حيث يبيع لهم السلع الإسبانية ، ويشتري منهم السلع المحلية الآتية من السودان الغربي "[2] .

وكان هناك العديد من التجار الوافدين إلى مرسي وهران وهنين من أجل احتكار التجارة هناك ومنهم " جورد انجيلو" ، و لم يكن دوره مقتصرا على زيارة الموانئ ، بل ربط علاقات

---

[1]. عبد القادر فكاير ، المرجع السابق ، ص : 249 .

[2]. مختار حساني ، الدولة الزيانية ، ج : 2 ، ص : 166 .

بتجار الدولة للحصول على ما يحتاج إليه من السلع التي كان عليها الطلب في إسبانيا وهنين ، وهي السلع الآتية من السودان الغربي كالعاج والذهب والعبيد [1].

ومن بين الوثائق الأخرى التي بينت الاحتكار الإسباني للتجارة في وهران " وثيقة يعود تاريخها إلى 959 / 7 / 9 / 1551 م ، أن غارسيا اشترى من وهران مائة وخمسون . ووثائق ترجع لنفس السنة ذكر فيها أن تجار إسبانيا كانوا يشترون الزنوج القادمين من إفريقيا بواسطة القوافل التجارية القادمة إلى موانئ الدولة ومنها وهران ، ومن هذه الأخيرة ينقلون إلى الموانئ الجنوبية الإسبانية " [2] .

وهكذا انفتحت أمام إسبانيا حركة التجارة الجنوبية ، وساعد دخولها إلى المغرب الأوسط فتح السبل التي تؤدي إلى جنوب مغربنا الكبير ، فأصبحت القوافل التجارية القادمة من الصحراء إلى الشمال عرضة للسرقة والنهب والاحتكار ، واستطاعت إسبانيا أن توفر لنفسها ما كانت بحاجة إليه من منتوجات السودان ، " ويضاف إلى ذلك أحوال الضعف المزامنة لنهضة أوروبا ، وتوقف المغرب الكبير عن لعب دور الوسيط في التجارة الصحراوية ، بسبب تحكم الأوروبيين في الملاحة البحرية ، وتقدم تقنياتهم الملاحية ، وهو أمر أدى إلى اتصال الأوروبيين مباشرة بمناطق إنتاج التبر ببلاد السودان ، وإلى ضعف استعمال المغاربة للبحر في تجارتهم بسبب أخطار القرصنة ، وإذا أضفنا إلى ذلك أحوال الضعف السياسي

---

[1]. مختار حساني ، الدولة الزيانية ، ج : 2 ، ص : 180 .

[2]. نفسه ، ص : 180 .

التي كانت تؤثر على النشاط التجاري داخل البلاد نفسها ، نظرا لانعدام الأمن على مسالك التجارة لفهمنا الأثر الخطير الذي كان لهذه التطورات على المبادلات التجارية " [1] .

ومن هنا نستخلص أن بلاد المغرب الأوسط لم تؤثر فيها الموجة الصليبية من الناحية الدينية فقط ، ولم يكن صراعا لتمكين النصرانية في المنطقة بقدر ما هو صراع مادي على نفوذ اقتصادي نتيجة ضعف أوربا من حربها ضد المسلمين في الأندلس ، وفقدانها لمقومات التطور الاقتصادي الذي كان المسلم الأندلسي من أهم مسبباته ، وهكذا كان لسقوط الأندلس بيد الإسبان تأثير على الحياة الاقتصادية ، فبعد أن كان المغرب الأوسط مثالا يقتدى به في مختلف المجالات ، ومنفذا تجاريا للشمال والجنوب ، أصبح بسقوط غرناطة ، واحتلال إسبانيا ضعيفا اقتصاديا من خلال الضرائب المفروضة عليه من جهة ، وانقطاع الأرباح الآتية من الجنوب من جهة أخرى ، وبعد أن كانت مدنه بموانئها البحرية نشطة تجارتها ، كثيرة أرباحها ، تهابها الدول العظمى ، أضحت مغلوبة على أمرها ، ومن هنا نستنتج المكانة العظيمة التي كانت عليها بلاد الأندلس ، ودورها في حماية المغرب الإسلامي من هذه الآثار جميعها .

[1] . محمد فتحة ، النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ / 12 . 15 م ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، جامعة الحسن الثاني ، 1999م ، ص : 330 .

2 . أثر اليهود اللاجئين من الأندلس على الحياة الاقتصادية بالمغرب الأوسط :

ذكرت في فصل سابق أن من بين الآثار الاجتماعية التي ترتبت عن سقوط الأندلس ، هجرة بعض اليهود الذين كانوا يشكلون طبقة اجتماعية في بلاد المغرب الأوسط ، وبفضل ما اتسم به المسلمون من تسامح ديني مع الأقليات من أهل الذمة ، سواء كانوا مسيحيين أو يهود ، فإنهم التجؤوا إلى الأماكن الإسلامية ، لما سمعوه من علاقاتهم الطيبة بهؤلاء ، فالأندلس مثلا تعتبر المكان الأكثر تعايشا مع اليهود الذين التجؤوا إليها ، ومارسوا نشاطهم الاقتصادي بكل حرية ، حتى أنهم كانوا من الفئات الاجتماعية الأكثر ثراء من الإسبان أنفسهم ، ولكن بعد سقوط الأندلس كان لهجرة هؤلاء اليهود أثر على اقتصاد بلاد المغرب الأوسط .

فاليهودي لم يبق في أوربا سنوات طويلة إلا لما وجد هذا التسامح الديني من المسلمين ، فاستطاع بذلك أن يمكث فيها ، ويتعايش مع المسلمين ، وإلا فإن المسيحي كان دائما يتوجس منهم خيفة ، ويعتبر وجودهم خطرا على البلاد وحياتها الاقتصادية ، " فقد كان المسيحيون في أوربا في العصور الوسطى ينظرون إلى اليهودي على أنه خطر اجتماعي واقتصادي يسري وسط المجتمع الأوروبي ، ينفث المعتقد اليهودي على ضوء سلوك الذين يدعون الارتباط باليهودية في كيان المجتمع الذي يحلمون به ، ولقد رأى المسيحيون الأوروبيون بأنفسهم كيف أن اليهود معاول هدم للمجتمع المسيحي من الناحيتين الاقتصادية

والاجتماعية ، ولقد بلغ الخوف المسيحي أيضا في قلوب المسيحيين من سلوك اليهود نحوهم " [1] .

وقد تأثر الأوروبيون بالوجود اليهودي في المنطقة مما أفقرهم من الناحية الاقتصادية ، بسبب سياسة اليهود الاقتصادية في تعاملهم التجاري خاصة ، " فالدين المسيحي كان قد تمزق ، وتهدم كيانه الاجتماعي كنتيجة لمغالاة المرابين اليهود في فرض نسب عالية وخيالية للفائدة على قروضهم ، لأدركنا سر بغض المجتمعات الأوروبية المسيحية لعمليات التجمع اليهودي ، وهو أن وجودهم يقترن بالتهديد في كل مكان وكل مجتمع ، ومن عجب أنه تهديد متشابه ومستمر في كل مجال وميدان ، فالأنانية التي اشتهر بها اليهودي هي التي قضت على كل ما كان من الممكن أن يقدم إليه من دعوة لكي يكون مواطنا صالحا ، فهو إما أن يعمل سيدا ومسيطرا ، وإما أن يقوم مفسدا ومدمرا " [2] .

فالسياسة الاقتصادية اليهودية المبنية على الربا والتعسف مع النصارى ، جعلت هؤلاء النصارى يضيقون بهم درعا خاصة في العهد الموحدي والغرناطي ، ففي عهد ملوك بني الأحمر مثلا وجد اليهود تسامحا دينيا من قبل المسلمين نظرا للعداء المشترك للإسبان .

إن من أهم النشاطات التي اشتهر بها اليهود في الأندلس التجارة ، فكانوا تجارا مهرة على المستوى الداخلي والخارجي ، إذ كان لهم نشاط واسع مع بلاد المغرب حتى قبل سقوط

---

[1] . صابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام ، ص : 49 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 49 .

غرناطة ، وخاصة مع مدن الساحل كمراكش في المغرب الأقصى ، والمدن الساحلية في المغرب الأوسط ، ومن بين التجار اليهود الذين ربطوا علاقات تجارية بين العدوتين " إسحاق بن باروخ " و" أبو سعيد خلفون بن شنيل " اللذين جرت مراسلة بينهما مؤرخة بتاريخ 29 شوال 532 هـ / 5 أكتوبر 1133 م ، إذ راسل الأول من مدينة ألمرية بالأندلس الثاني بمدينة تلمسان التي قدم إليها من فاس ، ومن العوامل التي ساعدتهم على القيام بهذا النشاط الحرية التي تمتع بها اليهود ، ومعرفتهم الجيدة بالعربية والإفرنجية والأندلسية والصقلية "[1] .

ولما كانت هذه حال اليهود في الأندلس ، فإن وجودهم بالمغرب كان له نفس التأثير على الحياة العامة به ، ولأهمية النشاط الاقتصادي اليهودي في الأندلس ، فإنهم حافظوا على مهنتهم بعد هجرتهم إلى بلاد المغرب ، بل عملوا على تكثيف هذا النشاط الاقتصادي الذي يعتبر أهم مهنة مارسها اليهود في المغرب .

وكان استقرار اليهود في بلاد المغرب الأوسط يتسم بطابع العلاقة الاقتصادية القائمة على العنصرين العربي واليهودي لفترات متعاقبة من الزمن ، ذلك أن اليهود " غلب على تواجدهم في المراكز التجارية الكبيرة وعلى طرق التجارة بعامة "[2] ، وقد كان للمدن الساحلية دور في جلب العديد من اليهود خاصة من بلاد الأندلس ، نظرا لمواقعها الجغرافية الهامة ،

[1] . مسعود كواتي ، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين ، دار هومة ، الجزائر ، د . ط ، د . ت ، ص : 149 .

[2] . عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي ، عين للدراسات ، ط : 1 ، 2001 ، ص : 43 .

وقربها من البحر الأبيض المتوسط الذي يمثل شريان الحياة الاقتصادية بالمنطقة ، وكانت أغلب المدن تعج بالجالية اليهودية التي انتقلت إلى المغرب الأوسط بفعل البحث عن المصادر المالية من خلال ممارستها الاقتصادية ، " فاستقروا بمدينة تنس ، وقلعة بني حماد، ومدينة تيهرت وورجلان خلال القرن الثالث والرابع والخامس الهجري " [1] .

وقد بينت الحقيقة التاريخية أن معظم اليهود كانوا أثرياء في أوروبا ، وكانوا يمتلكون رؤوس أموال كبيرة ، وكان القرن الرابع عشر حدا فاصلا بين وجودهم بها وانتقالهم إلى بلاد المغرب بسبب الحملة التنصيرية ضدهم ، وقد كان لهؤلاء القادمين نشاط اقتصادي واسع في الأماكن التي استقروا بها ، " فالقادمون الجدد قد حظوا باستحسان السلطة العمومية ، والسكان المسلمين ، ذلك أن توافدهم لم يكن يعتبر من الأمور الشاغلة للبال ، بل كان يبشر بتحقيق إنجازات اقتصادية جديدة مفيدة للجميع بفضل ما جلبوه معهم من رؤوس أموال ، وما كانوا يقومون به من نشاط تجاري متأثر بالطرق الأوروبية ، وعلى اتصال مستمر بأوروبا ، قد أدوا عدة خدمات إلى الأمراء بالزيادة في موارد الجباية ، وإلى الخواص بتسهيل معاملاتهم في مستوى عمليات البيع والشراء على حد سواء ، والواقع أنه لم تصلنا أي أخبار عن احتجاج المسلمين ضد قدومهم ، بل العكس من ذلك ، فإننا نعلم أن بني عبد الواد قد

---

[1] . عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي ، ص : 43 وللمزيد حول أهمية النشاط الاقتصادي في توافد اليهود إلى المغرب أنظر : ص : 43 وما بعدها .

استقبلوهم بطيب خاطر في تلمسان "[1] ، وإن كنا لا نعلم سبب هذه المعاملة من حكام مدينة تلمسان إلا أن الشيء الملاحظ حول اليهود أنهم لاقوا معاملة طيبة من أهلها ، ففي عهد الدولة الزيانية كان لليهود دور فعال في الاقتصاد ، وقد قامت هذه الدولة بالاعتماد عليهم ، وجعلت منهم أعوانا لها ، فقد " كان للسلطان الزياني أعوانا من اليهود لجباية الأموال ، وقبض الأعشار العامرين من الإسبان ، وغيرهم من المتوافدين للتجارة على سواحل المغرب الأوسط ، فاستطالوا على الرعايا بظروف الشغل ، وأخذ الأموال بغير حق وتوظيف الضرائب المتنوعة "[2] ، وقد حلل هذا النص الدكتور مختار حساني ، مبينا ظروف وعوامل اعتماد الدولة الزيانية على هؤلاء اللاجئين اليهود ، وذكر منها ما يلي :

. أن الدولة الزيانية في هذه المرحلة عرفت ضعفا نتيجة لانفصال بعض بطون قبيلة بني عبد الواد عن الأسرة الحاكمة ، ومعارضة علماء الدولة لهؤلاء السلاطين جعل الناس يرفضون وظائف الدولة ، وعلى الخصوص جباية الأموال التي تتنافى بعض قوانينها مع الشريعة الإسلامية التي تجدد الضرائب لكن في هذه المرحلة حسب النص " توظيف الضرائب المنتزعة " .

---

[1] . حمادي الساحلي ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج : 1 ، ص : 433 .

[2] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ص : 161 .

. إن الاعتماد على الجالية اليهودية لم يكن حديث العهد *، بل ذكر ابن مرزوق في كتابه المسند بأن القوافل التجارية التي تدخل تلمسان كانت تفتش من قبل أفراد الجالية اليهودية نساء ورجالا بالأبواب الرئيسة لهذه المدينة ، وعلق أحد المرازقة على هذه الوضعية بقوله : التي كان تجار الدولة يتعاملون معها [1].

والملاحظ عن هذه الجالية أنها لم تسيطر في استقرارها ببلاد المغرب الأوسط على المدن الساحلية فحسب ، بل توسع انتشارها ليشمل المدن الداخلية أيضا ، ومن أبرزها مدينة تقرت وبسكرة ، وإقليم توات * حيث " لدينا معلومات ثابتة حول وجود طائفة يهودية في بسكرة وأخرى في تقرت في القرن الخامس عشر " [1] .

---

* كان اليهود فئة نشيطة تجاريا وصناعيا في المغرب ، حتى هيمنوا على التجارة في الأسواق في العهد الموحدي ، وأصبحت لهم ثروات كثيرة ، وكان الخليفة يعقوب المنصور 580 . 595 هـ / 1184 . 1198 م قد تنبه إلى هذا الغنى ، ورأى من حقه أن ينزع منهم جزءا من مالهم ، بحجة أنهم كانوا يستعملون الحيل في اكتسابه ، وكان أبو عبد الله الشيعي الذي قتل أغنياء اليهود في سجلماسة في نهاية القرن الثالث الهجري ، ومنعهم من تجارة الذهب ، وتقلق المنصور من ازدياد ثروتهم ونفوذهم في دار الإسلام ، فميز بينهم وبين المسلمين في اللباس ، وأمرهم بلبس ثياب كحلية زرقاء بأكمام مفرطة في الاتساع تصل إلى أقدامهم .. أنظر : عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 207 .

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 161 . 162 .

* **توات** : اختلف الدارسون والباحثون في أصل تسمية منطقة توات بهذا الاسم ، ويدور الاختلاف على مذهبين تتفرع منهما الآراء المختلفة : فالمذهب الأول يقول أن أصل الكلمة عربي ، وممن قال به من المؤرخين المحليين محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكراوي التمنطيطي ، والشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، فالأول يرى أنها من الأتوات ، والثاني يرى أنها من فعل واتى فهي تواتي للعبادة ، أما المذهب الآخر فيقول أن أصل الكلمة أعجمي بربري لا صلة له بالعربية ... للمزيد حول أصل التسمية أنظر : عبد الله كروم ، الرحلات بإقليم توات ، دار حلب للنشر ، د . ط ، الجزائر : 2007 م ، ص : 21 . أما عن أهميتها التجارية وعمرانها ، فقد ذكرها ابن خلدون وأشاد بعمرانها ، وقال فيها : فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة ، وتسمى وطن توات ، وفيه قصور متعددة تناهز المئتين ، آخذة من الغرب إلى الشرق ، وآخرها من

أما إقليم توات فقد لجأ إليه اليهود لمرور القوافل التجارية عبره ، وخاصة المحملة منها بالذهب* ، " ويقدر ابن خلدون أنه في بداية القرن الخامس عشر أصبح الطريق القديم الذي يمتد من ناحية السوس إلى والاتن " والاتا " قد أهمل نتيجة لاعتداءات الأعراب من البادية السوسية على سابلتها ، فتركوا تلك الطريق إلى السودان من أعلى تمنطيت (توات) " [2] ، ويلمح الونشريسي إلى وجود " بيع يهودية في توات ، وكان اليهود يؤدون شعائرهم الدينية فيها بحرية تامة دون مضايقة من المسلمين ، بالإضافة إلى أن الفقهاء المغاربة أفتوا بأن الوفاء لأهل الذمة واجب ، وأباحوا لكل طائفة منهم بناء بيعة واحدة لإقامة شريعتهم ، ولكنهم منعوهم من دق النواقيس " [3] .

وقد عرف اليهود بمكرهم وتحايلهم على الناس ، واستعمالهم للربا والغش في مبيعاتهم ، فضاق بهم السكان ذرعا لدرجة أن السلاطين قاموا بتمييزهم عن غيرهم بلباس خاص بهم ، حتى أن بعض العلماء عارضوا إقامتهم ، وقاموا بمقاطعتهم ومن بينهم المغيلي " فقد وجد

جانب الشرق يسمى تمنطيت ، وهو بلد متبحر في العمران ، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد . ويحتوي هذا الإقليم على تربة خصبة لزراعة الحبوب والشعير ، ويزرعون قصب السكر بكميات وفيرة تكفي حاجتهم ، ويصدرون الباقي لتجار المغرب وفاس ولبلاد السودان ، ولا يستعملون أية عملة بجانب الذهب الذي يستخرج من أرضهم ذاتها ، وتعتبر توات مركز إنعاش لتجار القوافل . أنظر : نخبة من الأساتذة ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19 ، إشراف : د . أحمد إبراهيم دياب ، معهد الثقافة والعلوم والبحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للتربية ، بغداد ، 1984 م ، ص : 80 .

[1] . حمادي الساحلي ، إفريقية في العهد الحفصي ، ج : 1 ، ص : 432 .

* ينظر الطرق التجارية الصحراوية في الخريطة في الملحق رقم 5 في آخر هذا البحث .

[2] . نخبة من الأساتذة ، تجارة القوافل ودورها الحضاري ، ص : 76 . 77 .

[3] . الونشريسي ، المعيار ، ج : 2 ، ص : 214 وما بعدها .

في توات جالية يهودية طاغية بمالها وثرائها الفاحش الذي اكتسبته بالربا ، ونمته بالتجارة غير المشروعة عن طريق استغلال الضعفاء واحتكار الأموال ، وسلع التجارة وبضائعها ، وقد هاجرت هذه الجالية اليهودية إلى توات من الأندلس ، كما هاجرت جاليات أخرى يهودية إلى سجلماسة وواد غير، وفعلت نفس الشيء فطغت وتجبرت على الأهالي ، واستغلت سذاجتهم وطيبتهم لتحقيق الأرباح الفاحشة " [1] .

وقد كان لهؤلاء اليهود في هذا الإقليم انتشار سريع وواسع حتى أنهم تنافسوا في " تمنطيط ببناء وتشييد بيعة كبيرة لهم تجاوزت كل الحدود في ضخامتها ، كما بنوا بيعا أخرى في واحات توات الأخرى التي يتواجدون فيها ، وكأنها مملكة يهودية لهم ، وليست أرضا إسلامية، وقد اعتبر المغيلي ذلك مساسا بالشعور الإسلامي ، وكرامة المسلمين الدينية ، وتطاولا على شعب توات المسلم ، وآل على نفسه هذا التطاول والاستعلاء اليهودي ، ويعيد اليهود إلى مكانهم الطبيعي كجالية يهودية في بلاد إسلامية " [2] .

ومن تأثيرات الجالية اليهودية على اقتصاد المغرب الأوسط ، أن بيت المال كانت تدخله بعض الأموال عن طريق الجزية التي يدفعها هؤلاء اليهود لحكام بلاد المغرب الأوسط ، باعتبارهم رعايا من أهل الذمة ، وهو مبلغ من المال تدفعه هذه الجالية مقابل إقامتها في

[1] . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ، ص : 222 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 223 ، وقد دافع المغيلي عن هذا الإقليم ، ووحارب نشاط اليهود الاقتصادي غير المشروع ، ودافع عن قضيته بكل الطرق والوسائل ، وللمزيد حول التعرف على قضية اليهود في إقليم توات ، أنظر : المرجع نفسه ، ص : 222 وما بعدها .

هذه المدن ، ومن بينها مدينة قسنطينة ، فمن الناحية الشرعية أباح الإسلام لهؤلاء اليهود الإقامة في ديار الإسلام مقابل فدية مالية تمثل الجزية تقدم لبيت مال المسلمين ، إذ " يتمثل الأداء الخصوصي الملازم لوضعية الذمي في الضريبة الشخصية السنوية الموظفة على جميع الذكور البالغين والمعروفة باسم الجزية ، وهذه الضريبة هي التي كان يدفعها يهود إفريقية إلى الحفصيين ، ويعتبر الحادث التالي الذي جرى بقسنطينة حوالي منتصف القرن الخامس عشر مثالا للمطالب الجبائية التي كان يخضع لها اليهود بصورة تعسفية ، فقد طلب الوالي من الجالية اليهودية بواسطة رئيسها دفع مبلغ إضافي زيادة على الضريبة العادية المستخلصة قمحا ، فدفع رئيس الجالية المبلغ المذكور من ماله الخاص " [1] .

والملاحظ حول النشاط الاقتصادي لليهود اللاجئين إلى المغرب الأوسط أنه كانت تطبعهم مهنة التجارة منذ عصور موغلة في القدم ، " وكان التجار اليهود يشكلون مجموعة تجارية قائمة حول البحر وإيطاليا وفرنسا وميورقة وبرشلونة ومصر وبلاد المغرب " [2] ، وقد امتهن اليهود حرفا أخرى على غرار التجارة التي اشتهروا بها " فكانوا حرفيين أيضا ، ولهذا كانوا يقومون بتوزيع بضائعهم على تجار تلمسان لتسويقها في تلمسان وفي المدن المغربية

[1] . حمادي الساحلي ، إفريقية في العهد الحفصي ، ص : 435 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 217 .

الأخرى مقابل مبلغ من المال نقدا أو عينا ، وكانوا يهيمون على تجارة الذهب في مدينة تلمسان خاصة ، والمغرب عامة " [1] .

امتهن اليهود عدة مهن وخاصة منها الصناعة التي تعتبر أهم مهنة اشتهروا بها ، " فكانت صناعة المعادن الثمينة من ذهب وفضة تمثل صناعة يهودية قديمة تم توريدها من المشرق إلى المغرب " [2] ، كما " اشتهر اليهود بحرفة الخياطة ، وصناعة السجاد والفخار ، والصباغة ، والتجارة ، والحدادة ، والشفارة ، والنقاشة ، وصناعة الصابون " [3]، وقد كان هناك تنافس حار بين اليهود الأهالي واليهود القادمين من الأندلس في هذا النشاط الاقتصادي ، فإن " الحرفيين اليهود الأهالي في بجاية يتنافسون مع أبناء ملتهم الإسبانيين ، فقد كان هؤلاء يفضلون بيع الملابس المصنوعة التي لقيت رواجا أحسن لدى الحرفيين المسلمين " [4] ، ويعود سبب هذا الصراع فيما بين العنصرين " أن أقام هؤلاء اليهود الجدد إنجازات مفيدة للجميع بفضل ما جلبوه معهم من رؤوس أموال ، وما كانوا يقومون به من نشاط تجاري ، إذ تميز هؤلاء القادمون بمهارة فنية فائقة ، فزادت الجماعات اليهودية ثراء

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 217 .

[2] . حمادي الساحلي ن إفريقية في العهد الحفصي ، ص : 442 .

[3] . فاطمة بوعمامة ، اليهود في المغرب الإسلامي ، ص : 204 .

[4] . حمادي الساحلي ، المرجع السابق ، ص : 442 .

في المراكز السكنية الكبرى ببلاد المغرب الأوسط بسبب إسهامات اليهود المهاجرين ، حيث تمكن هؤلاء من فرض نفسهم اقتصاديا ودينيا " [1] .

3 . أثر الأندلسيين في النشاط الاقتصادي :

ذكرت سابقا أهمية موقع المغرب الأوسط بالنسبة للأندلس من الناحية الجغرافية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد أشاد العديد من الجغرافيين إلى أهميته ، وبينوا سبب ذلك في انبساط أرضه على بحر طويل يواجه الجهة الجنوبية للأندلس ، لذلك كان للأندلسيين دور في تفعيل العلاقات الاقتصادية بين البلدين لعصور طويلة ، فنشطت التجارة نشاطا واسعا ، من خلال تبادل المنتجات الزراعية والصناعية نتيجة استقرار بعض التجار الأندلسيين في المدن الساحلية الكبرى كوهران وبجاية والجزائر وتنس ... وغيرها ، وكان هناك تبادل اقتصادي هام خاصة بين ميناء مدينة ألمرية* الأندلسية وموانئ المغرب الأوسط ، " فقد كان يربطها

---

[1] . فاطمة بوعمامة ، المرجع السابق ، ص : 204 .

* يشير الإدريسي إلى أهمية هذا الميناء بقوله : " كانت ألمرية إليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ، ولا أتجر منهم في الصناعات ، وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ، والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات ، والمسافرون إليها كثيرون ، وكان أهلها مياسير ، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقدا ولا أوسع منهم أحوالا " . أنظر : الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص : 197 . 198 .

ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة مثل : وهران وبجاية وموانئ المغرب الأوسط وتنس وسبتة وتونس " [1].

ولم يكن توفر المواني‌ء سببا وحيدا لهجرة الأندلسيين إلى المنطقة ، بل كان للعامل الطبيعي دور في تحقيق تلك الهجرة المتزايدة جراء الوقائع السياسية في الأندلس ، فكانت الجزائر " تتوفر على مرفأ طبيعي هام يجعل السفن بمنأى عن العواصف ، ويساعد على رسوها ، ويقول ابن حوقل : ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح ، وما أظن له مثيلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى ، وتوفر المدينة على سهول واسعة خصبة ، مع توفر المياه العذبة بها ، وذلك ما أكده الإدريسي بقوله : " وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنان ، وبها فواكه ممكنة ، وأهلها في خصب ، والعسل بها موجود "[2] .

وهكذا بدأ الظهور الأندلسي في بلاد المغرب الأوسط ، إذ يعود تأثيرهم الاقتصادي على المنطقة إلى القرن التاسع الميلادي ، حيث " عرفت الواجهة الساحلية للمغرب الأوسط نشاطا تجاريا هاما بفضل قيام الملاحة الأندلسيين بتأسيس عدة مدن وموانئ على الساحل المغربي ، إنه جيل جديد من الملاحين الأندلسيين الذي خلف العنصر البربري الجهادي ، وقد تخصص هذا الجيل في شراء منتوجات المغرب وبيعها في الأندلس بعدما تمكن من بناء

[1] . حمدي عبد المنعم ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمغرب والأندلس ، ص : 350 .

[2] . محمد زروق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 50 .

مدن تنس ووهران ومرسى الدجاج ، ويعود الفضل في هذا النشاط التجاري بالبحر المتوسط إلى سياسة خلافة قرطبة ، التي اهتمت بربط الأندلس ببقية العالم الإسلامي تجاريا " [1] .

وقد أشار الرحالة ابن حوقل في كتابه صورة الأرض إلى أهمية الموانئ المغربية والأندلسية في ربط العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والأندلس ، وكان التأثير واضحا على صادرات وواردات المغرب ، ومما جاء في كتابه ذكره لموانئ المغرب الأوسط التي كانت تحط بها السفن الأندلسية محملة بالبضائع لتوزيعها في أسواق المغرب الأوسط ، ومن بينها : " مرسى الخزر (القالة) ، بونة ، جيجل ، بجاية ، مرسى بني جناد ، مرسى الدجاج ، الجزائر ، تمدفوس ، برشك ، تنس ، مرسى عطا " ، وأشار إلى أن الأندلسيين كانوا أنشط في هذه الموانئ .

أما عن الطرق المائية التي تربط مراسي المغرب الأوسط بساحل الأندلس فهي كثيرة منها : . مرسى قصر الفلوس . تدمير .

. تنس . شنت بول (cap de sante pola) .

. مرسى جزيرة العطور . ألقنت (Alicante) .

. شرشال . مرسى مورورة (cap Moraira) .

---

[1] . علاوة عمارة ، دراسات في تاريخ العصر الوسيط في الجزائر والغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط، الجزائر : 2008 م ، ص : 140 .

. مرسى جنابية . دانية (Denia) .

. الجزائر بني مزغنة . بنشكالة (Peniscola) .

. مرسى الدجاج . ميورقة (Majorque)[1] .

وبفضل هذه الموانئ " استوردت مدن الساحل الشرقي للجزائر الحرير والورق والخزف والرقيق الأبيض "[2] .

أما خلال العصرين المرابطي والموحدي فقد كان الوجود الأندلسي بارزا في المغرب الأوسط ، وكان لهم إسهام في النشاط الاقتصادي وتطويره بفضل الخبرات التي اكتسبوها في بلاد الأندلس ، ويعود هذا التأثير إلى سقوط العديد من المدن الأندلسية في يد النصارى من جهة ، وسياسة المرابطين والموحدين الاقتصادية القائمة على تقريب العلاقات بين العدوتين من جهة أخرى ، حيث أثر الأندلسيون بخبراتهم في هذا المجال على اقتصاد المغرب الأوسط ، " فقد حرص ولاة الأمر على استتباب الأمن ، وإشاعة الهدوء مما سهل الاتصال التجاري بين المدن المختلفة ، كما أن امتداد السلطة السياسية لولاة الأمر حتى حدود طرابلس شرقا وصحراء المرابطين جنوبا والأندلس شمالا ، هذا الاتساع المكاني أعطى امتدادا للحركة التجارية بين مدن المغرب وغيرها من مدن المغرب الأوسط والأدنى ، وأيضا

---

[1] . أنظر عن تفاصيل التصال الجغرافي والتجاري بين البلدين عن طريق هذه المواني في : ابي عبيد عبد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف بالمسالك والممالك ، ص : 81 .

[2] . علاوة عمارة ، دراسات في تاريخ العصر الوسيط في الجزائر ، ص : 141 . 142 .

مدن الأندلس ، وشجع التجار الذين كانوا يخضعون في هذه المناطق لحكومة واحدة على التنقل بحرية تامة مما ساعد على تنشيط البيع والشراء وتبادل المنتجات " [1] .

هذا بالإضافة إلى وجود طريق القوافل التجارية التي كان يمر منها التجار الأندلسيون لبيع منتجاتهم الاقتصادية في المدن المغربية ، خاصة وأن هذه الطرق التي كانت تمتد إلى الصحراء تمر عبر تلمسان ، وقد وصف ذلك الإدريسي أيضا بقوله : " وأما من أراد الطريق من تلمسان إلى مدينة سجلماسة بالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس ، ومن فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى أغمات إلى درعة إلى سجلماسة " [2].

وخلال عصر الدولة الزيانية تكاثر وجود الأندلسيين بها ، وكان اهتمام الأندلسيين في الاستقرار بمدينة تلمسان نظرا لموقعها الجغرافي الهام المطل على مدينة سجلماسة بوابة الصحراء إلى السودان الغربي حيث تجارة الذهب ، لذلك أخذوا يتواجدون بالمنطقة خلال دولة بني عبد الواد ، وكان " هذا الذهب يقايض بالنسيج والأواني الحديدية والقصديرية والنحاس والأواني البلورية والطيب والعنبر ، وكانت تشترى هذه السلع المتواجدة بتلمسان والواردة سواء من غرب أوروبا وأراغون أو إفريقية والمغرب الأقصى بمادة الذهب ، وكانت كل البلاد الأوروبية تفتقر إلى الذهب وتحتاجه " [3]. هذا بالإضافة إلى انتشار النشاطات

[1] . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، ص : 266 .

[2] . الإدريسي ، وصف المغرب ، ص : 81 .

[3] . عمر سعيدان ، علاقات إسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي ، دراسة ووثائق (رسائلل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل ، منشورات سعيدان ، ط : 1 ، سوسة ، تونس ، 2002 م ، ص : 29 .

الإقتصادية التي كانت في الأندلس " فالأندلسيون الذين توافدوا على الدولة الزيانية مارسوا نفس الحرف التي كانوا يقومون بها في الأندلس مما ساعد على ازدهار الصناعة ، كما كونوا ورشات زاولوا فيها النشاط الحر " [1].

وكان لتجارة الرقيق أيضا دور في تشجيع المبادلات التجارية بين المغرب الأوسط وأوربا، " فمنذ أواسط القرن الثالث عشر تكاثر العبيد السود القادمون عن طريق تلمسان ، ومراسي المغرب الأوسط بواسطة القرصنة والحروب ، يباعون عادة في قطلانيا وأراغون ، فكان رعايا ملك أراغون يتوجهون غالبا إلى تلمسان للحصول على ما يرغبون فيه من العبيد " [2].

ونستنتج من خلال ما ذكر الأهمية الاقتصادية التي كان يتمتع بها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى ، " وعليه لعب الواقع الاقتصادي الذي كانت تنعم به الجزائر على استقطاب أعداد كبيرة من الأندلسيين الذين رأوا في هذه الوضعية سببا لاستقرارهم ، واستمرار نشاطاتهم التي كانوا يمارسونها في الأندلس وخاصة منها التجارة "[3] ، كما كان ميناء أرزيو من أشهر الموانئ التي اكتست أهمية تجارية كبرى ، وانتعش هذا القطاع بفضل النشاط

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 239 .

[2] . عمر سعيدان ، المرجع السابق ، ص : 31 .

[3] . محمد زروق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص : 50 .

التجاري للجالية الأندلسية في المنطقة ، حيث " كان التجار الأندلسيون يتولون تصدير ملح سباخها إلى إقليم الأندلس "[1] .

وكان الأندلسيون بالإضافة إلى اهتمامهم بالتجارة ، ميالون إلى النشاط في مختلف المهن الأخرى ، فاشتغلوا بقطاع الزراعة والصناعة ، واستفادت منهم الجزائر في هذا المجال ، فقد استفاد سكان المدن الساحلية بتجربة المهاجرين الأندلسيين الذين يعود إليهم الفضل في تنويع الإنتاج الزراعي وتطوير وسائل الري ومختلف الصناعات اليدوية " [2] ، فكان هؤلاء الأندلسيين " يتقنون الزراعة والصناعة والأعمال الإدارية بشكل جيد ، كما عملوا بالدباغة والسروجية (صناعة السرج) وصنع الأسلحة والأعمال الأخرى "[3] .

أما أصحاب الحرف فقد نشطوا كثيرا في المنطقة ، وبادروا بجهودهم في خدمة النشاط الاقتصادي بما تعودوا عليه من تفنن في مختلف المجالات الاقتصادية ، فقد " شيد المهاجرون الأندلسيون ورشات ، وأقاموا صناعات مختلفة ، حيث عملوا بالدباغة والسروجية (صناعة السرج) وصنع الأسلحة "[4] ، ومن جملة الصناعات التي مارسوها أيضا الصناعة الغذائية حيث انتشرت ببجاية مثلا " صناعة المربى المجففة كالتين والمشمش ، وكانت هذه

---

[1] - . De la Primaudaie .F . E . op , cit , p : 235

[2] . مفتاح خلفات ، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ، ص : 122 ، ذكر ذلك عند حديثه عن مدينة مرسى الدجاج التي قال عنها أنها كان يسكنها عدد من الأسر الأندلسية .

[3] . سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ص : 146 .

[4] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 89 .

الصناعة من اختصاص العائلات الأندلسية المقيمة بالمدن ، والتي أخذها منهم سكان المنطقة بعد الاحتكاك معهم في الأسواق ، ومنها تظهر تأثيرات الأندلسيين في نمط معيشة السكان المحليين "[1].

كما شهدت مدينة عنابة تطورا اقتصاديا بفضل المهاجرين الأندلسيين حيث كان لهم تأثير إيجابي على المدينة ، " فكانوا يمارسون بها الصنائع المختلفة والمهن اليدوية ويحتكرون الأعمال التجارية التي أصبح أغلب من يشتغل بها من العنصر الأندلسي منذ عهد مبكر ، وبذلك كان لقدوم هذا العنصر الأندلسي النشيط آثار إيجابية بناءة على اقتصاديات عنابة لا سيما بعد أن استقرت جماعات كبيرة من الأندلسيين بالمدينة بعد حلول الأتراك بها "[2] .

وعن الأنشطة الاقتصادية المختلفة التي مارسها الأندلسيون في مدينة شرشال فهي كثيرة ومتنوعة ، عمل الأندلسيون على تطويرها[3] ، فحققوا مكتسبات اقتصادية تعود بالربح على المنطقة وأهلها ، ومن ذلك ما ذكره الحسن الوزان في سياق حديثه عن هذه المدينة إذ يقول واصفا للحياة الاقتصادية فيها فيقول : وزعوا الأراضي بينهم ، ثم صنعوا كثيرا من السفن للملاحة ، واشتغلوا بصناعة الحرير ، إذ وجدوا هنالك كميات لا تحصى من أشجار التوت

[1] . بومولة نبيل ، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثمانتي ، إمارة المقرانيين في القرن 10 هـ / 16 م ، ص : 41 .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص : 208 . 209 .

[3] . يذكر أن مدينة شرشال كانت خرابا لحقها من جراء الصراع السياسي والعسكري القائم بين الحفصيين والزيانيين ، وأن إعادة إعمارها وبنائها تم على أيدي هؤلاء اللاجئين من الأندلس ، أنظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 34 .

الأبيض والأسود ، فعاشوا في رخاء دائم ، حتى أصبحوا يسكنون في مائتين وألف بيت ، ولم يخضعوا إلا لبربروس الذي لم يؤدوا له مع ذلك خراجا سنويا أكثر من ثلاثمائة مثقال " [1].

كما كانت مدينتي القليعة ومتيجة من أشهر المدن التي استقر فيها العديد من المهاجرين الأندلسيين ، ومارسوا بها العديد من الأنشطة الاقتصادية حيث " استقبلت مدينة القليعة المهاجرين من قشتالة وبلنسية ، وعمد هؤلاء إلى استغلال الأراضي المحيطة بوادي الزعفران، وغرسوا بها أشجار البرتقال والتوت ، فازدهرت بها الصناعة والزراعة ، وما يقال عليها ينطبق أيضا على مدينة البليدة " [2].

أما مدينة الجزائر فكانت هي الأخرى تستفيد من التجربة الإقتصادية الأندلسية ، حيث اشتغل أندلسيوا هذه المدينة في نشاطات اقتصادية متنوعة كالزراعة والتجارة والصناعات التقليدية ، " وأهم الصناعات التي عرف بها الأندلسيون صناعة النسيج بمختلف أصنافها كأقمشة الكتان والقطن والحرير ، وكانت معامل الأقمشة في الربع الأول من القرن السادس عشر تضم ما لا يقل عن 3000 عامل ، كما لا تقل هذه الصناعة أهمية عن باقي

---

[1]. الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 34 .

[2]. مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 239 . 240 .

الصناعات والحرف الأخرى التي أتقن صناعتها الأندلسيون وهي التطريز ، والقلانس ، وصناعة الحلي ، وتجهيز السفن ، وصناعة الأسلحة " [1] .

أما على المستوى الزراعي ، فقد أدخل الأندلسيون إلى الجزائر تقنيات جديدة في الزراعة[2]، مما استطاعوا أن يطوروا من هذا النشاط الاقتصادي الهام ، ومن تلك التقنيات " آلات العمل الفلاحي ، وطرق التشذيب والتلقيح ، والغراسة واختيار التربة ونوعية المياه ، مما أدى إلى تحسين أنواع عديدة من الأشجار المثمرة كالعنب والبرتقال والزيتون* والتفاح والجوز واللوز والمشمش ، وإدخال أنواع جديدة من الخضر والفواكه لم يألفها السكان قبلهم مثل :

---

[1] . محمد الأمين بلغيث ، الأندلسيون وآثارهم في فحص الجزائر ومتيجة ، دراسات وبحوث مغربية ، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، إعداد وتنسيق : اسماعيل سامعي ، عمارة علاوة ، بوبة مجاني ، دار بهاء الدين ، ط : 1 ، الجزائر 2008 م ص : 169 . 170 .

[2] . عرف الأندلسيون الزراعة وطوروها بفضل العديد من العلماء الذين اجتهدوا في تحقيق ذلك ، أنظر عن هذا الموضوع : محمد عبد الله عنان ، أندلسيات ، ص : 187 وما بعدها وفيه شيء من التفصيل .

* لقيت زراعة الزيتون في الأندلس عناية كبيرة ، لدرجة أن الأطباء جعلوها من أهم المغروسات التي تدر بفوائد صحية كثيرة ، لذلك اعتنى بها الإنسان الأندلسي ، لخبرته في تهيئة الظروف الجيدة للإكثار من زراعته والاستفادة من ثماره وأوراقه وعروقه وأخشابه من خلال ما كتبه ابن بصال الطليطلي وابن العوام الإشبيلي ، ويؤكد الجغرافي الشريف الإدريسي وفرة الزيتون في إشبيلية ودينة لبلة بقوله : " وجل تجارتهم بالزيت بتجهزته منها إلى أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا ، وهذا الزين عندهم يجتمع من الشرف ، وهذا الشرف هو مسافة أربعين ميلا ، وهذه الأربعون ميلا كلها تمشي في ظل شجر الزيتون ظالتين أوله بإشبيلية وآخره بمدينة لبلة وكله شجر الزيتون ، وسعته اثنا عشر ميلا وأكثر ... للمزيد عن هذا الموضوع حول تطوير الأندلسيين لزراعة الزيتون في الأندلس أنظر : محمد بشير العامري ، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي ، ص : 216 وما بعدها .

حب الملوك (الكرز) والنارنج والقرنون والكراث والجلبان والملفوف والباذنجان والطماطم والبطاطس والفلفل وأنواع الزهور "[1] .

ومن بين التأثيرات التي مست الجانب الاقتصادي في المغرب الأوسط ظاهرة العملة[2] ، ونظرا للدور الاقتصادي الذي لعبه الأندلسيون في السواحل الجزائرية بامتهانهم لمهنة التجارة، وربطهم لعلاقات تجارية مع إسبانيا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فبدخول الأندلسيين إلى المنطقة ، وخاصة بعد سقوط غرناطة أدخلوا معهم العملات المتعامل بها في الأندلس ، " فساعدوا على شيوع النقود الإسبانية بين الأهالي ، وجعلها العملة المطلوبة في التعامل ما بين حكام الجزائر وباقي الدول الأوروبية عند تسديد المشتريات ، ودفع الأتاوات ، وذلك نظرا للكميات الكبيرة من النقود الإسبانية التي حملها الأندلسيون إلى الجزائر ، والمبادلات التي كانوا يستخدمون فيها العملة الإسبانية دون غيرها " [3] ، فالفضل يرجع للأندلسيين المهاجرين إلى المنطقة في إدخال هذه العملة ، حيث كان النشاط الاقتصادي

[1] -محمد الأمين بلغيث ، المرجع السابق ، ص : 170 .

[2] . عرف المغرب خلال العصور التاريخية التي مر بها العديد من العملات ، وحدث فيها تطور من خلال التغيرات السياسيو والدينية التي مرت بها المنطقة ، وخاصة بعد ظهور أولى مميزات الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب على يدي حسان بن النعمان الغساني ، والعملة المغربية عبرت عن سيادة الدولة ودورها حتى في العلاقات الدولية ، ويكمن هذا في سيادة عملتها في كثير من دول العالم ، وقد كان هناك تشابه بين المسكوكات التي كانت تضرب في الأندلس ، ونظيراتها المضروبة في شمال إفريقية ، خاصة في العهد المرابطي والموحدي . للمزيد حول هذا الموضوع أنظر : صالح بن قربة ، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط ، الجزائر ، 1986 م .

[3] . ناصر الدين سعيدوني ، صفحات من تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، ص : 142 .

للجالية الأندلسية وحيويتها في مجال الأعمال المالية هو الذي جعل الحكام يميلون إلى تفضيل العملة الإسبانية على غيرها من العملات الأجنبية الأخرى ، عند تعاملهم مع الدول الأوروبية ، إذا كان الأمر يتعلق بتسديد القروض ودفع الأتاوات " [1]، ويمكن إرجاع هذا الأثر أيضا إلى العلاقات الجزائرية الإسبانية القديمة ، " وقد تأكدت هذه العلاقة منذ استيلاء الإسبان على أغلب المراسي الجزائرية ومكوثهم مدة طويلة بوهران والمرسى الكبير منذ 1509 م "[2] .

ولم يكن انتشار العملة الإسبانية لدخول الأموال الإسبانية مع دخول المهاجرين الأندلسيين فقط ، بل كان لضرب النقود الإسبانية في بعض المراكز أثر في انتشارها أيضا " فقد ضرب الإسبان في وهران عملة وذلك ابتداء من 1568 م عندما تعرضت هذه المستعمرة الإسبانية إلى أزمة مالية خانقة من العجز الذي شهدته الخزينة ، وقد نجم عن هذا النقص المالي في وهران قيام ثورة الأندلسيين ، ومن أجل تجاوز هذه الضائقة المالية لجأ الحاكم العام لوهران

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط : 2 ، الجزائر، 1985 م ، ص : 195 . 196 . ويضيف سببا آخر ساعد العملة الإسبانية على غزو أسواق المغرب العربي وتدعيم قيمتها النقدية ولا سيما في الجزائر ، تهاطل المعادن الثمينة على شبه جزيرة إيبيريا من العالم الجديد طيلة سنوات (1493 . 1660) .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 196 .

إلى ضرب ثلاث قطع نقدية "[1] ، والجدول الموالي يوضح النقود الإسبانية المتعامل بها في الجزائر[2] :

نوع النقود المستعملة	قيمة النقود المستعملة أو وزنها
الدبلون الفضي	5,40 ف
	24 رأس أو 9 ص
الدوكة	
الكرونة	
الدورو الإسباني	5, 25 ف
القرش الإسباني	5,43 ف
أو الدولار الإسباني	3, 40 ف
قرش إشبيلية	
القرش المكسيكي	3, 7 ب . ش
الريال الإسباني	15 أس
الاسبر الفضي المربع	15 ر . إسباني

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية ، ص : 258 . 259 .

[2] ـ ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 201 .

البستول الإسباني	4 ,4 ب . ش
الكاتربيل الإسباني	86 ف
الكاتربيل المكسيكي المضعف	1, 68 ف

وقد تأثرت العملة المغربية بالفساد في العصر الزياني نظرا للممارسات الاقتصادية السلبية لليهود في بلاد المغرب ، إذ يذكر المازوني نصا متهما فيه اليهود بمسؤوليتهم تجاه فساد العملة فيقول : " سئل الإمام محمد بن مرزوق عن الرجل ابتاع نيلجا بألف دينار دراهم عشرية على الحلول لأن دراهم البلد كثير فيها الفساد عن نقص ولا تترك على وزنها المصطلح عليه في دار السكة ، وبنفس ما تخرج من دار السكة تنقص حتى لا نكاد نجد في البلد إلا درهما منقرضا ، وربما اتفق صاحب الفضة ودار السكة من اليهود على ضربها ناقصة لقلة الضبط وعلة الفساد ، وصار هذا المقصوص هو الجاري بين الناس ، ولا يتوافقون فيه أصلا ، وعليه تقع بياعاتهم ، فنجد هذا المقصوص لحساب اثنين وأربعين درهما للأوقية مثلا ، والمصطلح عليه في دار السكة من حساب اثنين وأربعين لكنه لا يكاد يوجد ، فإذا وجد جرى على هذا المقصوص مرة ، وزادوا في نقصان وزنه ، وبلغ حتى صار من حساب 56 ويخف ذلك ، وهم مع ذلك لا يتوقفون في المعاملة به " [1] ، كما كان

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 2 ، ص : 126 .

للإسبان دور في ضعف العملات المحلية " التي لم تكن لها قيمة ثابتة لأن الحكام كانوا يرفعون من قيمتها ويخفضونها حسب الظروف باستثناء عملة الزياني التي شهدت استقرارا بالمقارنة مع القرش الإسباني ، وابتداء من سنة 1580 م لم تعرف العملات المحلية استقرارا من حيث قيمتها "[1] .

وعليه يمكن القول أن تأثير سقوط الأندلس على المغرب الأوسط كان ذا حدين سلبي ترتب عنه انهيار اقتصادي رهيب تسبب فيه المحتلون الإسبان الذين عملوا على تحقيق مصالحهم الشخصية ، والرفع من العجز المالي الذي أصابهم نتيجة صرف الأموال الطائلة على التسليح في حروبهم الصليبية ضد المسلمين من جهة ، وتدهور أنشطتهم الاقتصادية نتيجة تعطل الصناعات والحرف التي كان يعمل على تطويرها المسلمون في الأندلس من جهة ثانية ، ولتغطية هذا الضعف لجأت إلى أسلوب فرض الضرائب ، والسيطرة على حركة التجارة في البحر المتوسط ، فخنقت بذلك الملاحة البحرية التي كانت تدر أرباحا طائلة على المدن الساحلية والداخلية للمغرب الأوسط .

أما تأثير السقوط على المستوى الإيجابي فقد التمسناه من خلال الجهود المبذولة من طرف الأندلسيين المهجرين من مدن الأندلس في مختلف الأنشطة الإقتصادية (زراعة ، صناعة ، تجارة) ، فتطورت المدن الجزائرية إقتصاديا ، واصطبغت بصبغة إقتصادية أندلسية .

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره ، ص : 268 .

الفصل الرابع

الآثار الثقافية والعمرانية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط

المبحث الأول : تأثيرات الأندلسيين في المجال الثقافي

المبحث الثاني : آثار سقوط الأندلس على الحياة العمرانية والفنية في المغرب الأوسط

الفصل الرابع : الآثار الثقافية والعمرانية لسقوط الأندلس على المغرب الأوسط

مدخل :

لقد علمنا من خلال قراءتنا لمصادر تاريخ الأندلس الرقي الثقافي الذي شهدته المنطقة خلال العصور التاريخية التي مرت بها منذ الفتح الإسلامي ، ومدى تأثير المسلمين في إخراج هذه المنطقة من الأوضاع المتدهورة التي كانت تعيشها في ظل الحكم القوطي الإسباني ، وقد امتزجت حضارة الأندلس بالعديد من الثقافات العربية والبربرية والإسبانية ، فكونت حضارة مزدهرة على الصعيد الثقافي ، ولما لم يكتب لهذه الحضارة بالدوام في الأندلس نتيجة سقوط كبرى مدنها خلال القرن السادس والسابع ، وتواصل هذا السقوط باندثار آخر معاقلها وهي غرناطة ، فإن بلاد العالم الإسلامي قاطبة احتضنت هذه الحضارة الأندلسية المتشتتة ، وخاصة منها بلاد الشام والحجاز ، أما المغرب الإسلامي فبحكم موقعه القريب من المنطقة فكانت أكثر البلدان الإسلامية المتأثرة بروافد الثقافة الأندلسية ، لتفضيل الأندلسيين الهجرة إلى المغرب ، وكان حظ المغرب الأوسط من هذه الثقافة كبيرا ، سواء ما تعلق بالتعليم لمشاركة هؤلاء الأندلسيين في هذه المهمة ، أو ما تعلق بالحياة الفكرية كلها من علوم شرعية ، وعلوم عقلية ، وأدب وتصوف ، وسنحاول في هذا الفصل التفصيل في هذه المحاور مبرزين أوجه التأثير الأندلسي في ثقافة المغرب الأوسط ، وأهمية هذه المنطقة في احتضان الثقافة الأندلسية ، وحفظها من الزوال .

المبحث الأول : تأثيرات الأندلسيين في المجال الثقافي :

1 . التأثير في مجال التعليم :

يحظى التعليم بأهمية بالغة في المجتمعات الإسلامية عامة ، وبلاد المغرب الإسلامي على وجه الخصوص لمساهمته الفعالة في بناء الحضارة الإنسانية نظرا لما يتسم به من القدرة على الحفاظ على مقومات الأمة واكتساب خبرات وتجارب أمم أخرى بتبادل المعارف والمكتسبات الثقافية بين الشعوب عن طريق رحلة العلماء عبر الأقطار ، ولا شك أن بلاد المغرب الإسلامي خلال الفترة المحددة من القرن السادس إلى القرن العاشر هجري قد طرأت عليها تغيرات كثيرة في مجال التعليم بتأثير من الأحداث السياسية التي مرت بها المنطقة ، ولعل سقوط غرناطة والمدن الأخرى قبلها كان أهم الأحداث التي وسعت من بؤرة التعاون الفكري بين العدوتين .

وقد أشار ابن خلدون في حديثه عن التعليم في بلاد المغرب والأندلس ، فذكر في مقدمته عدة مميزات لهذا المنهج حيث قال : " فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ، ولا من فقه ، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا أهل الأمصار بالمغرب ، ومن تبعهم من قرى البربر أمم

المغرب في ولدانهم " [1] ، وعليه حسب ابن خلدون فإن تعليم الصبيان في المغرب كان يقتصر على حفظ القرآن فقط دون مزجه بعلوم أخرى ، إذ " هذا المنهج يعتمد القرآن وحدة مستقلة في التعليم ، وحفظه وتجويده غاية في نفسها ، والحفظ وسيلة لا غاية " [2] ، أما عن التعليم في بلاد الأندلس حسبه فيختلف عما ذكرناه سابقا ، حيث يقول في التعريف بمنهجهم التعليمي : " وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية ، وحفظها ، وتجويد الخط والكتاب ، ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شد لبعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم " [3] ، ومن خلال هذين النصين نلاحظ أن ابن خلدون فرق بين المنهج التعليمي في المغرب ، ونظيره في الأندلس ببعض الفوارق ، إلا أنه يبين في نص آخر المزج بين المنهجين الأندلسي والمغربي في إفريقية ، فيبين العلاقة القائمة بين المنهجين ، ويربط ذلك بتغلب النصارى على المدن الأندلسية ، التي كان من نتيجتها استقرار العديد من العلماء

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 735 .

[2] . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص : 214 .

[3] . ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص : 736 .

الأندلسيين فيها ، فأثروا بطريقتهم المتميزة في التعليم المغربي حيث يقول في هذا الصدد : " فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك " [1].

فهذا الاختلاف بين المنهجين لم يبق مسيطرا على المغرب بسبب الاحتكاك بين العدوتين، والرحلات العلمية بين البلدين سواء كانت هجرة إقامة في الحواضر المغربية جراء سقوط بعض المدن الأندلسية ، أو هجرات للعلم والتعليم ، وقد كثرت هذه الرحلات خاصة في العصر الموحدي ، وفي عهد الإمارتين الزيانية والحفصية ، والشاهد بقول ابن خلدون حول التدريس في المدارس الحفصية ، أنه كان يطغى عليه المنهج الأندلسي* ، " وقد تم إحصاء العلماء الذين جاؤوا مع جالياتهم ، وسكنوا تونس بما يقارب 33 إلى 35 عالما أندلسيا ، في طليعتهم الفقيه الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد القريشي الغرناطي ، وعالم

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 736 .

* الواضح أن سبب هذه الهجرة أن الأندلسيين ضاق بهم أمر ضياع الأندلس ، فكانت ثقتهم بالحفصيين أكبر من ثقتهم بالموحدين (فمعظم الأندلسيين لم يرتاحوا في ظل الموحدين ، واعتبروهم مسؤولين عن ضياع الأندلس ، لذلك ولوا وجوههم شطر الحفصيين مؤملين منهم أن يعملوا على إنقاذ الأندلس ، ولذا ظهرت دعوات من قبل الشعراء تحث أبا زكريا الحفصي على الاستيلاء على المغرب ، وتشكو إليه حال الأندلس :

والأمر فيه قد انقضى إلا لقى   يكفيه منك تناول بالخنصـــر
ولأرض أندلس إليك بحالها   شكوى الهشيم إلى السحاب الممطر

أنظر : عبد الواحد ذنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، ص : 423 . 424 .

الحديث أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس ، وكان الحفصيون يميلون إلى المدرسين الأندلسيين عموما لشهرتهم وكفاءتهم ، واستغلالهم في الدعاية لهم "[1] .

تأثرت العديد من المدن في بلاد المغرب الأوسط بهذا المنهج التعليمي ، وذاع بين المغاربة بشكل سريع ، سواء المدن التي خضعت مرارا للسلطنة الحفصية ، كبجاية وقسنطينة .. ، أو المدن التي غلب عليها الحكم الزياني كتلمسان مثلا ، فكان لدخول الأندلسيين إلى بلاد المغرب الأوسط آثار إيجابية في مجال التعليم ، وكانت حواضره المختلفة بمثابة مدارس لنشر العلم وفق الطريقة الأندلسية في جميع الأقطار ، " وقد تكونت بفعل هجرة الأندلسيين إلى عواصم المغرب مراكز علمية ، كان للعنصر الأندلسي فيها دور الريادة ، وعامل الإبداع ، فكان النشاط الثقافي والإشعاع العلمي لحواضر المغرب مثل القيروان وتونس وفاس ومراكش وبجاية وتلمسان والجزائر استمرار للإسهام الفكري ، والإنتاج العلمي الأندلسي "[2] .

وعليه نجد أن مناهج التغيير بدت أكثر وضوحا في بلاد المغرب بتأثير أندلسي نتيجة الهجرة الجماعية أو الفردية لبعض العلماء من الأندلس تحت التأثير السياسي بسقوط مدنهم، " فمناهج التعليم المغربي كانت مقتبسة أو متأثرة بالأسلوب الأندلسي "[3]، وقد مس هذا

---

[1] . عبد الواحد ذنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، ص : 425 .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية ، ص : 101 .

[3] . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص : 216 .

التأثير العديد من المدن الإسلامية في المغرب الأوسط خاصة منها الجزائر وبجاية وقسنطينة وتلمسان .

ولم يكن تأثير الأندلسيين في تغيير المناهج التعليمية فحسب ، وذلك بتأثر كبرى الحواضر الإسلامية في المغرب الأوسط كبجاية وقسنطينة والجزائر وتلمسان بالمنهج التعليمي الأندلسي ، الذي كان له حضور قوي في المراكز التعليمية المختلفة ، بل قد تعدى ذلك إلى البرامج الدراسية التي كانت تلقن للطلبة في مختلف المستويات ، ورغم أننا لاحظنا . خاصة على مستوى الجانب الفقهي . زيادة انتشار المذهب المالكي في كثير من المدن المغربية عامة ، حتى صار أهل المغرب الأوسط كلهم كالأندلس مالكيي المذهب في الفروع ، وقد دخلت العديد من المؤلفات الأندلسية إلى المغرب الأوسط برحيل العلماء الأندلسيين ، واستقرارهم بالمنطقة ، أو بمواصلة تأليفهم مراكز استيطانهم في بجاية وتلمسان ، " فالبرامج الدراسية (من متون وشروح وتعليقات) قد اكتسبت هي الأخرى طابعا أندلسيا سواء في طريقة تأليفها ، أم الأساليب المتبعة في تدريسها ، فمع المحافظة على أمهات الكتب التقليدية ، والاستمرار في تدريسها مثل مجامع الحديث ، وفي مقدمتها كتاب " الموطأ " ، ومصنفات الفقه مثل " مدونة الإمام سحنون " ، ورسالة أبي زيد القيرواني ، وكتب الأدب والطب والحساب ، فإن التآليف الأندلسية سواء ما نقل من الأندلس أم ألف بالمغرب الأوسط عامة وبجاية خاصة أصبحت محل اهتمام كبير ، فاعتمدها الأساتذة ، وأقبل عليها الطلبة ،

وأصبح لها مكان خاص في مضمون البرامج الدراسية في مختلف مساجد ومدارس بجاية الحفصية " [1].

وقد تنوعت مصادر العلم التي كانت تلقن للطلبة ، ففي التفسير مثلا انتشر في تلمسان تفسير القرطبي ، وتفسير أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي ، أما القراءات فقد تداولت بالمؤسسات التعليمية للدولة الزيانية ككتاب المنبهات للإمام أبي عمر أحمد بن عبد ربه بن حبيب القرطبي ، والشاطبية المسماة بجزر الأماني للإمام أبي القاسم بن خلف بن أحمد الزغبي الشاطبي ، وانتشرت كتب الحديث الأندلسية كمختصر البخاري لابن أبي حمزة أبي محمد عبد الله بن أبي حمزة الأندلسي ... وغيرها من المؤلفات الأخرى [2].

أما مدينة بجاية فقد انتشرت فيها المؤلفات الأندلسية في مختلف العلوم ، فالقراءات مثلا كانت تلقن بطريقة مطابقة للقراءات الموجودة بالأندلس ، خاصة بعد دخول العلماء المختصين في هذا المجال ، كأبي القاسم الرعيني الشاطبي خلال القرن السادس الهجري الذي قال فيه ابن خلدون : " ثم ظهر أبو القاسم بن نفيره من أهل شاطبة فعمد إلى ما دونه أبو عمرو وتلخيصه ، فنظم ذلك كله في قصيدة لخص فيها أسماء القراء بحروف (ا ب ج

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، التجربة الأندلسية بالجزائر مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط (ق 6 . 7 هـ / 12 . 13 م) ، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات ، القسم الثالث : الحضارة والعمران والفنون ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، ط : 1 ، الرياض ، 1996 م ، ص : 88 .

[2] . مختار حساني ، الدولة الزيانية ، ج : 2 ، ص : 291 .

د) ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار ، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا ، وعني الناس بحفظهما وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس "[1] ، ومن خلال نص ابن خلدون هذا يتبين شيوع المؤلفات الأندلسية في مجال القراءات ، وتدريسها للطلبة .

كما انتشرت المؤلفات الأندلسية المتخصصة منها في العلوم العقلية كالحساب ، فعمل المدرسون على تلقينها للطلاب في مختلف المراكز التعليمية ، ومن جملة هذه المصنفات نذكر على سبيل المثال " مختصر الجبر " لابن بدر الإشبيلي ، وفي حساب الفرائض اشتهر " مختصر الحوفي " لأحمد بن محمد بن خلف الكلاعي الإشبيلي (ت 588 هـ / 1192 م) له مؤلفات عديدة في الفرائض الكبير والمتوسط والمختصر "[2].

1 . 1 . تأثير الأندلسيين على التعليم في مدينة بجاية :

لقد تأثرت هذه المدينة في منهجها التعليمي بالطريقة الأندلسية في التدريس ، سواء ما تعلق به الأمر في تعليم الصبيان ، أو تعليم الشباب ، ودخلت سبل جديدة كالمحاورة والمذاكرة ... وغيرها ، " فبجاية كانت تقتصر في تعليمها للمتعلمين على تعليم القرآن ،

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 552 . 553 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 470 .

وتحفيظه دون غيره كسائر حواضر المغرب الإسلامي ، لكن اهتمام الجالية الأندلسية بالتعليم بها في مرحلته الأولى ، واستقدامها لطرائق جديدة ، تقوم على مزج تعليم القرآن مع الحديث والفقه والعلوم اللسانية من صرف وبلاغة وشعر ونثر ، جعل التعليم يبلغ مستوى لائقا يؤهل الدارسين في بجاية للحياة العملية ، أو لمواصلة دراستهم ، والتخصص والتعمق أكثر في التخصصات المذكورة في المؤسسات العلمية المتعددة " [1] .

وقد عمل العلماء الأندلسيون على ترسيخ منهجهم العلمي في التعليم ، " وممن كان لهم تأثير في تغيير المنهج التعليمي في مدينة بجاية أحمد بن إبراهيم الآبلي (757 هـ / 1356 م)، فرغم قصر المدة التي جلس فيها للتدريس ببجاية ، فإن الآبلي انتقد غياب الدافع الشخصي للدراسة والمبالغة في الحفظ ، والاعتماد المطلق على النصوص التي عرف بها المغاربة ، وهذا ما جعله يتحفظ على أساليب علماء عصره الذين كانوا يعتبرون الطالب وعاء على الأستاذ أن يملأه بالمعلومات الغزيرة في شتى العلوم ، ويذهب إلى القول : " إنما أفسد العلم كثرة التواليف ، وإنما أذهبه بنيان المدارس " " [2]

وهكذا غدت بجاية منافسا للمدن الحفصية الأخرى في مجال التعليم ، متأثرة في ذلك بالمنهج التعليمي الأندلسي الذي انتقل إليها بهجرة العلماء الأندلسيين واستقرارهم فيها ، وقد أشار الغبريني في كتابه " عنوان الدراية " إلى أثر الأندلسيين في التعليم في مدارس بجاية ،

[1] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 83 . 84 .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، التجربة الأندلسية ، ص : 87 .

ذكر فيه إسهامات الأندلسيين بعد الهجرات المتواصلة إلى هذه المدينة في مجال التعليم فقال : " كانت بجاية حاضرة تنافس مراكش في ازدهارها العلمي والأدبي ، وقد وفد عليها كثيرون من الأندلس والقيروان " [1] .

ومما أثر به العلماء الأندلسيون في التعليم طرقه ومناهجه التي أصبحت تسير وفق المنهج الأندلسي ، إذ " تجاوز أندلسيو بجاية ذلك إلى أساليب متطورة ، لا تقتصر فقط على الحفظ ، وإنما تولي أهمية خاصة للبحث والتفكير ، وإلقاء الأسئلة ، والمحاورة والمذاكرة بهدف إفهام الطالب ، وترسيخ المعلومات في ذهنه ، ومما يؤكد الأخذ بهذه الطريقة التي تميل إلى التحليل والاستنتاج ما كان يقوم به بعض أعلام بجاية الأندلسيين من مذكرات " [2].

ونظرا للمكانة الكبيرة التي كان يحظى بها المعلمون الأندلسيون في بلاد المغرب الأوسط، فقد كان التنافس شديدا بين العلماء في استحواذ قلوب الناس من جهة ، والملوك من جهة أخرى ، فتأثيرهم كان بليغا وخاصة في مدينة بجاية إذ كانت المزاحمة شديدة بين اللاجئين، وبين أهل البلاد ، وكان للسلطة أثر في تقريب العلماء والفقهاء وخاصة في بجاية وتلمسان ، وذلك للدور الذي كان يلعبه هؤلاء في البلاطين الحفصي والزياني ، وهذا ما وقع مثلا لأبي

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط : 2 ن الجزائر ، 1981 م ، ص : 37 ، وسنورد في مبحث لاحق من هذا الفصل أسماء أهم العلماء الأندلسيين ، ومجال اختصاصهم العلمي ، وتأثيرهم الفكري في المنطقة .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية ، ص : 108 .

بكر محمد بن أحمد بن عبد الله ابن سيد الناس الذي كان ظاهري* المذهب ، وعلما من أعلام الحديث ، فلما قدم إلى تونس في جالية إشبيلية بعدما مكث زمنا ببجاية استقبله المستنصر أحسن استقبال ، وجعل إليه تدريس العلم ، وغيره كثير [1] .

1 . 2 . تأثير الأندلسيين على التعليم في مدينة قسنطينة* :

عاشت مدينة قسنطينة الصراع السياسي بين الدولتين الحفصية والزيانية ، وقد تأثرت كغيرها من حواضر المغرب الأوسط بالمؤثرات الخارجية التي عرفتها المنطقة ، وقد مست

---

* **ظاهري المذهب** : نسبة إلى المذهب الظاهري الذي تأسس في العراق على يد " داود بن علي الأصفهاني " (ت عام 270 هـ / 883 م) ، ولم تمتد به الحياة طويلا فيبقى له مكان في العالم الإسلامي الحديث مثل بقية المذاهب الأربعة ، ويتميز في أصوله بتمسكه الشديد بظاهر الكتاب والسنة ، ويعتبران المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي ، وهو يساعد على ازدهار منهج عقائدي يقوم على دراسة متحررة للقرآن والسنة ، ويعتبران المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامي ، وهو يساعد على ازدهار منهج عقائدي يقوم على دراسة متحررة للقرآن والسنة ، ولا يرفض مبدأ الاجتهاد في التشريع ، وقد جاء المذهب الظاهري إلى إسبانيا في نفس الوقت مع المذهب الشافعي في عهد الأمير محمد الأول ، ثم أوشك المذهب الظاهري أن يتلاشى في الأندلس غير أنه وجد في شخص ابن حزم نصيرا قويا . أنظر : ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية في إسبانيا ، ترجمة : دوقان قرقوط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ط ، د . ت ، ص : 177 . 178 .

[1] . سنخصص مبحثا للحديث عن هؤلاء العلماء لاحقا .

* وصفها الإدريسي بقوله : " مدينة يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها ، وليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة في الغرب ، وباب القنطرة في الشرق ، وهذه القنطرة من أعجب البناءات لأن علوها يشف على مائة ذراع ، وهي من بناء الروم ، وقسنطينة من أحصن بلاد الله ، وهي مطلة على فحوص متصلة ، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها " . أنظر : الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج : 1 ، ص : 225 . 226 .

هذه التأثيرات مجال التعليم ، الذي تغيرت طرائقه بهجرة العلماء الأندلسيين ، والذين أعطوه طابعا أندلسيا متميزا عن المنهج التعليمي الذي كان سائدا في المغرب ، فمدينة قسنطينة كان التعليم فيها " يمر بثلاث مراحل ، يذهب التلميذ إلى المدرسة أو الكتاب في المرحلة الأولى في سن السادسة ، يتعلم فيها فن القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وبعض القواعد العامة والخط ، أما المرحلة الثانية ، فقد كان الطلبة يدرسون قواعد النحو والأدب والفقه وروايات القرآن لتمكنهم هذه المواد من بلوغ مستوى ثقافي وتعليمي معتبر ، يمكنهم من الوقوف عند معرفة تعاليم الدين وأصوله ، والإلمام بالعلوم الإنسانية ، ويتلقى الطلاب في المرحلة الثالثة العلوم الدينية بشيء من التعمق والتوسع كعلوم التفسير ، وفن القراءات ، والفقه والتوحيد والحديث ، ومختلف العلوم الاجتماعية في ذلك الوقت كالأدب واللغة والفلسفة والتاريخ " [1] .

والشيء الملاحظ حول هذا التعليم أنه كان يحظى بتأثير أندلسي واسع : " فالتعليم في هذه المرحلة قد احتكره شيوخ الأندلس ، ولذلك أصبحت الطريقة الأندلسية في تحفيظ القرآن وتدريسه هي السائدة في المدارس الإفريقية الحفصية لكثرة المهاجرين الأندلسيين إليها في بداية العهد الحفصي " [2] .

[1] . عبد العزيز فيلالي ، جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي ، مجلة سيرتا ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، السنة السادسة ، العدد : 10 ، أفريل ، 1988 م ، ص : 77 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 77 .

وقد تنافس الأندلسيون المهاجرون إلى المغرب الأوسط للوصول إلى مراتب عليا ، ووظائف معتبرة ، ولذلك لاحظنا نشاطهم الواسع من أجل الحصول على وظائف سياسية ، فتقربوا من الحكام والأمراء لتحقيق الغرض ، ولما فشل بعضهم في تحقيق ذلك ، لجؤوا إلى الارتزاق عن طريق التعليم ، ووجدوا في اهتمام أبناء المنطقة بهذا الجانب ، وتقديرهم للحضارة الأندلسية وعلمائها ومفكريها سبيلا مكنهم من الوصول إلى مناصب عليا في التدريس ، فكانت المنافسة شديدة بين علماء المغرب وعلماء الأندلس المهاجرين إلى المنطقة، فغيروا بما حملوه من علوم الوجه الثقافي لبلاد المغرب الأوسط ، " فالحاجة ألجأت الكثير من اللاجئين الأندلسيين إلى الارتزاق عن طريق التعليم ، لا التعليم العالي فقط . كان ذلك مقصورا على مشاهير العلماء . بل خاصة التعليم الابتدائي الذي يستهدف الصبيان في الكتاتيب ، ولاشك أن الأندلسيين لتفوقهم الثقافي ، وانتشار المعرفة في صفوفهم كانوا مهيئين لذلك بصفة خاصة ، فوجدوا في إفريقية سوقا متعددة لاستيعاب بضاعتهم ورواجها ، فكان الإقبال ، بل التهافت عليهم عظيما إلى حد جعلهم يحتكرون مهنة التعليم ، لما كان لأساليبهم التي قدموا بها من جاذبية ، ولما قوبلت به من رضى واستحسان ، فنشروها في البلاد عموما ، وغيروا البيداغوجية الإفريقية " [1] .

وإنه بوصول هؤلاء العلماء إلى مراتب عليا من قبل السلطة لدليل قاطع لى عمل هؤلاء الأندلسيين على إثبات وجودهم بالمنطقة من الناحية الفكرية ، والتنافس العلمي البناء ، "

[1] . محمد الطالبي ، الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ، مجلة الأصالة ، ص : 65 .

فالتدريس في المرحلة الثالثة كثيرا ما كان يشهد منافسة بين علماء أهل الأندلس ، وعلماء إفريقية ، لأن التعليم في هذا المستوى يجلب لصاحبه الاحترام والجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة والثراء والنفوذ "[1] .

1 . 3 . تأثير الأندلسيين على التعليم في مدينتي الجزائر وتلمسان :

شهدت تلمسان أيضا دخول المنهج الأندلسي في التعليم ، لكثرة العلماء الذين وفدوا إليها من مدن أندلسية عدة ، وكانت تلمسان مدرسة من المدارس الإسلامية التي كانت تعج بالعلماء الأندلسيين ، إذ حظيت هي الأخرى كغيرها من حواضر المغرب الأوسط بمشاركة فاعلة للأندلسيين في مجال التعليم ، ويظهر ذلك جليا من خلال التطور الفكري والثقافي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة خاصة في العصر الزياني الذي يعتبر أهم العصور التي عرفت علاقة وطيدة بين المغرب الأوسط والأندلس ، ولا شك أن دور الأمراء كان له صدى في تحريك هذه الهجرة العلمية إلى مدينة تلمسان ، فكانت مركزا يستقطب العديد من العلماء الذين رحلوا من الأندلس في فترات متلاحقة إثر الهجمات الصليبية على المدن والممالك الأندلسية ، فزاولوا في تلمسان مهنة التدريس في مدارسها المختلفة ، وفي مجالات علمية عدة ، وكان لسقوط مدينة بلنسية الأندلسية مثلا أثره في رحلة بعض العلماء من هذه المدينة

[1] . عبد العزيز فيلالي ، جوانب من الحياة الثقافية ، ص : 78 .

واستقرارهم في مدينة تلمسان ، فأثروا في الحياة الفكرية والثقافية ، وزاولوا مهنة التدريس التي تعد من أهم الوظائف التي نال بها الأندلسيون الوافدون على المغرب الأوسط شهرة عالية بما حوته عقولهم ، وما حملوه معهم من مؤلفات في مختلف أصناف العلوم وكان من بينهم أبو العباس أحمد بن سلمة بن الصقيل الذي " رحل إلى تلمسان مستوطنا لها زمن الموحدين ، واشتغل كما في الأندلس بالتدريس والرواية أين زادت شهرته ، فانضم إلى حلقات درسه الكثير من طلبة تلمسان " [1]، " ومن بين الذين درسوا بتلمسان نذكر محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي العيش الخزرجي* ، الذي قام بإحدى مساجد تلمسان بتفسير القرآن لطلابه وشرح أسماء الله الحسنى ، كما يبدو عليه أنه درس الأصول والتصوف لأنه ألف فيهما ، ومن أبرز التلاميذ الذين تخرجوا عليه : محمد بن العباس التلمساني* ، ويحي المغيلي المازوني ، والحافظ عبد الجليل التنسي والقلصادي ، وأبو البركات وولده أبو سالم العقباني وحفيده محمد بن أحمد والونشريسي الذي نقل عنه كثيرا من الفتاوى في معياره وابن زكري ومحمد بن محمد بن مرزوق الكفيف درس مختصر ابن أبي زيد للمدونة ومختصر

[1] . رفيق خليفي ، البيوتات الأندلسية ، ص : 157 .

* ذكره صاحب البستان بقوله : سيدي محمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني الفقيه الأصولي توفي في صفر سنة 911 هـ . أنظر : محمد ابن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، منشورات السهل ، د . ط ، د . ت ، ص : 252 . 253 .

* محمد بن العباس : هو من أجل العلماء له براعة في الفقه والنحو ومن شيوخه الإمام السنوسي والكفيف ابن مرزوق والحافظ التنسي والعلامة ابن زكري والخطيب بن مرزوق وأبا مدين وغيرهم له أبحاث في النحو ، وله شرح في المسائل المشكلات في مورد الضمآن أجاب عنها ، وكذلك في النحو وكان حيا في حدود العشرين وتسعمائة . أنظر ترجمته في : ابن مريم : البستان ، ص : 259 .

خليل وشرح الأحكام لابن عباد والحوفي شرح والده ومختصره في أصول الدين " [1] ، ومن بينهم أيضا " شمس الدين أبو عبد الله الوادي آشي ، قال في شأنه بن مرزوق عاشرته وسمعت منه ، وسمع بقراءتي ، فقرأت عليه الكثير ، وقيدت من فوائده ، وأنشدني النثر ، وقرأت عليه بمنزلي من تلمسان ، هذا العالم درس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل والفرائض ، وكان كثير الإسماع في الفقه والجدل " [2] .

وكان " من نتائج نزوح الأندلسيين إلى تلمسان ازدهار الحركة الفكرية بها ، حيث قام بها مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشر التعليم بواسطة إلقاهم الدروس بالمؤسسات الموجودة بالمدينة " [3] .

وبتواصل الهجرات الأندلسية إلى الجزائر ، وخاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي ، تواصل انتقال العلماء الأندلسيين إليها ، وبثوا فيها ما حوته عقولهم من مختلف العلوم العقلية والنقلية ، وفق منهاج أندلسي في مجال التعليم ، " فقد احتكر الأندلسيون ميدان التعليم ، واحترفوا مهنته بالجزائر في العهد العثماني ، ونقلوا طريقتهم الخاصة بهم ، كما ساهم التراث الأندلسي في الميدان العلمي في تلقين السكان طرق وأساليب علمية أندلسية على تجديد طرق التدريس ، وطوروا أسلوب تلقي المعلومات ، التي

[1] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 2 ، ص : 288 . 289 .
[2] . المرجع نفسه ، ص : 290 .
[3] . المرجع نفسه ، ص : 288 .

تجاوزت الطريقة المغربية التقليدية ، التي كانت تعتمد على حفظ القرآن ، واستظهار الحديث النبوي ، إلى طريقة البحث والتفكير ، والاعتماد على أسلوب المحاورة والمناقشة ، كما عمل الأندلسيون على نشر خطهم حتى ساد على الخط المغربي " [1] .

ومن هنا نستنتج الأثر البالغ الذي ترتب عن نزوح العلماء الأندلسيين إلى مدن المغرب الأوسط في مجال التعليم ، ودورهم في تغيير النمط التعليمي الذي كان سائدا في بلاد المغرب ، وقد كان تركز هؤلاء العلماء في المدن الساحلية كبجاية وقسنطينة والجزائر وتلمسان ، لأنها أكثر المدن استقطابا للمهاجرين الأندلسيين كما مر بنا ، ولكون موقعها الجغرافي من أهم المواقع في تلك المنطقة .

1 . 4 . أثر المتصوفة الأندلسيين في مجال التعليم بالمغرب الأوسط :

كان للمتصوفة الأندلسيين الذين استقروا في بلاد المغرب الأوسط ، وخاصة في مدينتي بجاية وتلمسان أثر في مجال التعليم من خلال الزوايا والأربطة والأماكن الأخرى التي كانوا ينشرون بها علمهم ، والشيء الملاحظ حول هذا التدريس هو إقبال الطلبة المتزايد على حلقات الدرس ، والسبب في ذلك لا يعود إلى شهرة هؤلاء العلماء ، ومكانتهم العلمية في نفوس الطلبة ، أو تفوقهم على أقرانهم العلماء الآخرين ، بل قد لعب التعليم المجاني في هذه

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي والموريسكي ، ص : 83 .

الزوايا دورا في إقبال التلاميذ من مختلف الأعمار الصبيان منهم والشباب ، وقد تحدث الونشريسي في كتابه المعيار عن مجانية التعليم في بلاد المغرب تحت عنوان " الأجرة على تعليم العلم وحكم الإجازة من الشيخ " حيث قال : " كره مالك في المدونة الإجازة على تعليم العلم ، وقيل بالإباحة حسبما اختلف في بيع كتبه ، ومذهب المدونة مقدم في النقل ليلا يضيع العلم لضعف أرزاق العلماء ، فإن منعوا الإجارة شغلهم طلب المعيشة عن التعليم ، وأما توقف التعليم على كتب الإجازة فلم يقله أحد ، وإنما هو كالمفتي لا يتوقف على إجازة ، بل من عرف منه العلم والدين جاز أن يعلم ويفتي ، والمتعلم إذا رأى الشيخ متصديا بالتعليم والفتيا ، والناس يعظمونه جاز له أن يأخذ عنه " [1]، ومن خلال هذه الفتوى تتبين الحالات التي تبيح أخذ الأجرة عن العلم ، وقد حرص بعض المتصوفة على عدم أخذها زهدا منهم في الدنيا ، وعدم حاجتهم لذلك ، " فعمل الصوفية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين على تعليم القرآن للصبيان الذين يحتمل أنهم بلغوا سن السابعة في الكتاتيب دون المساجد التي كان يخشى فيها نجاسة الأطفال ، ومن القرائن تعليم الصوفي أبي إسحاق بن سيول الإشبيلي في النصف الأول من القرن السادس الهجري الثاني

[1]. الونشريسي ، المعيار ، ج : 8 ، ص : 236 .

عشر ميلادي القرآن للصبيان بتلمسان دون أن يتقاضى أجرا ، ويبدو أن مبدأ عدم قبول الأجرة كان شائعا بين الصوفية " [1] .

وهناك صنف آخر من المتصوفة الذين " آثروا أخذ الأجرة من الأطفال ميسوري الحال كما كان يفعل أبو عثمان سعيد بن علي البلنسي في بجاية " [2] ، وذكر الغبريني أن هؤلاء المتصوفة لم يكن همهم جمع المال ، بل زهدوا عن ذلك حيث يقول في ترجمته للصوفي الأندلسي أبي عثمان سعيد بن علي أنه " لم يكن له عمل ولا خرقة ولا خلطة للناس سوى الاشتغال بإقراء القرآن رواية وتفهيما وبسطا وتعليما ، وتخطط بالعدالة ببجاية وكانت صفته "[3] ، وعليه لعب هؤلاء المتصوفة في التنفيس على بعض الطلبة الفقراء الذين لا يستطيعون الدخول إلى حلقات العلم ، فوجدوا في هذه الزوايا فرصة لهم على مزاولة دراستهم .

ولم يقتصر تعليم الصوفية على الصبيان ، وتعليمهم للقرآن فحسب ، بل كان الشباب أيضا يتوافدون على زواياهم لأخذ العلم عنهم ، فقد " لقن الصوفية للشباب فنونا عديدة في المساجد والزوايا والرباطات في حلقات تعرف بالميعاد " ميعاد الدرس " " [4] .

---

[1] . الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين / 12 و 13 الميلاديين نشأته وتياراته ودوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي ، دار الهدى ، عين مليلة ، د . ط ، د . ت ، ص : 230 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 230 .

[3] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 245 .

[4] . الطاهر بونابي ، المرجع السابق ، ص : 231 .

وكان للمتصوفة الأندلسيين الذين هاجروا إلى المغرب الأوسط أثر في إثراء حركة التعليم نظرا لمجانيته من جهة ، ولعلم هؤلاء الغزير من جهة أخرى ، " فقد كان لاستقرار الصوفية الأندلسيين أثر بارز على حركة التعليم بوجه عام ، حيث أدخلوا طريقتهم في التعليم التي يعتمدون فيها على تقديم العربية والشعر على بقية العلوم الأخرى ، ثم الحساب وتدريس القرآن ، ثم أصول الدين والفقه والجدل والحديث ، وكان من نتائج هذه الطريقة أن نشطت دروس علم العربية ، والتفسير ، والحديث ، وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والمنطق والفلسفة ، وعلم التصوف وعلم الفرائض ، وأصبحت حركة التعليم في كل من بجاية وتلمسان تتجاذبهما طريقتان تعليميتان مغربية وأندلسية " [1] ، ومنه نستنتج أن من أثر التصوف ، وتأثير هؤلاء المتصوفة في مجال التعليم أنهم أتوا بمناهج أندلسية جديدة إلى بلاد المغرب الأوسط ، وعملوا على نشر العلم بين الصبيان بتعليمهم فنون العلم المختلفة ، وما زاد من قيمة هؤلاء في نفوس الطلبة اعتمادهم على مبدأ مجانية التعليم ، بعدم تقاضيهم أجر على ذلك ، بل كانوا في كثير من الأحيان يعلمونهم العلم مع العمل كما حدث ذلك مع الصوفي أبي الفضل قاسم بن محمد القرطبي ، الذي كان يعلم طلبته على شواطئ البحر فيعلمهم العلم والعمل معا ، وقد ذكر الغبريني كرامة لأحد المتصوفة الأندلسيين في بجاية ، الذي كان يعلم أتباعه وطلبته العلم على شاطئ البحر ، ويعلمهم العمل فيقول في قصة أوردها

[1] . الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر ، ص : 231 .

للصوفي محمد القرطبي : " حدثني أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد المعطي بتدلس* قال خرجنا مع الشيخ نفع الله به ، وركبنا البحر ، وحملنا آلة الصيد للحوت ، ولم نزل نتصيد إلى قريب الظهر ، فلم يفتح لنا بشيء ، ثم نظر إلينا وسكت ساعة ، ثم أخذ في الكلام في الأحوال والمعارف إلى أن انهمك فيها وتمكن وقت الصلاة ، ثم رجع إلى حاله فصلينا الفريضة بالساحل ثم عدنا نتصيد فقال : الآن يفتح لكم به ، فقال : فرأينا على وجه الماء حيتانا قد أخرجت رؤوسها من الماء كالمصابيح ، ثم صارت تترامى علينا في الزورق حتى امتلأت حوتا " [1] .

2 . انتقال الخط الأندلسي إلى المغرب الأوسط :

لم يمس التأثير الأندلسي مجال التعليم فقط ، بل تعدى ذلك إلى الخط أيضا ، حيث انتقل بقدوم بعض العلماء الذين كانوا يمارسون وظيفة الكتابة إلى المغرب بذيوع الخط الأندلسي وانتشاره حتى غلب ظهوره على الخط المغربي ، وقد أشار إلى هذه النقطة ابن خلدون في

---

* **تادلس** : مدينة بالمغرب ، يقال أن أصل تسميتها تعبير عن الكلمة الأمازيغية ثادلست أو ثادليست ، وهي بقايا النبات بعد حصده ، وتعني بعد تحريفها الكوخ ، أما التسمية العربية الحالية دلس فأقدم ظهور لها في المصادر العربية يعود للفترة العثمانية مثل التمجروتي الذي عاش في القرن 10 هـ 16 م ، ومحمد بن ميمون الجزائري الذي ألف كتابه خلال فترة حكم الداي محمد بكداش في بداية عشرينيات القرن 12 هـ / 18 م . أنظر : إسماعيل بن نعمان ، مدينة دلس دراسة تاريخية وأثرية خلال العهد الإسلامي ، دار الأمل ، د . ط ، تيزي وزو ، 2011 م ، ص ص : 21 . 24 .

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 162 .

حديثه عن تأثير الأندلسيين في بلاد المغرب فقال : " وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية ، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد ، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط الإفريقي ، وعفا عليه ، ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما ، وصارت خطوط إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها " [1] .

وعليه أصبح الخط الأندلسي الخط المستعمل في بجاية وغيرها ، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على تأثير المهاجرين الأندلسيين " على طرق وأساليب الكتابة ، فأصبح النموذج الأندلسي مثالا يحتذى به في اختيار الألفاظ ، واعتماد السجع والأخذ بالمحسنات البديعية ، فكانت كتابات ابن الأبار وابن المطرق نموذجا لمعاصريهم من علماء بجاية ، وغدت مؤلفات الفتح بن خاقان ولسان الدين ابن الخطيب مرجعا للمتأخرين منهم " [2].

وكان للكتاب الأندلسيين دور كبير في كتابة الدواوين والرسائل ... وغيرها ، ونالوا حظا أوفر ومكانة مرموقة لدى بعض السلاطين والأمراء في عهد الدولتين الزيانية والحفصية نظرا لأهمية الكتاب في ذلك الوقت ، وتنافس السلاطين على إيجاد أرقى الخطاطين والكتاب ، ونظرا لأهمية الخط الأندلسي . كما ذكرت سالفا . فقد تنافست دولة بني زيان مع الدولة

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 606 .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية ، ص : 18 .

الحفصية على أحد الكتاب الأندلسيين ، مثلما فعل العاهل التلمساني يغمراسن ، بحيث تمكن من استقطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي* (ت 686 هـ / 1287 م) إلى بلاطه ، والذي يقال عنه أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكريا الحفصي (647 هـ . 675 هـ / 1249 . 1277 م) طلبه للكتابة ، وبعث له أموالا كثيرة لهذا الغرض ، لكن ابن الخطاب اعتذر ، ورد له أمواله ، فظهر علو شأن هذا الكاتب وبعد همته عند الخليفة الحفصي " [1] .

وكان استعمال الخط في كتابة المصاحف ونسخها من أنبل المهام التي كان يقوم بها بعض العلماء والكتاب تقربا إلى الله تعالى بهذه المهنة النبيلة ، وانتشرت هذه الظاهرة انتشارا واسعا في بلاد المغرب الأوسط ، وخاصة في تلمسان ، وكان هناك تنافس شديد بين

---

* هو محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي من صلة ابن الزبير ، كان كاتبا بارعا ، شاعرا مجيدا ، له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك ، مع نباهة وحسن فهم ذو فضل وتعقل وحسن سمت ، واستعمل في الكتابة السلطانية مدة ، وكان معلوم القدر معظما عند الكافة ، ثم إنه رجع إلى مرسية ، وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها ، وقد اشتدت أحوالها ، واستقر بالعدوة بعد مكابدة ، قال الشيخ أبو الحسن الجياب رحمه الله قال : كان شكس الأخلاق ، متعاطيا زاهيا بنفسه ، ابتدأ يوما كتابا مصدرا بخطبته فقال فيه يصف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم (عفوة العفوة) ، وتركه لأمر عرض له ، فنظر إليه الفقيه عمر اللوشي ، وهو كاتب المقام السلطاني ، فظن لقصوره أنه وَهَمَ وأراد الصفوة ، فأصلحه فلما عاد ونظر إليه مزقه وكسر الآلة ، وقال : لا أقيم بموضع بلغ فيه الجهل إلى هذا القدر ، وانصرف واستقر بتلمسان كاتبا عند سلطانها . ويصفه ابن خلدون بأنه من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ومعرفة بأصول الفقه ، كتب بغرناطة عن ملوكها ، وقفل إلى مرسية ، وقد اختلت أمورها ، فارتحل إلى تلمسان وكتب بها ، توفي بها يوم عاشوراء سنة ست وثلاثين وستمائة . أنظر ترجمته في : ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، ط : 2 ن القاهرة ، 1973 م ، ج : 2 ، ص : 426 . 427 ويحي بن خلدون ، بغية الرواد، ص : 129 .

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 321 .

الخطاطين في تغليب الخط الأندلسي " بحيث كانوا يتنافسون في كتابتها . أي المصاحف . في عهد ابن مرزوق الخطيب (ق 8 هـ / 14 م) على طريقة أهل الأندلس المشهورين بحسن الخط وضبط الكتابة ، ويتقنون في ضبطها ، فكان خطهم يشبه خط " الغطوسيات " حسب تعبير ابن مرزوق الخطيب نسبة إلى أسرة ابن غطوس الأندلسية المشهورة بجودة الخط وضبط الكتابة ، وهذا دليل واضح على أن الناسخين والفقهاء التلمسانيين قد تأثروا بالخط الأندلسي خلال العهد الزياني لاحتكاكهم بالأندلس وبالمهاجرين الأندلسيين " [1] .

ولقد ظهر العديد من الخطاطين الأندلسيين في بلاد المغرب الأوسط ، الذين كان لهم دور كبير في نشر هذا النوع من الخط في المنطقة ، ومن بينهم " الأديب الوادي آشي الأندلسي* الذي حل بمدينة تلمسان بعد سقوط غرناطة ، وصار من كبار النساخين ، نسخ بخطه نحو مائة كتاب بتلمسان " [2] .

ومنهم أيضا إبراهيم بن عبد الله الأنصاري الغرناطي التلمساني* الذي " بلغ الغاية في إجادة الخط ، وحاضر بالأبيات ، وأرسم في كتابة الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ،

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 337 .

* تحدث عنه ابن الخطيب في الإحاطة ، وذكر مناقبه فقال فيه : " شاعر مفلق ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القريب منها في الموسيقى " . أنظر : الإحاطة ، ج : 2 ، ص : 333 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص : 338 .

* سيكون له ترجمة في ذكر المتصوفة الأندلسيين المستقرين بالمغرب الأوسط .

مستحقا حسن سمة ، وبراعة خط ، وجودة أدب وإطلاق يد ، وظهور كفاية.. وكان علق بخدمة بعض ملوكها ، فاستقر ببجاية لديه ، مضطلعا بالكتابة والإنشاء "[1].

ولم يكن الخط الأندلسي المنتشر في المغرب الأوسط مستعملا للكتابة فقط ، بل تعدى ذلك إلى استعماله في النقوش الأثرية ، وعلى الجدران والكتابات على المعالم التاريخية ، فقد وجد هناك تأثير واضح لهذا الخط الأندلسي خاصة في مدينة تلمسان التي استعمل فيها هذا النمط من الخطوط في النقوش والكتابات التذكارية ، " فكان النمط المستخدم مع اختلاف أسلوبي طفيف هو ذاك المسمى النمط الأندلسي الذي ساد في معالم إشبيلية وغرناطة ، ومنه النقش الشهير بقصر الحمراء (لا غالب إلا الله) ، ويقدم مسجدا سيدي بلحسن وأولاد الإمام نماذج رائعة من هذا الخط الكوفي المزهر ، وهو ذات النمط الموجود في قصري الحمراء واشبيلية " [2] .

2 . أصناف العلوم التي برع فيها العلماء الأندلسيون في المغرب الأوسط :

انتقلت الثقافة الأندلسية إلى المغرب الأوسط بهجرة العديد من العلماء الأندلسيين إليه مفضلين الاستقرار في مدنه الكبرى التي كانت لها صدى واسع بتطورها الفكري ، فخلال

[1] . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج : 1 ، ص : 342 .

[2] . ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ترجمة : مراد بلعيد ، علي محمد بورويبة ، فلة عبد مزيام ، دار الأصالة ، ط : 1 ، الجزائر ، 2011 م ، ص ص : 110 . 108 .

القرن السادس ازدهرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب ، وكان مشاهير الأدب والعلم يفدون إلى المغرب من الأندلس ، " ولم يحفل المرابطون بالعلماء والأدباء والفلاسفة والكتاب فحسب، بل استقدموا الفنانين والصناع من الأندلس ، وكان الخلفاء المرابطون يجالسون العلماء والأدباء والفقهاء بصفة خاصة حيث يشاورونهم في أمور الدنيا ومشاكل الحكم ، ولا يبرمون أمرا إلا على اعتبارات شرعية " [1] ، وهذا ما شجع على هجرة هؤلاء العلماء نظرا للمكانة الهامة التي كانوا يحظون بها في حضرة السلاطين .

وكان للمدارس المغربية في ذلك الوقت أثر في استقطاب العديد من العلماء الفارين من الأندلس ، " فيذكر ابن الأبار عدة مدارس في بلاد المغرب كطنجة وأغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش ، وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان وثقافة الأندلس المشهورة ، حيث نبغ منها القاضي عياض وأبو الوليد بن رشد " [2].

كما كان للمسجد دور في احتضان الثقافة الأندلسية ، والحفاظ عليها من الضياع ، فكان تأثير الثقافة الأندلسية على هذه المنشآت واضحا في المغرب الأوسط ، وقد لعبت المساجد دورا بالغا في استقبال أعداد كبيرة من الأندلسيين الوافدين إليها من الأندلس ، والذين اتخذوا من المساجد أماكن للالتجاء بعد رحيلهم من بلادهم ، وقد ساهمت المساجد في ذلك الوقت ببعث الحركة الثقافية والفكرية بالمنطقة بفضل هؤلاء الأندلسيين .

---

[1] . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص : 175 .

[2] . نفسه ، ص : 177 .

وخير ما نستدل به في هذا المقام دور مسجد ندرومة بتلمسان في احتضان الأندلسيين المهاجرين الذين كان لهم " دور بارز في النهضة الفكرية والثقافية والعمرانية والصناعية ، وفي النشاط الديني بالمساجد والمدارس والزوايا ، وقد استقبل جامع ندرومة الكبير أجيالا منهم على فترات متعاقبة وزاده ذلك حيوية ونشاطا ، وأصبح عبارة عن جامعة إسلامية يعج بالنشاط والحيوية ، ويشع على المنطقة الريفية المحيطة بندرومة وأحوازها بنوره العلمي والديني "[1].

وبهذا هاجر إلى بلاد المغرب الأوسط العديد من العلماء ، وكان لهم تأثير ثقافي واسع على المنطقة وأهلها ، فكانت الحواضر الكبرى ومرافقها العلمية في بالمغرب كالمدارس والمساجد والزوايا تعج بالعلماء ، كتلمسان وقسنطينة وبجاية ، فقد استقر فيها نخبة من العلماء في فنون وعلوم مختلفة ، كالعلوم الشرعية بمختلف فنونها ، وعلوم اللغة بمختلف فروعها ، وحتى العلوم العقلية ، ورغم أن كتبهم ومؤلفاتهم العلمية قد أصابها التلف في الأندلس بسبب الأوضاع السياسية خاصة في العصر الغرناطي فالإسبان " أحرقوا نحو مائة ألف مخطوط في ساحات مدينة غرناطة 904 هـ / 1499 م ، وكانوا يصادرون الكتب العلمية التي يحتاجون إليها ، وقاموا بتحطيم المؤسسات التعليمية والدينية ، وقتل الفقهاء وتشريدهم من ديارهم ، وتجريدهم من ممتلكاتهم ، فلجؤوا إلى بلاد المغرب والمشرق بحثا عن

[1] . ويليم جورج مارسي ، المعالم الأثرية بتلمسان ، ص : 180 . 181 .

أماكنة آمنة لهم ، وهكذا يتضح أن كثيرا من العلماء والمصنفات الأندلسية تعرضت للإتلاف " [1] .

ولا شك أن الحواضر المغربية في بلاد المغرب الأوسط كانت مهتمة جدا بالعلم والعلماء ، فازدهرت فيها الحياة العلمية ، وما زاد من ازدهارها قبولها للعلماء المهاجرين إليها ، وتقريبهم إلى بلاطها ، وإدماجهم في الحركة التعليمية بمؤسساتها المختلفة من مساجد ومدارس وكتاتيب ... وغيرها ، فبنو زيان مثلا في مدينة تلمسان كانوا " يشجعون العلماء والفقهاء والأدباء ، ويستقبلونهم من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية ، ولاسيما منها العدوة الأندلسية ، فاستفاد أهل تلمسان مما كانوا يحملونه من علم وفكر وحضارة ، فكانت لهم مشاركة جادة في تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وترقيتها بالمدينة ، وفي هذا السياق يقول المقري في حديثه عن كثرة المهاجرين الأندلسيين إلى بلاد المغرب : " اعلم جعلني الله تعالى وإياك ممن له لمذهب الحق انتحال ، أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا حال ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال ، ولو أطلنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام " [2]، ومن قوله هذا يتضح أن الرحلات العلمية لم تكن تنقطع بين العدوتين ، وأن هجرة العلماء إلى المغرب ، واستقرارهم في حواضرها لنشر علمهم كانت جد واسعة .

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 319 .

[2] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 39 .

2 . 1 . العلوم الشرعية :

2 . 1 . 1 . أثر العلماء الأندلسيين على الحياة العلمية في مدينة بجاية :

برع في مدن المغرب الأوسط العديد من علماء الأندلس ، ففي مدينة بجاية استقر فيها الكثير من الأندلسيين منذ القرن السادس الهجري الذين نزحوا إلى العدوة بعد استفحال أمر النصارى على الأندلس ، وقضائه على كبرى المدن فيها ، ويعود تفضيل العلماء الهجرة إلى هذه المدينة لموقعها القريب من الأندلس ، حيث يذكر القلقشندي عن موقعها فيقول : " وبجاية هي قاعدة المغرب الأوسط ، وهي مقابل طرطوشة من الأندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار ، والمدينة القديمة في سفح جبل يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب إليها "[1] ، وكذلك موقع بجاية المتميز من حيث الحصانة الطبيعية ، فضلا عن أن الموقع المتوسط لبجاية على الساحل الجزائري جعلها مقابلة للسواحل الأوروبية، ونقطة اتصال مباشر مع سواحل الأندلس ، فقد ارتبطت طيلة العصور الإسلامية بمرافئ شرق الأندلس مثل طرطوشة وبلنسية ودانية وقرطاجنة وألمرية ، وأصبحت مع ازدياد الضغط النصراني على الأندلس بعد انقسام دولة الموحدين المحطة الأولى لعلماء الأندلس في هجرتهم نحو المغرب الأوسط[2] ، وعليه سهلت هذه الأسباب الانتقال إليها ، ومن أهم

---

[1] . أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية ، د . ط ، القاهرة ، 1915 م ، ج : 5 ، ص : 109 .

[2] . ناصر الدين سعيدوني ، التجربة الأندلسية بالجزائر ، ص :81 .

العلماء الوافدين إلى بجاية ، والمؤثرين في حياتها العلمية نذكر : الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي (ت 594 هـ) ، وقد وصفه الغبريني بقوله : " الشيخ الفقيه ، المحقق ، الواصل، القطب ، شيخ مشايخ الإسلام في عصره ، إمام العباد والزهاد ، وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي من ناحية إشبيلية ، ومن حصين يقال به منتوجب ، فتح الله عليه بمواهب قلبية ، وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل ، وارتقى إلى غاية ما يؤمل كان الشيخ أبو يعزى رحمه الله يثني عليه ويشكره ، ويقول بلسانه (أنتيا رأفان أندلسي) " [1] ، وجاء في ترجمته في نيل الابتهاج قوله : " كان من أفراد الرجال ، ومن صدور الأولياء الأبدال ، جمع بين الشريعة والحقيقة ، أقام هاديا وداعيا للحق، وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي "[2] .

وقد مس تأثير العلماء الأندلسيين على الحياة المذهبية خاصة في الفروع ، إذ عزز تواجد هؤلاء المهاجرين في المغرب الأوسط وجود المذهب المالكي في الفقه ، وإن كان قد وجد من قبله بسنوات طويلة ، إلا أنه تراجع في بعض المناطق منها خاصة في العهد الموحدي ، الذي عرف تغيرا في المنهج العقدي والفقهي في المغرب الإسلامي ، حيث انتشر بوجودهم المذهب الظاهري ، حين عمل الموحدون على تقريب هذا المذهب ، ونشره في كل ربوع الدولة الموحدية خاصة في عهد الخليفة المنصور الذي كان له موقف خاص من المذهب

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، التجربة الأندلسية بالجزائر ، ص : 55 .

[2] . أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط : 1 ، طرابلس ، 1989 م ،ص : 193 . 194 .

المالكي ، إذ " طارد علم الفروع ، وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب ... وغيرها " [1] ، وكان قصد المنصور من ذلك أن يمحو مذهب مالك ، وأن يزيله من المغرب ، وكان أيضا من أشد دعاة المذهب الظاهري الذي اشتهر على يدي الفيلسوف ابن حزم القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري .

ولما كانت الأندلس تعرف انتشار مذهب الإمام مالك في كل ربوعها تقريبا ، وفي القراءات كانوا يقرؤون قراءة نافع على حد تعبيرهم ، " وهم يقولون : لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه ، وقال لسان الدين بن الخطيب عن مملكة غرناطة : وقوله هذا في الأحوال الاجتماعية يصدق على جميع الأندلس ، أحوال هذا القطر في الدين ، وصلاح العقائد أحوال سنة ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية " [2] ، وعليه عرف المذهب الظاهري تراجعا خاصة في بعض المناطق التي فرض عليها هذا المذهب ، ليحل محله المذهب المالكي .

[1] . الحسن السائح ، الحضارة العربية ، ص : 223 .

[2] . شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، المطبعة الرحمانية ، ط : 1 ، مصر ، 1936 م ، ج : 1 ، ص : 272 . 279 .

وبانتقال الأعلام الأندلسيين إلى بلاد المغرب الأوسط حملوا معهم مذهبهم ، وإن كان قد انتشر فيه قبل وجودهم بسنوات كثيرة لأسباب متعددة * ، ولكنه قد انشر في بلاد المغرب بشكل أوسع مما كان عليه بقدوم الفقهاء المالكية الأندلسيين إلى المغرب بعد سقوط كبرى المدن الأندلسية على يدي الإسبان ، " وكانت حركة أهل السنة قد نشطت وتجدد انبعاثها في ربوع المغرب الإسلامي ، وكثر على الحكام عامة وعلى الموحدين خاصة ، ولاسيما بعد أن تبرأ الخليفة المأمون الموحدي من العقيدة التومرتية* سنة 626 هـ / 1228 م ، عند ذلك بدأ

* هناك عدة أسباب ساعدت على انتشار مذهب مالك رحمه الله في بلاد المغرب ومنها :

. كياسة مالك مع عدد من تلاميذه المغاربة ، وإمكانية ملاءمة بعض أصول مذهبه للواقع المغربي .

. دور الرحلة في انتشار المذهب المالكي بالغرب الإسلامي .

. إمكانية التوجه المديني المبكر لدى أهل المغرب .

. بيئة إفريقية المحافظة .

. دور العامل العرقي .

. تجربة رديئة مع الخوارج لدى أهل المغرب .

. دور السلطان . أنظر هذه الأسباب جميعا بالتفصيل في : نجم الدين الهنتاني ، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي ، منشورات بتر الزمان ، د . ط ، تونس ، 2004 م ، ص : 59 وما بعدها .

* تنسب لابن تومرت وهو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان ابن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد وافق على هذا النسب بعض المؤرخين كالمراكشي الذي يقول : " إن لمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه " وابن خلكان يقول : " وجدت على ظهر كتاب النسب للشريف العابد بخط بعض أهل الأدب من عصرنا نسب ابن تومرت المذكور ، فنقلته كما وجدته " ، أما من عارضه فمنهم الذهبي الذي يقول : " كان يدعي أنه حسني علوي " وابن أبي زرع : " وقيل هو دعي في ذلك النسب الشريف " ، وقد دعا لفكرة المهدية والعصمة . أنظر : عبد المجيد النجار ، المهدي بن تومرت ، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1983 م ، ص : 24 . 25 .

المذهب المالكي يسترجع مكانته الكبيرة ودوره الريادي في ربوع المغرب ضمن المذاهب الأخرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي "[1] .

وكان سقوط الأندلس عاملا مؤثرا على رحيل العديد من الفقهاء المالكية بحثا عن أماكن لهم لنشر فتواهم الفقهية ، وتعليم الناس علوم الفقه على المذهب المالكي ، فانتشر هذا المذهب انتشارا سريعا ، وقد " ساعد على هذا الاتجاه نزوح عدد كبير من فقهاء السنة المالكية من الأندلس بعد سقوط المدن الأندلسية خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، واستقرارهم في الحواضر المغربية الكبرى ، فقرب الكثير منهم بنو زيان وبنو حفص وبنو مرين ، وعينوهم في وظائف الفقهاء والإفتاء والتدريس إلى جانب إخوانهم في المذهب من أهل المغرب الذين لم يتوقفوا عن مقاومة عقيدة ابن تومرت ، والدفاع عن مذهبهم بكل قوة وصلابة وهو مذهب صاحب دار الهجرة "[2] .

ولم يكن انتشار المذهب السني المالكي وحده فقط مما ميز التأثير الأندلسي على بلاد المغرب الأوسط ، بل حتى المؤلفات الأندلسية في الفقه ساعدت على ذلك الانتشار أيضا ، " إذ دخلت حلقات الدرس بالحضرة التلمسانية مؤلفات أندلسية كثيرة اعتمدها الطلاب والأساتذة في دراساتهم وأبحاثهم "[3] .

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 325 .

[2] . نفسه ، ص : 326 .

[3] . نفسه ، ص : 328 .

ومن بين الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى بلاد المغرب الأوسط ، وحملوا معهم مذهب الإمام مالك رحمه الله ، وعملوا على نشره بين الطلاب وتدريس موطئه نجد أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات حيث كان " حافظا لمذهب مالك رحمه الله ، محصل له متقن مجيد ، كان ممن يقرأ عليه ويجتمع إليه ، قرأ بالأندلس ، وارتحل إلى العدوة ، واستوطن بجاية ، وأقرأ بها ، وانتفع الناس بعلمه ودينه ، وكانت تقرأ عليه سائر الكتب المذهبية التهذيبية والتلقين والجلاب والرسالة " [1] .

ومن ناشري مذهب مالك أيضا الفقيه أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الأنصاري البلنسي ، فقيه مالكي من كبار المقرئين في عصره ، من أهل بلنسية في الأندلس قرأ على ابن نوح والحصار وغيرهما ، ورحل إلى العدوة ، واستوطن بجاية فأقرأ بها، وروى واستمع وأخذ عنه ، واستفيد منه إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة 654 هـ [2].

ومن الذين رحلوا إلى الأندلس إلى بجاية أيضا ، واشتهروا ببراعتهم في العلوم الشرعية ، وخاصة منها الفقه والحديث وعلم القراءات الشيخ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الإشبيلي (510 . 582 هـ) ، وقد عرفه صاحب كتاب عنوان الدراية وزكاه قائلا : " ومنهم الإمام الشيخ الفقيه الجليل المحدث

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 178 .

[2] . ابن قنفد القسنطيني ، الوفيات من سنة 11 إلى 807 هـ ، تحقيق وتعليق : عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط : 4 ، 1983 م ، ص : 322 .

الحافظ المتقن المجيد العابد الزاهد القاضي الخطيب ، رحل إلى بجاية ، وتخيرها وطنا ، وكمل بها خبرة ، فألف التآليف ، وصنف الدواوين ، وولي الخطبة وصلاة الجماعة بجامعها الأعظم ، وجلس للوثيقة والشهادة ، وولي قضاء بجاية مدة قليلة ، ولم يشتهر ذلك من أمره ، وكان ذلك في مدة ابن غانية المعروف بالميورقي اللمتوني ، من مؤلفاته الأحكام الكبرى في الحديث ، والأحكام الصغرى فيه ، وله كتاب في علم التذكير ، وله كتاب التهجد ، وله اختصار الرشاطي ، وألف كتابا كبيرا في الأحكام في الحديث ، وهو أضعاف الأحكام الكبرى ، والكتاب المذكور اضمحل أمره بعد كمال تأليفه لكبره " [1] .

ومنهم أيضا أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم الأنصاري، عرف بابن السراج الإشبيلي ، والظاهر أن هذا العالم قد استوطن بجاية بعد سقوط إشبيلية في يد الإسبان ، ويعتبر ابن السراج من أشهر العلماء البارعين في علم الحديث والفقه ، وهو " فقيه مالكي محدث من أهل إشبيلية ، ولد سنة 560 هـ ، وأخذ عنه كبار العلماء في بلده ، وأجاز له غيرهم ، خرج من إشبيلية بخروج أهلها عند تغلب الافرنج عليها في رمضان سنة 646 هـ ، وأجاز البحر إلى سبتة ، وأقام بها قليلا ، ثم انتقل إلى بجاية سنة 647 هـ ، واستوطنها إلى أن توفي يوم الأحد لسبع مضين من صفر سنة 657 هـ ، قال المراكشي : وكان سريا فاضلا من بيت خير ودين ونباهة ، راوية مسندا ثقة فيما يحدث به ، صحيح

[1] . الغبريني ، المصدر السابق ، ص : 73 . 74 .

السماع صدوقا ، عمر طويلا ، وأسن حتى كان آخر الرواة بالسماع عن أكثر الأكابر من شيوخه " [1] .

ومنهم أيضا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحي بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 659 هـ) ، فكان هذا الأندلسي ذا تأثير بالغ على الحياة الدينية في مدينة بجاية ، نظرا لبراعته في العلوم الشرعية كالفقه والحديث ، " فكان راوية حافظا للحديث عارفا برجاله وبأسمائهم وبتاريخ وفاتهم ومبلغ أعمارهم ، وكان يقوم على البخاري قياما حسنا ، وكان إذا أقرأ الحديث يسنده إلى أن ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا انتهى الإسناد رجع إلى ذكر رجاله فيبدأ من الصحابي رضي الله عنه فيذكر اسمه ونسبه وصفته وتاريخ ولادته ووفاته ، ولا يزال يتبعهم واحدا فواحدا إلى أن ينتهي إلى شيخه فيقول : أما فلان شيخنا ويذكر ما ذكر فيمن تقدم ويزيد على ذلك بأنه لقيه وقرأ عليه كذا وسمع منه كذا ، وبعد الفراغ من ذلك يذكر لغة الحديث وعربيته ، ويتعرض لما فيه من الفقه والخلاف العالي " [2] ، هذا عن براعته في علم الحديث ، أما علم القراءات فقد كانت لهذا العالم بتفوقه في هذا المجال حظوة قربته من ملوك إفريقية وخاصة في عهد

[1] . ابن قنفد القسنطيني ، الوفيات ، ص : 223 . 224 .

[2] . المصدر نفسه ، ص: 246 . 247 .

المستنصر الحفصي " فهو في معرفة القراءات إمام وولي صلاة الفريضة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية ، وأقرأ وأسمع وكثر الآخذون عنه والسامعون منه والمقتدرون به " [1] .

ومن بين الفقهاء الجهابذة الذين ذكرهم الغبريني أيضا في القرن السابع الهجري أبو العباس أحمد بن خالد ، وهو من أهل مالقة ، وذكر فيه وفي أوصافه الشيء الذي يبين علو قدره ، وبراعته في مختلف العلوم الشرعية التي استفاد منها طلبة مدينة بجاية والراحلين إليها بحثا عن العلم حيث قال :" ومنهم شيخنا الشيخ الفقيه الأصولي المشارك أبو العباس أحمد بن خالد (ت 660 هـ) من أهل مالقة ، قرأ بالأندلس ، وقرأ بمراكش ، ولقي جملة أفاضل، ولازم الفقيه الإمام أبا عبد الله المؤمناني ملازمة كثيرة ، كان متحملا لأصول الفقه ولأصول الدين على طريقة الأئمة المتقدمين ، وكان لا يرى بطريقة فخر الدين ، ويرى فيها تخليطا في إدخاله طرفا من المنطق في الأصلين " [2].

وذكر الغبريني أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي (ت 691 هـ) من علماء الأندلس المستقرين في بجاية خلال القرن السابع الهجري ، وقد قال فيه مادحا له : " شيخنا الفقيه القاضي العدل الصدر المحصل المتقن المجيد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يحي بن حزب الله بن محمد ابن خلف الله بن عبد الرحمن بن

---

[1] . ابن قنفد القسنطيني ، الوفيات ، ص : 247 .

[2] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 100 .

يعقوب الخزرجي الأنصاري ثم الشاطبي وجده يعقوب هو الداخل " [1]، ومما يستفاد من قول الغبريني أن هذا العالم الأندلسي الجليل قد توظف في رتبة القضاء وزاول هذه المهمة في بجاية ، حيث يقول فيه أيضا : " كانت له ديانة ، وكان سري الهمة رفيع القدر ، تخطط بخطة القضاء ، في غير ما بلد ، وكان أبوه قاضيا ، وبيتهم بيت علم وقضاء ، وتوارث سؤدد ، ثم قضى ببجاية فكان في قضائه على سنن الفضلاء ، وطريق الأولياء والعقلاء ، قائما بالحقوق ، وقافا مع الصدق ، معارضا للولاة فيما يخالف طريق الشرع ومباينا لهم ... ولما توفي رحمه الله عجز القضاة بعده هنالك على سلوك منحاه ، واقتضاء سننه الذي اقتفاه، وكان رحمه الله كثير التشديد في أمر الشهادة والشهود يرى التنصل عنها عملا وتقديما ، ولقد أخبرني رحمه الله أنه ما شهد قط إلا شهادة واحدة دعته الضرورة إليها ، وكان لا يرى أن يقدم الشهود إلا عند الحاجة ، وأما إذا كان ما تقع به الكفاية فلا يقدم ، ويرى أن الكثرة مفسدة " [2].

ومن العلوم الشرعية التي برع فيها علم الفقه وعلم أصول الفقه ، وقد زادته رحلاته إلى بلاد الحجاز ، وانتقاله في مدن إفريقية علما إلى علمه ، فكان رحمه الله " له علم محكم وعقد صحيح مبرم ، رحل للشرق وحج ، وكانت رحلته بعد تحصيله فزاد فضلا إلى فضل

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 126 ، وأنظر ترجمته كذلك في : أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص : 382.

[2] . أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص : 382 .

ونبلا على نبل ، كان متثبتا في فقهه ، لا يستحضر كثير النقل ، ولكن ما يحتاج إليه عالما بأصول الفقه مشاركا في أصول الدين كشرح الجزولية " [1] .

ويرع في علم القراءات الشيخ أبو أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفي الشاطبي (ت 674 هـ) ، ولم يذكر لنا الغبريني شيءا عن تاريخ قدومه إلى بجاية ، ولا المدة التي استقر فيها ، واكتفى بذكر أبرز الشيوخ الذين أجازوا له ، وكان أغلبهم من مشايخ الأندلس الذين استقروا ببجاية كابن عصفور وأبي بكر ابن سيد الناس وابن طيب العتقي المرسي ، بالإضافة إلى علماء من أهل المغرب ، ومن مؤلفاته في هذا العلم . القراءات . نذكر : " ألف كتابا في مرسوم الخط ، وهو كتاب حسن كثير الفائدة ، وألف أيضا جزءا آخر في بيان مذهب ورش حروف المد واللين الثلاثة : الألف والواو والياء إذا تقدمتهن الهمزة ، وألف أيضا جزءا آخر في بيان مذهب ورش في تفخيم اللام وترقيقها ، ولم يكن له عمل سوى الاشتغال بالقرآن على حال عفاف ونسك وتخلى عن الناس إلى أن توفي رحمه الله " [2].

وممن انتقلوا إلى بجاية بعد النهاية المأساوية لمدينة بلنسية الشيخ أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الأنصاري البلنسي (ت 654 هـ) ، وقد وصفه الغبريني بأنه من الزهاد العارفين العالمين بأحكام القرآن الكريم ، لذلك برع كذلك في علم

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 126 . 127 .

[2] . المصدر نفسه ، ص : 108 .

القراءات ، فكان " محكم الرواية ، متقن الدراية ، وله زهد ونسك ، وتقلل من الدنيا ، ولم يكن له عمل ولا حرفة ، ولا خلطة للناس سوى الاشتغال بإقراء القرآن رواية وتفهيما وبسطا وتعليما " [1] .

كما نزل بجاية بعض العلماء الأندلسيين الذين اشتهروا في الأندلس بإمامة الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وقد استمروا على تلك الحال ومارسوا مهامهم في بجاية لما استقروا بها ، وذكره الغبرني أنه من أهل مرسية حيث قال فيه : " الشيخ الفقيه ، الخطيب ، القاضي، العدل ، المرضي ، المحدث الراوية ، المتقن أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن محمد بن عميرة بن طريف بن اشكورنة الأزدي ، من أهل مرسية يعرف بابن برطلة ، وسكن بجاية وولي بها صلاة الفريضة بجامعها الأعظم ، وقضى مدينة الجزائر وغيرها ، وكان من الثقات الأثبات " [2] .

ومن أولئك الذين اشتهروا بالبراعة في الفقه والحديث " محمد بن صالح الكناني " ولد بشاطبة في الليلة التاسعة والعشرين لذي القعدة من عام أربعة عشر وستمائة ، استوطن

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 245 ، وذكر أنه من مواليد سنة 577 هـ ببلنسية في الأندلس .

[2] . المصدر نفسه ، ص : 270 . وأضاف في حديثه عن انشغاله بالخطبة في الأندلس أنه كان خطيبا بمرسية ، وكان يخطب في كل جمعة بخطبة من إنشائه ، وأنه التقى بالعديد من علماء الأندلس الذين يشهد لهم بالفضل والعلم ومنهم أبو عبد الله بن صالح وأبو عمر بن عات ، وأبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أغلب الخولاني المعروف بالزروالي وأبو محمد بن حوط الله ... وغيرهم .

بجاية ، وكان فقيها ، خطيبا ، نحويا ، أقرأ واستنفع منه خلق كثير ، كان عالما بعلم القراءات ، وله رواية متسعة في الحديث " [1] .

وعليه ومن خلال ذكرنا لمشاهير العلماء الأندلسيين الذين استقروا بمدينة بجاية خاصة في العصر الموحدي أنهم لم يكونوا منشغلين في علم دون آخر ، بل كان يميزهم سعة الاطلاع والتفنن في شتى العلوم الأخرى ، فبالإضافة لكونهم فقهاء فهم كذلك محدثون وأصوليون وعالمون بمختلف العلوم الشرعية الأخرى ، هذا إلى جانب تفوقهم في اللغة وعلومها ، فهم نحاة شعراء مجيدون ، وقد اجتمع لهؤلاء العلماء العلم كله ، ونقلوا لهذه المنطقة ما حوته عقولهم ، فأثروا المدارس بمؤلفاتهم وأقوالهم وخطبهم ، وكان لهم عظيم الأثر على تطور الحياة العلمية في بجاية وضواحيها ، إذ غدت مدارسها تنافس حواضر المغرب الأخرى ، بفضل جهود هؤلاء العلماء الذين حافظوا على إرث الأندلس الثقافي من الضياع .

2 . 1 . 2 . أثر العلماء الأندلسيين على الحياة العلمية بمدينة تلمسان :

وحظيت تلمسان بهذا الرافد الفكري أيضا ، وكانت قبلة للرحالة الأندلسيين الذين استقروا بها ، نظرا لما امتازت به من موقع جغرافي قريب من الأندلس ، ولمساهمة حكامها في إعلاء شأن الحياة الفكرية ، بالتقرب من العلماء ، ففي العهد الزياني تكاثر العلماء

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 108 ، وسنفرد كلاما عنه في حديثنا عن علماء الأدب الذين انتقلوا من الأندلس ، وكان لهم بصمة في الشعر والنحو وغيرها .

الأندلسيون الوافدون من الأندلس خاصة بعد مصيرهم المحتوم الذي غلب على تلك البلاد ، وخاصة في عهد يغمراسن الزياني الذي قرب إليه العلماء ، وكان حريصا على تطوير الحياة العلمية بتلمسان ، حبا منه للعلم وأهله من جهة ، وعلما منه بأهمية علماء الأندلس في المجال الفكري من جهة أخرى ، فقام يغمراسن بتقريبهم إلى بلاطه ، حيث " وفد عليه من الأندلس خاتمة أهل الآداب المبرز في عصره على سائر الكتاب أبو بكر محمد بن عبد الله ابن داود بن خطاب ، فأحسن نزله ومثواه ، وقربه من بساط العز وأدناه ، وجعله صاحب القلم الأعلى ، ومقام ابن خطاب هذا في العلم شهير لاسيما الأدبيات ، واستوفى التعريف به ابن رشد قال : (وبوفاته انقرض علم الكتابة) " [1]ومن نزلاء تلمسان المشهور لهم بالبراعة في الفقه الشيخ محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي ، وقد ذكره ابن مريم في البستان قائلا : " سيدي محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي الفقيه المحقق أخذ العلم عن أبي الحسن شريح ، وأبي العباس بن حرب المسيلي وأبي بكر بن العربي كان مجودا للقرآن ، ضابطا محدثا نقادا عالي الرواية ، نزل تلمسان وعمر بها ، وتوفي في رجب سنة 600 هـ " [2] .

وكانت الويلات التي عانى منها سكان غرناطة وعلمائها إثر الاحتلال الإسباني لها أثر في هجرة العديد من العلماء إلى مدينة تلمسان ، والباعث الحقيقي على هذه الهجرة النكبة

---

[1] . التنسي ، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، ص : 127 . 128 . وقد ذكرت هذا العالم سابقا وبراعته في الخط والكتابة عندما تحدثت عن أهمية الهجرة الأندلسية في بروز الخط الأندلسي في المغرب الأوسط .

[2] . ابن مريم ، البستان ، ص : 227 . وأنظر التعريف نفسه في : يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ص : 129 .

العظيمة التي حلت بالحياة الفكرية في غرناطة نتيجة إحراق الكتب العلمية خاصة المتعلقة منها بالعلوم الشرعية والأدبية ، من أجل محو كل ما له صلة بالإسلام ولغة المسلمين ، حيث يذكر القاضي عياض في كتابه أزهار الرياض المحنة التي أصابت المسلمين في غرناطة التي أدت إلى رحلة العديد من العلماء الذين ينتمون إلى أسرة بني داود فيقول : " وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تلمسان ، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل وكتاب السياسة الملخص من مقدمة ابن خلدون وفيه زيادا بديعات ، وكتاب روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام وغير ذلك ، ومنهم بنو داود ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة ، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه آخذها لا محالة قوضوا رحالهم عنها ، فنزلوا بتلمسان المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب رحمهم الله ، ومنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي " [1] .

وقد دخلت أسرة العقباني إلى المغرب الأوسط ، واستقرت في تلمسان حاضرة الزيانيين ، ويجمع أغلب الدارسين أن هذه الأسرة الأندلسية هاجرت من الأندلس بدافع سياسي نتيجة سقوط الأندلس في يد الإسبان ، " وتنتمي أسرة العقباني إلى قرية بالأندلس* ، وتنتسب إلى

---

[1] . القاضي عياض ، أزهار الرياض ، ج : 1 ، ص : 71 .

* اختلف في مكان أسرة العقباني حيث ذكرها القاضي عياض بأن مقرها في الأندلس في قوله : ولما علمت تطلع مولاي أيده الله تعالى إلى قرية كذا بالعقبانية المنقطعة الغرس في شرفها وترداده أيده الله تعالى لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعملت

تجيبة والتجيبيين ، ولا ندري بالضبط متى هاجرت إلى تلمسان ، ولكن يبدو أن ذلك تم في فترة الاضطرابات التي عمت البلاد الأندلسية ، بعد أن استفحل خطر النصارى الاسبان "[1] .

والشيء الذي يميز هذه الأسرة أنها أسرة علم خدمت الجانب الفكري في تلمسان ، وذلك نظرا لما خلفته من آثار ثقافية بفضل العديد من علمائها الكبار الذين ساهموا بجهود كبيرة في خدمة العلم وأصحابه ، وقد ظهر العديد من الأسماء اللامعة في مجال العلم في مدينة تلمسان ونخص بالذكر منهم القاضي سعيد بن محمد العقباني الذي ولد بتلمسان سنة 720 هـ / 1360 م وتوفي سنة 811 هـ / 1408 م ، وهو قاضي من أكبر علماء تلمسان وفقهاء المالكية في عهده ، متفنن في علوم شتى ، وكان يقال له رئيس العلماء والعقلاء بتلمسان ، قرأ الفرائض على الشيخ الحافظ السطي ، وروى البخاري والمدونة عن السلطان أبي عنان المريني ، وتفقه عن ابني الإمام ، وأخذ الأصول عن أبي عبد الله الآبلي وغيره[2] .

وقد كان لهذه الأسرة حظ علمي في مدينة تلمسان ، وأشهر من انتسب لهذه الأسرة الأندلسية نجد إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني الذي كان قاضيا في مدينة تلمسان ، ويعد " قاضي الجماعة ، ومفتي الأمة ، أخذ عن والده ، وغيره من علماء تلمسان،

الحيلة في ابتياعها " ، وهذا ما يدل على أن قرية العقبانية موجودة في الأندلس . ينظر : أزهار الرياض ، ج : 2 ، ص : 261 .

[1] . آثار يحي بوعزيز ، ص : 133 .

[2] . معجم مشاهير المغاربة ، إشراف : د . أبو عمران الشيخ ، د . ناصر الدين سعيدوني ، الملكية للطباعة والإعلام والنشر والتوزيع ، جامعة الجزائر ، د . ت ، ص : 363 .

توفي سنة ثمانين وثمانمائة ، ومنهم أيضا أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني قاضي تلمسان توفي سنة أربعين وثمانمائة ، ومحمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني الفقيه العالم العلامة الحاج الرحلة المتقن البارع ، ولي قضاء الجماعة بتلمسان ، توفي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة في ثلاث وعشرين من ذي الحجة " [1].

2 . 2 . الأدب :

استفادت بلاد المغرب الأوسط من سقوط الأندلس بهجرة العديد من الأدمغة الأندلسية إليها ، وقد مس هذا التأثير من الناحية الثقافية ميدان الأدب واللغة بمختلف فروعها من نحو وصرف وبيان وشعر ... وغيرها ، ومن بين المدن المتأثرة بالأدب الأندلسي مدينة تلمسان ، التي عمل أمراؤها على تقريب الأدباء الأندلسيين واستدعائهم ، " فاصطبغت المدينة بالثقافة الأندلسية لدرجة أن موسى الثاني مجدد الدولة الزيانية عني بالعلوم والأدب عناية خاصة باعتباره يمتاز بالإلمام الواسع بمختلف العلوم والفنون لاسيما الأدب وشعره ، فقد كان يتميز بشخصية ذات سمات أندلسية تجلت في ثقافته وسلوكه وطموحاته تألق بصفة خاصة

[1] . أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص : 65 . 118 . 547 .

كشاعر مفوه ، وناثر ممتاز وأديب يحب الأدباء ويجيز الشعراء ، وفيلسوف ألف كتابا أسماه " واسطة السلوك في سياسة الملوك "[1] .

ويحفظ لنا الغبريني العديد من أسماء الأدباء الأندلسيين الذين برعوا في هذا الفن ، بحيث استفادت منهم بجاية من الدروس التي كانوا يلقونها في مدارسها ، ففي النحو مثلا برع أندلسيان وهما أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي المعروف بابن عصفور ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي ، حيث قال فيه الغبريني " هو الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن محمد بن علي الحضرمي عرف بابن عصفور ، شهير الذكر ، رفيع القدر من أهل إشبيلية ، قرأ بها على جماعة من أكابر العلماء منهم أبو علي الشلوبين ، فحصل له ما لم يحصل لغيره ، جمع رحمه الله بين الحفظ والإتقان والتصور وفصاحة اللسان ، هو حافظ متصور لما هو حافظ له ، قادر على التعبير عن محفوظه ، وهذه الغاية أن يكون المرء حافظا له متصورا معتبرا ، ارتحل إلى العدوة ، واستوطن بجاية " [2] .

أما عن تفوقه في العربية وعلومها ، فيتجلى ذلك من كثرة التصانيف التي ألفها في مختلف الفنون الخاصة بهذا الغرض ، حيث زكى أعماله ، ورفع من قدرها الغبريني ، في وصفه لآثاره التي تركها في هذا المجال إذ يقول : " وتأليف أبي الحسن رحمه الله في

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 323 .

[2] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 266 .

العربية هي من أحسن التصانيف ، ومن أجل الموضوعات والتآليف له المقرب وهو كتاب بارع والشروحات عليه وعلى الجمل ، وله على الإيضاح ، وله شرح أبيات الإيضاح ، ولم يسبقه أحد بمثله ، وكلامه في جميع تآليفه سهل منسبك محصل ، والذي قيد عنه أصحابه أكثر من تآليفه التي ألفها " [1] .

ومن العلماء الأندلسيين الذين برعوا في علوم اللغة في مدينة بجاية " النحوي أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري الذي كانت قراءته الأولى على مشايخ أهل بلده ، ثم ارتحل إلى أرض العدوة ، فاستوطن بجاية ، وأقرأ بها ، وغادرها إلى المشرق للاستزادة ، وقاصدا للحج ومجاورة الحرمين ، ثم رجع إلى إفريقية " [2] .

وذكر فيه الغبريني فضله في العربية ونبوغه فيها فقال : " قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو علي الشلوبين ، ثم ارتحل إلى العدوة ، وسكن بجاية ، كان له علم بالعربية ، وكان يتبسط لإقراء كتبها ، وله علم باللغة وتآليف كثيرة منها الجمل ، ومنها شرح الفصيح لثعلب ، ورأيت له تأليفا في الأذكار ، ورأيت له مجموعا سماه الإعلام بحدود قواعد الكلام ، تكلم فيه على الكلم الثلاث : الاسم والفعل والحرف " [3] .

---

[1] ، الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 267 .

[2] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 216 .

[3] . الغبريني ، المصدر السابق ، ص : 300 . 301 . وانظر أيضا ترجمته في المقري ، نفح الطيب ، ج : 2 ، ص : 207 وما بعدها ، وذكر أن أصله من لبلة بالأندلس .

ومن بين الأدباء الأندلسيين الذين استقروا ببجاية أيضا أبو المطرف بن عميرة المخزومي، ولد بجزائر شقر من أعمال بلنسية بالأندلس سنة 580 هـ ، والتحق بأمير بجاية زكريا ابن الإمام أبي زكريا الحفصي أمير تونس فأكرم مثواه ، وكتب إليه أبو المطرف رسالة شرح له فيها ما لقيه في حياته من الأرزاء والنكبات التي حلت بالأندلس ، وقد شاهد أبو المطرف هذه الأحداث الجسام التي حلت بها ، وحضر بنفسه وقائع ، وكتب عن الأندلس كتابا نحا فيه منحى العباد الأصبهاني في الفتح القدسي بكى فيه الجزيرة أشد البكاء وأطال الأسى ، أقام ببجاية مدة كان يراسل فيها ملوك المسلمين يستنهض جمعهم للأخذ بالثأر ، ومن شعره في رثاء بلنسية :

أما بلنسية فمثل كافح   حفت به في عقرها كفاره

زرع من المكروه جل حصاده   بين العدى وغداة لج حصاره

وعزيمة للشرك جعجع بالهدى أنصارها إذ خانه أنصاره [1]

وممن أشادوا بقدرة هذا الأديب الأندلسي ، وبراعته في الشعر والنثر المقري في كتابه نفح الطيب حيث يقول فيه مادحا إياه : " قدوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، وصدر الجلة الفضلاء ، وهو أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي مبدع البدائع التي لم يحظ بها قبله

[1] . محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون من الازدهار والذبول 7 هـ / 13 هـ ، ص : 65 . 66 . 67 . 68 . وانظر هذه القصيدة كاملة في : ابن الأبار ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط : 3 ، القاهرة ، بيروت ، 1989 م ، ص : 201 .

إنسان ، ولا ينطق عن تلاوتها لسان ، إذ كان ينطق عن قريحة صحيحة وروية بدرر العلم فصيحة ، روى عن أبي الخطاب بن واجب وأبي الربيع بن سالم وابن نوح الشلوبيني النحوي وابن عات وابن حوط الله وغيرهم من الحفاظ ، تفنن في العلوم ومال إلى الأدب فبرع براعة عد فيها من مجيدي النظم وتوفي ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذي الحجة سنة 658 هـ"[1].

ومن شهد لهم الغبريني بالبراعة في اللغة والأدب والنحو من أهل بجاية ، وممن استوطن بها من أهل شاطبة ذكر منهم أبا عبد الله محمد بن صالح بن أحمد إذ قال فيه : " الشيخ الفقيه الخطيب النحوي الأستاذ المقرئ الصالح أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني من أهل شاطبة ، رحل إلى العدوة ، واستوطن بجاية ، ولقي المشايخ بالعدوتين ، وروى ودرس واستجاز وأجاز ، وروى و أقرأ واستمع ، واستنفع به خلق كثير رضي الله عنه، علم بعلم القراءات ، متقن فيها ، مجيد لها ، وله معرفة بعلم العربية : النحو والأدب ، وله رواية متسعة في الحديث وفي غيره ، وروايته عالية من جهات كثيرة ، وله شعر حسن ومن شعره :

جعلت كتاب ربي لي بضاعة فكيف أخاف فقرا أو إضاعة

[1]. المقري ، نفح الطيب ، ج : 1 ، ص : 313 . 314 . 315 .

وأعددت القناعة رأس مالـــي   وهل شيء أعز من القناعـــة[1]

أما عن براعته في العربية ، وقراءته لدواوين الشعراء المشهورين فقال عنه : " يقرأ كتب العربية فيجيد ، وأجود ذلك مفصل الزمخشري قرأه وأحكمه ، وهو كذلك يقرئه ويجيد فيه ، وتقرأ عليه دواوين الأشعار تفقها كشعر حبيب والمتنبي والمعري والأشعار الستة ، وغير ذلك، وكل ذلك على إتقان وأحكام وجودة إيراد "[2] .

بالإضافة إلى الشيخ أبي الربيع سليمان الأندلسي له قصائد كثيرة ، وبراعة في الأدب ، وكان قد نزل بجاية ودرس فيها ، وقد زكاه الغبريني في صدد حديثه عن براعته في اللغة والفصاحة فقال عنه : " وأما الأدب فشأوه فيه لا يدرك ، سبق فيه أهل الزمان وأربى ، ولمثله في الفصاحة والبلاغة تحل الحبى ، سمعت عن شيخنا أبي الحسن الحرالي رضي الله عنه أنه كان يقول : بلغ كثير في رتبة البلدان أن يكون كأوائل العرب يحتج بشعره ، وذلك لما كان انتهى إليه من الفصاحة والبلاغة حتى صارت له طبيعة ، وكان سريع البداهة ، يكتل عنه ولا يقف ، ويورد أحسن إيراد ، وله في غيرها فن من الأدب : النظم والنثر ، وله قصيدة في خمسمائة بيت يقول في مطلعها :

الحمد لله ليس لي بخت   ولا ثياب يضمها تخت[3]

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 104 . 105 .

[2] . نفسه ، ص : 106 . 107 .

[3] . نفسه ، ص : 239 .

ولم يكن هذا العالم أديبا فحسب بل إلى جانب ذلك كان ناقدا للمؤلفين ، وخاصة ما جاء على لسانه في نقد كتاب الإحياء : " ومتى ماتت العلوم حتى تحيي علوم الدين ، مازالت حية ولا تزال " ومن نقده للشعراء كان يقول : " شاعر أعم من شيء ، يشير إلى أن الشعراء كثير ، والمرضى منهم قليل " [1] .

وقد كان للعلماء المتصوفة الأندلسيين أثر بالغ على الحياة الأدبية في المغرب الأوسط ، بما نظموه من قصائد زهدية ، تحمل مواضيع مختلفة تتعلق بالجانب الروحاني ، فنظموا قصائد الشوق والحب ... وغيرها من الأمور المتعلقة بالعلاقة مع الله سبحانه وتعالى ، فكانوا على براعة في قول الشعر ونظم القصيد ، ومنهم الصوفي الذي مر ذكره سابقا ، وهو أبو مدين شعيب في القرن السادس الهجري ، فكان بالإضافة لعلمه وزهده شاعرا بليغا " فإنه كان شاعرا ، وشعره شعر جميل في اللفظ والتركيب ، وثرى في المعاني ، فهو شعر مستكمل النفاسة لفظا ومعنى ، والبعض منه يغنى وينشد في محافل الذكر ، ومنها قوله :

ما لذة العيش إلا صحبة الفقـــــراء　　　هم السلاطين والسادات والأمـــــرا

فاصحبهمو وتأدب في مجالسهـــم　　　وخل حظك مهما قدمــــــــوك ورا

واستغنم الوقت واحضر دائما معهم　　　واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

وهي قصيدة طويلة وله أخرى بعنوان " الله قل " يقول فيها :

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 239 .

الله قل وذر الوجود وما حوى   إن كنت مرتادا بلوغ كمـال

فالكل دون الله إن حققته   عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلهـا   لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته   فوجوده لولاه عين محـــــال

فالعارفون فنوا ولما يشهدوا   شيئا سوى المتكبر المتعـــال

وقوله أيضا في الحب :

تملكتموا عقلي وصرافي ومسمعي   وروحي وأحشائي وكلي بأجمعـــي

وتيهتموني في بديع جمالكـــم   ولم أدر في بحر الهوى أين موضعي

وأوصيتموني لا أبوح بسركـــم   فباح بما أخفى تفيض أدمعـــي

ومن عجب أني أحن إليهـــم   وأسأل شوقا عنهم وهم معـــي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها   ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعـي[1]

---

[1] . عبد الحليم محمود ، أبو مدين الغوث ، دار المعارف ، د . ط ، القاهرة ، د . ت ، ص : 118 وما بعدها ، وفيها العديد من القصائد الشعرية في مواضيع مختلفة مما يبين براعته في نظم الشعر ، وانظر أيضا هذه القصائد في : عبد العزيز بن عبد الله ، معلمة التصوف الإسلامي ، ج : 2 التصوف المغربي من خلال رجالاته ، دار نشر المعرفة ، ط : 1 ، الرباط : 2001 م ، ص : 48 .

وقد كان لشخصية محمد ابن أحمد بن عبد الله الإشبيلي السابق ذكرها في حديثنا عن أشهر العلماء الذين استفادت منهم مدينة بجاية في العصر الحفصي في مجال الفقه والحديث وعلم القراءات ، فكان له ظهور على المستوى الأدبي أيضا بما نظمه من قصائد شعرية ، وما تفوق فيه من فصاحة لغة ، ومن أشعاره نذكر هذه الأبيات على سبيل التمثيل والاستشهاد :

أيا سائرا نحو الحجاز وقصده   إلى الكعبة البيت الحرام بلاغ

ومن إلى قبر النبي محمد   يكون له بالروضتين مراغ

فبلغت ما أملت كم ذا أراغه   أناس نسوا قصد السبيل فراغوا

ولو أولوا وحد وجد ونجدة   أراغهم الجد العثور فراغوا [1]

كما كانت له أشعار في الزهد ، وكثرة ذكر الموت ، فوجت في نفح الطيب للمقري أبياتا له يقول فيها :

قالوا صف الموت يا هذا وشدته   فقلت وامتد مني عندها الصوت

يكفيكم منه أن الناس إن وصفوا   أمرا يروعهم قالوا هو الموت [2]

---

[1] . أنظر نص القصيدة كاملا في : الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 248 .

[2] . المقري ، نفح الطيب ، ج : 4 ، ص : 310 . 311 .

وقال أحد الشعراء الأندلسيين الزاهدين في التحذير من ارتكاب المعاصي ، وتذكيرهم بالموت ، فقال أبو العباس أحمد بن الغماز نزيل بجاية :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة وأنت على سوء من الفعل عاكف

وإياك أن تمضي من الدهر ساعة ولا لحظة إلا وقلبك واجف

وبادر بأعمال تسرك أن ترى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

ولا تيأسن من رحمة الله إنه لرب العباد بالعباد لطائف[1]

وقد ذاع صيت أحد أدباء بلنسية والذي يدعى ابن الأبار الأندلسي* ، الذي خرج من بلنسية سنة 636 هـ ، وهي السنة التي " استولى الروم عليها ، فخرج ابن الأبار إلى دانية ومنها إلى بجاية ، فأقام بها ثلاثة أشهر أو أربعة " ، وقد انتقل منها إلى تونس بعد ذلك لتقربه من أمرائها الحفصيين ، حيث غادر بجاية متجها إلى تونس في عهد السلطان أبي زكريا الحفصي ، ولما مات وخلفه ابنه المستنصر أبعده إلى بجاية حيث علم " أنه يزري

---

[1] . المقري ، نفح الطيب ، ج : 4 ، ص : 316 .

* وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار مؤرخ كبير ، أديب وناقد ، كان أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي ، ولد سنة 595 هـ ولي قضاء دانية سنة 633 هـ . أنظر : ابن قنفد القسنطيني ، الوفيات ، ص : 324 .

عليه في مجالسه* ، فأصدر أمره بإبعاده إلى بجاية فذهب إليها ، وانصرف إلى التأليف فترة من الزمن " [1] .

وكان لجزائر بني مزغنة نصيب من هجرة العلماء والأدباء الأندلسيين ، ومنهم " أبو الحسن علي بن محمد بن شعيب الأشولي ، كان نحويا لغويا أديبا ، ومن أدبه قوله في الحض على طلب العلم :

إن العلوم لأشخاص معينة فلا يراهن إلا لب من درسا

من شرد النوم والظلماء عاكفة فكيف يضاهيه الذي نعسا

فادرس تسد وتكن في الناس معتليا ورح هديت لنور العلم مقتبسا

أما ظاهرة الزهد فكانت متجلية في قصائد هذا الأديب الأندلسي حيث جاء فيها :

فما الفوز إلا بصفو الضمير ودين متين وترك المناهي

---

* يذكر الزركشي وابن قنفد القسنطيني نكبة ابن الأبار على يدي الأمير الحفصي المستنصر ، حيث يذكران أن من أسباب وفاة ابن الأبار المأساوية أن الخليفة المستنصر الحفصي وجد بيتا يقول فيه ابن الأبار :

طغى بتونس خلف سموه ظلما خليفة

فأمر السلطان بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته فقتل قعصا بالرماح ، وأحرقت معه مؤلفاته ، وكانت نحوا من خمس وأربعين ، وذلك صبيحة يوم الثلاثاء 21 من المحرم سنة 658هـ . أنظر : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق : محمد ماضود ، المكتبة العتيقة ، ط : 2 ، تونس ، 1966 م ، ج : 2 ، ص : 27 وما بعدها . ابن قنفد ، الوفيات ، ص : 325 .

[1] . المصدر نفسه ، ص : 325 .

وتقوى القلوب ورفض الذنوب   ودفع العيوب حذار النواهي[1]

ومن قصائده الشعرية البكائية التي تفيض حنينا إلى موطنه ، وتصف حالته الحزينة لغربته فيقول :

يا ويح ناء شط عن أحبابه   وسقاه طول البعد مر شبابه

قذفت به أيدي النوى في معشر   ولم يحفلوا طرا بعظم مصابه

يمسي ويصبح هائما متحيرا   قد عضه صرف الزمان بنابه

مازال يجعله دريئة سهمه   حتى غزاه بشريه وبصابه

أم الجزائر كي يراه ملطفا   يكسو الذي يشكوه من أوصابه

إن كان جار علي دهر جائر   فالدهر أغرى باللبيب النابه [2]

ومن هنا نستنتج أنه بسقوط المدن الأندلسية ، انتقلت روافدها الأدبية إلى المغرب الأوسط ، فمكن لتلك الفئات استكمال نهجها الفكري والأدبي ، فأثرت بقصائدها في الحياة الأدبية المغربية أيما تأثير .

[1] . محمد طمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص : 206 .

[2] . المرجع نفسه ، ص : 206 . 207 .

2 . 3 . العلوم العقلية :

لم يكن تأثير الأندلسيين في المغرب الأوسط مقتصرا على العلوم الشرعية والأدبية فقط ، بل قد وجدنا أن بعض الأندلسيين الذين رحلوا من الأندلس بعد سقوط كبرى مدنها كان من بينهم من حذق في العلوم العقلية ، وقد استفادت منهم المنطقة استفادة عظيمة ، وخاصة في مجال الطب الذي يعتبر أهم العلوم التي يحتاجها المغربي في ذلك الوقت ، ونظرا لما علمناه من التطور الذي وصل إليه هذا العلم في بلاد الأندلس فقد انتقل بانتقال العلماء الأندلسيين إلى حواضر المغرب الأوسط ، تاركين بصماتهم في هذا المجال ، وخاصة خلال القرن السابع الهجري ، حيث يحفظ لنا الغبريني في مصدره الهام أسماء لامعة في مجال الطب ، حيث حظيت مدينة بجاية بدخول أحد العلماء الأندلسيين المشهورين في علم الطب ، وهو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسية ، وقد أفاض الغبريني بذكر محاسنه ، وفضله في هذا المجال فقال فيه : " ورد على بجاية في عشر الستين وستمائة مستوطنا ، وتبسط للطب طبيبا باحثا جيدا ، وله معرفة بعلم العربية ، وكانت له حدة ذهن ، وجودة تبسط لإقراء الطب والعربية ، وكان حاذقا في عربيته "[1] .

وعن منهجه في الطب ذكر فيه أنه " كان رحمه الله إذا سئل عن المسألة الطبية كثيرا ما يتوقف عن الجواب إلا بعد نظر ، ورأيت غيره من الأطباء ممن يقصر عن معرفته إذا سئل ساعة ما يسأل يجيب ، وربما اعتقد هذا المسرع في الجواب أو غيره من الأغبياء أن سرعة

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 101 .

المسرع هي لعرفته ، وأن إبطاء المبطئ هو لتقصيره ، وهذا هو اعتقاد الأغبياء في أمثال هذا ، وإنما في الجواب دليل العلم لأنه بين السائل للطبيب الغرض للعليل ، ولابد أن يقع له النظر في الأسباب ، وتمييزها والحدس عن السبب الفاعل إن تعارضت ، وينظر أنسب الأدوية ، وحينئذ يقع الجواب ، وهكذا هو حال حذاق الأطباء ، وأما عوامهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل فعندما يسأل يجيب بغير علم " [1].

أما عن وظيفة هذا الأندلسي فقد ذكر أنه امتهن الطب في بجاية ، واشتهر به ، كما أن له معرفة ودراية ببعض الأدوية ونظامها " فكان رحمه الله متوليا لطب الولادة ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها .. وله رجز نظم فيه بعض الأدوية المفردة من القانون ، وكلفني بنظم بعض الأدوية على سبيل التعاون فنظمت له بعضها ، وما علمت هل استكملها بعد أم لا ، وتوفي بتونس عام أربعة وسبعين وستمائة (674 هـ) " [2] .

كما كان لأسرة العقباني الأندلسية دور في انتشار العلوم العقلية ، وقد ورثت هذه الأسرة شخصية هامة في مدينة تلمسان ، فبرز منها الشيخ " القاضي سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811 هـ / 1418 م) الذي قام بشرح كتاب الحوفي في الفرائض ، واستخدم فيه الكسور الاعتيادية فلم يؤلف عليه مثله " [3].

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 102 .

[2] . المصدر نفسه ، ص : 102 .

[3] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 471 .

3 . آثار الأندلسيين في ميدان التصوف :

يعتبر التصوف من المجالات الفكرية التي أثر فيها المهاجرون الأندلسيون إلى بلاد المغرب الأوسط ، ولم يكن ظهوره مرتبطا ببلاد الأندلس ، إذ عرف العديد من المتصوفين المغاربة في المنطقة ، ولكنه قد تعزز وجوده فيها بسقوط المدن الأندلسية على يدي الإسبان، مما تسبب ذلك في هجرة العديد من المتصوفة الأندلسيين إلى المغرب ، وكذا تأثير الحياة الفكرية في المغرب ببعض الأفكار العقلانية المرتبطة بالفلسفة وعلم الكلام ، عن طريق رحلات بعض العلماء واختيارهم الاستقرار في حواضر المغرب الأوسط .

3 . 1 . مفهوم التصوف :

أخذ التصوف معان عديدة ، وتضاربت الآراء حول تحديد مفهوم محدد ودقيق لهذا المنهج، الذي ارتبط بفكر الإنسان وروحانيته ، وقد كان التصوف بدايته زهدا من مقلده عن الدنيا وملذاتها ، ليأخذ أبعادا أخرى كان فيها العديد من الانزلاقات في العقيدة ، وعزوف عن المنهج السني الصحيح ، وذلك بتأثر بعض المتصوفة ببعض الأفكار المناقضة للفكر العقدي السليم ، والمنهج السني القويم .

ويعرف التصوف بأنه " عزوف النفس عن الدنيا ، والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة " [1] .

وقد اشتق مصطلح التصوف من عدة معاني كالصوف والصفاء والصف وغيرها من المشتقات اللغوية الأخرى ، وكل واحدة من هذه الكلمات إلا وتحمل دلالة في ذاتها عن معنى من المعاني قد يقترب من المعنى الآخر، أو قد يختلف عنه ، وقد " سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبه لله ، وقال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته ، وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ، وقال قوم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسهم الصوف " [2]، ومن خلال هذه المفاهيم جميعها تتبين الفوارق بينها من ناحية المصطلح ، والتقارب من ناحية المعاني والدلائل .

[1] . الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر ، ص : 34 .

[2] . أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تعليق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية، ط : 1 ، بيروت ، ط : 1 ، 1993 م ، ص : 10 .

هذا من ناحية المصطلح ، أما من ناحية الأصول ، فقد ذهب أبو القاسم عبد الكريم القشيري في رسالته إلى تبيين رأيه فيهم فقال : شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف، وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم ، ولذا قال سيد هذه الطريقة الجنيد* رحمه الله : التوحيد إفراد القدم من الحدث " [1] .

3 . 2 . انتقال التصوف الأندلسي إلى المغرب الأوسط :

لقد اجتمعت عوامل متعددة ساعدت على انتشار التصوف في الجزائر ، منها ما هو سياسي متعلق بالأوضاع السياسية التي كانت تمر بها المنطقة ، ومنها ما هو فكري مرتبط

* **الجنيد** : يعتبر عند علماء التصوف سيد هذه الطائفة ، ومقدم هذه الجماعة ، وإمام هذه الخرقة ، وشيخ طريقة التصوف، وعلم الأولياء في زمانه ، وهوالجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز ، وكان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك كان يقال له القواريري ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، كان فقيها تفقه على أبي خور ، وصحب السري السقطي ، والحارث المحاسبي ومحمد بن القصاب البغدادي .. وغيرهم ، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين يوم السبت ، وقيل توفي في آخر ساعة من يوم الجمعة ، ودفن يوم السبت . ينظر : أبو القاسم الجنيد ، رسائل الجنيد ، تحقيق : علي حسن عبد القاسم ، دار الكتب المصرية ، د . ط ، القاهرة ، 1988 م ، المقدمة (أ) ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، طبقات الصوفية ، ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط : 2 ، بيروت ، 2003 م ، ص : 127 .

[1] . أبو القاسم عبد الكريم القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق : عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف ، دار المعارف ، د . ط ، القاهرة ، د . ت ، ج : 1 ، ص : 19 .

بالحياة العقلية لأولئك العلماء الذين استطاعوا أن يؤثروا بأفكارهم على عقول الناس ، فعلى المستوى الفكري فتمثل في " وجود أعلام صوفية عملوا على نشر هذه الطريقة بكامل المغرب الإسلامي ، بحكم تكوينهم النفسي والعلمي أبو يعزى ، أبو مدين ، عبد الحق الإشبيلي ... أثروا بسلوكهم حيث كانت الناس ترى فيهم أنموذج الصلاح والتقوى ، وبعلمهم إذ أن معظم أعلام التصوف وعلمائه تولوا مهمة التدريس " [1] .

أما على المستوى السياسي فكان نتيجة سقوط المدن الأندلسية خاصة في عهد الموحدين ، وعصر دولة بني نصر الغرناطية ، والتي كان لسقوطهما أثر عميق على نفسية الإنسان المغربي ، " فسقوط الدولة الموحدية التي كانت تمثل دولة قوية ، واجهت الغزو الإسباني ، ولأسباب داخلية وخارجية تدهورت أوضاعها ، مما أدى إلى مزيد من الانحلال ، وبعد سقوطها ، وتفكك السلطة تغيرت الأوضاع جذريا ، وساد الاضطراب والفوضى كل مناحي الحياة ، ولم يجد الناس عزاء إلا عند الصوفية في حماية أنفسهم وأموالهم ، وقد قام الصوفية بدور الدولة من حماية النفس والأموال والطرقات ، بفضل ما كانوا يتمتعون به من احترام وتقدير لدى مختلف طبقات الشعب ، وهو ما يلخصه قول أحد الباحثين " وهكذا تلاشت سلطة الدولة أمام سلطة الزاوية " " [2] .

[1] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، دار الخليل القاسمي ، جامعة ورقلة ، 2005 م ، ص : 28 .

[2] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، ص : 28 . 29 .

ومما عرفه المغرب من غزوات صليبية نتيجة سقوط الأندلس ، والتدهور العسكري الذي ألم بها ، فإن الصوفية كان لهم دور بطولي لحملهم لواء الجهاد في سبيل الله ، مما زاد من تعلق المغاربة لهم ، وتقدير أعمالهم في خدمة الدين والوطن ، " فالغزو الإسباني لمعظم سواحل المغرب الإسلامي أدى إلى حالة تأهب دائمة لمواجهة الغزو ، ومقاومة مستمرة له ، والذي تحمل تبعاته ومسؤولياته بعد سقوط الدولة هم الصوفية ، وذلك باستثناء الرباطات والزوايا على طول الساحل الغربي مقارنة مع الساحل الشرقي " [1] .

وقد انتقل العديد من المتصوفة الأندلسيين من الأندلس إثر سقوط مدنها ، فأصبحت بلاد المغرب الأوسط ، تعج بالكثيرين منهم ، وكان لهم دور كبير في الجهاد ، " فلم يتوقف نشاط صلحاء وعلماء الأندلسيين عن إثارة الحماس والدعوة إلى الجهاد ، بل تعداه إلى الأعمال الخيرية والخدمات التعليمية في رعاية شؤون الناس ، مما زاد من تقدير السكان لهم ، فأصبح الوالي الأندلسي سيدي فرج محل تقدير ، وتحول ضريحه بعد موته إلى مزار ، ونال سيدي يعقوب الشريف القرطبي مكانة لدى سكان الأطلس البليدي ، فتحول ضريحه إلى مكان للزيارة والتبرك بالقرب من سطوح الشفة سنة 927 هـ / 1521 م ، وسيدي أحمد الكبير الأندلسي الذي أيد خير الدين ، وأصبح محل تقدير من قبل سكان البليدة ، وسيدي علي بن مبارك الأندلسي الذي التف حوله المدجنون بالقليعة ، وبعد وفاته نسبت الكرامات إليه ،

[1] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، ص : 29 .

حيث ظلت سلالة هذا الولي تحظى بالتقدير لدى الناس " [1] . أما بسقوط آخر معاقل المسلمين في الأندلس سنة 1492 م أدى ذلك إلى هجرة الآلاف من سكان الأندلس إلى شمال إفريقيا ، ومنهم مجموعة معتبرة من أشراف الأندلس ، وكونت هذه النخبة من الشعب رباطات على السواحل الشمالية لصد غزوات النصارى الذين كانوا يتعقبونهم " [2] .

فهجرة الأندلسيين إلى الجزائر كانت من بين العوامل التي ساعدت على انتقال بعض المتصوفة إلى الأراضي الجزائرية ، " وقد أحصينا عددا لا بأس به منهم الذين انتقلوا إلى المغرب الأوسط ، واستقروا إما ببجاية أو بتلمسان ، وهناك منهم من واصل سيره إلى المشرق ، بعد أن ترك أثره هناك ، وكان تأثيرهم قويا في دفع التيار الصوفي إلى الأمام ، وتكوين الجماعات الصوفية الأولى بالمغرب الأوسط " [3] .

3 . 3 . أشهر المتصوفة الأندلسيين النازحين إلى المغرب الأوسط :

ظهر التصوف في بلاد المغرب ، وكان له أتباع كثر ، وشجعوا على بناء الأضرحة والزوايا ، وكان لهم دور جهادي في بلاد المغرب الأوسط ضد النصارى ، حتى عرفوا

---

[1] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 82 . 83 .

[2] . نفسه ، ص : 158 .

[3] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، ص : 30 .

بالمرابطين * ، كما تعددت بعض الألقاب التي تطلق عليهم إذ عرفت فرقة منهم بالأشراف*، ويعود وجودهم بالجزائر إلى سنوات متقدمة ، وجاؤوا من مناطق مختلفة ، ومن بينها الأندلس ، سواء كان ذلك بهجرات اختيارية أو اضطرارية قبل أو بعد سقوطها ، " ومن بين أوائل المرابطين الذين جاؤوا من الأندلس سيدي بومدين المولود سنة 1126 م بمدينة سيفي Séville ، واستقر بمدينة تلمسان حيث وافته المنية فيها ، وسيدي بن شارف البدوي مؤسس مازونة * الذي كان حفيد سيدي عبد العزيز الذي جاء من الأندلس ، وجاء إلى مستغانم حيث توفي فيها " [1] . ومما يذكر في شأن الصوفي الأندلسي أبي مدين ما وصفه به ابن

* **المرابط** : المرابطية ليست كالتصوف تجربة فردية للتقرب من ذات الله ، ولا هي كالطرقية تجربة جماعية لها طابع ديني ، وهي بشكل من الأشكال امتداد اجتماعي لبروز ظاهرة المتصوفة والأولياء الصالحين ، يختلط فيها ما هو ديني ، مع ما هو معتقدات شعبية وطقوس وطلاسم ، وفي بعض الأحيان شعوذات وخرافات ، وكلمة مرابط تعيدنا بلا شك قبل كل شيء إلى ما كان يعرف بالرباط في مطلع القرن الحادي عشر أيام انطلاق حركة المرابطين ، كانت تضم فيها طلاب العلوم الدينية الذين يتدربون على فنون القتال ، والذين شكلوا رأس حرية الدعوة المرابطية . أنظر : الشريف كمال دحومان الهاشمي ، أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري ، تقديم : المختار محمود محمد حسن العملة العمرو ، دار الخلدونية ، د . ط ، الجزائر ، 2013 م ، ص ص : 144 . 145 . 154 .

* **الأشراف** : الشريف هو الذي ينتسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة رضي الله عنها ، ويسمى هؤلاء أشراف الأصل ، أما علامات النسب الشريف التي تميز الشخص فهي معرفة النسب ، أي الشهرة ، فيكون معروفا لدى العام والخاص بأنه شريف النسب ، كما أن هذه المعرفة تكون بظهور علامات في البدن تورث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الجمال ، أما الصفات الأخلاقية فهي العفاف والسخاء والجود والشجاعة والأخلاق الحسنة . أنظر : الشريف كمال دحومان الهاشمي ، نفسه ، ص : 158 .

* **مازونة** : ذكر الحسن الوزان في تعريفها فقال أنها مدينة أزلية بناها الرومان على بعد أربعين ميلا من البحر ، تمتد على مساحة شاسعة ، وتحيط بها أسوار متينة ، وما يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام . أنظر : وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 36 .

[1] . الشريف الهاشمي ، أشراف الجزائر ، ص : 158 .

مريم في البستان لدرجة أنه أجزله بالوصف حتى لقبه بشيخ المشايخ* فيقول عنه : " سيدي شعيب بن الحسن الأندلسي شيخ المشايخ ، سيد العرفين ، وقدوة السالكين الإمام المشهور ، وعرف به جماعة ، بل ألف الخطيب القسنطيني في تعريفه وأصحابه جزءا ، وقال بن سعد التلمساني في النجم الثاقب ، كان رحمه الله تعالى من أفراد الرجال ، وصدرا من صدور الأولياء ولا جدال ، جمع الله له بين الشريعة والحقيقة ، وإقامة ركن الوجود هاديا وداعيا للحق يقصد بالزيارة من جميع الأقطار "[1] ، ومما ذكره أيضا أنه كان عالما بارعا في الحديث، حتى متأثرا بالغزالي أشد التأثير ، إذ يذكر ذلك قائلا : " كان يلازم كتاب الإحياء ، ويعكف عليه " [2]، أما فيما يخص الكرامات التي يشهد له بها فهي بالنسبة إليه كثيرة جدا منها أنه " تمر به الطيور وهو يتكلم فتقف لتسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيرا ما يموت بمجلسه أهل الحب " [3]، وغيرها من الكرامات الكثيرة* التي أفردنا مثالا واحدا من بينها ، ومما يذكر عن تأثيره الصوفي أنه تخرج على يديه العديد من الطلبة ، فيقول فيه أبو عبد الله

---

* اشتهر بشيخ الشيوخ أو شيخ المشايخ ، لأنه تخرج على يده ألف شيخ من أولياء الله تعالى ، كلهم ظهرت له كرامة أو كرامات ، وعرفوا بإجابة الدعوة . أنظر : ابن عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي ، المستفاد في مناقب العباد وما يليها من البلاد ، تحقيق : د . محمد الشريف ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة عبد المالك السعدي ، ط : 1 ، تيطوان ، 2002 م ، ص : 41 .

[1] . ابن مريم ، البستان ، ص : 108 .

[2] . المصدر نفسه ، 108 .

[3] . نفسه ، ص : 108 .

* للمزيد حول كرامات هذا الصوفي الأندلسي إرجع إلى كتاب : أنس الفقير وعز الحقير ، لابن قنفذ القسنطيني ، نشر وتصحيح : محمد الفاسي ، أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب ، د . ط ، د . ت ، ص : 88 وما بعدها .

محمد بن إبراهيم الأنصاري : " خرج أبو مدين ألف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة ، وكان أحد عباد الله المخلصين ممن أجرى الله الحكم على لسانه بما قذف فقي قلبه من أسرار توفيقية ، وأفاض عليه من أنوار هدايته ، وكان معرضا عن التكسب زهدا في الدنيا ، وتقللا منها ، مبسوطا بالعلم ، مقبوضا بالمراقبة "[1] ، وقد بقي كذلك إلى أن توفي سنة 594 هـ فحمل إلى العباد مدفن الأولياء ، وخرج أهل تلمسان لجنازته ، فكان من المشاهد العظيمة "[2].

وقد دفن أبو مدين في جموع حاشدة من أهل تلمسان ، وكانت جنازته فرصة ليظهر أهل تلك المدينة فيها تقديرهم الكبير للصوفي ، وصار أبو مدين منذ ذلك ولي تلمسان وحاميها ، وازدهرت هذه المدينة ببركاته كما نمت مدينة العباد حول قبره ، وبنيت فيه قبة أبي مدين بعد وفاته بقليل من الزمن بأمر من السلطان الموحدي محمد الناصر ، وأخذ بعده كثير من الأمراء والملوك الذين حكموا تلمسان يضيفون الشيء الكثير إلى زخارف قبره المقدس ، وقد بنى المرينيون أصحاب تلمسان في القرن الرابع عشر الميلادي إلى جانب قبره كثيرا من المنشآت الفخمة ، نذكر منها بصفة خاصة الجامع والمدرسة ، وترك تصانيف منها كتاب " أس التوحيد "[3] .

---

[1] . أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري ، الذيل والتكملة ، لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق : محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، ج : 4 ، ص : 128 .

[2] . ابن مريم ، المصدر السابق ، ص : 114 .

[3] . عبد الحليم محمود ، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث ، ، ص : 149 . 150 .

وقد مدح هذا الصوفي العديد من العلماء ، وبالغوا في تقديره إذ يقول فيه صاحب شذرات الذهب : " أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف ، شيخ أهل المغرب شعيب بن الحسين ساكن تلمسان* ، وكان من أهل العمل والاجتهاد منقطع القرين في العبادة والنسك ، بعيد الصيت ، ويسميه الشيخ محي الدين بن عربي بشيخ الشيوخ ، نشر الله ذكره ، وتخرج به جماعة من الفضلاء كأبي عبد الله القرشي وغيره ، وانتهى إليه كثير من العلماء المحققين والفضلاء الصالحين كابن عربي* ، وله في الحقائق كلام واسع " [1].

وقد كتب صاحب طبقات المالكية كلمات جميلة موجزة جامعة عنه فيقول : " ولي الله أبو مدين شعيب بن حسن الأندلسي البجائي شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين شيخ الطريقة " [2].

ومن المتصوفين الأندلسيين أيضا الذين استقروا في مدن المغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري ، وكان لهم دور فكري عظيم نذكر منهم إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري (

---

* يعود استقراره في تلمسان بعد كرهه المقام في فاس ، حيث يذكر صاحب الذيل والتكملة أنه استوطن فاس ، فأقام بها قليلا ، ولم يزل المقام بها ، وفصل عنها كارها جوار أهلها ، وانتقل إلى تلمسان ، ثم إلى بجاية فاستقر بها " . أنظر : الذيل والتكملة ، ج : 4 ، ص : 129 .

* لقد أشار أسيس بلاسيوس بدون إيراد حجة إلى لقاء ابن عربي مع أبي مدين الغوث في بجاية عام 590 هـ في حين ذكر ابن عربي نفسه في كتاب (الروح) أنه لم يتصل جسمانيا بأبي مدين الذي يعتبره مع ذلك في مقدمة أشياخه ، ويقال بأن ابن عربي فر من إشبيلية نظرا لمهاجمة ألفونسو الثامن لها ، وهو الذي انهزم في وقعة الأرك . أنظر : عبد العزيز بن عبد الله ، معلمة التصوف الإسلامي ، ج : 3 ، آثار التصوف المغربي في الفكر الصوفي المشرقي ، ص : 21 .

[1] -عبد الحليم محمود ، المرجع السابق ، ص : 141 .

[2] .نفسه ، ص : 142 .

609 . 697 هـ / 1212 . 1298 م) ، وهو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني الوشقي نزيل سبتة ، يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بالتلمساني ، ولد آخر ليلة من جمادى الآخرة سنة 609 هـ / 1212 م بتلمسان ، ونشأ بها ، وانتقل به أبوه إلى الأندلس وهو ابن تسعة أعوام ، ثم انتقل إلى مالقة * ، وسكنها مدة ، وبها قرأ معظم قراءته ، ثم انتقل إلى سبتة [1].

وبهذا فقد نهل الأنصاري من علم الأندلس ، نظرا لصغر سنه عند قدومه إليها ، وعاد متشبعا علما في مختلف الفنون ، وتصوفا تجلى في زهده وورعه وفكره ، " فكان فقيها مبرزا في الفرائض ، عارفا بعقد الشروط ، أديبا شاعرا محسنا* ، نظم في الفرائض وهو ابن عشرين سنة أرجوزة محكمة ، وهي الأرجوزة التي عرفت شهرة واسعة في بلدان المغرب العربي ، وله أيضا منظومات كثيرة في السير وأمداح النبي صلى الله عليه وسلم ، من ذلك

---

* ذكر ابن مريم في البستان أن إبراهيم الأنصاري قرأ بمالقة على أبي بكر بن دحمان وأبي صالح بن الزاهد وأبي عبد الله بن الونشريسي ، ونقل عنه بعض فتاوى في المعيار ، وأثنى عليه ونقل عنه المازوني في نوازله ، أنظر : ابن مريم ، البستان ، ص : 57 . 58 .

[1]. نفسه ، ص : 41 .

* كان متأثرا بالأندلس ، ولم تغب عن أشواقه فذكرها في شعره متذكرا قصر الحمراء بغرناطة قائلا :

أقول وحمراء غرناطة تشوق   النفوس ، وتسبي المهــج

ألا ليت شعري بطول السرى   أرتنا الوجى واشتكت العرج

ومالي في عرج رغبـــة   ولكن لأقرع باب الفــرج

أنظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج : 1 ، ص : 350 .

المعشرات على أوزان المغرب ، ومنها في المولد النبوي الكريم ، وله مقالات في العروض ، كما نظم سيرة ابن هشام على قافية اللام "[1] .

ومنهم أيضا إبراهيم بن عبد الله التلمساني وهو " إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النميري ، من أهل غرناطة ، يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن الحاج ، نشأ على عفاف وطهارة ، انصرف عن الأندلس في محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وألم بالدول محركا إياها بشعره ، هازا أعطافها بأمداحه ، فعرف قدره " [2] .

أما عن مكان استقراره بعد رحلته من الأندلس فيذكر لسان الدين ابن الخطيب أنه اختار بلاد المغرب الأوسط حيث قال : " وقفل إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية .. ونفض عن الخدمة يده ، وانقطع إلى تربة الشيخ أبي مدين بعباد تلمسان مؤثرا للخمول ، عزيزا به ، ذاهبا مذهب التجلة من التجريد ، والعكوف بباب الله ، مفخرا لأهل نحلته " [3].

وللصوفي مؤلفات كثيرة نذكر منها " المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة " و " إيقاظ الكرام بأخبار المنام " و " تنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح " و كتاب "

---

[1] . ابن مريم ، المصدر السابق ، ص : 41 .

[2] . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج : 1 ، ص : 342 .

[3] . المصدر نفسه ، ج : 1 ، ص : 344 .

الوسائل ونزهة المناظر والخمائل " و " الزهرات وإجالة النظرات " وكتاب في التورية [1] ، وبهذا يعد إبراهيم بن عبد الله نزيل بجاية وتلمسان من أشهر المتصوفة الغرناطيين الذين تركوا بصماتهم في الفكر المغربي بمؤلفاتهم ، وشعرهم ، وضربوا مثالا في الزهد والتصوف في ذلك الوقت .

وخلال القرن الثامن هجري الرابع عشر الميلادي ظهر في الجزائر الصوفي أبو عبد الله الشوذي الحلوي (ت 737 هـ / 1337 م) ذكره ابن خلدون في بغية الرواد فيمن نزل بتلمسان فقال : " الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان من كبار العباد العارفين حدث الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المعروف بابن المرأة قال : أتيت من مرسية زائرا عمة لي بتلمسان ، فما سرني شيء كوجود بها حية ، وتطوفت يوما بتلمسان فرأيت هذا الشيخ يبيع من طبق عود في يده حلواء للصبيان الصغار ، فتفرست فيه مخائل القوم فأتبعته ، فإذا من يمر به من الصبيان ينقرون له ، فيدور ويشطح ، وربما أنشد مقطعات متفقة الألفاظ في معنى المحبة ، فلم أشك أنه من الصلحاء ، ثم أخذ في ثمن شيء من حلوائه كسرة خبز سميد ، فتصدق بها على يتيم ذي أطمار ، بعد علمه بحاجته ، فقلت هذا ولي مور عن مقامه يبيع الحلواء " [2].

---

[1] . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج : 1 ، ص : 346 .

[2] . ابن خلدون ، بغية الرواد ، ص : 127 .

ومن خلال ما تقدم ذكره في هذا النص ، يتبين لقارئه زهد هذا الصوفي عن الدنيا وملذاتها، فبعد أن كان بإشبيلية قاضيا بها آخر دولة بني عبد المؤمن ، ثم فر بنفسه من القضاء ، وآوى إلى تلمسان في زي المجانين ، لم ير إلا صائما قائما أو مدرسا ، فكان يدرس بالمسجد الذي بخندق عين الكسور خارج باب القرميدين ، وكان يأوي تبتلا إلى كهف خارج باب كشوط إلى أن توفي " [1] ، وقد ذكر فيه صاحب البستان سبب قدومه في زي المجانين فقال أنه " كان قاضيا بإشبيلية ثم فر بنفسه من النصارى ، وآوى إلى تلمسان في زي المجانين ، وأخبرني الشيخ أبو الحسين الميورقي أن أبا عبد الله الحلوي كان من أعيان العباد ، ومات رحمه الله تعالى بتلمسان ، وقبره خارج باب علي ، وقبره الآن هنالك مزار مجاب الدعوة* ، وله مناقب كثيرة لا تحصى " [2] .

[1] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف ، ص : 59 ، وذكر ابن خلدون أن باب كشوط وباب القرميدين أحدا أبواب مدينة تلمسان ، فباب كشوط معناه باب الأكشاك (جمع كشك) ، يقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة ، أما باب القرميدين فيقع في الشمال الغربي من تلمسان ، ويعتبر الحصن الدفاعي الأساسي الذي يحمي مدخل المدينة من هذه الناحية التي بها المنية والملعب ، ويبدو أنه كان يوجد بالقرب من الباب أفران لصناعة الفخار والآجر والقرميد ، ولهذا سمي الباب بباب القرميدين . أنظر : عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ص : 113 .

* أقام السلطان المريني بقربه مدرسة تعرف بمدرسة سيدي الحلوي ، بناها سنة 754 هـ / 1353 م ، وقد اختار لإنجاز مشروعه المعماري الكبير الذي يتألف من المسجد والمدرسة والزاوية والضريح مكانا منحدرا عبارة عن حي سكني تشرف عليه أسوار تلمسان الشمالية الشرقية التي يتوسطها باب الزاوية . أنظر : تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر ، رئيس المشروع : د . صالح بن قربة ، الأعضاء : د . سامية بوعمران ، د . خالف محمد نجيب ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ، الجزائر ، 2007 م ، ص : 177 .

[2] . ابن مريم ، البستان ، ص : 70 .

ومن بين المتصوفة الأندلسيين الذين نزلوا على مدينة بجاية واستقروا فيها ، الزاهد أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطبي ، ذكره الغبريني في نزلاء مدينة بجاية وقال فيه : " الشيخ الفقيه المنقطع الصالح الزاهد الورع المتعبد ، المستجاب الدعوة ، مولده بقرطبة ، وبها نشأ ، حبب إليه العمل الصالح ، وبغضت له الدنيا ، ظهرت عليه البركات ، وفاضت عليه ينابيع الخيرات ، وكراماته لا تعد ، وفضائله جاوزت الإحصاء والعد ، توفي ضحى يوم الإثنين الثاني عشر لربيع الأول من عام اثنين وستين وستمائة (662 هـ) ، وقبره قريب من قبر الشيخ أبي زكريا الزواوي " [1] .

ومنهم أيضا ابن عربي الشهير الذي نزل بجاية ، وألف الكثير في هذا العلم ، وهو أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي الشهير بمحي الدين بن عربي * أصله من مرسية ، وسكن إشبيلية ، دخل بجاية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وبها لقي أبا عبد الله العربي وجماعة من العلماء ، استوطن بجاية ، وله تآليف كثيرة كلها في علم

---

[1] . الغبريني ، عنوان الدراية ، ص ص : 161 . 164 .

* **ابن عربي** : ترجم له صاحب فوات الوفيات حيث قال : هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الشيخ محي الدين أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي ، المعروف بابن عربي ، ولد في شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة بمرسية من ابن بشكوال ، وسمع ببغداد ومكة ودمشق ، وسكن الروم ، كان ظاهري المذهب في العبارات ، باطني النظر في الاعتقادات ، برع في علم التصوف ، وله فيه مصنفات كثيرة ، ولقي جماعة من العلماء والمتعبدين ، وله توسعة في الكلام ، وذكاء وقوة خاطر ، وحافظة وتدقيق في التصوف ، وتواليفه جمة في العرفان ، ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس ، ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته ، فيرجى له الخير ، ومن تصانيفه : الفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلاهية والتنزلات الموصلية ، وفصوص الحكم ، (الإسراء إلى المقام الأسرى) نظما ونثرا ، تاج الرسائل ومنهاج الوسائل ، أسرار الخلوة ، الاتحاد العشقي ، الأزل ، ترجمان الأشواق ... وغيرها ، للمزيد أنظر : محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، د . ط ، بيروت ، د . ت ، مج : 3 ، ص : 435 . 436 . 437 .

التصوف ، وذكر عن هفواته الغبريني فقال فيه : " قد نقد عليه أهل الديار المصرية ما صدر عنه من المصادرات ، وعملوا على إراقة دمه كما أريق دم الحلاج* وأشباهه ، وكان الشفيع له في تلك القضية والمخلص له من تلك المحنة الشيخ " أبو الحسن علي بن أبي نصر فتح بن عبد الله البجائي رحمه الله ، مازال ساعيا في أمره ، ومظهرا من وجود التأويل في شأنه ما اقتضى الإعراض عن زلته ، والمسامحة في هفوته " [1] .

ومن أعلام التصوف الذين اشتهروا في مدينة تلمسان محمد بن إبراهيم الآبلي* ، وقد وصفه صاحب نيل الابتهاج بقوله : " أعلم خلق الله بفنون المعقول ، قال تلميذه الإمام

---

* **الحلاج** : ولد الحسين بن منصور الحلاج في منتصف القرن الثالث الهجري حوالي 244 هـ / 857 م ، وكانت وفاته عام 309 هـ / 922 م ، ولد ببلدة الطور بفارس في إيران ، وسمي بذلك لأنه ووالده كانا يعملان بصناعة النسيج (الحلج) أو لأنه كان يخرج الأسرار من صدور أصحابها ، وقد بدأت صلته بالتصوف على يد رجل صوفي هو سهل النستري ، وكان ميالا إلى الاتجاه الشيعي ، ويميز تصوفه الوحدة أو الاتحاد والحب الإلاهي .. للمزيد أنظر : فيصل بدير عون ، التصوف الإسلامي الطريق والرجال ، مكتبة سعيد رأفت ، د . ط ، جامعة عين شمس ، 1983 م ، ص : 61 وما بعدها.

[1] . محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، ص : 181 .

* موطنهم الأصلي في الأندلس بآبلة ، وهي عبارة عن تجمع لقرى عديدة في الشمال الغربي لمجريط (مدريد) ، وسقوط المدينة في القرن الخامس ، وخروجها عن فلك الحضارة الإسلامية كان سببا رئيسيا في فقداننا الكثير من أخبارها ، فليست لدينا معلومات عن البيت الآبلي تخص وضعه ، ووقت نزوحه منها ، فهل نزح أعلامه بعد سقوط المدينة مباشرة إلى تلمسان ، أم أنهم نزحوا إلى إحدى المدن الحصينة في الجنوب من الأندلس ، واستقروا بها مدة ، ومنها إلى تلمسان ، أم أنهم من المدجنين الذين بقوا في آبلة إلى غاية القرن السابع . ينظر : البيوتات الأندلسية ، ص : 188 . 189 . قال فيه ابن حجر رحمه الله : " ولد سنة 681 هـ وتفقه واشتغل فمهر في العلوم العقلية والآلية حتى فاق أقرانه في ذلك ، ثم أكرهه صاحب تلمسان على القيام بما كان أبوه فيه فكره ذلك ، وابس مسحا وتسحب في زي سائل ، وكان أبرع أهل عصره في فنون الحكمة ، أقام مدة بتونس يدرس ويفيد ، وأقام مدة ببجاية ، ثم عاد إلى تلمسان فقربه أبو عنان وقرأ عليه استمر بها حتى مات سنة 757 هـ أخذ عنه ابن خلدون . أنظر هذه التفاصيل في : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، د . ط ، بيروت ، 1993 م ، ج : 3 ، ص : 288 . 289 .

المقري : هو الإمام نسيج وحده ، ورحلة وقته في القيام على الفنون العقلية ، وإدراكه وصحة نظره ، قال ابن خلدون : أصله من الأندلس من أهل آبلة من بلاد الجوف ، انتقل منها أبوه وعمه فخدما يغمراسن صاحب تلمسان ، وتزوج أبوه بنت القاضي محمد بن غليون فولدت له شيخنا هذا " [1] .

كما كان لأسرة ابن الصقيل التي استقرت في تلمسان أثر على انتشار الفكر الصوفي بها ، ومن بين أفراد هذه الأسرة أبو زكريا يحي بن الصقيل ، وهو على حسب تعبير يحي بن خلدون " ولي ، فقيه ، زاهد ، ورع متبتل في العبادة ، لا يكاد يفارق القبور والمساجد توحشا من الخلق ، وكان محدثا حافظا ، له كرامات كثيرة ، واطلاعات صوفية ، قبره رحمه الله خارج باب العقبة " [2] .

ومنهم أيضا القاضي ابن الأزرق محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي الغرناطي، قاضي الجماعة بها ، الإمام العلامة يعرف بابن الأزرق ، أخذ عن الأستاذ إبراهيم بن الفتوح النحو والأصلين والفقه عن السرقسطي ، وأحمد بن أبي يحي الشريف التلمساني ، له بدائع السك في السياسة السلطانية ، روضة الأعلام ، شرح مختصر خليل ،

---

[1] التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص : 411 . 412 ، وينظر ترجمته في ابن مريم ، البستان ، ص : 214 . 215 ، وذكر صاحب شجرة النور أن مولده 681 هـ وتوفي بفاس سنة 757 هـ ، محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، د . ط ، القاهرة ، 1349 هـ ، ص : 221 .

[2] . يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ص : 115 . 116 .

رحل إلى تلمسان لما استولى العدو على الأندلس ، ثم إلى المشرق ، وتوفي هناك بعد التسعين وثمانمائة (890 هـ)[1] .

ومن الأسماء اللامعين في التصوف في المغرب الأوسط أبو الحسن الششتري ، وأبو محمد بن سبعين * ، وكانا من نزلاء مدينة بجاية ، " ويرجع نسب الششتري (616 . 668 هـ) إلى مدينة ششتر من أعمال الأندلس ، وهو علي بن عبد الله المكنى بأبي الحسن المعروف بالنميري ، وعد رمزا من رموز التصوف الفلسفي على غرار ابن عربي " [2].

ويعد الششتري من الأعلام البارزين في عنوان الدراية ، إذ ذكره الغبرني من علماء بجاية، ووصفه بصفات بليغة منها قوله : " الشيخ الفقيه الصوفي الصالح العابد الأديب ، المتجرد أبو الحسن علي النميري الششتري من الطلبة المحصلين ، ومن الفقراء المتقطعين ، له

---

[1] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، ص : 349 . وزاد محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني في ذكر مناقب الرجل حيث قال فيه : : كان من المحققين ألف كتابه الذي أسماه بتحبير السياسة في تحرير الرياسة " جمع فيه بين سياسة الدين والدنيا ، وأتى فيه بأسلوب عجيب لم يؤلف في فنه مثله ، وفيه أقوى دليل على قوة ملكة مؤلفه وتحصيله واطلاعه " أنظر هذا القول في : محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق : محمد حجي ، ط : 2 ، الرباط ، 1977 م ، ص : 124 .

* جاء في ترجمته في شجرة النور الزكية قوله : وتلميذه المشهور علما وحالا من سادات الصوفية ، أبو الحسن علي الششتري ، توفي بالطينة من عمالة القدس سنة 668 هـ قال الشيخ زروق من جماعة بالقول بالحلول والظهور مع أنه كفر كالحلاج والعفيف التلمساني ، والششتري وابن عربي وابن الفارض وابن سبعين ، وآخرين ، والظن فيهم البراءة مما رموا به، ولكن ضاقت عليهم العبارة عن حقائق تصريح العلم ، ينظر : شجرة النور الزكية ، ص : 196 . ومم اتهمه بالزندقة والحلول أبو حيان الظاهري الأندلسي صاحب " البحر " و " النهر " فقد نسبه في النهر إلى القول بالحلول . للمزيد أنظر : عبد القادر التليدي ، المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، دار الأمان ، ط : 4 ، الرباط ، 2003 م ، ص : 127 وما بعدها .

[2] . محمد الشريف سيدي موسى ، بجاية الناصرية ، ص : 265 .

معرفة بالحكمة ، ومعرفة بطريق الصالحين الصوفية "[1] ، أما عن تصوفه فيذكر أن بعضا ممن زاروه " وجدوا الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم خلوة ، وجلسوا منتظرين إليه ، فلم يمكث قليلا ، إذ أقبل الشيخ على هيئة معتبرة متفكرا فلما دخل الرباط ، وسلم على الواصلين برسم الزيارة ، وحي المسجد ، وأقبل على الفقراء ، وأثر العبرة على وجنته فقال : إيتوني بمداد ، فلما أحضر بين يديه تأوه تأوها كاد أن يحرق بنفسه جلساءه ، وجعل يكتب في اللوح هذه الأبيات :

لا تلتف بالله يا ناظـــــــري لأهْيَفَ كالغصن الناضــر

يا قلب واصرف عنك وهم النقا وخل عن سرب حمى حاجر[2]

ومن مميزات شعره أنه يتضمن ثلاث معان : تغزل وهو أقل ما فيه وسلوك وهو مستوفي في بعضها وحقائق وتوحيد وفناء وهو باقيها . وله أشعار كثيرة في التصوف تبين معاني الحب لله تعالى لدرجة السكر " فيصرح بأنه نظر فلم يجد شيئا يستحق الحب سوى الله تعالى ، وأنه لولاه ما طاب الهوى لمن يهوي ، ويسترسل يرد على العاذلين ويناديهم بأنهم لو قدر لهم مشاهدة جمال الله مثل ما شاهد منه ما أنكروا عليه فيقول :

نظرت فلم أنظر سواك أحبه ولولاك ما طاب الهوى للذي يهوي

---

[1]. الغبريني ، عنوان الدراية ، ص : 210 .

[2]. المصدر نفسه ، ص : 211 .

ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضا وغيب ما قال الناس ضلت به الأهواء

لعمرك ما ضل الحبيب وما غوى ولكنهم لما عموا أخطأوا الفتوى [1]

أما ابن سبعين فذكر فيه صاحب شجرة النور أنه " العالم الصوفي الشهير الذكر توفي بمكة بمكة المشرفة في شوال سنة 667 هـ "[2] ، ويعد ابن سبعين من أشهر المتصوفة الأندلسيين الذين استقروا بمدينة بجاية ، والذي كان يفوق أقرانه علما وحكمة ، قال فيه صاحب نيل الابتهاج نصا جاء فيه : " الشيخ الفقيه الجليل العارف النبيل الفصيح ، له حكمة وعلم ، ومعرفة ونباهة ، وبلاغة ومشاركة في المنقول والمعقول ، أحد الفضلاء ، له أتباع كثيرة من الفقراء والعامة ، وموضوعات كثيرة موجودة بين أصحابه ، فيها ألغاز وإشارات بحروف أبجد ، وتسميات مخصوصة " [3] .

وقد ترك ابن سبعين مؤلفات كثيرة في التصوف تبين قدر الرجل في هذا الفن ، وبراعته فيه وتأثيره على الحياة الفكرية في بجاية ، " ومن أهم كتبه في التصوف كتاب " بد العارف " ، وقد تأثرت بجاية بتعاليم ابن سبعين الصوفية ، ثم أثرت هذه المدينة في إفريقية وبلاد المغرب " [4] .

[1] . عبد القادر التليدي ، المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، ص : 131 .

[2] . محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور ، ص : 196 .

[3] . التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص : 279 . 280 .

[4] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 257 .

ومن متصوفة مدينة تلمسان الصوفي الأندلسي ابن عباد الرندي ، ولد برندة من بلاد الأندلس وبها نشأ ، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وسبعامئة جمع القرآن وهو ابن سبع سنين ، ثم رحل لفاس وتلمسان وقرأ بهما الفقه والعربية والأصول ، ومما قيل فيه أنه له كلام عجيب في التصوف ، وصنف فيه ، وله فيه قلم انفرد به وسلم له فيه يسببه ، وكان يحضر السماع ليلة المولد لم يتزوج ، ولم يملك أمة ولباسه في داره مرقعة ومن شيوخه أبو عبد الله الشريف التلمساني صاحب مفتاح الوصول ، وله رسائل كبرى وصغرى في التوحيد والتصوف والسلوك وغير ذلك توفي سنة 792 هـ[1] .

وقد أخذ التصوف أبعادا أخرى في مدن بلاد المغرب الأوسط ، سواء ما تعلق بالتأثيرات الفكرية ، نتيجة تطور بعض العلوم التي لم تنتشر انتشارا واسعا من قبل كالمنطق والفلسفة ... وغيرها ، أو على المستوى المعماري ، إذ تفانى هؤلاء رغم بساطة حياتهم ، التي ألفوا أن يتعودوا عليها ، فرغم المعيشة المتطورة التي شهدتها حياة المسلمين في الأندلس ، والرخاء الاقتصادي ، والترف والبذخ الذي نعم فيه هؤلاء إلا أن الكثير منهم مل تلك الحياة التي آلت إلى ضنك المعيشة ، بانغماسهم في الملذات التي كانت سببا من أسباب زوال ملكهم في الأندلس ، فقد لاحظنا من خلال قراءتنا لنماذج من حياة أولئك المتصوفة حبهم للفقراء ، وابتعادهم عن اللهو والملذات ، حتى أن أكثرهم مال إلى تصنيف القصائد الشعرية الطوال في تبيان لذة المعيشة مع الفقراء والمساكين ، فكان لهذا المنهج أثره على حياة

[1] . عبد القادر التليدي ، المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، ص : 140 . 141 . 142 .

السكان في بجاية وتلمسان ، وأصبح هؤلاء المتصوفة الأندلسيين محط اهتمام وتقدير وتبجيل حتى بعد وفاتهم ، وقد " قطعت الحركة الصوفية ببجاية ، وفي سائر بلاد المغرب الإسلامي أشواطا بعيدة في القرن الثامن الهجري ، وأحرزت تقدما ملحوظا ، وهو ما أكده لنا الفيلسوف اللاهوتي ريمون لول (1233 . 1316 م) حينما ذكر جملة من الملاحظات عن الحياة الاجتماعية ببجاية أثناء زيارته الثانية لهذه المدينة سنة 1307 م ، فوجد فيها فريقا من العلماء المتصوفة يؤمنون بالتفكير الفلسفي والصوفي ، وفريقا آخر متشبثين بتعاليم أبي مدين شعيب الصوفي السني ، وفريقا آخر يتزعمه الفقهاء الميالون إلى تقليد الشيوخ " [1].

وعليه نستنتج أن ظاهرة التصوف ليست جديدة في بلاد المغرب ، بل قد عرفت قبل سقوط المدن الأندلسية لسنوات عديدة ، لكن الشيء الملاحظ أن هذه الظاهرة الاجتماعية والدينية قد أخذت أبعادا أخرى ، خاصة بعد الاجتياح الإسباني على الأندلس ، فالأندلسي الذي تربى في حياة الرفاهية والترف تعزف نفسه عن ملذات الحياة ، ويزهد عن ما فيها من نعيم ، بل ويؤثر بأفكاره في المناطق التي يتواجد بها ، فتأثر بهم المجتمع المغربي تأثيرا بالغا ، وهذا راجع بالدرجة الأولى لعلمهم الذي كانوا يلقنونه لأبناء المنطقة ، وهكذا أصبح التصوف الأندلسي ظاهرة متفشية في مدن المغرب الأوسط والفضل عائد إلى أولئك المتصوفة الأندلسيين الذين عملوا على نشر أفكارهم في المنطقة .

[1] . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية ، ص : 260 . 261 .

المبحث الثاني : آثار سقوط الأندلس على الحياة العمرانية والفنية في بلاد المغرب الأوسط :

1 . مظاهر التأثير الأندلسي في الفن العمراني بالمغرب الأوسط :

يعتبر فن العمارة الأندلسية من أهم الفنون الإسلامية في العصور الوسطى ، فبالإضافة لكون المنشآت المعمارية . كالمساجد والمدارس والزوايا . ضرورة حضارية من أجل خدمة الثقافة الإسلامية ، دينيا وفكريا ، فإن الأندلسيين أبدعوا فيها ، فصنعت أناملهم في الأندلس أروع المنشآت العمرانية التي مازال الكثير منها خالدا ، معبرا عن روعة وجمال صنعها ، ولما سقطت المدن الأندلسية الكبرى ، تعرضت مختلف العمائر الإسلامية للطمس والتنصير، والهدم ، وقد حاول الأندلسيون . وخاصة المعماريون منهم . بعد ترحيلهم من الأندلس أن يعيدوا بعضا من تلك المنشآت في المغرب الأوسط ، فكانت لهم بعض البصمات في تطوير العمران الإسلامي الديني والمدني في المنطقة .

1 . 1 . المباني الدينية :

أ . المساجد :

إن تأثيرات الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب الأوسط لم تكن في سنة معينة ، أو عصر معين ، وإنما هو امتداد تاريخي لقرون من العطاء الناجم عن العلاقة الطيبة التي

كانت تربط بين البلدين ، ففي العصر المرابطي مثلا ظهرت بصمة الفن المعماري الأندلسي على بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص ، " وقد تجلت روائع الفن المغربي الأندلسي في عصر المرابطين في الأبنية الدينية مثل جامع القرويين بفاس ، وجامع تلمسان ، وجامع الجزائر فضلا عن قبة البروديين في مراكش "[1] .

ويعتبر المسجد الجامع بمدينة تلمسان إحدى روائع الفن المعماري في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن السادس الهجري ، وقد " قام بتشييده المرابطون في مدينة تلمسان سنة 473 هـ / 1080 م ، ورمم هذا المسجد ، وقام بتزيينه الأمير علي بن يوسف (500 . 537 هـ) ، وأدخل عليه مسحة معمارية أندلسية ، وجلب له المهندسين والفنانين من الأندلس حتى صار تحفة فنية رائعة " [2] .

أما عن وصف هذا المسجد فإنه يبرز لنا ملامح التأثير الأندلسي ، " فهو بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب 60 م ومن الشرق إلى الغرب 50 م ، الصحن مربع الشكل تقريبا ، على جانبيه من الجهة الشمالية دهليزان تقطعهما مئذنة مربعة ، وقد أنشئت هذه المئذنة بعد بناء المسجد بسبعين عاما ، ويحيط ببيت الصلاة من الجهتين الشرقية والغربية مجنبتان ، المجنبة الشرقية تتألف من ثلاث بلاطات تعتبر امتدادا لبلاطات بيت

---

[1] . حمدي عبد المنعم ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، 1997 م ، ص : 363 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 97 .

الصلاة ، والمجنبة الغربية تتألف من أربع بلاطات " [1] ، أما عن التأثير الأندلسي في هذا المسجد فيتجلى في الزخارف التي تزين مقصورة محرابه ، إذ " تعتبر مقصورة محراب المسجد الجامع بتلمسان تحفة زخرفية رائعة الجمال ، تفوق زخارفها كل زخرفة مغربية في ذلك العصر مما يشهد انحداره من أصل أندلسي ، وقد قلد عرفاء جامع تلمسان المسجد الجامع بقرطبة* تقليدا مباشرا في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحراب بتلمسان، ولا يقف تأثير قرطبة في جامع تلمسان إلى هذا الحد ، فسقف المسجد خشبي مسطح يعلو سطح الشكل أو مسنم على النحو المتبع في المسجد الجامع بقرطبة ، كما أن البلاطة الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان يعلوهما جوسقان من الخارج واحدة منها تقع على الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى، أي في نفس الموضع تقريبا الذي تقوم عليه القبة المخرمة الكبرى المسماة بقبة فيلا فسيوسا بجامع قرطبة " [2] ، وقبة هذا الجامع فيها من الشبه الكثير بقبة جامع قرطبة ، " إذ تبدو القبة من الخارج على مظهر مغاير تماما لأشكال القباب الأخرى ، فهي مغطاة بالقرميد على

---

[1] . حمدي عبد المنعم ، المرجع السابق ، ص : 367 .

* يعتبر جامع قرطبة من أهم المساجد التي أسست في الأندلس ، وهو من أعظمها ، ويعد من أروع التحف الفنية في العمارة الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط ، وقد نال اهتماما كبيرا من قبل مؤرخي المغرب والأندلس لما اشتمل عليه من أساليب العمارة الأندلسية ، وقد حافظ جامع قرطبة على شكله هذا طيلة العصر الإسلامي ، ولم يشهد أي تغيير في نظام هندسة بنائه سوى الترميمات ، وبعض الإصلاحات الضرورية في عصري المرابطين والموحدين ، ولكن سقوط قرطبة على يد الملك فرناندو الثالث ملك قشتالة عام 1236 م تحول هذا المسجد الجامع إلى كنيسة حملت اسم (سانتا ماريا) . أنظر : وديع أبو زيدون ، تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة ، مراجعة : هاني الجمل ، دار الأهلية ، ط : 4 ، بيروت ، 2011 م ، ص ص : 330 . 332 .

[2] . حمدي عبد المنعم ، المرجع السابق ، ص : 368 .

أوجهها الأربعة ، لكن هي في الحقيقة قبة ذات ضلوع من الآجر تحاكي قبة جامع قرطبة ، ومسجد باب المردوم بالأندلس ، " [1].

كما أن أعمدة الجامع الكبير بتلمسان شهدت تأثيرا أندلسيا واضحا ، " فنموذجا تلمسان اللذان ما يزالان يحملان التاج المزدوج للأقنثة واللذان يشبهان الأجنحة الشرقية لقرطبة على التطور الكبير للحافة العليا لكأس التاج الذي يستعد ليصبح عمامة النقش ، هناك أمر واحد يفرق بينهما ، وبين تيجان أعمدة قرطبة وهو متوازي السطوح الموصول بالأقراص الزاوية للأول ، والزخرفات الحلزونية " [2] ، والشيء الذي يربط بين الفن المغربي والأندلسي هو شكل الأعمدة التي هي مستوحاة من الفن المعماري الموريسكي ، فأصول تيجان الأعمدة التلمسانية يعود إلى طريقة بناء الأندلسيين لتلك التحف المعمارية ، " وعليه أصبحت هذه الثنية العمودية الكبيرة العنصر الأساسي في تاج العمود الموريسكي ، ويمكن كما هو الحال في ساحة الأسود بقصر الحمراء أن ينكسر شكلها فتصبح تشبيكات ، وهي تشكل لوحدها تاج العمود في الأجزاء العلوية لسانت ماريا لابلانش بطليطلة " [3] .

---

[1] . عبد الكريم عزوق ، القباب والمآذن في العمارة الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 م ، ص : 15 .

[2] . ويليم وجوجرج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ص : 189 . 190 .

[3] . ويليم وجوجرج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ص : 91 ، ولملاحظة هذه التيجان التلمسانية أنظر صورها في الملحق رقم 12 في آخر هذا البحث .

أما عن مئذنة هذا الجامع فهي شبيهة بمآذن الأندلس حيث " قام السلطان يغمراسن بتشييد مئذنة هذا المسجد التي ظلت شامخة تزين سماء تلمسان وعمرانها إلى جانب أختها بالمسجد الجامع بتلمسان العليا (تاكرارن) ، وكانت الأولى قد بنيت قاعدتها بالحجر المنقوش ، المجلوب من بقايا مدينة بوماريا الرومانية ، بينما استكمل بناء الجزء الأعلى منها بالآجر الأحمر ، وكانت هندسة الصومعة وزخرفتها متأثرة بالفن المعماري الأندلسي وزخرفته "[1] ، كما أن شكل المآذن قد تأثر بالفن المعماري الأندلسي ، فمئذنة جامع المنصورة مثلا " تأثرت بنظائرها في مئذنة جامع الموحدين بإشبيلية "[2] .

ومن المعالم الأثرية في مدينة تلمسان جامع سيدي بلحسن الذي يحتوي على عناصر معمارية تطابق الفن المعماري الأندلسي الذي يؤكد على أهمية الوجود الأندلسي في عصر دولة بني عبد الواد في مدينة تلمسان ، فإن هذا المعلم التاريخي " يشبه كثيرا القصور الإسبانية ، حيث أن زخرفته النقشية والزهرية تدلان على قرابتها الجلية ، وتنطلق قبة المقرنصات من مستوى مثمن الزوايا لتصل إلى قبيبة فوقانية لها ستة عشر أخدودا ، إنها تشبه كثيرا قبب معالم غرناطة وإشبيلية ، كما أن الزخرفة الزهرية هي التي تظهر بجلاء التشابه الواضح بين مسجدنا الصغير والمعالم الأندلسية "[3] .

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 109 .

[2] . عبد الكريم عزوق ، القباب والمآذن في العمارة الإسلامية ، ص : 67 .

[3] . ويليم وجوجرج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ص: 224 وما بعدها .

ب . **الزوايا** :

كان للمتصوفة الأندلسيين أثر على الحياة العمرانية في بلاد المغرب الأوسط ، فقد كان لهم في ذلك جهد في البناء والتعمير ، وإن كان بسيطا لبساطة معيشتهم ، وابتعادهم عن الرفاهية والترف ، إلا أن سبب اجتهادهم يعود بالدرجة الأولى إلى خدمة الحياة الفكرية بالمنطقة التي استقروا فيها ، فقد شهد المغرب الأوسط بجهود هؤلاء المتصوفة الأندلسيين أشكالا عمرانية تمثلت في الزوايا ودور العلم ، " فقد عمل المتصوفة الأندلسيون على إنشاء الزوايا * ومعاهد العلم ، وهذا ما زاد من تقدير السكان لهم ، وأكسبهم أتباعا من مختلف

* **الزوايا** : مفرد زاوية ، لغة من الإنزواء ، ومعناه الانعزال والخلوة ، أما في اصطلاح الشرع ، فهي مؤسسة ينزوي فيها المرء إلى نفسه ، ويختلي بها لأداء العبادات التي تظهرها من الأذان ، كما تطلق في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية ، أو ضريح لأحد الأولياء ، تتصاب ها غالبا مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة ، أو قرابة بالولي ، وكثيرا ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم . وهي أيضا تعني طريقة أو تشير إلى تجمع الإخوان كما تعرف في أماكن أخرى بالمذهب الصوفي ، فالزاوية هي الهيكل الاجتماعي للإخوان المعبر عن مذهبهم ، وهي الطريقة بما تشمله من طقوس يمارسها الأعضاء في البناء الكلي ، والزاوية بهذا المعنى كما ذكر جرتس تؤهل لوجود حياة دينية اجتماعية متكاملة ، فهي بمثابة البيت الأساسي للفرد حين الخروج من بيته ، لذا فالحياة الاجتماعية للزاوية تفوق الحياة الأسرية لما لها من وظائف دينية واقتصادية واجتماعية تتمثل في المساعدات المختلفة (مادية . اجتماعية . صحية . تعليمية) ، وتقديم الهدايا والخدمات في مختلف المناسبات ، ويطلق على الزوايا في الشرق الرباط أو الخانقاة . أنظر : ديب صفية ، التعليم في دولة الموحدين ، ص : 253 ، منال عبد المنعم السيد جاد الله ، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها ، دراسة أنثربولوجية في مصر والمغرب ، رسالة دكتوراه ، إشراف : أ . د . فاروق أحمد مصطفى ، جامعة الاسكندرية ، 1990 م ، ص : 127 .

فئات السكان " [1] ، ومن العلماء الأندلسيين المتصوفين الذين قاموا بتأسيس زوايا في بلاد المغرب الأوسط الصوفي أبو الفضل قاسم بن محمد القرطبي ، فقد أسس زاوية في مدينة بجاية " التي كان يعتمد فيها الطلبة والمريدون على إعالة أنفسهم بأنفسهم من خلال الخروج للصيد في البحر بمعية شيخهم " [2] .

أما تلمسان فقد اشتهرت بزاوية أبي مدين التي تطورت فيما بعد إلى مدرسة ، ومن أهم التأثيرات الأندلسية التي مست هذا المعلم العمراني " من خلال بروز النقوش ، وانحناء بعض الزخارف التقليدية ، ووجود بعض العناصر النباتية أما شبكة المعينات ، فقد تم استبدال تراكب السعفة المستعملة في الزخارف التلمسانية بمنظر جانبي لناتئات تذكرنا بزخرفة لوحات الجبهة المجوفة في " الحمراء " و " القصر " ، وأما الزخرفة النباتية فتستعين بالسعفة القرنفلية ، والسعفة المتعرقة المتبوعتين دائما بساقيهما ، كما تستعين أيضا بالسعفة المزخرفة بالغصنيات الموجودة غالبا في سيدي بلحسن وقصور إسبانيا "[3] .

أما عن التأثير الأندلسي الذي مس هذا الجانب المعماري أيضا فهو ما تعلق بالكتابات التذكارية الأثرية ، التي طبعت بطبعة أندلسية ، فيوجد " إفريز خشبي يسري تحت القبة

---

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 61 .

[2] . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر ، ص : 223 .

[3] . ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية ، ص : 385 . أما عن الزخرفة النباتية ، وكيفية تفنن الأندلسيين في تشكيلاتها المختلفة ، أنظر نموذج المسجد الكبير بتلمسان في : باسيليو بابون مالدونادو ، الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة النباتية ، ترجمة : علي إبراهيم منوفي ، مراجعة : محمد حمزة الحداد ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط : 1 ، القاهرة ، 2002 م ، ص : 293 .

يحمل كتابة شعرية منقوشة بالخط الأندلسي في مدح المؤسس : الحمد لله رب العالمين ، أسس هذا البنيان لعبادة الله تعالى في ظل دين الإسلام أمير المؤمنين أبو الحسن الذي فاقت أخلاقه وصفاته مدائح الشعراء وثناءهم ، إمام يعجز عن وصف مزاياه إذا ما تأملنا ما قدمه لدينه ابن أبي سعيد صاحب المنازل الرفيعة لقد أمتع بهذا البناء عيون الرجال سماه ربه عليا ورباه حقا في الصفوف العلية ومنحه اليقين في الإيمان لقد هيأه لإظهار عظمة دينه بأعمال البر والدين سيكون له عماد شهر ربيع الثاني من عام سبعمائة وسبعة وأربعين .. "[1] .

وهناك مزار آخر في تلمسان تتجلى فيه بعض المظاهر الأندلسية ، ويسمى مزار سيدي أبي إسحاق الطيار الذي يعود تاريخه إلى بداية القرن الرابع عشر ، ومن تلك اللمسات الأندلسية أن " الواجهة الخارجية لبائكة العقود المنكسرة تزين بسلسلة متوالية جميلة جدا من قصاصات زهرية وشبكية تذكرنا بالعهد الجميل للفن الموريسكي " [2] .

1 . 2 . المبادي المدنية :

تأثرت مباني مدن بلاد المغرب الأوسط بالفن المعماري الأندلسي ، وقد تطور عمران المدن بأحيائها وقصورها بدخول المهاجرين الأندلسيين إليها ، فاستفادت الجزائر من خبرتهم في البناء والتعمير إذ " هاجر الأندلسيون إلى الجزائر ، وجلبوا معهم صناعة البناء ، فكان

[1] . ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية ، ص : 385 .

[2] . نفسه ، ص : 394 .

تأثيرهم عظيما ، ولاسيما في القلاع والقصور " [1] . ويذكر أحمد توفيق المدني الأثر العمراني الذي نتج عن إنقاذ حكام الجزائر للمسلمين الأندلسيين وإسكانهم بالمنطقة فيقول : " بينما كان أهل المدينة العتيقة ورجال الأندلس . الذين حلوا بها قديما وحديثا . يجددون بناء العاصمة ، ويرفعون فيها جدران القصور والبيوت الفخمة ذات الفن المعماري البديع ، ويكثرون من بناء المساجد الفخمة لله "[2] .

ومدينة الجزائر من مدن المغرب الأوسط التي تأثرت بالفن العمراني الأندلسي نتيجة الهجرة إليها بعد سقوط غرناطة ، وحسب الدارسين لعمران هذه المدينة ، وجدوا أن بها عدة أبواب " وهي كبيرة الحجم ، متقنة الصنع ، ومرصعة بالحديد ، تغلق قبل غروب الشمس ، وتفتح بعد طلوعها ، ومن بينها : باب عزون ، باب الوادي ، باب الدزيرة ، باب الديوانة ، باب الجديد " [3] ، والملفت للنظر من خلال تسميات هذه الأبواب أن هناك علاقة بين أسماء هذه الأبواب مع أسماء بعض أبواب المدن الأندلسية ، ولا شك أنه كان لتأثير سقوطها أثر واضح على نفسية الإنسان المغربي الذي حاول الاحتفاظ بالتراث الأندلسي العمراني في بلاد المغرب الأوسط " فالهجرة الجماعية الأندلسية إلى الجزائر منذ ما قبل سقوط غرناطة وبعدها

---

[1] . أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج : 2 من 1500 إلى 1830 م ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، 1998 م ، ج : 2 ، ص : 446 .

[2] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ، ص : 209 .

3 . بوزينة سعيد ، المنشآت الدينية المؤرخة بالكتابات التأسيسية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني دراسة تاريخية معمارية ، مذكرة ماجستير في الآثار العثمانية ، إشراف الدكتورة : بن بلة خيرة ، السنة الجامعية : 2009 . 2010 ، ص : 21 .

أدى إلى التأثير في التطابق المعماري خاصة في البناءات بما فيها العمومية ، لذلك لا يكون من باب الصدفة أن للباب الجديد وباب الوادي وباب الدزيرة نفس الأسماء في قصبات قرطبة في القرن العاشر ميلادي والمرية ومالقة اللتين توجد بينهما وبين مدينة الجزائر عمومة عمرانية معمارية ملفتة للانتباه " [1] .

فباطلاعنا على الأحوال العمرانية في مدينة قرطبة يتبين أن لها عدة أبواب كذلك ، كما لمدينة الجزائر في بلاد المغرب الأوسط ، والشيء الرابط بين المدينتين هو تسمية تلك الأبواب ، " فكان سور مدينة قرطبة الوسطى على شكل متوازي الأضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلومترات ، كما أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب أهمها : الباب الجنوبي المعروف بباب القنطرة ، لأنه يؤدي إلى قنطرة قرطبة المقامة فوق الوادي الكبير ، وكذلك يسمى باب الوادي الكبير ، ويطلق عليه أيضا باب الجزيرة لاتجاهه نحو هذه المدينة ، وينفتح في السور الشرقي بابان وهما : الجنوبي وهو الباب الجديد ، ويقع قرب النهر ، ويعرف هذا الباب باسم باب سرقسطة " [2] .

كما شهدت هذه المدينة نموا ديموغرافيا عاليا بدخول جماعات كثيرة من الأندلسيين إلى المدينة ، " ففي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد زادت ضرورة التوسع العمراني مرة أخرى، وزادت حاجة الحضر إلى المساكن ، واختار الأندلسيون المواضع العالية من القصبة التي

---

[1] . بوزينة سعيد ، المرجع السابق ، ص : 22 .

[2] . وديع أبو زيدون ، تاريخ الأندلس ، ص : 245 . 246 .

يظهر منها البحر جيدا ، وبذلك اشتد ازدحام المباني فوق الأرداف ومتون الروابي وبطون المسيلات ، ورفعت المنازل فوق السفوح ، وفي مواضع الحدائق ، ولا شك أن منازل متون الروابي ظلت تحتل الميزة المطلوبة والقيمة المرتفعة لدى السكان نظرا لموقعها المشمس والجميل ، إذ من شبابيكها المطلة على البحر يمكن الإشراف على مساحة واسعة من البحر والبر ورؤية القادمين من بعيد "[1] .

ويذهب إلى نفس الرأي في موضع آخر حين يتحدث عن الحاجة الماسة إلى البناء والتعمير بعد سقوط الأندلس ، وهجرة الأندلسيين إلى المدينة ، حيث يقول : " وكانت لهجرتهم أثرها الواضح على عمران المدينة ، حيث زادوا من عدد سكانها ، ونقلوا إليها على أكتافهم ما وصلوا إليه من تطور حضاري في العمارة والتنظيم العمراني بصفة عامة من شبه جزيرة إيبيريا "[2] .

أما عن تطور العمران بالمدن الغربية فقد شهدت العديد من المدن لمسات معمارية أندلسية ، صنعتها أنامل أندلسية وبرعت في إتقانها ، ومن تلك الجهود " مساهمة الأندلسيين في توسيع عمران مدينتي هنين ومستغانم "[3] .

---

[1] . عبد القادر حليمي ، أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر ، ص : 80 . 81 .

[2] . عبد القادر حليمي ، أصول النشأة لمدينة الجزائر ، ص : 105 .

[3] - Moulay Blehamissi , Histoire de la marine algeriènne (1516 _ 1830) , Alger , ENAL , 2 ème ed , 1986 , p : 53 .

أما مدينة تلمسان فكانت تشبه غرناطة في قصورها ودورها ، إذ لعب ملوكها دورا في تحقيق هذا التأثير المعماري ، واستفادوا من المهاجرين الأندلسيين وخاصة منهم المهندسين بعد سقوط العديد من المدن الأندلسية في يد الاستعمار الاسباني ، فشكلوا طبقة هامة من الحرفيين استفادت منهم تلمسان وضواحيها في المجال العمراني استفادة عظيمة ، حتى أن اهتمام ملوك تلمسان بالفن الأندلسي جعلهم يقربون المهندسين الأندلسيين ويوظفونهم في هذا المجال ، فقد استجلبوهم لما سمعوا وعرفوا عن المنطقة وما شهدته من رقي عمراني خلال الفترات التاريخية التي مرت بها ، فغدا تأثيرهم العمراني واضحا على قصور الزيانيين ومساكنهم ، حفاظا للتراث الأندلسي من الضياع ، واهتماما بالفن العمراني الأندلسي ، وخير ما نستدل به على اهتمام الزيانيين بصقل الفن العمراني الأندلسي على المنشآت العمرانية الزيانية ما ذكره ابن خلدون في كتابه العبر حينما ذكر مدينة تلمسان في عهد السلطان أبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين منوها في ذلك إلى علاقتهما بالأندلس ، ومدى تأثير هذه الحضارة على الرجلين لدرجة أنهما استقبلا الصناع والمهنيين الأندلسيين لاستغلالهم في البناء والتشييد المعماري في تلمسان حيث يقول : " كانت لا يعبر عن حسنها ، واختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين ، واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان ، فبعث إليها السلطان أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستحاثوا لهم القصور والمنازل والبساتين

بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله " [1]. أما ما يتعلق ببناء القصور في مدينة تلمسان، فقد شهدت هذه المدينة هذا النوع من العمران أيضا وخاصة في العهد الزياني ، ومنها قصر المشور الذي بناه السلطان يغمراسن ، وإن كان البناء مغربي النشأة ، إلا أنه متأثر أشد التأثير بالفن المعماري الأندلسي ، ولا شك في أن هذا السلطان قام بتوظيف الأندلسيين الوافدين إلى المدينة من النحاتين والبنائين وغيرهم من الصناع ، فهذا القصر يتميز " بشكله وسعته ومحتواه ، حيث كان مزينا بالرخام والفسيفساء الملونة التي تكسو قاعته وجدرانه ، مبلط بالجبس الأنيق ، والسقوف الخشبية المدهونة والثريات النحاسية الفخمة التي تحمل قناديل الزيت والشموع ، وكانت أرض القصر السلطاني في معظمها مبلطة بالزليج الملون ، وتتخلل القصر أحواض من الزهور والأشجار المثمرة ونافورات المياه ، كما هو الشأن في القصور السلطانية بفاس وغرناطة وتونس ، فهو معلم من المعالم العمرانية الزيانية الرائعة المتأثرة مما لا شك فيه بالهندسة المعمارية الأندلسية " [2] .

وكان أبو تاشفين من المولعين بالفن المعماري الأندلسي لذلك كان للأندلسيين المقيمين في مدينة تلمسان دور في تطوير عمرانها فكان " مولعا بتحبير الدور ، وتشييد القصور ، وبناء المصانع ، وغرس الرياض والبساتين ، وإنشاء المنتزهات ، وقد صخر أبو تاشفين لهذه النهضة العمرانية طاقة كبيرة من اليد العاملة الفنية من أهل الأندلس ، ومن الأسرى

[1] . ابن خلدون ، العبر ، ج : 3 ، ص : 400 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 115 .

والنصارى والسجناء الذين كانوا يعدون بالآلاف في عهده ، فكان منهم النجارون والبناؤون والزليجيون والزواقون حتى خلد بهم آثارا عمرانية متميزة " [1] .

هذا بالإضافة إلى دور النصارى المهندسين الذين استقدمتهم الدولة الزيانية في ذلك العهد مما جعل أواصر الصلة الأثرية بين غرناطة وتلمسان جد واضحة في عمائرها الدينية والمدنية ، إذ يشير بعض المؤرخين إلى ذلك بقوله أن : " أبا تاشفين قد استخدم في تشييد بنايات فخمة مكلفة آلاف العبيد المسيحيين من مهندسين معماريين وبنائين وخزافين ومذهبين ودهانين "[2] . وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون اهتمام أبي تاشفين بالصناع النصارى ، وتوظيفهم في التعمير والبناء فيقول : " وكان رحمه الله جانحا إلى اللذات ممتعا بالنعيم العاجل ، مغتبطا بلهو الدنيا ولعبها ، ولع ببناء الدور وتحبير القصور ، وتشييد المصانع ، واغتراس المنتزهات ، مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم بين نجارين وبنائين وزليجيين وزواقين وغير ذلك ، فخلد آثارا لم تكن قبله لملك ، ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير ، كدار الملك ودار السرور وأبي فهر وسواها " [3] .

وما يقال على ابن تاشفين يصدق على الملوك الزيانيين الآخرين الذين اهتموا بالقضية الأندلسية أشد الاهتمام ، " ففي القرن الخامس عشر الميلادي ، عندما تدفق سيل المهاجرين

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج : 1 ، ص : 116 . 117 .

[2] .. ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ص : 55 .

[3] . يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ص : 216 .

الأندلسيين على سواحلنا ، أعان ملوك بني زيان على بناء بلدة بالمرسى الكبير ، سكنها المهاجرون الأندلسيون إلى جانب العرب من أهل تلك الناحية ، وأصبحت البلدة ومرساها مركزا من أهم مراكز القرصنة الإسلامية ضد السفن المسيحية التابعة للأعداء " [1].

وقد أحضر المسلمون الأندلسيون معهم إلى مدن المغرب الأوسط النمط المعماري ، " فأتوا معهم بالأموال وبذوقهم الأندلسي وميولهم ، فدعموا اللون الأندلسي للعمارة والحضارة المغربية في ذلك الوقت "[2] ، أما ما يتعلق بالزخرفة في مدينة تلمسان فهي كذلك ذات لمسة أندلسية ، فكان للمهاجرين الأندلسيين دور في نقل الزخرفة الأندلسية إلى هذه المدينة ، ومنها الفسيفساء الأندلسية وإن كانت " أكثر ندرة في تلمسان ، وتبدو أنها ظهرت فيها في وقت متأخر ، ونلاحظ مع ذلك بعض الأمثلة عن هذه التلبيسات ذات الزخرفة الهندسية الموجودة في الأندلس " [3] .

ويضاف إلى ذلك ما عرفته بيوت تلمسان من تطور في البناء والتعمير ، حيث أصبحت المنازل عالية ، وأسقفها مغطاة بالقرميد ، " فيشير الحسن الوزان إلى منازل الأغنياء خارج المدينة فيقول بها مباني في الأناقة ، ومن ينعمون بأكبر متعة ، وأما المدن الأخرى مثل هنين فبيوتها جميلة ، لكل بيت مشربة بالماء العذب ، وصحنه المزين بحاملات الكروم ،

---

[1] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، ص : 91 . 92 .

[2] . جلال يحي ، تاريخ المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د . ط ، 1981 م ، ص : 19 .

[3] . ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ص : 101 .

وكانت المنازل مبلطة ببلاط ملون ، وسطوح الغرف مبلطة بنفس الشيء ، والجدران مكسوة بالفسيفساء ، وبيوت مليانة متقنة في داخلها فسقيات جميلة " [1] ، ومن خلال هذا الوصف يتبين مدى التطور العمراني الذي وصلت إليه مدينة تلمسان وما جاورها من المدن الغربية الأخرى للمغرب الأوسط ، وهي من الأوصاف التي تشبه لحد ما العمائر المدنية في الأندلس ، " فاستعمال البلاط الملون في سطح الغرف والجدران يجعلنا نعتقد أن تبليطها كان من عمل الجاليات الأجنبية لقرب المسافة بين هنين وأوربا خاصة الأندلس التي توافد تجارها عليها " [2].

وعليه أصبحت بيوت تلمسان وقصورها ودورها تتشابه من حيث البناء والتزيين بالعمائر الأندلسية ، وأن هذا التشابه عمل على تحقيقه الصناع والحرفيون والمهندسون والبناؤون الأندلسيون الذين توافدوا على المغرب الأوسط بأعداد كبيرة ، خاصة بعد سقوط غرناطة ، التي أثرت في رحيل أصحاب الحرف إلى هذه المدن ، وكذا تتابع هذا التأثير بما قام به النصارى المسيحيون الذين أخذوا كأسرى الحروب التي دارت بين الجيش الإسلامي الذي شارك في نصرة المسلمين في الأندلس على الحدود الجنوبية لغرناطة ، أو بعد احتلال الجزائر من طرف إسبانيا ، فأصبحت منازل المغرب الأوسط وخاصة منها تلمسان " لا تختلف من حيث الشكل ونمط البناء عن منازل وقصور مدن المغرب الأقصى وإفريقية

---

[1] . الحسن الوزان ، وصف إفريقية ، ج : 2 ، ص : 15 .

[2] . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ج : 3 ، ص : 112 .

المغربية والأندلسية ، وتتشابه فيما بينها من حيث التصميم والزخرفة " [1] ، وعليه أضحت تلمسان قوة حضارية في العهد الزياني استطاع حكامها أن يحافظوا على الموروث الحضاري الأندلسي ، بإنشائهم لهذه العمائر التي تدل على مدى اهتمامهم بالقضية الأندلسية ، " وفي السنوات الأولى من القرن السادس عشر كانت مملكة تلمسان تضم اثني عشر ألف منزل والعديد من القصور وحمامات ومساجد وعدد كبير من الفنادق مخصصة للتجار الذين يقومون بالتجارة في هذا البلد حيث كانت هناك علاقات ودية تربط تربط بين ملوك أراغون وبني زيان "[2] .

وكان للأندلسيين الفضل في إنشاء مدن وأحياء جديدة في المغرب الأوسط ، نتيجة ازدياد أعدادهم بعد الهجرة الاضطرارية عام 1492 ومن بين " المراكز العمرانية التي أنشئت من طرف الأندلسيين مدينة القليعة ومدينة البليدة* التي أسست على يد سيدي أحمد الكبير عام 942 هـ / 1535 م بمحاذاة مدينة خزرونة القديمة ، بعد أن أقطع خير الدين بربروسة أراضيها للأندلسيين الذين بادروا ببناء حمام ومخبز ومسجد لا زال يعرف حتى اليوم بجامع

---

[1] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ج : 1 ، ص : 119 .

[2] - F . Elie de la primaudie , Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquète Française , Juin , 1860 , p : 271 _ 273 .

* البليدة : مدينة حديثة العهد لم يشر إليها البكري ولا الإدريسي ولا ابن خلدون ، وقد أخطأ الرحالة الإنجليزي (Shaw) عندما قال هي" بيداكولنيا " (Bida Colonia) ، وتحدث القدماء عن خزونة ومتيجة التي خر لها بنو غانية 623 هـ ، وقيل أن مؤسسها هو خير الدين باشا ، وقيل بل هو سيدي أحمد الكبير ، وكانت أيام الأتراك . أنظر : مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د . ط ، الجزائر ، 1979 م ، ص : 171 .

الترك " [1] ، وعليه كان لهذا الأندلسي الغرناطي الفضل في إعمار هذه المدينة " التي لم تكن في عام 921 هـ / 1515 م سوى دشرة من إحدى عشر كوخا في مكان يدعى سيدي علي . مكان السوق الأوروبي . وكانت تحيط به بساتين من أشجار التين اللوز والرمان تشكو الجفاف ، وكانت تسكن بها عشيرتان هما حجار سيدي علي وأولاد سلطان ، وقد ارتاح سيدي أحمد الكبير للمكان خاصة بعد اكتشافه لمنبع الماء ، وبعد عشر سنوات من استقراره في المنطقة تنقلت مجموعة من الأندلسيين إلى السواحل الجزائرية ، وقرروا استقرارهم بالقرب من سيدي الكبير لذيوع فضله وكرامته "[2] .

أما الأحياء السكنية الجديدة فقد تركزت في المدن الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وقد اختاروا هذه المناطق للاستيطان إما لنشاطهم التجاري ، أو لقربهم من العدوة الأندلسية ، إذ لطالما اعتبر الأندلسيون أنفسهم في هجرة مؤقتة ، وعملوا جاهدين على تحقيق العودة إلى الأندلس وما المشاركات العسكرية التي قاموا بها في الجزائر للدفاع عن أرضها ضد الإسبان إلا تتمة لإعادة الفتح الإسلامي في المنطقة ، ومن بين تلك المدن " عنابة التي استوطنها عدد كبير من الأندلسيين وانتشروا خارجها ، وكذلك أرزيو ومستغانم وتلمسان حيث تجمعوا بها في أحياء خاصة بهم ، وعندما ضاقت بهم تلك المدن أنشأوا

---

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، مظاهر التأثير الأندلسي والوجود الإيبيري بالجزائر ، ص : 27 .

[2] . سعاد بن شامة ، المنشآت المعمارية الأثرية بمدينة البليدة في العهد العثماني ، رسالة ماجستير ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، 2009 م ، ص : 43 وما بعدها .

بجوارها القرى والمستوطنات التي لازال البعض منها يحمل أسماء أندلسية مثل قرية الأندلس الواقعة غرب مدينة وهران "[1] .

ونذكر عن أثر سقوط الأندلس أن المغرب الأوسط ، لجأ إليه اليهود من تلك المنطقة ، كما أشرت سابقا ، وقد كان لهم أثر على الحياة العمرانية ، خاصة بعد أن سمح لهم بالاستقرار ، وامتهان حرفهم وصناعاتهم ، وعليه فقد كان لهؤلاء اليهود مساكن وبيع في المنطقة ، وخاصة في تلمسان ، وكانت لهم " حومة وبيع تقع بوسط المدينة ، حيث توجد أسواق الصاغة ، وهي الحومة الأكثر كثافة بالسكان ، حيث كانت تضم نحو خمسمائة دار لليهود كلهم تقريبا ينتمون إلى الطبقة الغنية "[2] .

فالتأثير الأندلسي كان كبيرا على هذه المنشآت ، ويعود ذلك إلى الأثر الذي خلفته الحضارة الأندلسية في نفسية حكام بلاد المغرب الأوسط ، الذين اهتموا بالتراث المعماري الأندلسي وخاصة منهم المرابطين والموحدين ، وكان من مظاهر هذا التأثر أن جلبوا إليهم أهل البناء من الأندلس وقربوهم من أجل أن يجعلوا في بلاد المغرب الأوسط نماذج مشابهة للنمط المعماري الأندلسي ، وإن كان هذا التأثير قد بلغ هذا المستوى ، والأندلس مازالت فيها معالم الوجود الإسلامي ، فلا شك أن سقوطها ، وهجرة أهلها إلى المغرب الأوسط كان التأثير أكبر بكثير مما كانت عليه المنطقة في السابق .

[1] . ناصر الدين سعيدوني ، مظاهر التأثير الإيبيري والأندلسي في الجزائر ، ص : 28 .

[2] . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان ، ج : 1 ، ص : 123 .

وعليه نستنتج أن سقوط المدن الأندلسية ، وهجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط خلال فترات تاريخية متعاقبة أدى إلى تأثير على المستوى العمراني ، مس العديد من المنشآت والمرافق الاجتماعية الدينية منها والمدنية ، وكان حظ المدن الساحلية منها وافرا ، وكان للدعم السياسي من طرف حكام المغرب الأوسط دافعا قويا على غرس هذا التأثير ، مما مكن لحفظ الموروث الأندلسي المعماري في المنطقة .

2 . تأثير الاحتلال الإسباني على عمران المغرب الأوسط بعد سقوط غرناطة :

لا شك أن عوامل الهدم التي مست العمران في بلاد الأندلس نتيجة الصراع الصليبي على المنطقة قد تركت بصماتها في تلك البلاد ، بتحويل الإسبان لمعالم الدين كالمساجد والمدارس وغيرها ، لتتحول إلى دور للعبادات المسيحية ، ولم تكن بلاد المغرب الأوسط بمنأى عن تلك الآثار التي مست العديد من المدن وخاصة الساحلية منها كبجاية وتلمسان ووهران والجزائر .

فمدينة وهران قد شهدت تطورا عمرانيا بدخول بعض المهاجرين الأندلسيين إليها منذ القرن العاشر الميلادي ، وقد ذكرت في فصل سابق كيفية بنائها ، ومشاركة البنائين الأندلسيين في تشييدها ، ولعل من أهم المراكز العمرانية في هذه المدينة هي " قلعة القصبة " التي تقع على الضفة الغربية لواد الرحى (رأس العين) على سفح جبل المايدة (مرماجو) ، ولا يعرف تاريخ تأسيسها بالضبط ، والغالب أنها تأسست عند تجديد بناء المدينة ، وخلال

الهجرة الأندلسية الواسعة إليها في مطلع القرن العاشر الميلادي (903 م) ، وهي على شكل مثلث مستطيل يمتد من الجنوب إلى الشرق على الضفة الغربية لواد الرحى " [1].

والواضح أن الاحتلال الإسباني لمدينة وهران مست آثاره هذه القصبة ، فتعرضت للهدم والتخريب إذ " هدم الكاردينال كزيمينس جزءا منها عام 1509 م " [2] ، كما كانت هذه الحملات العسكرية الاسبانية على هذه المدينية صليبية حاقدة على الإسلام والمسلمين ، فحاولت بقدر ما أوتيت من قوة في تهديم كل ما له صلة بهذا الدين ، والدليل على ذلك " أن الإسبان قاموا عند احتلالهم لمدينة وهران بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم كنيسة القديس ميكائيل " [3].

ومن جملة التغييرات العمرانية التي مست مدينة وهران هو إنشاء الإسبان بعض البروج والقلاع لهدف حماية وجودهم في المنطقة ، وجعلها مراكز دفاعية تؤمن استقرارهم ، وتساعدهم على مواجهة المقاومين للاحتلال الإسباني في هذه المدينة ، وقد ساعدت هذه البروج الاسبان أثناء فترات الحصار التي مر بها " فالقوات الاسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها ، وشدد الحصار عليها بمجيء الأتراك العثمانيين إلى

---

[1]. آثار الدكتور يحي بوعزيز ، ص : 85 . 86 .

[2]. نفسه ، ص : 86 .

[3] - H . D . Grammon , Histoire d'Alger , sous la dominaion turque (1515 _ 1830) . Paris . 1887 , p : 5 .

الجزائر " ، [1] ومن أهم تلك المنشآت العسكرية نجد برج المونة أو برج اليهودي الذي " أسسه الاسبان عام 1509 م في المكان الذي نزلت فيه قواتهم البحرية لأول مرة إلى البر على الشاطئ الغربي لميناء المدينة فوق رأس بري داخل البحر ، وأطلق السكان عليه اسم برج اليهودي نسبة إلى اليهودي بن زاوي سطورة أو شطورة الإشبيلي الذي خانهم وأرشد القائد الاسباني دون ديقو القرطبي لينزل في ذلك المكان ويدخل المدينة ويحتلها " [2] .

كما شيد الإسبان كذلك برجا اسمه برج العيون أو بني زروال الذي " أسسه الحاكم الاسباني الماركيز دوقو ماريس عام 1509 م في الجنوب الشرقي للمدينة بأعلى وادي الرحى على الضفة الشرقية وسماه الاسبان برج القديسين ، ثم برج القديس فيليب ، وذلك على ربوة علية على المدينة من الجنوب الشرقي وشرف على ما وراءها من المناطق في الجهة الشرقية " [3] .

وقد ذكر المؤرخ الراشدي في كتابه الثغر الجماني أن الإسبان اهتموا أكثر بإنشاء المحارس والبروج ، وعدد أسماء كثيرة منها : سان كروس ، وهو برج مرجاج يحمل ثلاثين مدفعا وبرج

---

1 .- Braudel (F) , Les Espagnol et l'Afrique du Nord , in R . A . Alger , 1928 , p : 216 .

2 . آثار الدكتور يحي بوعزيز ، ص : 88 .

3 . يحي بوعزيز ، مدينة وهران ، ص : 89 . وينظر أيضا تفصيل ذلك في أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، ص : 200 . 201 .

لامونا تحمل أربعة وهي على ضفة البحر ثم سانتي آقو ، ثم لابريرا فيها مدفعان ثم لاكنيانا حذو القصبة فيها عشرة مدافع ، ثم سان بيزرو و سانتا إيزابيل .. وغيرها[1] .

وقد تأثرت المؤسسات الثقافية التي كانت منتشرة في الغرب الجزائري ، وأثرت في الحياة العلمية بكثرة العلماء الوافدين إليها من الأندلس ، ومن مختلف البلدان الإسلامية الأخرى ، ولم يغب عن فكر الاسبان أهمية المنتوج الحضاري الأندلسي الذي انتقل من الأندلس إلى المغرب الأوسط ، فعملت على توسيع دائرة الهدم التي بدأتها في الأندلس ، و" قد كانت مدينة وهران القديمة تحتوي على عدد كبير من المساجد والزوايا التي كانت مراكز للتعليم إلى جانب دورها الديني ، فقد قيل أن عددها كان يزيد على الثلاثين ، ولكن الاسبان خربوا معظمها ، وحولوا الباقي إلى كنائس ، ومنها جامع البيطار الذي حوله الكاردينال خيمينيس إلى كنيسة عام 1509 م باسم " سيدتنا المنتصرة " "[2] .

ولم تسلم مدينة بجاية من التخريب العمراني إثر الاحتلال الإسباني بعد سقوط الأندلس ، حيث " دمر الإسبان مئذنة القلعة و اللؤلؤة* ، وجمعوا كل الأشياء الثمينة من رخام وخزف ومأثورات على ظهر ثلاثين سفينة من أجل الوصول بها إلى بلادهم "[1] .

---

[1] . أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، ص : 201 .

[2] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره ، ص : 372 . 373 .

* وهو موضع في بجاية ، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة ، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة ، لم ير الراؤون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا ، فيها طاقات مشرفة على البحر ، وعليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المنحنية ، والمجالس المقرضة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها ، قد نقشت أحسن نقش وأنزلت

ويصف لنا توفيق المدني الحملة الصليبية على مدينة بجاية ، والأثر الذي نجم عنها من الناحية العمرانية ، مبينا أن الهدف منها كا استيطانيا لاستقرار المسيحيين في المدينة ، فعملوا على خلق الأسباب المساعدة على هذا الاستيطان فيقول ذاكرا الرسالة التي وجهها فردناندو إلى الوالي العام أنطونيو دي رافانيدا المؤرخة بيوم 13 أكتوبر 1511 م جاء فيها : " وخذ إلى قلعة بجاية قبل رجوع المسلمين كل الصلبان ، وأثاث الكنائس الموجودة ببجاية . وكانت كلها كما رأيت مساجد للمسلمين . ولا تترك بها إلا الجدران والسقوف ، والأبواب والنوافذ ، وأوصد أبوابها بعد إخلائها كيلا يدخلها العرب مرة أخرى ، حتى نجدها على حالها، عندما يهيء الله الأسباب وتسمح مشيئته بأن يعمر المسيحيون المدينة كلها ، وتفتح الكنائس أبوابها من جديد " [2].

أما مدينة الجزائر فعرفت هي الأخرى بعد التغييرات العمرانية على أرضها بعد احتلالها من طرف الإسبان ، إذ تشير بعض الدراسات إلى أن " سكان مدينة الجزائر وقعوا معاهدة مع فريديناند ملك إسبانيا ، سمحت للإسبانيين ببناء قلعة على أهم المدن المواجهة للمدينة حيث أقام فيها مائتا جندي لمنع القرصان من استعمال المرفأ "[3] .

بالذهب وصورت فيها الصور الحسنة ، فجاءت من أحسن القصور منزها وجمالا . ينظر : عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج : 1 ، ص : 379 .

[1] . عبد القادر فكاير ، المرجع السابق ، ص : 374 .

[2] . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص : 127 .

[3] . مدينة الجزائر صفحات عبر تاريخ المدينة البيضاء ، مقال نشر في مجلة المناظر ، ص : 144 .

كما قام الإسبان بتعزيز مواقعهم الدفاعية في الجزائر ، فعملوا على تشييد عدة حصون منها حصن البنيون ، " فما إن احتل الإسبان صخرة اسطفلة سنة 1510م حتى شرعوا في بناء حصن عليها ، وهي قلعة على شكل ثمانية زوايا ، أشرف على بنائه بيدرو نافارو ، وحصن الإمبراطور الذي يقع فوق كدية (ربوة) الصابون التي خيم بها شارلكان أثناء حملته المشهورة والمشؤومة على مدينة الجزائر سنة 1541 م "[1] .

وعليه يتضح الأثر العراني الإسباني على مدن المغرب الأوسط ، والشيء الملاحظ على طبيعة هذه التأثيرات أنها شملت الأبراج والحصون بالدرجة الأولى ، فاتخذوها مكانا لاستقرارهم ، وزادوا من شدة حصانتها بتعزيز مواقع الدفاع فيها ، أو بناء حصون جديدة ، أما على المستوى العمراني العربي الإسلامي الذي كان موجودا في المنطقة ، فبطبيعة الحملة الصليبية القادمة من الأندلس فقد تم تدمير العديد من المواقع العمرانية ذات الصلة بثقافتنا العربية الإسلامية كالمساجد والزوايا والمدارس ... وغيرها .

3 . انتقال الموسيقى الأندلسية إلى بلاد المغرب الأوسط :

عرفت بلاد الأندلس الغناء ، وتطور تطورا سريعا بدخول أشهر الملحنين والمغنين إليها ، وقد عرف ابن خلدون في مقدمته هذا الفن فقال : " هذه الصناعة هي تلحين الأشعار

---

[1] . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره ، ص : 437 . 438 .

الموزونة ، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعة فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات " [1] .

ولعل الأندلسيين كانوا معروفين في طباعهم أنهم ميالون إلى سماع الغناء والطرب ، فمما وصف به المقري مدينة إشبيلية قوله فيها : " وهذه المدينة من أحسن مدن الدنيا ، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة ، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ، ويعينهم على ذلك واديها الفرج وناديها البهج "[2] .

وقد عرفت الأندلس الغناء بدخول زرياب* إليها حيث " كان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد ، فصرفوه إلى المغرب غيرة منه ، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، فبالغ في تكرمته ، وركب للقائه ، وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات ، وأحله من دولته وندمائه بمكان ، فأورث بالأندلس من صناعة

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 453 .

[2] . المقري ، نفح الطيب ، ج : 1 ، ص : 159 .

* وهو علي بن نافع أبو الحسن أحد موالي الخليفة العباسي المهدي ، وقد تضاربت الآراء حول ولادته ووفاته ، ويقال أن ولادته كانت في الجزيرة عام 172 هـ / 788 م . نشأ في بغداد إبان عصرها الذهبي ، وقد أطلق عليه هذا الاسم نظرا لسمرته الشديدة وصوته الجميل ، فكلمة زرياب في الأصل اسم لطائر أسود الريش رخيم الصوت ، ويذهب آخرون إلى أن كلمة زرياب تعني ماء الذهب معربا عن الفارسية زرآب ، من أساتذته إسحاق الموصلي ، وقد فاق أستاذه وقال لزرياب : " إن بغداد تتسع لواحد منا فقط ، فعليك بالرحيل أو احتمل غضبي الذي قد يبلغ أقصى حدوده " ، فعزم على الرحيل ، ويمم وجهه شطر المغرب ، ومنها إلى الأندلس . للمزيد أنظر : محمد حسن قجة ، محطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط : 1 ، جدة ، 1985 م ، ص : 77 وما بعدها .

الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها " [1].

وقد انتشر الغناء في الأندلس خاصة بعد ظهور فن الموشحات* ، " فالموشح والزجل كانا ينظمان للغناء عادة ، وقد نجد من المعقول الافتراض بأن البنية الشكلية للأغنية تتماشى مع الشكل الشعري ، وأهم خصائصه تكرار اللازمة في نهاية كل مقطع ، بينما يختلف المحتوى بين مقطع وآخر ولو بشكل جزئي ، لكن أي ادعاء حول الطبيعة اللحنية في غناء الموشح والزجل لا يمكن أن يقوم إلا على الاستنباط ، وذلك إما باللجوء إلى الدليل من الكتابات النظرية وغيرها ، أو في النظر في ما يمكن أن يكون قد تبقى من أجزاء الذخيرة الموسيقية الأندلسية في شمال إفريقيا " [2] .

وعليه أيضا يتبين أن آثار هذا الفن قد انتقلت إلى بلاد المغرب الأوسط عن طريق الهجرة الأندلسية إلى الجزائر لعدة فترات تاريخية ، " فقد نقلوا إلى فحص الجزائر ومدنه الشهيرة

---

[1] . ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 457 .

* اشتقت كلمة الموشح على أرجح الظن من المعنى العام للتزيين سواء كان ذلك وشاحا أم قلادة مرصعة أم غير ذلك ، واستعملت الكلمة في أحايين كثيرة للتعبير عن بعض المعاني البلاغية ، لكن الذي يعنينا هنا منها دلالتها على قالب من قوالب الشعر العربي عرف باسم الموشح ، وعرف الناظم فيه باسم الوشاح ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات ، واخترع طريقها محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يضعها على أشطار الأشعار ، وقال ابن خلدون أن المخترع له مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وقال بن شاكر الكتبي أن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات . أنظر : محمد زكريا عناني ، الموشحات الأندلسية ، عالم المعرفة ، د . ط ، 1990 م .

[2] . أوين رايت ، الموسيقى في الأندلس (دراسة شاملة) ، الحضارة العربية في الأندلس ، ج : 1 ، ص : 822 .

الموشحات والأزجال الأندلسية المعروفة عندنا بالمالوف وأدخلوا آلات موسيقية أندلسية وحافظوا عليها مثل العود والرباب والكامنجة والصنوج والطبيلة والطار والدربوكة ، وأحيوا المواليد والإخوانيات وقصائد المديح والغزل والتشبيب ووصف الطبيعة والرثاء وشعر الحرب "[1] . وقد ذكر كذلك أبو القاسم سعد الله جملة الآلات التي كان يعزف بها الموسيقى الأندلسية فذكر منها : " الرباب والوترين والذي يلامس بقوس ، ثم العود[*] الذي يحتوي على أوتار أكثر من عدد أوتار الرباب ، وهناك أيضا أحجام مختلفة من القيتار الذي يعطي لكل حجم منه نغما أعلى من الآخر ، وقد أدخل الحضر أيضا الصنج على الطار اليدوي فتعددت نغماته بتعدد ضرباته " [2] .

وقد انتقل بسقوط المدن الأندلسية ورحلة العديد من الفنانين إلى بلاد المغرب فن الغناء الأندلسي بشكل واسع شملت تأثيراته مختلف بلاد المغرب وخاصة منها الجزائر " فأسلوب إشبيلية مثلا قد استقر في تونس ، وأسلوب غرناطة عاود الظهور في فاس وتطوان ،

---

[1] . محمد الأمين بلغيث ، الأندلسيون وآثارهم بفحص الجزائر ومتيجة ، ص : 172 .

[*] كان العود من الآلات الأكثر استعمالا في الغناء في الأندلس ، لدرجة أن الشعراء الأندلسيين بالغوا في ذكرها في قصائدهم الشعرية ، فهذا أبو محمد المصري يقول :

يا حبذا العود فكم من فتى   باح له اليم بأسراره

غنت عليه الطير رطبا وقد   غنت به لما قسا جاريه

فهو على أخلاقها قد جرى   وهي على أخلاقه جارية

أنظر : ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، د . ط ، بيروت ، 1997 م ، ج : 4 ، ص : 356 .

[2] . أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، 1998 م ، ج : 2 من 1500 . 1830 م ، ص : 443 .

وأسلوب قرطبة في تلمسان ، لكن الأكثر أهمية من هذه المواءمة الافتراضية هي تلك الظاهرة العامة الناتجة من عدة قرون من الاتصال المتبادل الذي يدعمه بشكل خاص انتشار الذخيرة الموسيقية للبلاط الاسباني في مراكز المدن في المغرب عن طريق الجواري " [1].

وقد سمح الاتصال السياسي بين بلاد المغرب الأوسط والأندلس خلال القرنين السادس والسابع إلى بروز التمازج الحضاري بين العدوتين ، مما مكن من انتقال هذا الفن بشكل سريع إلى بلاد المغرب الأوسط ، " فالاتصالات غدت أكثر سهولة بفضل الاتحاد السياسي الذي تم على أيدي المرابطين والموحدين ، وعندما تصاعدت حرب الاسترداد في القرون اللاحقة اكتسبت الاتصالات دفعا جديدا بتوافد مسلمي اسبانيا على المغرب ثم خروجهم النهائي " [2] .

وقد ذكر أبو القاسم سعد الله في حديثه عن جملة التغيرات الثقافية التي حلت بحضارة المغرب الأوسط هو دخول العديد من الثقافات ، نظرا للترابط الثقافي الذي كانت تعمل المنطقة على الاحتفاظ به ، فذكر في سياق حديثه عن انتشار الموسيقى الأندلسية بالجزائر أن سبب انتشارها هو قدوم الأندلسيين إليها ، وسمى هذا النوع من الموسيقى بالموسيقى الحضرية إذ يقول : " وتعتبر الموسيقى الحضرية أو الأندلسية أكثر تنوعا وتنغيما حسب

---

[1] . أوين رايت ، الموسيقى الأندلسية ، ص : 822 .

[2] . نفسه ، ص : 823 .

الذين درسوها ، ذلك أن معظم أنغامها حية ولذيذة ، وهي أيضا تعزف بعدد من الآلات ، وكان العزف يتم من الذاكرة ، وليس من نوطة يتعلمها العازفون ، كما أنها قد بلغت من التعدد والتنوع أن أصبحت لها الفرق الضخمة البالغة العشرين أو الثلاثين عازفا ، وكان العزف يطول ، ولكن السامعين يظلون طول الليل يتمتعون دون أن تحدث خلال ذلك ضجة أو هرج " [1] .

أما عن المواضيع التي تناولها الفن الغنائي الأندلسي فهي كثيرة ومتنوعة حسب تنوع المناسبات التي كان يعزف فيها مثل هذه الأغاني ، ومنها " وصف الطبيعة والمولوديات والإخوانيات التي تعكس النموذج الأندلسي المغربي ، الذي حافظت عليه الأجواق المحلية بالجزائر والبليدة وشرشال وبجاية وتلمسان ، وغلب على الموشحات قصائد المدح ، وحافظ سكان تلمسان على جانب كبير من التراث الموسيقي الغرناطي ، حتى أن كلمة غرناطة بتلمسان صارت مرادفة لكلمة مويسيقى " [2].

وكانت بجاية أيضا قد حظيت بتأثير هذا الرافد أيضا ، ولا شك أن الهجرات الأندلسية المتتالية إلى مدينة بجاية كان لها تأثير كذلك في هذا المجال ، ، فقد شاع الفن الموسيقي الأندلسي بها ، وكانت بجاية تمثل " المرحلة الأولى التي نزل بها اللاجئون إلى إفريقية ، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال ، واستوطنها نهائيا ، كما يتضح ذلك بصفة جلية من

---

[1] . أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج : 2 ، ص : 442 .

[2] . حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 84 . 85 .

خلال تصفح عنوان الدراية للغبريني ، ونحن لا نشك في أن استيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه إشبيلية في شغفها بالموسيقى ، وانصرافها إلى الطرب " [1] ، ويعزز هذا الطرح الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا إذ يميل إلى هذا الرأي ، حيث يقول في حديثه عن سكان مدينتي بجاية ودلس أنهم ميالون إلى فن الغناء الأندلسي ، فجاء في قوله عن مدينة بجاية : " والبجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص لا سيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد " [2] ، ويقول في موضع آخر عن أهل دلس : " وهؤلاء السكان ذووا بشاشة ومرح يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيتار " [3] .

وعليه يمكن الاستدلال على أن هذه الطبيعة التي اتصف بها سكان هذه المدن من المغرب الأوسط لها أبعاد تاريخية وثقافية ، تعود بالدرجة الأولى إلى التأثير الأندلسي الذي ترك بصمات واضوحة فكانوا سببا في دخول هذا الفن إلى هذه المدن برحلة العديد من الفنانين الأندلسيين إلى المنطقة .

[1] . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، إفريقيا الشرق ، ط : 1 ، الدار البيضاء ، 1991 م ، ص : 44 .

[2] . الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج : 2 ، ص : 51 .

[3] . المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 42 .

الخاتمة

الخاتمة

لقد توصلت من خلال دراسة التأثيرات التي أعقبت سقوط الأندلس إلى عدة نتائج أهمها :

ضمت بلاد الأندلس المسلمين من عرب وبربر ومولدين وغيرها من الطوائف الاجتماعية الأخرى ، التي عملت على الحفاظ على الكيان السياسي في المنطقة لسنوات طويلة ، وعبر محطات تاريخية حافلة بالصراعات السياسية والدينية بين القوتين الإسلامية والمسيحية ، وكان تكالب النصارى على أخذها متكررا لمرات عديدة ، وإن كان الفشل حليف أغلب تلك المحاولات بفضل رجال أكفاء حملوا مسؤولية الدفاع عن ترابها كالمرابطين والموحدين من بعدهم والمرينيين والزيانيين والحفصيين إلا أن هذا النصر لم يدم طويلا ، وأن بقاء المسلمين فيها كان مؤقتا فقط ، لتتقلص الرقعة الجغرافية الواسعة للأندلس لتشمل مدينة غرناطة فقط ، بعد سقوط كبرى المدن والممالك الأندلسية كإشبيلية وبلنسية وقرطبة ... وغيرها .

كما بينت أن هذا السقوط كانت له مبرراته ، منها ما تعلق بالأوضاع الداخلية كالصراع العربي على الحكم بين المقاطعات الأندلسية ، والتفاني في الترف والنعيم الذي عاش فيه

حكامها ، دون التفكير في استغلال تلك الإمكانيات في بناء المحارس والأبراج ، وصرف الأموال في الجهاد في سبيل الله ، فلما غلبت عليهم الحضارة ، وتسلط عليهم حب الدنيا قعدوا عن الجهاد فكانت الهزيمة جد قاسية ، كما كانت هناك عدة أسباب خارجية سواء على المستوى الإسلامي أو على المستوى النصراني ، إذ في ظرف تراجع القوى العربية في بلاد المغرب نتيجة الانقسامات السياسية بين أقسامه ، وكثرة الصراعات القائمة بين الزيانيين حكام المغرب الأوسط والمرينيين حكام المغرب الأقصى ، كانت إسبانيا تبحث عن حلول للتوحد بين ممالكها من أجر حرب الاسترداد ، وهذا ما أدى في النهاية إلى تفوقهم في استرجاع الأندلس بسقوط آخر معاقلها في غرناطة .

ولم تكن مأساة العرب المسلمين في الأندلس كباقي المآسي الأخرى ، بل النكبة كانت أشد ، والأثر كان عميقا ، بسقوط رمز الحضارة الإنسانية التي خدمت الشرق والغرب على حد سواء ، وقد تأثرت بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) بهذا السقوط كغيرها من دول العالم الإسلامي نظرا لقربها من الأندلس ، أو لتأثير أهلها على الاستقرار في مدنها الساحلية كتلمسان ووهران وجزائر بني مزغنة وبجاية .

كان تأثير سقوط الأندلس على المغرب الأوسط من الناحية السياسية والعسكرية متمثلا أساسا في تحويل الحرب الصليبية الحاقدة في الأندلس إلى شمال إفريقيا ، وعلى الخصوص الجزائر وتونس ، وكان لهذه الحملات أهداف توسعية من أجل السيطرة على البحر المتوسط الذي كان يغذي المنطقة اقتصاديا بمرور القوافل التجارية عبر موانئه إلى السودان وصحراء

سجلماسة ، وكذا من أجل كسر شوكة المسلمين في المغرب الأوسط لعلمها بدور المغرب عسكريا في الدفاع عن الأندلس ، وأن الانتكاسات المتكررة للاسبان أمام المسلمين في الأندلس مردها إلى الجيوش الإسلامية المرابطة في المغرب من أجل استغاثة الأمراء المهددين من طرف الاسبان ، ولم يتحقق هذا الأثر السلبي لسقوط الأندلس على المغرب الأوسط إلا لما حقق الملوك الاسبان اجتماعهم ووحدتهم في الأندلس ، وتفرقت كلمة المسلمين في المغرب ، واكتفت كل دولة بالدفاع عن حدود ترابها ، فتحقق احتلال المدن الساحلية الكبرى بالقوة العسكرية كالمرسى الكبير ووهران وبجاية وعنابة ، أو بفرض معاهدات تضمنت بنودها الخضوع السياسي والاقتصادي لحكام إسبانيا ، في حين كان مصير بعض الحملات الأخرى الفشل خاصة بعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، فاستعصت المدينة عليهم ، وكلفتهم خسائر في الأموال والأرواح .

وعلى غرار الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط ، فقد كان تأثير الأندلسيين الفارين من الأندلس على النشاط الإداري والحكومي واضحا نتيجة مشاركة الأندلسيين في الأحداث السياسية والعسكرية في المنطقة ، فأما مشاركتهم على المستوى العسكري فتمثلت في اشتغالهم كجنود مساعدين للجزائر في الدفاع عن وحدة ترابها ، أو كمشاركين في القضاء على الفتن الداخلية ، كما لاحظت أن الأندلسيين كانوا ماهرين في كسب قلوب الحكام في المغرب الأوسط كالزيانيين في تلمسان والحفصيين في بجاية لدرجة وصول العديد من العائلات الأندلسية للحكم ، واشتغال مناصب عليا في البلاد كمنصب الحجابة والوزارة .

وكان للأندلسيين دور في تحقيق إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، ومساعدتهم للأتراك العثمانيين خاصة منهم أسرة بربروس كعروج وخير الدين في تثبيت الحكم العثماني في الجزائر ، وهذا ليس تدخلا ف الشؤون الداخلية بقدر ما هو ثقة من الأندلسيين في القوة العثمانية في البحر المتوسط التي من شأنها أن تساعدهم في استرداد الأندلس نظرا لما قام به عروج وخير الدين من حملات بحرية على سواحل إسبانيا .

هذا على المستوى السياسي أما تأثير سقوط الأندلس على الجانب الاقتصادي ، فكان لاحتلال المنطقة من طرف الإسبان أثر في تراجع القوة الاقتصادية للمغرب الأوسط ، مما يدل على أهمية البحر المتوسط في النشاط الاقتصادي الذي كان يمثل همزة وصل بين الأندلس والمغرب الأوسط ، حققت من خلاله دول المغرب الأوسط أرباحا تجارية هامة عن طريق بيع منتجاتها في الأسواق الأندلسية ، فلما سيطرت إسبانيا على البحر قطعت أسباب الرزق على المنطقة مما جعلها تضعف اقتصاديا ، ومن جهة أخرى أدت الضرائب المفروضة عليها من تحقيق عجز في ميزانها التجاري ، وأصبحت إسبانيا تأخذ بضائعها دون مقابل في المنطقة من أجل تحقيق الأرباح وسد عجزها الاقتصادي الذي خلفه رحيل الأندلسيين من المنطقة .

وقد استفادت الجزائر من التجربة الأندلسية في المجال الاقتصادي ، فظهر منهم الصناع والتجار والفلاحون والبحارون والحرفيون ، وانتقلت بفضلهم بعض الحرف التي لم

تكن موجودة من قبل في المنطقة ، كما استفادت منهم الجزائر ومن خدماتهم في هذا القطاع، وتطور نشاط الفلاحة كثيرا لمعرفتهم أساليب الري .

أما الآثار الاجتماعية التي خلفها سقوط الأندلس فلاحظنا أنها تتجلى في الارتفاع الديموغرافي للسكان نتيجة الهجرات الجماعية إلى المنطقة ، ولولا وفاة أغلبهم في الطريق لكان عدد اللاجئين أكبر من ذلك بكثير ، وكانت المدن الأكثر اكتظاظا بالسكان هي مدينة تلمسان ووهران ومستغانم وبجاية ، هذا بالإضافة إلى الأقليات الأخرى المتمثلة أساسا في اليهود الذين اضطروا إلى ترك أراضيهم ووظائفهم في الأندلس بعد حملات التطهير التي انتهجتها الكنائس الاسبانية ، فلاحظنا أن تلك المدن السابقة عرفت كذلك استقرار جاليات يهودية وصل زحفها إلى غاية إقليم توات نظرا لارتباط هذه الفئة بالتجارة من أجل سيطرتها على طريق الذهب هناك .

ولم يكن النمو الديموغرافي وحده أثرا اجتماعيا لسقوط الأندلس ، بل لعب الأندلسيون أنفسهم في تحقيق تأثير اجتماعي على العادات والتقاليد ، فظهر بوجودهم الزي الأندلسي ، والطبخ الأندلسي ، وانتشرت كذلك الاحتفالات والأعياد التي كان يحتفل بها المسلمون في الأندلس ، كما انتشرت اللغة ، وتحقق الانسجام الاجتماعي بين الأندلسيين والمغاربة .

أما اليهود فرغم كونهم أقليات قليلة مقارنة مع المهاجرين الأندلسيين العرب والمسلمين ، إلا أنهم كان لهم تأثير واضح على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، وإن كانوا قد عملوا على

خلق مشاكل كثيرة في بلاد المغرب الأوسط ، فظهرت آثار الربا في البيوع ، لدرجة غضب الحكام والعلماء منهم ، وصدور فتاوى تنص على تحريم التعامل معهم ، كما مارسوا طقوسهم وأعرافهم بكل حرية .

إن الحياة الثقافية قد تعززت بعد سقوط المدن الأندلسية كإشبيلية وبلنسية ومالقة وغرناطة بالعديد من العلماء والأدباء ، فقد انتعشت ثقافة المغرب الأوسط ، وأضحت كل من تلمسان وبجاية وقسنطينة مدارس كبرى في المغرب تشد إليها الرحال لطلب العلم من الداخل والخارج، وقد أحصينا أعدادا كثيرة لهؤلاء العلماء الذين اتسموا بالكفاءة العلمية في مختلف الفنون الثقافية ، كالفقه والحديث وعلم أصول الفقه والقراءات ، والنحو والبلاغة والشعر ، كما انتقلت بقدومهم موجات التصوف الإسلامي المطبوعة بالطابع الأندلسي ، وتوصلنا إلى مدى التأثير الذي تركه هؤلاء العلماء في النفوس ، وعليه كانت المؤسسات العلمية في المغرب الأوسط أداة فاعلة في حفظ موروثنا الثقافي الأندلسي من الضياع والحرق ، هذا بالإضافة إلى تأثر التعليم المغربي عامة والجزائري خاصة بطريقة التدريس الأندلسية التي عمل العلماء الأندلسيون على تطبيقها ، وغدا الخط الأندلسي الخط الشائع في الكتابة وغلب على الخط المغربي .

أما ما يتعلق بتأثير الأندلسيين على العمران والفن ، فوجدنا أن الزخرفة الأندلسية كانت حاضرة على المباني المعمارية المغربية الدينية منها والمدنية ، ولعب المهندسون والمعماريون الأندلسيون بصقل العمارة المغربية بصبغة أندلسية تشبه المباني التي كانت في

قرطبة وغرناطة . هذا إلى جانب انتشار فن الغناء الأندلسي والموسيقى الأندلسية التي مازالت آثارها باقية إلى اليوم خاصة في بجاية وتلمسان .

وعليه يمكن القول أن سقوط الأندلس كان حدثا تاريخيا هاما ذا تأثيرات مختلفة على المغرب الأوسط ، وقد تبين من خلال هذا الموضوع أن المنطقتين قد عرفتا نفس المصير (أعني الاحتلال الإسباني) ، لكن المغرب الأوسط قد نجا من المصيبة التي حلت بديار الإسلام في الأندلس ، لكنه عرف العديد من التغيرات التي مست العديد من المجالات حسب ما أشرت إليه سابقا .

الملاحق

الملحق رقم 1

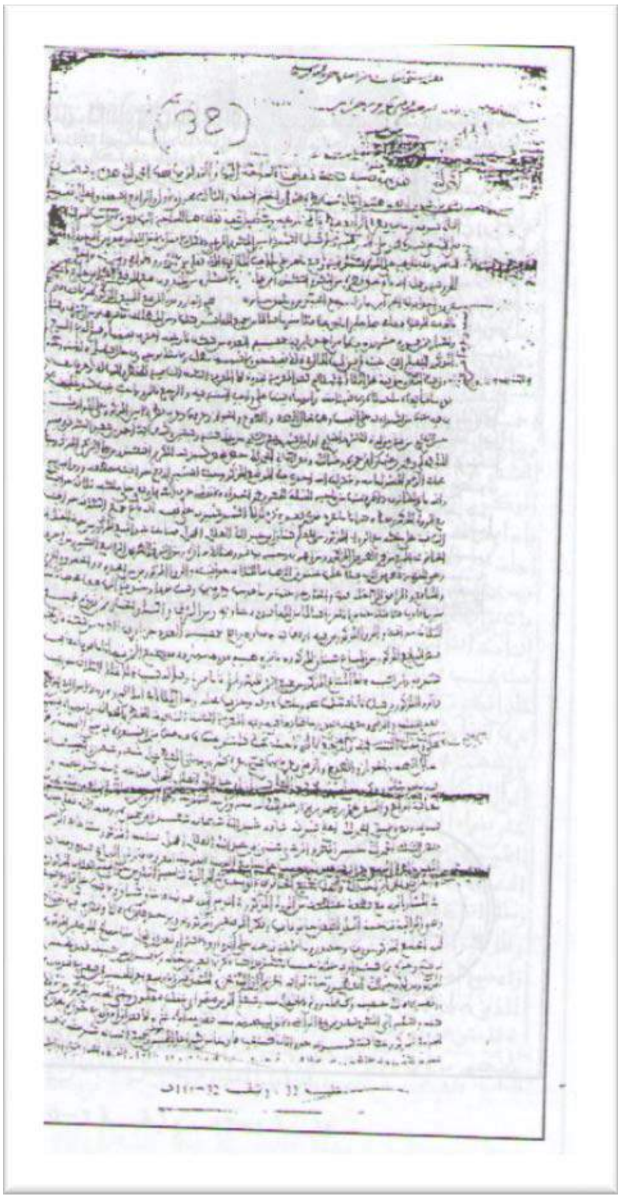


طارق سويدان ، الأندلس التاريخ المصور ، شركة الإبداع الفكري ، ط : 3 ، 2009 م ، ص : 490 .

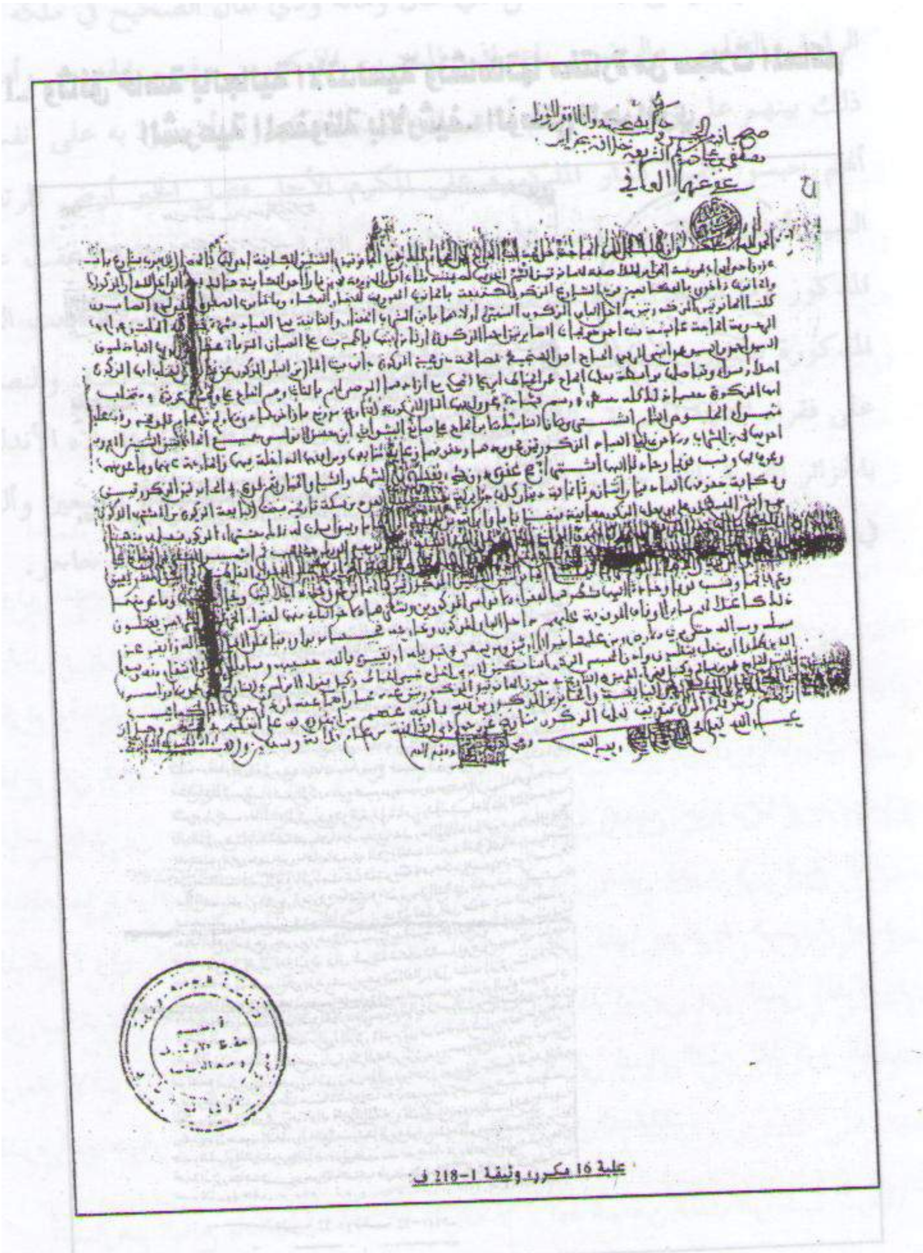
<u>الملحق رقم 2</u>

وثائق خاصة بالجالية الأندلسية ونشاطاتها مختارة من سجلات المحاكم الشرعية المحفوظة بالأرشيف الوطني الجزائري .

<u>وثيقة رقم (1)</u>

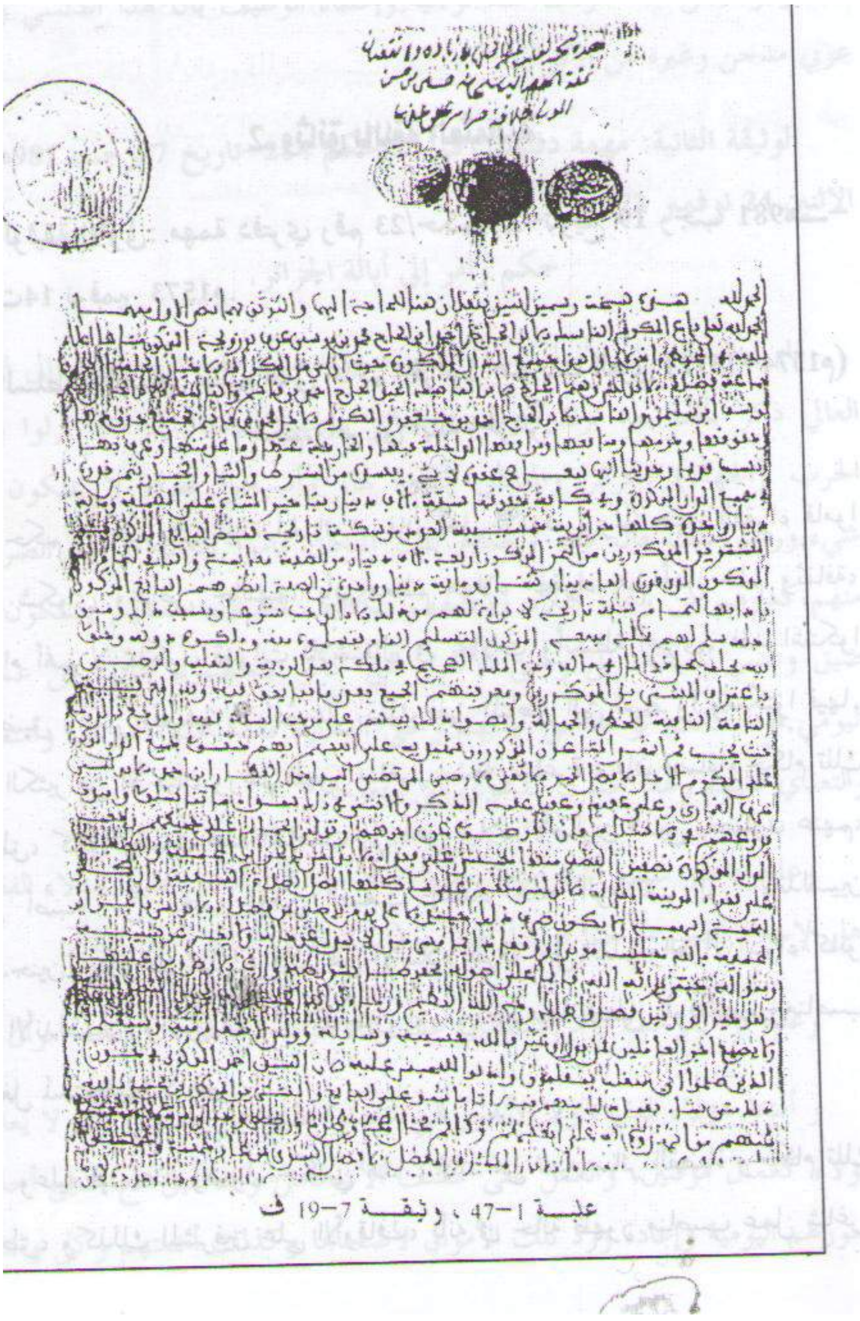


<u>وثيقة رقم (2)</u>



علبة 16 مكرر، وثيقة 1-218 ف

<u>**وثيقة رقم (3)**</u>


علبة 1-47 ، وثيقة 7-19 ف

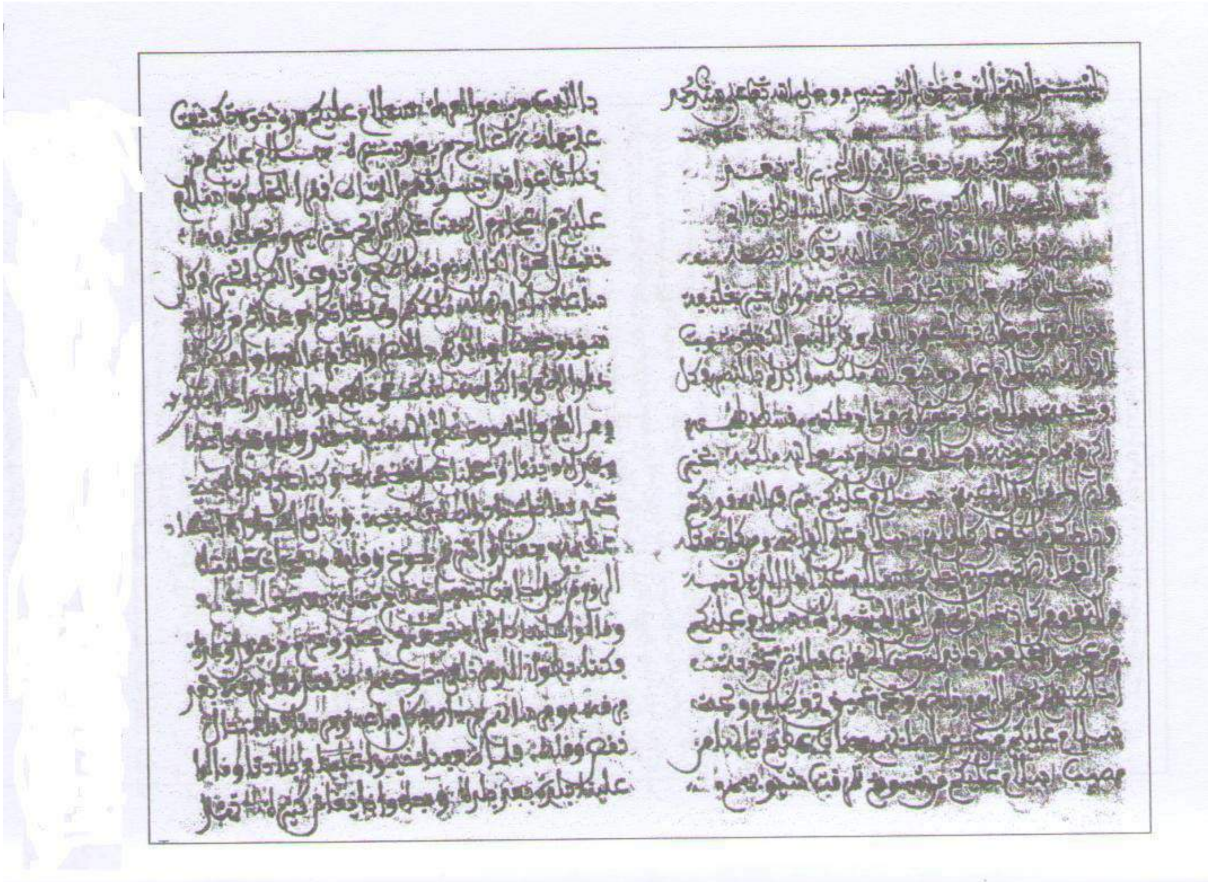
حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 179 . 180 . 181 .

الملحق رقم 3

مذكرات خير الدين بربروس ، ص : 218



الرسالة التي أرسلها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية.
(أرشيف قصر طوب كابي سراي، إستانبول. رقم: 6456)



نسخة من الرسالة التي أرسلها مسلمو الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني

محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ، ص : 411 .

الملحق رقم 4

رسالة استغاثة للدولة العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم ،

العزة لله ، من عبد الله المتوكل ، الحي بفضله وقدرته ، المجاهد في سبيله ، أمير المؤمنين المتمسك بشريعة الله ، مبيد الكفار ، وقاهر جيوش العاصين لله ، مولاي عبد الله بن عبو ، بارك الله مسعاه ، وسدد خطاه ليسترد عزة الأندلس ، ويجدد نهضتها ، نصرها الله القدير ، وهو القادر على كل شيء ، صديقنا وحبيبنا الخاص ، السيد العظيم ، الشريف الكريم ، السامي المتقدم ، العادل المحسن الخائف من الله ، أنعم الله عليه بنعمة الغفران .

أما بعد ، فسلام الله عامة على دولتنا العلية ، ونعمته وبركاته الوفيرة .

أيها الأخ العزيز ، لقد بلغتنا أنباء دولتكم العلية ، وشخص الملك الكريم ، وما صدر عنه من العطف على التعساء البائسين ، وأنه سأل عنا مهتما لمعرفة ما يجري لدينا ، وأنه اهتم وتألم لما أصابنا من ضنك ونصب على أيدي أولئك المسيحيين ، وأن صاحب الجلالة والعظمة والسلطان ، قد أرسل إلينا كتابا مختوما بخاتمه يعدنا فيه النصرة ، بعدد وافر من الرجال المسلحين ، وبما نحتاج إليه من العون والعدد التي تسمح لنا بالحفاظ على هذه الأرض . وبما أننا نقاسي المتاعب الشديدة في هذه الأزمة المريرة ، فإننا نلجأ من جديد إلى الباب العالي ، نطلب النجدة ، والمعونة والنصر عن يدكم .

فالنجدة النجدة ، بالله القاهر فوق الناس جميعا ، ونرجو من سيادتكم إعلام السلطان القادر بأحوالنا وإخباره بأخبارنا ، وبالحرب الكبرى التي نخوضها ، وقولوا لعظمته إنه إذا أراد أن يشملنا برعايته وعطفه ، فليبادر إلى إنجادنا بسرعة قبل أن نهلك ، فهناك جيشان قويان يتجهان إلينا لمهاجمتنا من جهتين ، وإننا إذا ما اندحرنا في المعركة فإن الله سيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا يوم القيامة ، يوم لا تنفع القوة في الحجة .

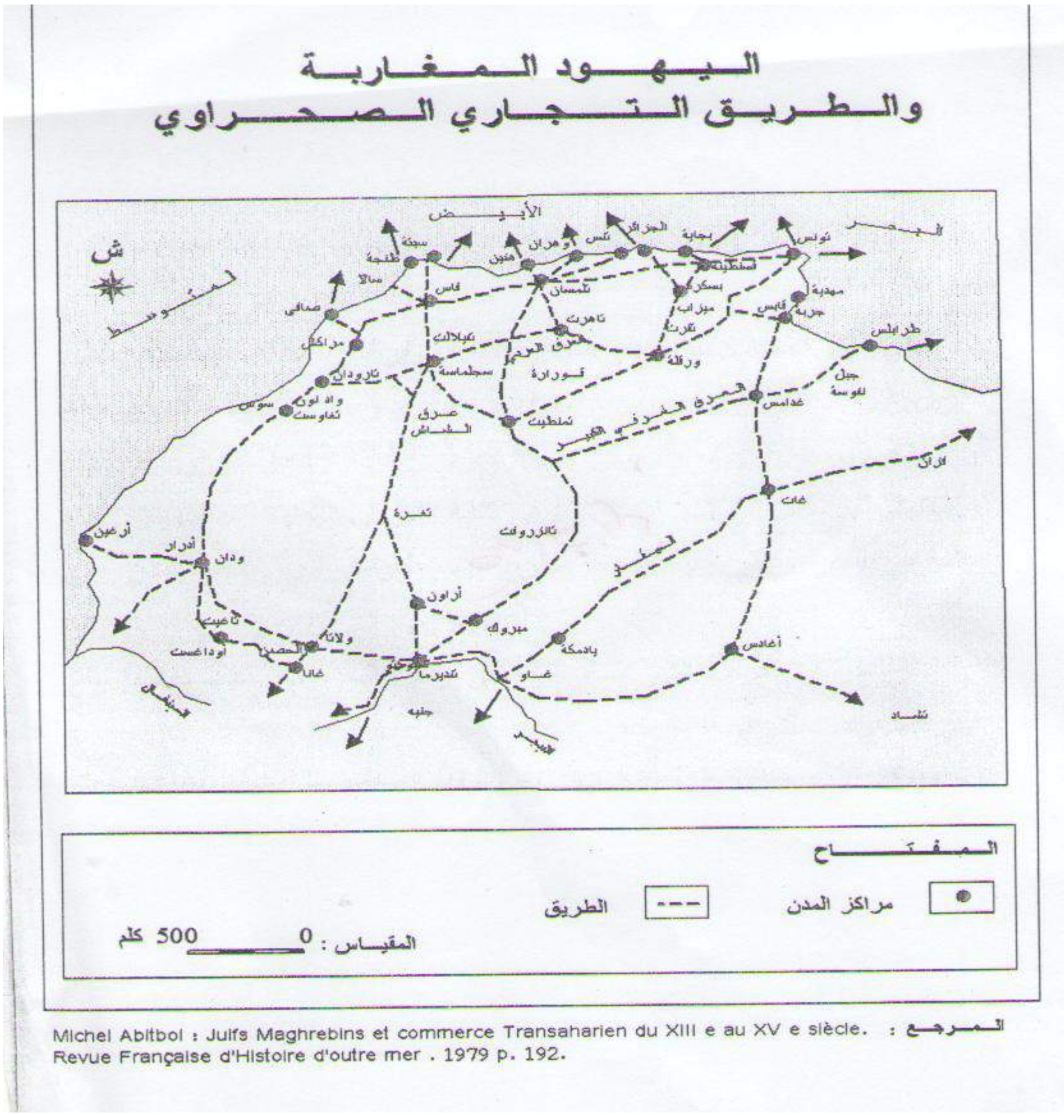
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرر يوم الثلاثاء في الحادي عشر من شهر شعبان 977

مولاي عبد الله محمد بن عبو

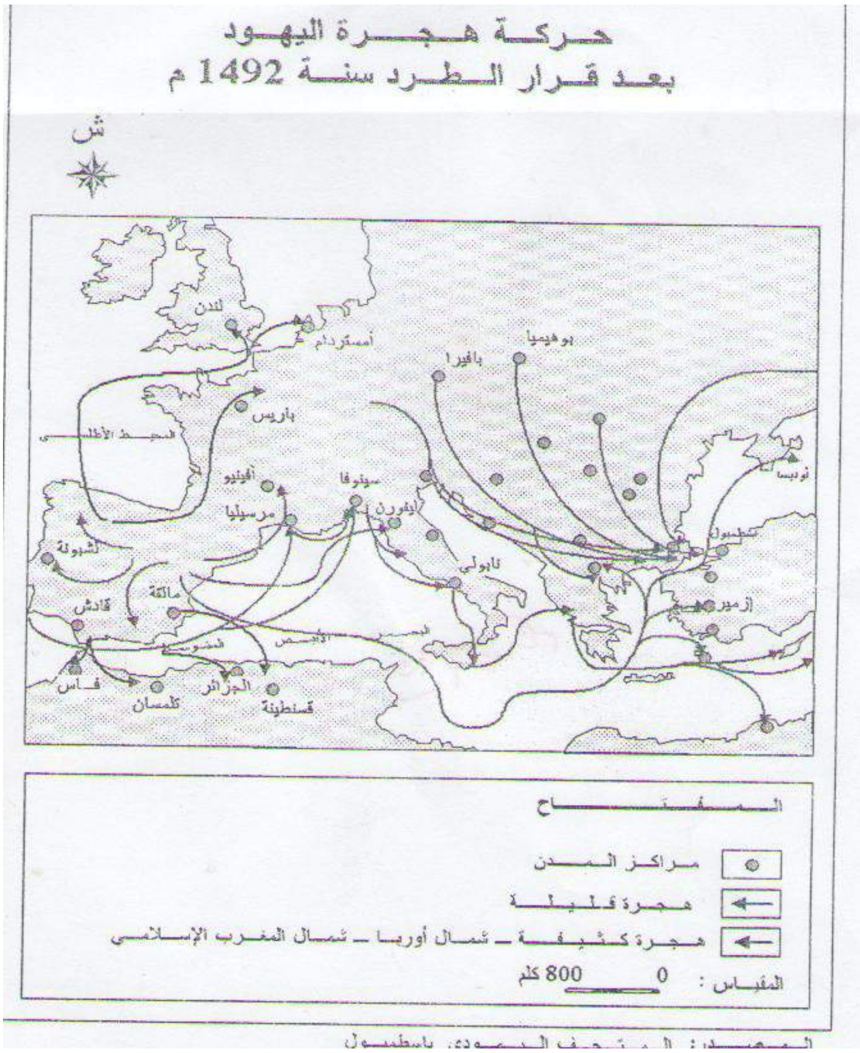
عبد اللطيف بن محمد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، ص :239 .

الملحق رقم 5



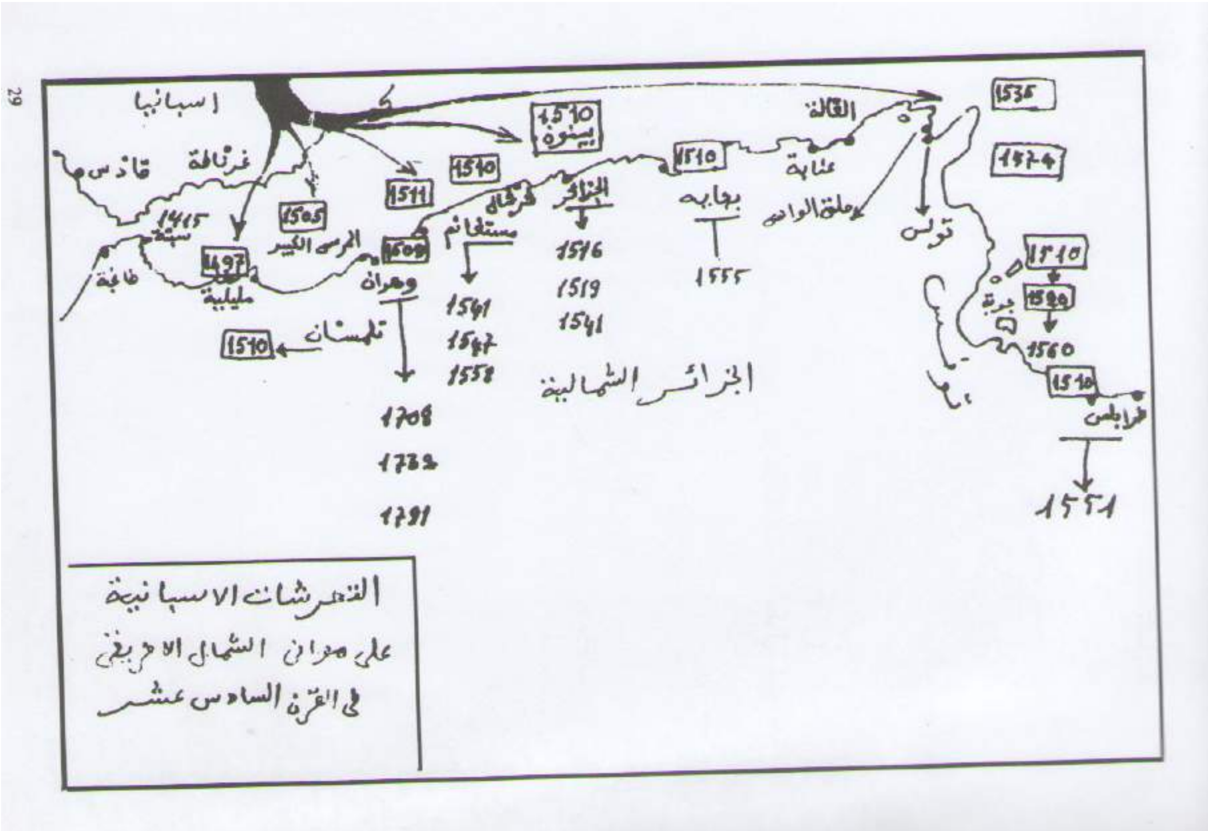
فاطمة بوعمامة ، اليهود في المغرب الإسلامي ، ص : 228 .

الملحق رقم 6



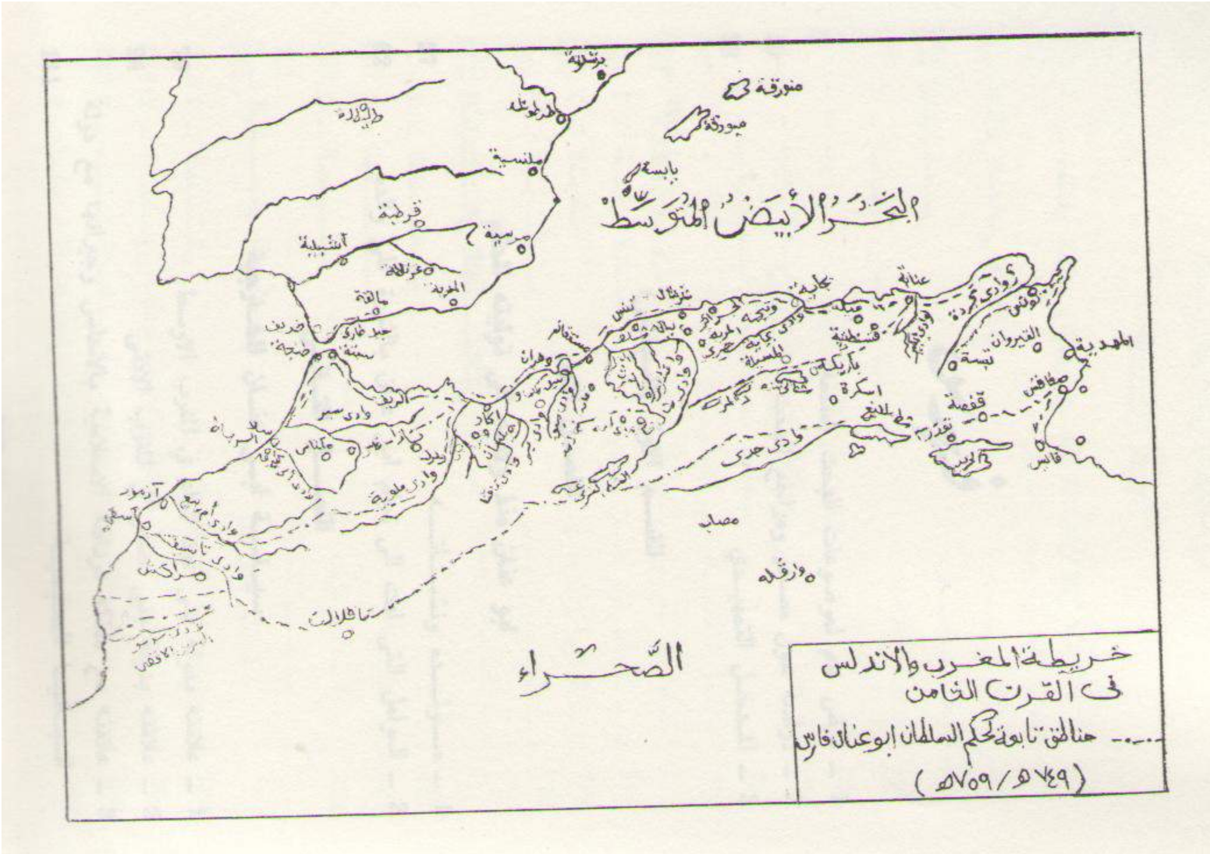
فاطمة بوعمامة ، اليهود في المغرب الإسلامي ، ص : 54 .

الملحق رقم 7



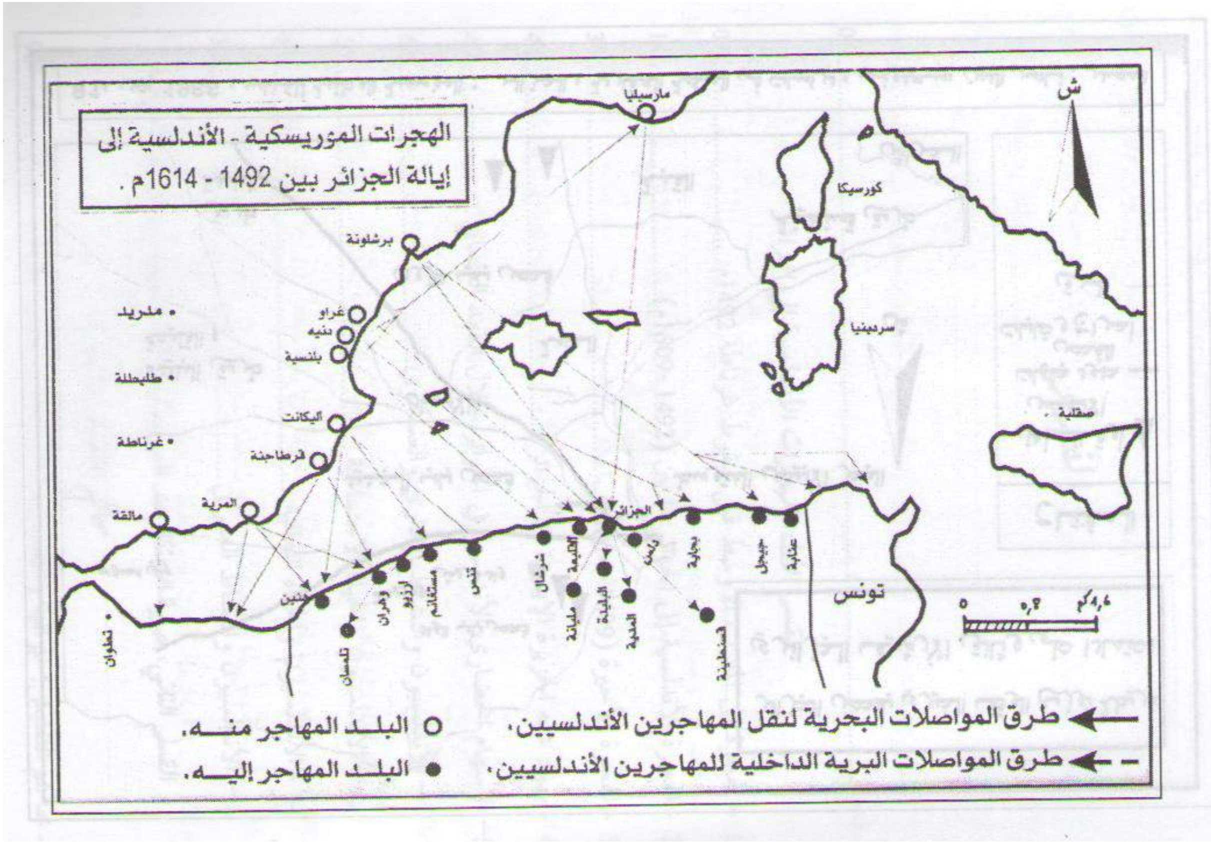
يحي بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا ، ص : 29 .

<u>**الملحق رقم : 8**</u>



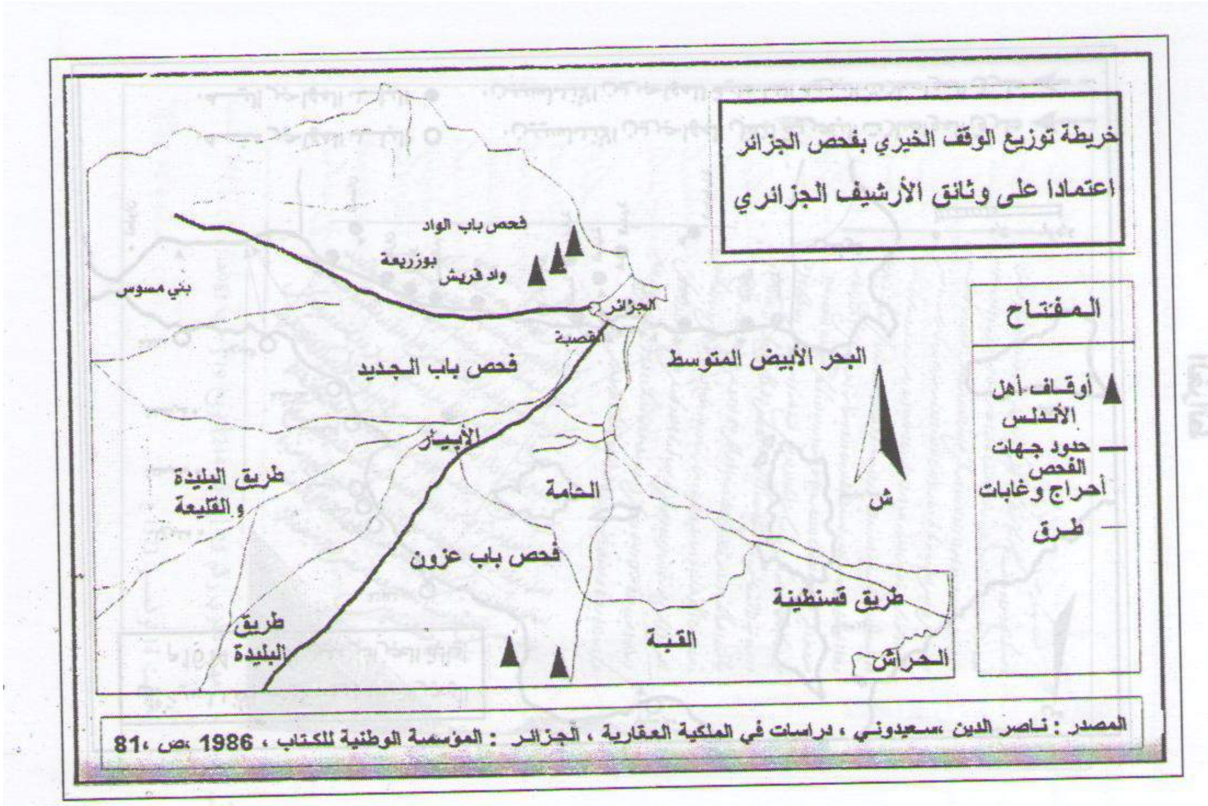
علي حامد الماحي ، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني ، ص : 315 .

الملحق رقم : 9



حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 187 .

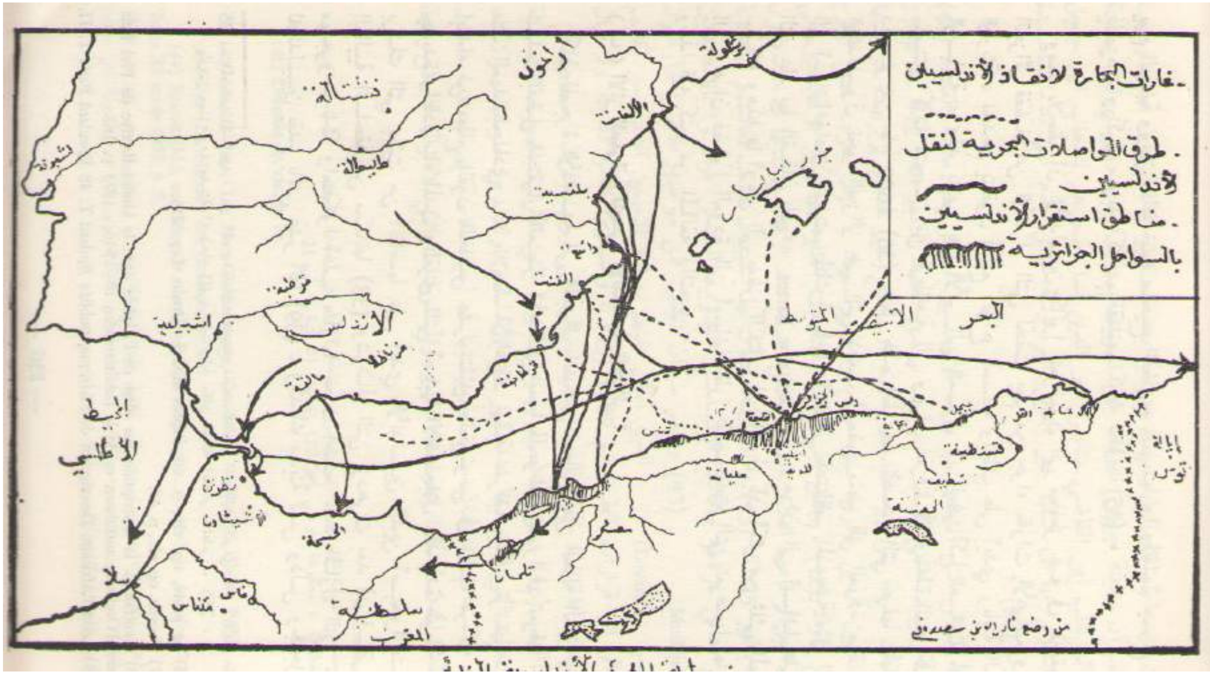
الملحق رقم : 10



المصدر : ناصر الدين سعيدوني ، دراسات في الملكية العقارية ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986 ،ص ،81

حنيفي هلايلي ، التاريخ الأندلسي الموريسكي ، ص : 188 .

الملحق رقم : 11



ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص : 135 .

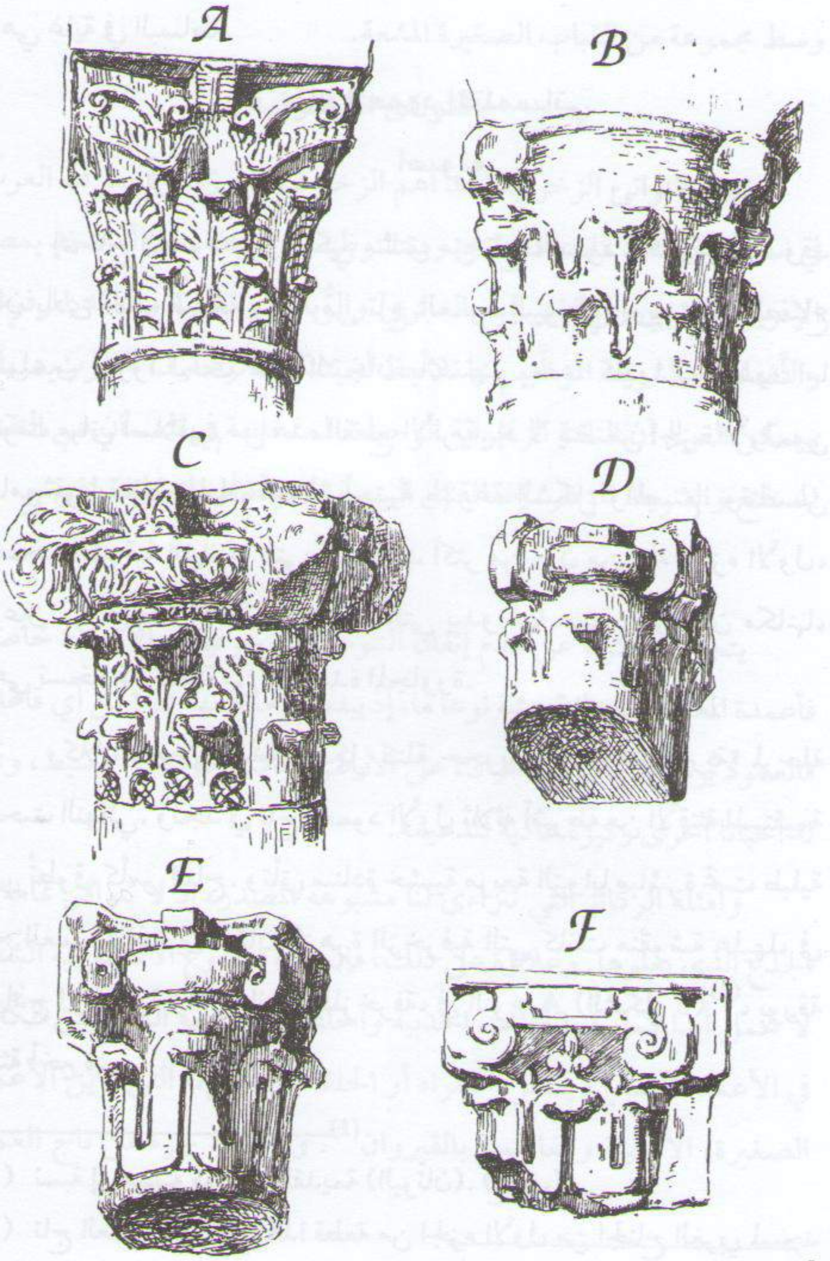
<u>الملحق رقم : 12</u>

وهران والمرسى الكبير والمنطقة الغربية الوهرانية التي شهدت أحداث الإسبان



آغا عودة المزاري ، طلوع سعد السعود ، ص : 207 .

الملحق رقم : 13



(الشكل 6) أصول تيجان الأعمدة التلمسانية

ويليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية لمدينة تلمسان ، ص : 90 .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

1. المصادر :

1 . ابن أبي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، د . ط ، د . ت .

2 . ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، دار المعارف ، ط : 2 ، القاهرة ، 1985 م .

3 . ابن الأبار ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، ط : 3 ، 1989 م .

4 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ، ط : 1 ، بيروت ، 1987 م .

5 . ابن الأحمر : تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تقديم : هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط : 1 ، بور سعيد .

6 . ابن الحاج النميري ، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، دراسة وإعداد : محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1990 م .

7. ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، ط : 2 ، القاهرة ، 1973 م .

8 . ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد ، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق وتقديم : الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، د . ط ، 1984 م .

9 . ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط : 2 ، بيروت ، 1989 م .

10 . ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون ، دار المطبعة الأميرية ، د . ط ، القاهرة : 1957م .

11 . ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، د . ط ، بيروت ، 1993 م .

12 . ابن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر ، تحقيق حسني حبشي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، د . ط ، القاهرة ، 1389هـ .

13 . ابن حزم الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، ط : 5 ، القاهرة ، د . ت .

14 . ابن خلدون : المقدمة ، تهذيب وتعليق ، ضياء الدين رجب شهاب الدين / دار الفتح ، ط : 1 ، الشارقة ، 1995 م .

15 . ابن خلدون ، العبر ، ضبط : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، د . ط ، بيروت ، 2001 م .

16 . ابن دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، مطبعة الدولة التونسية ، ط : 1 ، 1286 هـ .

17 . ابن عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي ، المستفاد في مناقب العباد وما يليها من البلاد ، تحقيق : د . محمد الشريف ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة عبد المالك السعدي ، ط : 1 ، تيطوان ، 2002 م .

18 . ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق : محمد ناضر ، إبراهيم بحاز .

19 . ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة : ج . س . كولان ، إ . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ،ط : 3 ، بيروت ، 1983 م .

20 . ابن قنفد القسنطيني ، الوفيات (من سنة 11 إلى 807 هـ) ، تحقيق وتعليق : عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط : 4 ، 1983 م .

21 . ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقير ، نشر وتصحيح : محمد الفاسي ، أدولف فور ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب ، د . ط ، د . ت .

22 . أبو إسحاق بن القاسم الرقيق ، تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق : عبد الله الصلب الزيدان ، عز الدين عمر موسى ، دار المغرب الاسلامي ، ط : 1 ، بيروت .

23 . أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تعليق : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط : 1 ، بيروت ، ط : 1 ، 1993 م .

24 . أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور ، د . ط ، الرباط ، 1971 م .

25 . أبو زكريا يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق وتقديم وتعليق : عبد الحميد حاجيات ، د . ط ، د . ت .

26 . أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في كتابة الإنشا ، دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية ، د . ط ، القاهرة ، 1915 م .

27 . أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري ، محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955م .

28 . أبو القاسم ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 م .

29 . أبو القاسم الجنيد ، رسائل الجنيد ، تحقيق : علي حسن عبد القاسم ، دار الكتب المصرية ، د . ط ، القاهرة ، 1988 م ، المقدمة (أ) .

30 . أبو القاسم عبد الكريم القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق : عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف ، دار المعارف ، د . ط ، القاهرة ، د . ت .

31 . أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، تقديم : محمد رؤوف القاسمي الحسني ، موفم للنشر . ط : 1991م .

32 . أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، طبقات الصوفية ، ويليه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط : 2 ، بيروت ، 2003 م .

33 . أبو العباس أحمد الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، إشراف : محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ، 1401 هـ / 1981 م .

34 . أبو عبد الله محمد الصنهاجي ، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق وتعليق : جلول أحمد البدوي ، م. و . ك ، د . ط ، الجزائر : 1984 م .

35 . أبو محمد الرشاطي ، ابن الخراط الإشبيلي ، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار ، تقديم وتحقيق : إيميليو مولينا ، خاثينتو بوسك بيلا ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي ، د . ط ، مدريد ، 1990 م .

36 . أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، إشراف وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط : 1 ، طرابلس ، 1989 م .

37 . أحمد بن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق وتقديم : المهدي البوعبدلي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، مطبعة البعث ، د . ط ، الجزائر ، 1973 م .

38 . آغا بن عودة المزاري ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تحقيق ودراسة للدكتور يحي بوعزيز ، دار البصائر ، طبعة خاصة ، 2009 م .

39 . الحاج محمد بن رمضان شاوس ، باقة السوسان في في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، د . ت .

40 . الجانب الأدبي من محفوظ الحافظ التنسي التلمساني من كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وملوك الدولة الزيانية ، تقديم وتحقيق وتعليق : بو طالب محي الدين ، منشورات حلب ، د . ت .

41 . الدرجيني ، طبقات المشايخ ، تحقيق : إبراهيم طلاي ، د . ط ، د . ت .

42 . الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم) ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق وتعليق : محمد ماضود ، المكتبة العتيقة ، ط : 2 ، تونس ، 1966 م .

43 . السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، دار مكتبة الحياة ، د . ط ، بيروت ، د . ت .

44 . شمس الدين أبو عبد الله المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار صادر ، ط : 2 ، بيروت ، 1906 م .

45 . عبيد الله البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، دار الكتاب الإسلامي ، د . ط ، القاهرة ، د . ت .

46 . الشريف الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، د . ط ، بور سعيد ، د . ت .

47 . الغبريني ، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط : 2 ، الجزائر ، 1981 م .

48 . الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط : 1 ، بيروت ، 1989 م .

49 . المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، مطبعة لجنة .

50 . المقري ، نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، د . ط ، بيروت 1968م .

51 . صديق بن حسن النجاري القنوجي ، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر و الأول ، مكتبة دار السلام ، ط : 1 ، الرياض : 1995م .

52 . لسان الدين بن الخطيب ، تاريخ إسبانيا أو كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق وتعليق : ليفي بروفنسال ، بيروت ، 1956 م .

53 . مجهول ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني ، ط : 2 ، القاهرة ، بيروت ، 1989 م .

54 . مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق وترجمة ، لويس مولينا ، د . ط ، مدريد ، 1983 م.

55 . مجهول ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب ، ضبط وتعليق : الفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط : 1 ، بور سعيد ، 2002 م .

56 . مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية ، د . ط ، العراق ، د . ت .

57 . محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، د . ط ، بيروت ، د . ت .

58 . محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق : محمد حجي ، ط : 2 ، الرباط ، 1977 م .

59 . محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، د . ط ، القاهرة ، 1349 هـ .

60 . محمد عبد الواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، شرح : صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، ط : 1 ، بيروت ، 2006 م .

61 . محمد ابن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، منشورات السهل ، د . ط ، د . ت .

62 . محمد بن عبد الله الحميري ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تعليق : لافي بروفسال ، دار الجيل ، ط : 2 ، بيروت 1988 م .

63 . مذكرات خير الدين بربروس ، ترجمة : محمد دراج ، شركة الأصالة للنشر ، ط : 1 ، الجزائر ، 2010 م .

64 . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار الفكر ، د.ط ، بيروت ، د . ت.

65 . يوسف الزياني ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق : المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د . ط ، الجزائر ، 1979 م.

2 . المراجع :

66 . أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج : 2 من 1500 إلى 1830 م ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، 1998 م .

67 . أحمد الطويلي ، في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف ، د . ط ، تونس ، د . ت .

68 . أحمد بوشرب ، مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر ، منشورات كلية الآداب ، ط : 1 ، الرباط ، 199 .

69 . أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 . 1792م ، دار البصائر ، ط : 3 ، الجزائر : 2009م .

70 . أحمد حسن بحبح ، لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته وأثره ، دار المكتبة العلمية ، ط : 1 ، بيروت 1994.

71 ـ أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت د.ط . د.ت ، ص 17 .

72 . أسعد حومد ، محنة العرب في الأندلس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط : 1 ، بيروت ، 1980 م .

73 . إسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، مكتبة العبيكان ، ط: 2 ، 1998م ، ص : 237 .

74 . إسماعيل العربي ، دولة بني زيري ملوك غرناطة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 1982 م .

75 . إسماعيل بن نعمان ، مدينة دلس دراسة تاريخية وأثرية خلال العهد الإسلامي ، دار الأمل ، د . ط ، تيزي وزو ، 2011 م .

76 . الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، ط : 2 ، الدار البيضاء ، 1986 م .

77 . الشريف كمال دحومان الهاشمي ، أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري ، تقديم : المختار محمود محمد حسن العملة العمرو ، دار الخلدونية ، د . ط ، الجزائر ، 2013 م .

78 . الطاهر بونابي ، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين / 12 و 13 الميلاديين نشأته وتياراته ودوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي ، دار الهدى ، عين مليلة ، د . ط ، د . ت.

79 . بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، دار مارون عبود ، د . ط ، 1987 م.

80 . بوزياني الدراجي ، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر : 1993

81 . بومولة نبيل ، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني إمارة المقرانيين في القرن 10 هـ / 16 م ، دار هومة ، د . ط ، الجزائر ، 2013 م .

82 . جمال قنان ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ، 1500 – 1830 ، المؤسسة الجزائرية للطباعة ، د . ط ، 1987م .

83 . جمال يحي ، تاريخ المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ، د . ط ، بيروت ، 1981 م .

84 . جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492 . 1610 م ، دار هومه ، د . ط ، الجزائر ، 2004 م .

85 . جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط ، الجزائر ، 1984 م .

86 . جوزيف كلاس ، أناشيد من الفردوس المفقود ، تقديم أحمد برقاوي ، دار فلاس، ط.1، دمشق ، 2004م.

87 . حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس (عصر المرابطين والموحدين) ، مكتبة الخنانجي ، ط : 1 ، مصر ، 1980 م .

88 . حليم ميشال حداد ، عاطف عيد ، قصة وتاريخ الحضارات العربية موسوعة تاريخية جغرافية حضارية وأدبية ، د . ط ، د . ت .

89 . حمادي الساحلي ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م .

90 . حمدي عبد المنعم ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دار المعرفة الجامعية ، د . ط ، 1997 م .

91 . حنيفي هلالي ، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي والموريسكي ، دار الهدى ، د . ط ، الجزائر ، 2010م .

92 . ديب صفية ، التعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين بين القرن 6 و 7 هـ / 12 و 13 م ، د . ط ، الجزائر ، د . ت .

93 . رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه وثقافته ، دار الهدى ، ط : 3 ، الجزائر ، 2000م .

94 . رشيد بوروبية ، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 1977 م .

95 . سلمى الخضراء الجيوشي ، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مركز دراسات الوحدة العربية ، ط:2 ، بيروت 1998م .

96 . شاكر مصطفى ، الأندلس في التاريخ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1990

97 . شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، ط :5 ، بيروت 1980 م .

98 . شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، المطبعة الرحمانية ، ط : 1 ، مصر ، 1936 م .

99 . صابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 3 ، 1991 م .

100 . صالح بن قربة ، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط ، الجزائر ، 1986 م .

101 . صالح بن قربة ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر ، الأعضاء : سامية بوعمران ، خالف محمد نجيب ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 م ، الجزائر ، 2007 م .

102 . صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر ، دار العلوم ، د . ط ، عنابة 2002 م .

103 . طارق سويدان ، الأندلس التاريخ المصور ، شركة الإبداع الفكري ، ط : 3 ، الكويت ، 2009 م .

104 . عادل سعيد بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، د . ط ، القاهرة ، 2001 م .

105 . عبد الحكيم ذنون طه ، آفاق غرناطة بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي ، دار المعرفة ، ط : 1 ، دمشق ، 1988 م .

106 . عبد الحليم محمود ، أبو مدين الغوث ، دار المعارف ، د . ط ، القاهرة ، د . ت .

107 . عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، دار الأمة ، ط : 8 ، الجزائر : 2007 م .

108 . عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي ، عين للدراسات ، ط : 1 ، 2001

109 . عبد العزيز بن عبد الله ، معلمة التصوف الإسلامي ، ج : 2 التصوف المغربي من خلال رجالاته ، دار نشر المعرفة ، ج : 3 ، آثار التصوف المغربي في الفكر الصوفي المشرقي .ط : 1 ، الرباط : 2001 م .

110 . عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، ج : 2 ، د. ط ، 1993م .

111 . عبد العزيز فيلالي ، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، دار الفجر ، ط : 2 ، القاهرة ، 1999 م .

112 . عبد العزيز فيلالي ، المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، دار هومة ، د . ط ، الجزائر . 2008 م .

113 . عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، موفم للنشر ، د . ط ، الجزائر ، 2007 م.

114 . عبد القادر فكاير ، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910 . 1206 هـ / 1505 . 1792 م) دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومه ، د . ط ، الجزائر ، د . ت .

115 . عبد الكريم عزوق ، القباب والمآذن في العمارة الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1996 م .

116 . عبد الله بن عبد القادر التليدي ، المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، دار الأمان ، الرباط ، المغرب ، ط : 4 ، 2003 م .

117 . عبد الله كروم ، الرحلات بإقليم توات ، دار حلب للنشر ، د . ط ، الجزائر : 2007 م.

118 . عبد المجيد النجار ، المهدي بن تومرت ، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1983 م .

119 . عبد الملك خلف التميمي ، الخليج العربي والمغرب العربي دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، دار الشباب ، ط : 1 ، الكويت ، 1986 م .

120 . عبد المنعم القاسمي الحسني ، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى ، دار الخليل القاسمي ، جامعة ورقلة ، 2005 م .

121 . عبد الواحد ذنون طه وآخرون ، تاريخ المغرب العربي ، دار المدار الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 2004 م .

122 . عدنان العطار ، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط ، دار الأصالة ، ط : 1 ، الجزائر ، 2010 م.

123 . عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي عامر ، دار النهضة العربية ، ط : 1 ، بيروت ، 1989 م.

124 . عزيز نظمي سالم ، جدلية التاريخ والحضارة ، مؤسسة شباب الجامعة ، د . ط ، الإسكندرية ، 1996 م .

125 . عشراني سليمان ، الشخصية الجزائرية، بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدولة الحمادية، دار الغرب للنشر و التوزيع ، د ، ط ، د . ت .

126 . عصام الدين عبد الرؤوف الفقي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، دار الفكر العربي ، د . ط ، القاهرة ، 1999 م .

127 . عصمت عبد اللطيف دندش ، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ، تاريخ سياسي وحضاري ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م .

128 . علي أحمد ، الأندلسيون في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، د ، ط ، دمشق ، 2008 م .

129 . علي حامد الماحي ، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني ، د . ط ، 1986 م .

130 . علي خنوف ، تاريخ منطقة جيجل قديما وحديثا ، دار الأنيس ، ط : 2 ، الجزائر : 2011م .

131 . علي محمد الصلابي ، دولة الموحدين ، مكتبة حسين العصرية ، د . ط ، بيروت ، د . ت .

132 . علي مظهر ، غابر الأندلس وحاضرها ، المطبعة الرحمانية ، ط : 1 ، مصر ، 1923 م .

133 . علي مظهر ، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس الإسلامي المفقود ، المكتبة العلمية ، د . ط ، مصر ، 1947 م .

134 . عيسى الحسن ، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، الأهلية ، ط : 2 ، بيروت ، 2011 م .

135 . عيسى شنوف ، يهود الجزائر 200 سنة من الوجود ، دار المعرفة ، د . ط ، الجزائر ، د . ت .

136 . فاطمة بوعمامة ، اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن هجري ، كنوز الحكمة ، الجزائر ، 2011 م .

137 . فتحي زغروت ، سقوط الأندلس ، دار الأندلس الجديدة ، ط:1 ، مصر 2011م .

138 . فتحي زغروت ، العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي ، الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع ، ط : 1 ، 2010 م .

144 . فيصل بدير عون ، التصوف الإسلامي الطريق والرجال ، مكتبة سعيد رأفت ، د . ط ، جامعة عين شمس ، 1983 م .

145 . كمال السيد أبو ماضي ، محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس ، مركز الإسكندرية للكتاب ، د . ط ، الإسكندرية ، 2003 م .

146 . كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، د . ط ، الإسكندرية ، 1996 م .

147 . لخضر سيفر، التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي ج2 الأمل، د.ط ، 2006 م.

148 . مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، تقديم :محمد الميلي ، م . و. للكتاب ، ط : 3 ، 1989 م .

149 . مبروك مهيريس ، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د . ط ، 2009م

150 . محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د . ط ، الجزائر ، 1983 م .

151 . محمد الطمار ، المغرب الأوسط في ظل صنهاجة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د . ط ، الجزائر ، 2010 م .

152 . المهدي بن شهرة ، تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران ، دار الريحانة للكتاب ، ط : 1 ، الجزائر ، 2007م .

153 . محمد الأمين محمد حمد علي الرحماني ، المفيد في تاريخ المغرب، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، د . ط ، د . ت طبعة خاصة ، الجزائر : 2009م .

154 . محمد الشريف سيدي موسى ، مدينة بجاية الناصرية دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية ، تقديم : محمد الأمين بلغيث ، دار كرم الله ، د . ط ، الجزائر ، 2010 م .

155 . محمد العروسي المطوي ،الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 2 ، 1982 م .

156 . محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، الشركة التونسية للتوزيع د . ط ، تونس ، د . ت .

157 . محمد بشير العامري ، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي ، دار غيداء ، ط : 1 ، 2012 م .

158 . محمد بن أبي شنب ، نظرة إجمالية في تاريخ مدينة الجزائر ، دراسات وأبحاث في تاريخ المدن الثلاث : الجزائر ، لمدية ، مليانة بمناسبة عيدها الألفي ، إعداد ودراسة وتمهيد وتعليق : عبد الرحمن الجيلالي ، الجزائر ، د . ط .

159 . محمد حسن العيدروس ، العصر الأندلسي خروج العرب من الأندلس التطهير العرقي وجرائم الإبادة الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا ، دار الكتاب الحديث ، ط : 1 ، القاهرة ، 2011 م .

160 . محمد حسن قجة ، محطات أندلسية دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط : 1 ، جدة ، 1985 م .

161 . محمد دراج ، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512 . 1543) . تصدير : أ . د . ناصر الدين سعيدوني ، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، ط : 1 ، الجزائر : 2012م .

162 . محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 . 17 ، إفريقيا الشرق ، د . ط ، الدار البيضاء ، د . ت .

163 . محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، إفريقيا الشرق ، ط : 1 ، الدار البيضاء ، 1991 م .

164 . محمد رضا بشير القهوجي ، حاضر العالم الإسلامي ، دار الكلم الطيب ، ط:1 بيروت 2000 م .

165 . محمد زكريا عناني ، الموشحات الأندلسية ، عالم المعرفة ، د . ط ، 1990 م .

166 . محمد زكريا عناني ، في الأدب الأندلسي ، ص . 17 ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د.ط ..1995

167 . محمد سعيد الدغلي ، الحياة الاجتماعية في الأندلس وآثارها في الأدب العربي الأندلسي ، دار أسامة ، ط : 1 ، 1984 م .

168 . محمد سهيل طقوش ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، دار التفائس ، ط : 1، بيروت ، 2005م .

169 . محمد عبد الحليم عويس ، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط:1 ، 1994م .

170 . محمد عبد الله عنان ، أندلسيات ، تقديم محمد الرميحي ، كتب العربي ، 1988 م .

171 . محمد علي قطب ، مذابح وجرائم محاكم التفتيش في إسبانيا ، د . ط ، د . ت .

172 . محمد عيسى الحريري ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس ، دار القلم ، ط : 3 ، الكويت ، 1987 م .

173 . محمد فتحة ، النوازل الفقهية والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ / 12 . 15 م ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الدار البي اليهود في الأندلس ضاء ، جامعة الحسن الثاني ، 1999م .

174 . محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية 64 . 897 هـ / 683 . 1492 م دراسة ونصوص ، منشورات مؤسسة الرسالة ، ط : 1 ، بيروت 1980 م .

175 . محمد محمد زيتون ، المسلمون في المغرب والأندلس ، د . ط ، 1990 م .

176 . محمد موسى الشريف ، استجابات إسلامية لصرخات أندلسية ، الأندلس الجديدة ، د . ط ، د . ت .

177 . مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، دار الحضارة ، ط : 1 ، الجزائر ، 2007 م.

178 . مسعود كواتي ، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين ، دار هومة ، الجزائر ، د . ط ، د . ت .

179 . مصطفى أحمد بن حموش ، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري 956 هـ / 1594 م . 1246 هـ / 1830 م ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، ط : 1 ، دبي ، 2000 م .

180 . مفتاح خلفات ، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين (6 . 9 هـ / 12 . 15 م) دراسة في دورها السياسي والحضاري ، دار الأمل ، د . ط ، تيزي وزو ، د . ت .

181 . مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، د . ط ، الجزائر ، 1979 م .

182 . مولود قاسم نايت بلقاسم ، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ، دار البعث ، ط : 1 ، الجزائر : 1985 .

183 . نادية محمود مصطفى ، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوربية الثانية 642-932هـ / 1258-1517م ، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط :1 .

184 . ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط : 2 ، الجزائر، 1985 م .

185 . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 2003 م .

186 . ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط ، الجزائر ، 1984 .

187 . نجم الدين الهنتاني ، المذهب المالكي بالغرب الإسلامي ، منشورات بتر الزمان ، د . ط ، تونس ، 2004 م .

188 . نعمان بن عبد الرزاق السامرائي ، في التفسير الإسلامي للتاريخ ، الجزائر ، دار الشهاب ، د . ط ، د . ت .

189 . نهلة شهاب أحمد ، عقبة بن نافع ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط : 1 ، 1998 م.

190 . وديع أبو زيدون ، تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة ، مراجعة : هاني الجمل ، دار الأهلية ، ط : 4 ، بيروت ، 2011 م .

191 . يحي بوعزيز ، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوربا 1500 . 1830 ويليه المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد ، دار البصائر ، طبعة خاصة ، الجزائر ، 2009 م .

192 . يحي بوعزيز ، مدينة وهران عبر التاريخ ويليه مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ويليه المساجد العتيقة في الغرب الجزائري ، دار البصائر ، طبعة خاصة ، الجزائر ، 2009 م .

193 . يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر ، دراسة حضارية ، دار الجيل ، بيروت ، ط : 1 ، 1993 م .

3 . المراجع المترجمة :

194 . أندورهين ، افتراق العالم الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ط : 1 ، 1986 م .

195 . باسيليو بابون مالدونادو ، الفن الإسلامي في الأندلس الزخرفة النباتية ، ترجمة : علي إبراهيم منوفي ، مراجعة : محمد حمزة الحداد ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط : 1 ، القاهرة ، 2002 م .

196 . ج . س . كولان ، الأندلس ، ترجمة : إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس ، حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، د . ط ، د . ت .

197 . خينيس بيريث دى إيتا ، الحرب ضد الموريسكيين ، ج : 2 ، الحروب الأهلية في غرناطة ، ترجمة : عائشة محمود سويلم ، مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن ، المركز القومي للترجمة ، ط : 1 ، القاهرة ، 2009 م .

198 . روبار برنشفيك ، تارخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 ، ترجمة : حمادي الساحلي ، ج : 1 ، دار الغرب الإسلامي ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م.

199 . ليوبولدو طريس بالباس ، الحواضر الأندلسية ، ترجمة : محمد يعلى ، مراجعة : بوجمعة العبقري ، دار أبي رقراق ، ط : 1 ، الرباط ، 2007 م.

200 . مرسيداس غارسيا . أرينال ، شتات الأندلسيين ، ترجمة من الإسبانية إلى الفرنسية : آن . ماري لابيلون ، ترجمة من الفرنسية إلى العربية : لنوار محمد الصالح ، الوناس قوباعي ، منشورات زرياب ، د . ط ، الجزائر : 2003م .

201 . هنري تشارلس لي ، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ترجمة : حسن سعيد الكرمي ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ط : 1 ، بيروت ، 1988 م .

202 . جون . ب . وولف ، الجزائر وأوربا 1500 . 1830 ، ترجمة وتعليق : الدكتور أبو القاسم سعد الله ، عالم المعرفة ، دار الرائد ، د . ط ، الجزائر : 2009م .

203 . فصول من تاريخ الأندلس ، ترجمة : عبد الفتاح عوض ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، د . ط ، 2009 م .

204 . لويس سيكودي لوثينا ، الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء ، ترجمة : عدنان محمد آل طعمة ، دار سعد الدين ، ط : 1 ، دمشق ، 1992 م .

205 . ليفي بروفنسال ، الحضارة العربية في إسبانيا ، ترجمة : الطاهر أحمد مكي ، دار العالم العربي ، ط : 1 ، القاهرة ، 2010 م .

206 . وليم وجورج مارسي ، المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان ، ترجمة : مراد بلعيد ، علي محمد بورويبة ، فلة عبد مزيام ، دار الأصالة ، ط : 1 ، الجزائر : 2011 م .

207 . يوس مونتغمري وات ، في تاريخ اسبانيا الإسلامية ويليه فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا ، ترجمة : محمد رضا المصري ، شركة المطبوعات للتوزيع ، ط : 2 ، بيروت . 1998 .

4 . الرسائل الجامعية :

208 . بوزينة سعيد ، المنشآت الدينية المؤرخة بالكتابات التأسيسية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني ، دراسة تاريخية معمارية ، مذكرة ماجستير في الآثار العثمانية ، إشراف : د . بن بلة خيرة ، جامعة الجزائر ، معهد الآثار ، 2009 . 2010 م .

209 . رفيق خليفي ، البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3 هـ إلى نهاية القرن 9 هـ ، إشراف : د . نجيب بن خيرة ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، السنة الجامعية : 2007 . 2008 م .

210 . سعاد بن شامة ، المنشآت المعمارية الأثرية بمدينة البليدة في العهد العثماني ، رسالة ماجستير ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، 2009 م .

211 . شرقي نوارة ، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، إشراف : عبد العزيز محمود لعرج ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، 2007 . 2008 م .

212 . منال عبد المنعم السيد جاد الله ، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها ، دراسة أنثربولوجية في مصر والمغرب ، رسالة دكتوراه ، إشراف : أ . د . فاروق أحمد مصطفى ، جامعة الإسكندرية ، 1990 م .

213 . نضال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي ، الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني ، دراسة سياسية حضارية ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة الموصل 2004 م .

5 . المقالات والمجلات :

214 . عبد العزيز فيلالي ، جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي ، مجلة سيرتا ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، السنة السادسة ، العدد : 10 ، أفريل ، 1988 م .

215 . محمد بن عميرة ، تحديد الإطار الجغرافي لبلاد المغرب في العصر الوسيط ، مجلة دراسات تراثية ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، العدد : 1 ، 2007 م .

216 . لطيفة بشاري ، مكانة تلمسان التجارية في العهد الزياني ،مجلة دراسات تراثية ، معهد الآثار، جامعة الجزائر ، العدد 1 ، السنة 2007 م .

217 . ناصر الدين سعيدوني ، التجربة الأندلسية بالجزائر مدرسة بجاية أندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط (ق 6 . 7 هـ / 12 . 13 م) ، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات ، القسم الثالث : الحضارة والعمران والفنون ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ط : 1 ، 1996 م .

218 . يحي بوعزيز ، المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236 . 1554 م ، مجلة الأصالة .

219 . عبد العزيز فيلالي ، جوانب من الحياة الثقافية والفكرية لمدينة قسنطينة في العهد الحفصي ، مجلة سيرتا ، معهد العلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، السنة السادسة ، العدد : 10 ، أفريل ، 1988 م.

<u>6 . المعاجم والموسوعات :</u>

220 . كلوس كريزيل ، فارنرديم ، هانس جورج مابر ، معجم العالم الإسلامي ، ترجمة ج . كتورة ، م . ج . د . ن . ت ، ط : 2 ، بيروت ، 1998م .

221 . معجم مشاهير المغاربة ، إشراف : د . أبو عمران الشيخ ، د . ناصر الدين سعيدوني ، الملكية للطباعة والنشر والتوزيع ، جامعة الجزائر .

7 . المراجع الأجنبية :

222_A . Rang et Ferdinand Denis , Histoire d'Aroudj et de Khair Ed-Din (fondateurs de la récence d'Alger , Paris , 1857 .

223- Braudel (F) , Les Espagnol et l'Afrique du Nord , in R . A . Alger , 1928 , p : 216 .

224_ Charles Feraud , Conquète de Bougie par les espagnols d'après un manuscrit arabe , R . A .

225 _Ernest Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) de puis les temps les plus reculés jusau'à la conauète Française , Paris , 1868 .

226- Fray Diego de Haedo , Histoire des rois d'Alger , traduit et annotée par de Grammont , Alger , 1881.

227_ F . Elie de la primaudie , Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquète Française , Juin , 1860 .

228_ H . D . Grammon , Histoire d'Alger , sous la dominaion turque (1515 _ 1830) . Paris . 1887 .

229- Marçais George , la berberie Musulmane et l'Orient au moyen – age , ed , Montaigne , Paris , 1946 .

230_Moulay Blehamissi , Histoire de la marine algeriènne (1516 _ 1830) , Alger , ENAL , 2 ème ed , 1986 .

الفهرس

الفهرس

الملخص

إن سقوط الأندلس قد مست آثاره العديد من الدول ومن بينها الجزائر ، التي عرفت العديد من التغيرات التاريخية إثر سقوط غرناطة آخر المدن الأندلسية سنة 897 هـ / 1492 م ، فما هي أبرز الآثار السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط ؟

ولدراسة هذا الموضوع قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول بالإضافة إلى فصل تمهيدي ، ومقدمة وخاتمة .

أما المقدمة فبها بدأت موضوعي ، وشملت التعريف بهذا الموضوع ، وإشكاليته وتبيان أهميته والهدف من دراسته .

وذكرت في الفصل التمهيدي لمحة تاريخية عن بلادي المغرب الأوسط والأندلس ، فعرفت أولا بالأندلس ، ثم انتقلت إلى التعريف ببلاد المغرب الأوسط جغرافيا وتاريخيا ، لأنتقل بعد ذلك لتبيان ماضي العلاقة بين العدوتين .

أما الفصل الأول فخصصته للحديث عن سقوط الأندلس بكل ما يتضمنه من أسباب ومظاهر ، وبينت في هذا الفصل أيضا مواقف الدول الإسلامية من ذلك السقوط وتعرضت لدور الجزائر في مساعدة الأندلس ماديا وسياسيا وعسكريا ، من خلال الدور البارز للبحارة في إنقاذ اللاجئين وحملهم في سفن جزائرية إلى الجزائر ، أو من خلال مساعدتهم ماديا بالأسلحة ، كما ذكرت فيه واقع المسلمين بعد سقوط غرناطة وما تعرضوا له من تنصير وتعذيب ، وبينت بعض الثورات الأندلسية الرافضة لهذه الممارسات .

وقد عنونت الفصل الثاني بآثار سقوط الأندلس على الحياة السياسية والعسكرية لبلاد المغرب الأوسط ، ووضحت فيه عمق الأثر السياسي لسقوط الأندلس من خلال تحرك

الهجمة الصليبية المضادة من الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط ، باحتلال اسبانيا أهم المدن الساحلية ، واستحواذها على موانئها البحرية التي تعد شريان الحياة الاقتصادي في المنطقة ، كما ذكرت فيه أثر المهاجرين الأندلسيين على الحياة السياسية في الجزائر ، من خلال مشاركتهم السياسية وتقلدهم للعديد من الوظائف الحكومية ، ومشاركتهم العسكرية في الدفاع عن الجزائر.

وقد تضمن الفصل الثالث من هذا البحث الأثر الاجتماعي والاقتصادي لسقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط ، وتضمن محورين أساسيين ، تضمن المحور الأول منها الجانب الاجتماعي ، وقمت فيه بإبراز أشهر الطوائف الاجتماعية الوافدة على المنطقة ، ومنهم العرب المسلمون واليهود ، وبينت فيه مراكز استقرارهم ، وأهم العادات الاجتماعية التي دخلت إلى المنطقة بقدومهم ، أما المحور الثاني فقد خصصته للجانب الاقتصادي ، وأوضحت فيه تأثير سقوط الأندلس على ضعف الحياة الاقتصادية ، فبعد أن كانت بلاد المغرب الأوسط سيدة البحر المتوسط ، أصبحت عاجزة اقتصاديا ، بفعل كثرة الضرائب المفروضة عليها ، وطول الحصار على موانئها ، وأثر اليهود على الحياة الاقتصادية باستغلالهم للتجارة الصحراوية ، التي تعتبر طريقا هاما في المغرب الأوسط ، كما تضمن هذا الفصل أثر الأندلسيين في ممارسة بعض النشاطات الاقتصادية .

أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان أثر سقوط الأندلس على الحياة الثقافية والعمرانية ، وقمت بتقسيمه إلى مبحثين ، خصصت المبحث الأول منه لدراسة التأثيرات الثقافية وخاصة ما تعلق منها بالتعليم وانتشار التصوف ، وكثرة الرحلات العلمية بهجرة العديد من العلماء الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ، أما المبحث الثاني فخصصته للحديث عن أثر الأندلسيين في الحياة الفنية والعمرانية .

وكانت الخاتمة حوصلة ما توصل إليه البحث من نتائج .